سلسلة مؤلفات

سليم الجابي

باب التفسير (٣)

في ظلال دلالات

سورة هود

بمنظور جديد معاصر

صدر للمؤلف:

- الرد على القراءة المعاصرة (٣ أجزاء)
- نظرية جذور الأُخلاق
- القضاء والقدر حقيقة كونية ثابتة
- النظرية القرآنية الكونية حول خلق العالم
- الرأي في المرأة والحرية والتراث
- فن الإختزال القرآني (المقطعات القرآنية)
- في ظلال دلالات سورة الكهف
- في ظلال دلالات سورة الإسراء
- هل مات المسيح على الصليب
- الصوم في الإسلام
- الله جلّ جلاله (وصاله وعرفانه وطرق التقرب منه سبحانه)
- نشوء الإنسان وتطوره
- في ظلال دلالات سورة هود

يصدر قريباً بإذن الله:

- أصول تفسير القرآن الكريم (في مجلدين)

إن عدد آياتِ سورةِ (هود) مائة وثلاثٌ وعشرونَ آية عدا البسملة. والمعلومُ هو أنّ اللهَ جلَّ شأنهُ قد أنزلها في السّنواتِ الأخيرةِ من الدّورِ المكّيِّ، وإنْ وُجِدتْ روايةٌ تستثني نزولَ واحدةٍ من آياتها في مكّة. وروايةٌ أُخرى تستثني نزولَ ثلاثِ آياتٍ من آياتها في مكة أيضاً وعلى حسبِ ما وردَ في كتاب (بحرِ المحيط).

وقد نقلَ لنا المفسّرونَ القدماءُ روايةً يقولُ محمَّدٌ رسولُ اللهِ (ص) فيها (شَيَّبَتني سورةُ هود وأخواتُها)، وهو قولٌ يُشعرُنا بعظمةِ صياغةِ هذه السّورةِ سبكاً وبلاغةً ومضموناً، ولِكثرةِ ما اشتملَتْ عليهِ من أنباءٍ غَيبيَّة. وإلاّ فلا معنىً لهذهِ الرِّوايةِ غير ما ذكرناه.

هذا وإنّ القارئَ لَيتساءل عن المُناسبةِ الّتي دعَتني إلى القيامِ بتدبُّرِ آياتِ هذه السّورةِ وإلى مُحاولةِ استجلاءِ معالمِ عظمتِها. فأقولُ إجابةً على السُّؤالِ المذكور: كُنتُ بصدَدِ إكمالِ مؤلَّفٍ جديدٍ عنوانه (أُصولُ تفسيرِ آياتِ القرآنِ العظيم) وهداني ربّي فيهِ إلى استنباطِ الأصلِ الثّامنِ من تلكَ الأُصولِ من الآيةِ الأولى من سورةِ هود. فما أن فرغتُ من ذلكَ إلاّ ورأيتني أعرضُ تفسيرَ سورةِ هود نفسَها تدليلاً على مصداقيَّةِ هذا الأصلِ التّفسيريِ المذكور المستَنبطِ من أوَّلِ آيةٍ من آياتها والّذي يَنُصُّ على ضرورةِ التّقيُّدِ بتسلسُلِ الآياتِ الموضوعيّ. واستعنتُ باللهِ تعالى على ذلكَ فانفتحتْ عليَّ مغاليقُ مضامينِ هذه السّورةِ المُعجزةِ صياغةً ومضموناً، والّتي ثبتَ من خلالِ مضامينها مصداقيَّةُ ما نقلُوهُ لنا من إطراءٍ عن رسولِ اللهِ (ص) نقلتهُ للقارئِ آنفاً.

فقد انكشفَ لي أنّ هذه السّورةُ ركّزتْ على أنّ عقيدةَ وَحدانيّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ لم يكن محمَّدٌ رسولُ اللهِ (ص) أوَّلَ من جاءَ بعقيدةِ توحيدِ ذاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ

وصفاته في تاريخِ البشرِ كلّه بل نادى بها آدمُ ونوحٌ ومن جاءَ بعدهما من أنبياءِ الله ورسلهِ الكرام جميعُهُم من قبله (ص) أيضاً. وأنّهم جميعهم كانوا قد أعلنوا بأنَّ خالقَ هذا الكونِ واحدٌ لا شريكَ لهُ في مُلكه وأنَّ حياةَ الإنسانِ قد قامت على فلسفةِ ابتلاءِ الإنسانِ فيما يعملهُ لذلكَ منحَ اللهُ الخالقُ هذا الإنسانَ العقلَ وحريّةَ الإرادةِ والاختيار. وليُحاسبَ هذا الإنسانَ على أعماله وعلى استعماله ما آتاهُ ربُّهُ من هذه القوى استعمالاً يُوافقُ أو يخالفُ التّعاليم الّتي أنزلها على أنبيائه ورسله الكرام لصالحه.

هذا ولقد وضّحَ الخالقُ جلَّ شأنهُ أسبابَ ودواعي انتشارَ الكفرِ بوجودِ الله وانتشارِ الإلحادِ في عالمنا الدُّنيويّ، وعلّلَ ذلكَ بأسلوبٍ منطقيٍّ وعقلانيّ. وهذا ما وضّحَ الله جلَّ شأنهُ المقصدَ الأسمى الّذي خلقَ هذا الإنسانَ من أجلِ تحقيقه. وقد صاغَ اللهُ تعالى جميعَ الأشياء الّتي أتيتُ على ذكرها صياغةً بلاغيّةً مُعجزةً وبتسلسُل موضوعيٍّ مُدهشٍ وقد حمَّلَ اللهُ تعالى آياتِ هذه السورةِ أنباءً غيبيّةً مُدهشةً أيضاً، وقد صاغَ تعالى ذلكَ كُلّهُ بأوزانٍ موسيقيّةٍ تُشنّفُ آذانَ السّامعين. وليسَ هذا وحسبُ بل وأتى تعالى بالآياتِ وقد صاغها صياغةً بلاغيّةً مُعجزةً وليتبادرَ منها لذهنِ السّامعِ معانٍ تُغايرُ المعاني المقصودةَ أصلاً. والّتي لا يستطيعُ المرءُ إدراكها إلاّ إذا التزمَ بالقيامِ بتدبُّرِ تلكَ الآياتِ وفقَ أصولِ تفسيرِها ومنهجيّتها وبما يتّفقُ مع مشيئة الله تعالى الّذي أنزلها.

وقد جعلَ اللهُ تعالى جميعَ تلكَ الحقائقَ الّتي بيّنها بمَثابةِ تمهيدٍ لموضوعِ السُّورةِ الأصليّ. و لم يغفل سبحانهُ وتعالى عن إعطاءِ القارئ صورةً واضحةً تتعلّقُ بآليّةِ عملِ فلسفةِ الابتلاءِ الدُّنيويّةِ الّتي سبقَ لهُ أن أشارَ إليها، بل ووضّحها بأمثلةٍ من واقعِ حياةِ الفريقِ الكافرِ المُلحد، ومن حياةِ الفريقِ المؤمن من النّاس. وتطرّقَ اللهُ تعالى كذلكَ إلى الإجابةِ على اعتراضاتِ المُعترضينَ الّذينَ اعترضوا على ما أتى به رسولهُ الكريم من وحيٍ قُرآنيٍّ. وأنهى ذلكَ بتحدٍّ تحدّى به هؤلاء المُعترضين،

فتحدّاهُم أن يأتوا بعشرِ سورٍ من مُستوى سورةِ هودٍ ومّما اشتملَتْ عليـ ـهِ مـ ـن مضامين. هذا إنْ همْ أنكروا حقائقَها وما تضمّنتهُ من مضامين وأنباء، وأنهى جـ ـلَّ شأنهُ تحدّيهُ المذكور وقال: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ و لم يقصُد جلَّ شأنهُ من قولهِ هذا دعوةَ المعترضينَ على رسولهِ إلى قبولِ الدّينِ الإسلاميِّ، بل إنّهُ تعالى قـ ـالَ هـ ـذه المقولة بمعنى هل تُسلّمونَ بالحقائقِ الآنفةِ الذّكر؟

ألا إنَّ من المُتعارفِ عليه أنَّ الكاتبَ في زماننا المعاصر يُقـ ـسّمُ كتابـ ـهُ إلى أبوابٍ وإلى فُصولٍ. وهو نفسُ النّهجِ الّذي انتهجهُ اللهُ عز وجلَّ في صياغتهِ لكتابهِ العزيزِ. لكّنهُ جلَّ شأنهُ عمدَ في ذلكَ إلى التّجديدِ والإبـ ـداعِ في هـ ـذا الأسـ ـلوبِ المذكورِ. وقد تجلّى ذلك في أنّهُ تعالى استغلَّ فنَّ الاختزال الجـ ـاهليّ، واسـ ـتعملَ أحرُفَ المُقطّعات كعناوينٍ للفصولِ الّتي تضمّنتها سُورُ هذا القرآنَ العظيمَ. وقد أتّى تعالى بالأحرفِ المقطّعةِ (الر) عنواناً لهذا البابِ الّذي اشتملتْ عليهِ الفصولُ الّـ ـتي تألّفت منها سورةُ هود. وقد اختزلَ اللهُ جلَّ شأنهُ الأحرف المقطّعـ ـة (الر) مـ ـن كلمات (أنا اللهُ أرى). فقدّمَ في هذهِ السُّورةِ رُؤيتهُ الغيبيّةِ المُتعلّقةِ بماضـ ـي الأمـ ـم وبحاضرها ومُستقبلها، لذلكَ لاحظناهُ تعالى، وبعدَ أن مَنحنا وُضوحَ رُؤيةٍ فيما شاءَ أن يُطلعنا عليه، أنهى سورةَ هودٍ هذه بما يُشعرُنا باعتزازهِ تعالى بهذا الغيبِ الّـ ـذي اختصَّت بهِ ذاتُه المقدّسةُ والّذي لا حُدودَ لهُ ولذلك قال وهو يُنهي هذه الـ ـسورة: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ﴾ . وهو الأمر الّذي نبّهـ ـتْ أذهاننا إليهِ (لام الاختصاص) الّتي أدخلها جلَّ شأنهُ على اسم الجلالة (الله) وقـ ـالَ مُستهلاً هذه الآية الأخيرةِ ﴿وَلِلَّهِ﴾، وبمعنى أنَّ اللهَ تعالى وحدهُ هو المُختصُّ بعلـ ـمِ الغُيوب. وبذلكَ يكونُ اللهُ تعالى قد ربطَ آخرَ هذه السّورةِ بأوّلها والّذي دارَ حولَ رؤيتهِ تعالى لكُلِّ شيءٍ مُتعلّقٍ بماضي وبحاضرِ ومُستقبلِ هذا الإنسان.

والآنَ وبعدَ أن فرغتُ من إعطاءِ القارئ فكرةً شاملةً عمّا تضمَّنتهُ سـورةُ هودٍ من مواضيعٍ، أحاولُ الآنَ إعطاءهُ فكرةً مُوسَّعةً وتفصيليَّة ومتعلِّقةً بكُلِّ آيةٍ من آياتِ هذه السّورة. فاعلم يا أخي أنَّ ربَّنا عزَّ وجلَّ قد خصَّصَ الآيةَ الأولى للتّنبيهِ إلى التزامهِ تعالى فيها بالأُصولِ المُعتمدةِ لتفسيرِ آياتِ كتابه العزيزِ وخاصَّـةً منـها تقيُّدُهُ بالتّسلسُلِ الموضوعيّ لكُلِّ ما اشتمَلَتْ عليه سورةُ هودٍ من حقـائقَ وأنبـاءٍ ومواضيعٍ. ولفتَ تعالى أنظارنا في الآيةِ الثّانيةِ إلى أنّنا مخلوقينَ وأنَّ الغايةَ من خلـقِ اللهِ تعالى إيّانا هو لنتعرَّفَ على اللهِ الّذي خلقنا. وأنّهُ تعالى هو الّذي أرسلَ رسولهُ محمَّداً (ص) ليكونَ من قبلهِ (نذيرٌ وبشيرٌ). ودلّنا تعالى في الآيتين الثالثة والرّابعـةِ على العلاجِ الّذي نعالِجُ بهِ ما يصدرُ عنّا من أخطاءٍ وذنوبٍ غيرِ مُتعمَّدةٍ ومن بابِ أنَّ البشرَ جميعهم إلى اللهِ تعالى سيصيرون.

ومن ثمَّ أتى تعالى بالآياتِ الأربعِ (٥/٦/٧/٨) فألقى من خلالِ ما تـضمَّنتهُ من معلوماتِ الضَّوءَ على أسبابِ انتشارِ الكفرِ والإلحادِ في عالمنا، وكيفَ أنَّ هـذا الكُفرَ باللهِ والإلحادَ بوجودهِ تسبَّبَ بانتشارِ الفسادِ في الأرضِ. فحصرَ اللهُ تعـالى هناكَ تلكَ الأسبابَ في ثلاثةِ أسبابٍ رئيسيَّةٍ.

وأمّا في الآياتِ (٩/١٠/١١) فقد ربطَ اللهُ جلَّ شأنهُ ما بينَ النّيـةِ أعمـالِ الإنسانِ على الصَّعيدين: الإيماني والإلحاديّ، وما بينَ الآثارِ الخفيَّةِ الّتي تُسفرُ عنـها تلكَ الأعمال. أمّا في الآيات (١١/١٣/١٤/١٥/١٦) فقد أجابَ تعالى فيها على اعتراضاتِ المُعترضين. وحسمَ اللهُ جلَّ شأنهُ الموضوعَ بتوجيهِ تحدٍّ إلى هؤلاء الّذينَ يكذّبونَ رسولَهُ محمّداً المصطفى (ص) ويُنكرونَ عليه ما أوحيَ إليه من ربِّه، وقـد دعاهم في التّحدّي المذكورِ إمّا إلى قبولِ هذا التّحدّي أو أن يُسلّموا بكلِّ ما جاءَ به محمَّدٌ المصطفى رسولهُ الأمين (ص) والّذي قامت تعاليمُ دينهِ على نفسِ الأساسِ من وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى والّذي قامت عند أساسٍ منهُ تعاليمُ جميعِ الأنبياءِ السّابقين. وقد جاءتْ صياغةُ ذلكَ كلّه صياغةً بلاغيّاً ما انتهجها كاتبٌ أرضيٌّ معروفٌ وبموسيقيَّةٍ

تلعبُ بأوتارِ القلوب. وهكذا يكونُ تعالى قد أوردَ جميعَ ما ذكرناهُ حتّى الآن بدلالاتٍ تتّصفُ بصفةِ العموميّةِ والشّموليّةِ ومُوجّهةُ إلى جميعِ النّاس الّذينَ عاصروا محمّداً صلواتُ الله وسَلامهُ عليه.

ومن ثمّ أتى تعالى بالآية (١٧) الّتي قالَ تعالى فيها: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وقد تضمّنت هذه الآية الكريمة دليلاً عظيماً لإثباتِ صدقِ رسالته السماويّة ونبوّتهُ وقد اشتملَ هذا الدّليلُ على ثلاث عناصرَ تشهدُ جميعُها على صدقِ نبوّة محمّدٍ رسولُ الله (ص): فالعنصرُ الأوّلُ- شكّلتهُ البيّنةُ الّتي أتى بها رسولُ الله (ص) نفسه وهي هذا القرآنُ المجيد. والعنصرُ الثّاني - يتمثّلُ في موضوعِ بعثة (شاهد) من أمّته يشهدُ على صدقِ نبوّة محمّد (ص) ولتجديد دينه ولإحياء أمّته زمنَ تخلّفها وانحطاطها وتكالُب الأممُ عليها. والعنصرُ الثّالثُ- تمثّلَ في تلكَ النّبوءَة الّتي تنبّأ بها النبيُّ موسى عليه السّلامُ من قبلُ والواردةُ في سفرِ التّثنيةِ ١٨/١٨ والّتي أشارتْ إلى بعثة هذا النّبيَ المشرّع وأوصافه والّتي انطبقت على شخصِ محمّدٍ العربيّ (ص). فالنبوءاتُ الموسويّةُ اشتملَ عليها سفرُ التّثنية من التوراةِ المُعاصرة وهي موجودةٌ وواضحةُ الدّلالات. وإنّ بيّنةَ محمّد (ص)، وهي هذا القرآنُ المجيدُ، فهو ماثلٌ بين أيدينا ووصلنا عن رسولِ الله (ص) سالماً. وها أنّهُ قد بُعثَ هذا الشّاهدُ المجدّدُ المُشارُ إليه. فاجتهادي هو أنّه تعالى يشيرُ بالشّاهدِ إلى ﴿المهديّ﴾ المقدّرُ ظهورهُ آخرَ الزّمانِ يومَ تخلّفُ المسلمين والّذي يُعاصرُ ظهورَ (المسيح الدجّال) بدليلِ ضمير (أولئك) المُشارُ به في الآية سالفةِ الذّكر إلى بعضِ اليهودِ والمسيحيّينَ من أمّةِ موسى عليه السّلام والّذينَ يؤمنونَ بالشاهدِ المذكورِ لإدراكهمْ

تطابقَ أوصافِ النُّبوءات على أوصافه. وباستثناءِ الّذينَ استثناهُمُ اللهُ تعالى في الآيتينِ السّابقتينِ وهم كُلُّ مَن ﴿يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾. وبدليلِ قولِه تعالى في الشّطرِ الأخيرِ ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾. وإنّ الأمرَ المُلفتَ لنظرِ الباحث هنا هو أنّ اللهَ تعالى استعملَ في هذه الآية الكريمة كلمةَ (الأحزاب) من أتباع موسى من يهودٍ ومسيحيّين وممّن لفّ لفّهُم من المكذّبين من أهلِ الكتاب. وقد وردت نفسُ هذه التّسْمية حكايةً عن الّذينَ كذّبوا محمّداً (ص) وممّن كذّبوهُ في حياته (ص) أيضاً.

فلمّا فرغَ اللهُ تعالى من تقديمِ هذا الدّليلَ الّذي ذكرناه استطردَ تعالى بعدَ ذلكَ للكلامِ بعدَ تلك الآيات عن أهلِ الكتابِ ممّن سيكذّبونَ هذا (الشّاهد) المُشارُ إليه وعن المصيرِ الّذي سيؤولُ إليه حالُهم في نهايةِ المَطاف.

ومن ثمّ أتى تعالى بالآية (١٨) الّتي أدانَ فيها هؤلاء الأحزاب الّذين لم يتقيّدوا بمعيارِ صدقِ المُدّعي الصّادق، فلعنَهُم هناك. ومن ثمّ أعطى اللهُ تعالى في الآيات (٢٢/٢١/٢٠/١٩) فكرةً موجزةً عمّا سيتّصفُ به هؤلاءِ الأحزاب من صفاتٍ قذرة وما سيسلكونهُ من سبيل. ثمّ بشّرَ الّذينَ سيؤمنونَ بمحمّدٍ والشّاهدَ الّتي يبعثُهُ ربُّهُ ليشهدَ على صدقِ رسالةِ سيّدِه المصطفى (ص) وذلكَ في الآية (٢٣). وأمّا في الآية (٢٤) فقد قامَ تعالى بعمليّةِ تشبيهٍ مُقارنٍ قارنَ فيه ما بينَ هذينِ الفريقينِ المذكورَين.

فلمّا بلغَ اللهُ هذه النُّقطةَ من بيانه عزّ وجلّ لم يشأ أن يُوضّحَ كيفَ ستلحقُ هذه اللّعنةُ بهؤلاءِ الأحزابِ مُباشرةً، بل راحَ تعالى يُذكّرُ هؤلاءِ المكذّبين بأحوالِ خمسةِ أُممٍ خاليةٍ كانت قد عتَتْ عن أمرِ ربِّها وكذبوا المُرسلين. وليشيرَ من خلالِ ذلكَ إلى أنّ هؤلاءِ الأحزابُ قد جمعوا في سلوكهم وتصرّفاتهم جميعَ ما كانت قد اتّصفتْ به تلكَ الأُممُ من صفاتٍ سيّئةٍ بغيضةٍ وتصرّفات.

فنلاحظُ أنَّ اللهَ تعالى ذكَرهُمْ بقومِ نوحٍ عليهِ السَّلام ضمنَ الآيـات (٢٥-٤٩) وهو القومُ الّذينَ استعلوا على نوحٍ عليه السلام واحتقروا الّذينَ آمنوا معـه ورفضوا محاورتَهُ وتشكّكوا في أحوالِهِ وسخروا من نبأ الطّوفانِ الّـذي أنـذرهم بمجيئه، فانتهى بهمُ الأمرُ إلى أنْ قضى عليهمُ الطّوفان.

كذلكَ فإنَّ اللهَ تعالى ذكَر هؤلاءِ الأحزاب بمصيرِ قومِ عادٍ الّذينَ بعـثَ اللهُ تعالى إليهم نبيَّهُ هوداً عليه السّلام وذلكَ ضمنَ الآيات (٥٠- ٦٠) فكذّبهُ قومـهُ ولم يُحاولوا فهمَ ما بعثهُ ربُّهُ به إليهم، وأصرّوا على التّمسُّكِ بعقائدِ الشّركِ الّـتي توارثوها عن آبائهم، ﴿وَاتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ﴾، فأهلكَهُمُ اللهُ تعالى بعذابٍ غليظٍ، وأُتبعوا في هذه الدُّنيا لعنةً ويومَ القيامةَ أيضاً.

كذلكَ ذكَرَ اللهُ تعالى هؤلاءِ الأحزاب بمصيرِ قومِ ثمُودِ الّذينَ كانَ قد بعـثَ اللهُ تعالى نبيَّهُ صالحاً إليهم لإصلاحِ أحوالهم. وذلكَ ضـمنَ الآيـات (٦١-٦٨) فكذّبت ثمُودُ نبيَّهم صالحاً عليه السلام واستهانوا باللهِ الّذي أرسلهُ إليهم، ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾.

كذلكَ ذكَرَ اللهُ تعالى هؤلاءِ الأحزاب بجدِّ أنبيائهم إبراهيمَ عليه السّلام، وبقريبهِ النّبيِّ لوط عليه السّلام. وبما فعلهُ معهُ قومُهُ الّذينَ كانوا يعملونَ السّيّئات وذلكَ ضمن الآيات (٦٩-٨٣)، وهم القومُ الّذينَ كذّبوا لوطـاً عليـه السّلام وأخرجوهُ من قريتهم، فأصابُهم ما أنذرهُم به من عذابٍ وجعلَ اللهُ تعـالى عـالي قريتهُم سافلها وأمطرَ عليهم حجارةً من ﴿سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾.

كذلكَ ذكَرَ اللهُ تعالى هؤلاءِ الأحزابِ بقومِ مَدينَ الّذينَ كانَ جلَّ شأنهُ قد أرسلَ إليهم نبيَّهُ شعيباً عليه السّلام وذلكَ ضمن الآيات (٨٤-٩٥) فكـذّبوهُ ولمْ يأخذوا بمواعظه وقابلوهُ بعقولٍ تقليديَّةٍ ولم يتَّعظوا بما كانَ قد حلَّ بـأقوامِ نـوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوط. بل واستخفّوا باللهِ الّذي أرسلهُ إليهم. فحلَّ بهمُ العذابُ الّذي

كان قد أنذرهم بمجيئه. ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ .

وهكذا فقد شاءَ اللهُ تعالى أنْ يوضّحَ للقارئِ من خلالِ ذكرِه لأحوالِ الأقوام الخمس الّذينَ أتى على ذكرهم، بأنَّ هؤلاءِ الأحزاب من أهلِ الكتاب الّذينَ كذّبوا محمّداً (ص) ويكذّبونَ هذا الشّاهدَ الّذي هو من أمّةِ محمّدٍ (ص) ويشهدُ على صدقِ رسالته، أنّهم في حقيقةِ أمرهم قد اتّصفوا بجميع تلكَ الصّفات السّيّئة الّتي اتّصفَ بها أقوامُ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وشعيبٍ عليهمُ الصّلاةُ والسّلام. فاتّصفوا بعقولٍ تقليديّةٍ وبإنكارِ إمكانيّةِ تدخُّلِ الله في شؤونِ حياتهم اليوميّة، وقد انتشرَ الفسادُ في مُجتمعاتهم على أوسعِ نطاق وبإباحيّةٍ ظاهرة المعالم، ويتّبعونَ زعماءَهم من كلِّ جبّارٍ عنيد، ولا يقيمونَ لجميع ما أنذرهُمْ به القرآنُ المجيدُ من إنذاراتٍ من وزنٍ بأيِّ حالٍ من الأحوال، بل ويكيدونَ ليلَ نهارَ لهذا الدّينِ الإسلاميِّ الحنيف أملاً في القضاءِ عليه وعلى كلِّ ما جاءَ به أيضاً.

فلمّا انتهى اللهُ جلَّ شأنهُ من بيانِ ذلك كلِّه أعادَ إلى ذاكرةِ هؤلاءِ الأحزاب بأنّهم في الأصلِ من أهلِ الكتاب ومن قومِ النّبيِّ موسى عليه السّلام والّذي كانَ ربُّهُ قد أرسلهُ بآياته وبسُلطانٍ مبينٍ إلى فرعونَ وملئه الّذينَ طغوا في البلاد. ونبّههُم إلى أنّهم وبدلاً من أن يُقيموا تعاليمَ شريعةِ موسى عليه السّلام، فإنّهم ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي سعوا للهيمنةِ على العالمِ كُلِّه بدونِ حقّ على شاكلة ما كانَ قد سعى إليه فرعونُ من قبلُ وهم يعلمون أنَّ فرعونَ ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾. وكيف يكونُ أمرُ فرعونَ رشيداً وهو الّذي ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾. وقد نبّهَ اللهُ جلَّ شأنُهُ إلى هذه الحقيقةِ في الآيات (٩٦/٩٧/٩٨) الّتي استوفَتْ جميعَ هذه الدّلالات.

وقد كانَ اللهُ تعالى يقصدُ من بيانه لهذه الحقائقَ الأخيرةَ أن يُخبرَنا بأنَّ مصيرَ هؤلاءِ الّذينَ انتهجوا نهجَ فرعون، سيلقَونَ نفسَ المصيرِ الّذي انتهى إليهِ فرعونُ وملؤه. ولذلكَ أتى تعالى بالآية (٩٩) وقالَ بحقّهم ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ أي يُلعنونَ في هذه الدُّنيا ويُلعنونَ يومَ القيامة، لأنَّهُم رفَدوا أي أمدُّوا فرعونَ بنموذجٍ من مثله، ﴿بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾.

وعلى هذه الصّورة، وحتّى نهاية الآية سّالفة الذّكر، يكونُ اللهُ جلَّ شأنُهُ قد أنهى كلامهُ عنِ الأقوامِ الّذينَ سيُكذِّبونَ هذا (الشّاهد) الّذي قدَّرَ تعالى أن يجعلَهُ شاهداً على صدقِ رسالةِ محمَّدٍ صلواتُ الله وسلامُهُ عليه. هؤلاءِ الّذين وردتْ تسميتُهُم في أحاديثِ رسولِ الله (ص) باسم (المسيح الدّجال).

فلمّا فرغَ جلَّ شأنُهُ من إنبائه عن مصير هؤلاء المكذّبين. عاودَ الكلامَ عنهُم وعن الأُممِ الّذين شابهوهم من قبلُ في الأوصافِ والمصائرِ وهم قُرى أقوام **(نوح وعاد وثمود ولوط ومدين)** وذلكَ في الآية (١٠٠) فنبّه تعالى أذهاننا فيها إلى أنَّ جميعَ ما أتى تعالى به من معلوماتٍ متعلّقةٍ بهم جميعهم، إنّما جاءتْ على صورة أنباء غيبيّة عظيمة الأهميّة والشّأن. وقد عبَّرَ تعالى عن هذه المعلومة بقوله ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ ومستبدلاً اسم الإشارة (هذا) ب (ذلك) فهو تعالى لم يقل ﴿هذا مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾. وبما أنَّ من هذه الأقوامِ ما كانَ هالكاً قبلَ نزولِ هذا القرآن العَظيم. وكانت هذه الأقوامُ الّتي ستكذّبُ (الشاهدَ منه) ما تزالُ قائمةً وستهلكُ في المُستقبل، لذلكَ أكملَ اللهُ تعالى هذه الآية وقالَ ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ بمعنى أنَّ من هذه الأقوامِ الّتي قصصناها عليكَ ما هو

(قائمٌ)، ومنها أقوامٌ (حصيدٌ) أي مُدمَّرة هالكة قد عفتْ آثارُها من قبل.

ومن ثمَّ أتى اللهُ تعالى بالآية (١٠١)، فأبدى شفقتهُ فيها على هؤلاء الّ ـذينَ يكذّبونَ أنبياءهُ ورسلهُ الكرام، ويتّخذونَ آلهةً من دونه عزَّ وجلَّ، ويظلمونَ بذلكَ أنفُسهُم. فلا تُغني عنهم آلهتُهم شيئاً بل تزيدُ في ظهورِ أسبابِ بُعدهم عن ربِّه ـمُ الحقيقيُّ واستحقاقهم للدّمارِ والهلاك.

وقد وضّحَ اللهُ تعالى ما قصدهُ من كلمة (تتْبيب) وذلك في الآي ـة (١٠٢) ومنبّهاً إلى أنّهُ على هذه الصّورة من العواقبِ المُحزنة ستكونُ عاقبةُ كُلِّ أمّة لا تتّعظُ بعواقبِ ما ذكرهُ تعالى من عواقبِ تلكَ الأقوامِ الّتي ذكرها من قبل.

وأمّا في الآية (١٠٣) فقد راحَ الله تعالى يكشفُ الغطاءَ بصورةٍ مَبدئيَّة ع ـن الزّمانِ الّذي سيُهلكُ فيه هذه الأممَ الّتي تُكذّبُ (الشّاهدَ منه)، ومُصطلحاً تع ـالى لليومِ الموعود كلمتي ﴿عَذَابَ الآخِرَةِ﴾، وليتّعظَ به كلُّ من يوقنُ بمجيئه ويُنجيه اللهُ تعالى من أهواله وهو اليومُ الّذي سيُصبحُ (آية) على وُجودِ الله علاّمِ الغي ـوب ذاكَ الّذي أنبأ عن مجيءِ اليومِ المُشار إليه قبلَ وُقوعه بقرونٍ كثيرة. وقد وضّحَ لنا ربُّن ـا علاّمُ الغُيوبِ معالمَ ذاكَ اليومِ الرّهيب من خلالِ قوله تعالى في آخر الآية ال ـسّالفة الذّكرِ ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾. والّذي أراهُ أنّهُ جلَّ شأنهُ ق ـد أشارَ من خلالِ كلمة (يومٌ مشهودٌ) إلى يومِ الواقعة الّتي تضمّنتها نب ـوءةُ س ـورة الواقعة. واللهُ أعلمُ بمراده.

وإنَّ الّذي دفعني لأجتهدَ ما ذكرتُهُ، هو أنَّ اللهَ تعالى قال بعدَ ه ـذا النّب ـأ المذكور مباشرةً وذلكَ في الآية (١٠٤): ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ بمع ـنى أنَّ مضمونَ هذه النّبأ كانَ يمكن أن يقعَ ويتحقّقَ قبلَ تاريخِ نزولِ هذا القران العظيم، لكنَّ اللهَ تعالى كانَ يؤخّرُهُ إلى زمنٍ معدودةٍ سنواتُهُ بعدَ نزولِ هذا الق ـرآن. ثمَّ إنَّ من المعلومِ من مُعطياتِ آياتِ هذا القران العظيمِ فيما يتعلّقُ بعذابِ ي ـومِ القيام ـة

المعروف أنّهُ لا يؤجّلُ، بل تأتي سَاعتُهُ المَوعودةُ بغتة. الأمرُ الّذي يعني أنّ اللهَ جـ ـلّ شأنُهُ يُنبئ في هذه الآية عن اليومِ الّذي سيُنزلُ فيه عذابهُ بـ ـالأممِ الّـ ـتي كـ ـذّبت (الشاهدَ منه) في هذه الحياةِ الدُّنيا وقبلَ العذابِ الّذي ينتظرُهُم يوم القيامة.

ولذلكَ أتبعَ تعالى هذه الآية بالآية (١٠٥) الّتي راحَ يقولُ فيها: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ بمعنى أنّهُ يومَ يأتِ زمنُ تحقُّقِ النّبـ ـأ المذكور، تتدخّلُ عناية الله تعالى فلا يعودُ هنالكَ من مجال لتدخُّلِ أيّ نفسٍ بشريّة في التّأثيرِ على مُجرَياتِ أمورِ اليوم المذكورِ، وينقسمُ النّـ ـاسُ يومئـ ـذ إلى فـ ـريقين مُتميّزين: فريقُ شقيٌّ هالكٌ، وفريقٌ سعيدٌ قد نجّاهُ ربُّه من هولِ اليومِ المُنبأ عنـ ـهُ في الآياتِ الواردة من قبل.

وليلاحظ القارئ كيفَ أنّ اللهَ تعالى أتى بعدَ ذلكَ بِفاءِ الاسـ ـتئنافِ وراحَ يستأنفُ كلامهُ المُتعلّقُ بمصائرِ كُلٍّ من الفريقينِ **(الهالكُ والسّعيد)** وراحَ يقولُ في الآية (١٠٦): ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾. ومُنبّهـ ـاً في الآية (١٠٧) إلى أنّ هذا العذابَ النّاريَّ المُشارُ إليهِ سيدومُ زمنهُ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾. وهذا الكـ ـلامُ يعني بألفاظ أُخرى أنّ الأقوامَ المذكورةَ لَن تقومَ لها بعدَ غاشية العذابِ المـ ـذكورة قائمةٌ بأيِّ حالٍ من الأحوال. وسيستتبُّ الأمنُ والسلامُ في العالم من بعـ ـد تلـ ـكَ الغاشية الّتي ستغشى هؤلاءِ الأحزاب وليعُمَّ الإسلامُ بعد ذلكَ على العالَمِ بأسـ ـره أيضاً خصوصاً بعد حدوثِ الواقعةِ المشار إليها إن شاءَ اللهُ العزيز.

وقد راحَ اللهُ تعالى يُؤكّدُ هذه الحقيقةَ من خلال مضمونِ الآية (١٠٨) والّتي راحَ تعالى يُصوّرُ لنا فيها حالَ الفريقِ السّعيدِ الّذي سيُنجّيه اللهُ تعالى مـ ـن هـ ـولِ العذابِ المذكورِ، وهو الأمرُ الّذي وضّحهُ قولُ ربّنا عزّ وجلّ: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا

﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾. ومن ثمّ أتى تعالى بفاءِ الاستئناف ليُعاودَ الكلامَ عن الأمم المذكورة وذلك في الآية (١٠٩)، وليؤكّدَ لنبيّه الكريم (ص) بأنّ هؤلاء كانوا أصحابَ عُقولٍ تقليديّة فلمْ يتفحّصوا ما توارثوهُ عن آبائهم من عقائدَ فاسدة وفي وقتٍ كانوا يزعمونَ فيه أنّهُم أصحابُ عقولٍ علميّة. لذلكَ فإنّ ربّهُم سيوفّيهم نصيبَهُم من العذابِ في هذه المرّة أيضا نصيباً (**غيرَ منقوص**).

وشاءَ اللهُ تعالى أنْ يوضّحَ دلالةَ قولهِ تعالى (**غيرَ منقوص**). لذلكَ أتى بالآية (١١٠) ونبّهَ فيها إلى أنّ أجدادَ هذه الأقوامِ كانوا قد خالفوا عقديةَ وحدانيّة الله تعالى الّتي قامت على أساسٍ منها رسالةُ موسى عليه السّلام وهو النّبيُّ الّذي ينتسبونَ إليه مع أنّ المسيحَ النّاصريَّ كانَ موحّداً وعلى دينه. فابتدعوا عقيدةَ التّثليثِ الّتي يعتقدُها هؤلاء والّتي يريدونَ الاحتفالَ بمرورِ ألفَي عامٍ على نُشوئها وقد كانَ ينبغي أن يُهلكَ اللهُ جلّ شأنُهُ أجدادهُم في الأيّامِ الّتي افتروا فيها هذه العصيدةَ الفاسدةَ. لكنّهُ تعالى كانَ قد حلُمَ عليهم، وأجّلَ إظهارَ غضبه عليهم، لعلّهُم يعودونَ إلى رُشدِهم. لكنّهم أثبتوا أخيراً أنّهُم لم يستفيدوا من هذا الإمهال وعادَ حالُهم غيرُ مشكوكٍ في. فما عادَ هناك من أملٍ في أن يرجعوا عن ضلالتهم.

واستناداً إلى الحالِ الّذي انتهى إليه هؤلاء فقد أتى اللهُ تعالى بالآية (١١١) ومنبّهاً فيها إلى أنّهُ تعالى هو (**خبيرٌ**) بما يعملونَ من أعمالٍ وما يكيدونَ للإسلامِ من مؤامرات لذلكَ فهو لا يظلمُهُم بل يُوفّيهم أعمالَهم من خلالِ ما سيُنزلُهُ جلّ شأنهُ بهم من عذاب.

وبعدَ أن فرغَ اللهُ تعالى من الكلامِ عن هؤلاءِ الأحزابِ الّذين (**شقَوا**). توجّهَ اللهُ تعالى بخطابهِ يُخاطبُ (**الشّاهدَ**) والّذينَ (**سُعدوا**) معهُ وهم الّذينَ آمنوا به (**شاهداً**) على صدق رسالةِ محمّدٍ خاتمِ النبيّينَ (ص). وذلكَ ابتداءً من الآية (١١٢)

وحتّى الآية (١١٥). فأمرهُ بالاستقامةِ حسبَ أمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهو وكلُّ مَن آمنَ معهُ وتابَ ورجعَ إلى تعاليم كتاب اللهِ العزيزِ ونهاهُم عن أن يطغوا على شاكلةِ طُغيانِ أولئكَ الهالكينِ وأن يضعوا نصبَ أعيُنِهِمْ بأنَّ ربَّهُم بما يعملونَ (بصير). كما نهاهُم أن يتأثّروا بصفاتِ هؤلاءِ الأحزاب بعدَ اضطرارهم إلى الهجرةِ إلى بلادهم هرباً من اضطهادِ قومهم إيّاهم كيلا تمسَّهُمُ النّارُ الّتي ستنزلُ بساحة هؤلاءِ المكذّبين. كما أوصاهُم اللهُ عزَّ وجلَّ بالتّركيزِ على الدُّعاءِ في تلكَ الأيامِ ليلَ نهارَ. كما أوصاهم بالصّبرِ وتحمُّلِ كُلِّ عناءٍ على هذا الطّريق ليكونوا بِمَنجاةٍ من ذلكَ العذاب.

ومن ثمَّ أتى اللهُ جلَّ شأنُهُ بفاءِ الاستئنافِ من جديدٍ وأبدى أسفهُ على هؤلاءِ الزّعماءِ ممَّنْ تزعَّموا شعوبَهم، فبدلاً من أنْ يعظونَهُم بتعاليمِ ربِّهم وينهَونَهم عن الفسادِ، فقد سيَّرَتْهُمْ أهواؤهُم وألهاهُم ما أُترفوا فيه وتصرَّفوا تصرُّف إجرامٍ وكانوا بذلكَ في نظرِ ربِّهم مُجرمين. فاستثنى قليلاً مِّمن نجّاهُم ربُّهم من هذا الاتجاهِ في السّلوك فهذا ما تضمَّنتهُ الآية (١١٦).

وقد راحَ تعالى بعدَ ذلكَ يُقرِّرُ حقيقةً كونيَّةً وذلكَ في الآيةِ (١١٧) خلاصتُها أنَّ تدميرَ القرى الّتي كانَ أهلُها مُصلحونَ هو أمرٌ بعيدٌ عن شأنِ اللهِ مالكِ السّماواتِ والأرضِ. فلا يُهلكُ اللهُ جلَّ شأنُهُ إلاّ القرى الظّالم أهلُها والّتي استحقّت التّدمير.

ومن ثمَّ وضّحَ تعالى حقيقةً كونيَّةً ثانيةً وذلكَ في الآية (١١٨)، وهي أنَّ اللهَ الخالقَ لم يخلق هذا الإنسانَ غريزيّاً ليبدُوَ على شكلِ أُمَّةٍ واحدةٍ في سلوكهِ وفي تصرُّفاته وعلى شاكلةِ بقيّةِ مخلوقاتِ اللهِ عزَّ وجلّ. بل إنَّ اللهَ تعالى الّذي خلقهُ قد ميَّزهُ بهذا العقلِ وبتلكَ الإرادةِ وحُرّيةِ الاختيارِ ليمتحنهُ فيما أنعمَ خالقُهُ عليهِ. ولكنَّ النّاسَ لم يفوزوا في هذا السّباقِ بل اختلفوا ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾.

وقد استثنى اللهُ جلَّ شأنُهُ فريقَ المؤمنينَ الّذينَ استحقّوا رحمةَ ربِّهم بهم

والّذينَ حقّقوا المقصدَ من خَلقِ اللهِ تعالى إيّاهُم في هذه الحياةِ الدّنيا. وأمّا الّذين لم يؤمنوا و لم يحققّوا المقصدَ من خَلقهمْ فقد تُمتْ كلمةُ ربِّهم بحقّهم ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. فهذا ما تضمّنتهُ الآية (١١٩) من هذه السورة.

فلمّا فرغَ اللهُ جلَّ شأنُهُ من بيانِ هاتَينِ الحقيقتينِ الكونيَّتينِ، توجَّهَ تعالى بخطابهِ إلى رسولِه الكريمِ (ص)، وذلكَ ابتداءً من الآية (١٢٠). فراحَ تعالى يُوضِّحُ لهُ حكمةَ جميعِ ما أوردهُ في هذه السّورةِ من حقائقَ وبيِّنات مُتعلِّقة به وبالشّاهد منهُ والّذي سيشهدُ على صدقِ رسالته أيّامَ تخلُّف أُمّته. وأنباءَ حالِ مُكذّبيه من أمّة موسى خاصّةً والمصيرَ الّذي سيؤولُ حالُهُم إليه في نهايةِ المطاف. فبيَّنَ تعالى أنَّهُ كانَ يقصدُ من ذلكَ كُلِّه طمأنةَ رسولِه الكريمِ على مُستقبل أمّته ومستقبلِ دينه الحنيف تثبيتاً من جانبِ الله تعالى لِفؤادِ رسولِه الكريمِ المُضطرب والّذي يتوقُ لمعرفةِ مُستقبلِ أمّتهِ ومُستقبلِ دينه أيضاً. فطمأنهُ اللهُ جلَّ شأنُهُ وقالَ لهُ ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأمّا في الآية (١٢١) فقد أمرَ اللهُ تعالى رسولهُ الكريمَ أن يقومَ بتبليغِ الّذينَ لا يؤمنونَ به ولا بصدقِ رسالته أن يقومَ وأتباعهُ بتبليغ ما اشتملت عليه هذه السّورةُ من بيِّناتٍ وحقائقَ وإنذاراتٍ إلى هؤلاءِ الأحزاب من أهلِ الكتاب. وليقولَ لهم ويبلِّغُهم أنّكُم ما دُمتُم تُثابرونَ على تكذيبي وتكذيبِ الّذي يشهدُ على صدقي، وبكلِّ فكرٍ ورويَّة، فاعملوا أنّنا مُثابرون على دعوتكم إلى ديننا وإنذاركُم بما أنذرَكُم به ربُّنا عزَّ وجلَّ في هذه السّورة أيضاً.

وقد راحَ اللهُ تعالى في الآية (١٢٢) يدعوهم لانتظارِ ما توعّدهُم به ربُّهُم أيضاً من عذاب.

وقد أعادَ إلى ذاكرتهم في الآيةِ الأخيرةِ من سورةِ هودٍ كونَ خالقِ هذا الكونِ يعلمُ غيبَ السّماواتِ والأرضِ لذلكَ فلابدَّ أن تصيرَ نتائجُ كلِّ شيءٍ وفقَ

مشيئته وإرادته. ومن ثمّ أمرَ اللهُ جلّ شأنُهُ رسولهُ الكريم وكُلّ من آمن به وبالشاهد المُشار إليه واتّبعهُ أن يكونَ على الصّعيدِ السُّلوكيِّ عبدًا حقيقيّاً لله عزّ وجلّ. فـ إن توكّلَ فلا يتوكّلُ إلاّ على ربِّهِ سبحانه. وهو على يقينٍ تامٍّ بأنّ ربّهُ علاّم الغيـ وب غيرُ غافلٍ عمّا يعملُون.

وعلى هذه الصورةِ ومن خلالِ هذه البيِّناتِ الّتي تضمّنتها آياتُ سورة هود يكونُ قد ثبتَ أنّ سورةَ هودٍ هذه قد صيغت بصياغةٍ بلاغيّةٍ مُعجزةٍ يتبـ ادر مـ ن آياتها لذهن القارئ غير ما تضمّنته. وقد صيغت أيضاً بتسلسُلٍ موضوعيٍّ مُـ دهش وحملتْ أنباءً عظيمةً تعلّقتْ بتاريخ أُممٍ ماضيةٍ وبالحالِ الّذي سيصيرُ إليه المكذّبونَ من أمّة موسى عليه السّلام وبما يتعلّقُ بمُستقبلِ الدّعوة الإسلاميّة. إلى جانب مـ ا تضمّنتهُ هذه السّورةُ من بيانها جُملةَ حقائقَ ونظريّات. وهذه الأمورُ بمجموعها هي الّتي دَعت محمّداً رسولَ الله (ص) ليقول: **(شيبتني هودٌ وأخواتها)**. ولكن هل فهـ مَ المفسّرونَ القدماء مضامينَ هذه السورة الكريمة على المستوى الّذي أشارَ إليه هذه الحديثُ الشريف؟؟ فهذا ما سنلاحظهُ عند تدبُّرنا لآياتِ سورةِ هودٍ هذه مع مُقارنة ما نصلُ أليه بتلك التّفاسير.

وبعد هذا التقديم الّذي قدّمته أبدأُ الآيةَ الأُولى الّتي تضمَّنتْ الأَصلَ التفسيريَّ الثامن الملتزمُ به ربُّنا عز وجلّ في سورة هود. والّذي يتمثّلُ بوجود تسلسُلٍ موضوعيٍّ بالغِ السبك بين آياتها فقد قالَ اللهُ تعالى وبكلِّ عظمةٍ وجلالٍ في الآيةِ الأُولى من هذه السورة:

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾

فماذا تضمَّنت هذه الآية الكريمة من معانٍ ودلالات؟ خصوصاً وأنَّ ربَّنا عز وجلّ قد استهلّها بالأحرف المقطعة (الر) والّتي اختزلها تعالى من كلمات ﴿أنا الله أرى﴾، وهو أمرٌ قد أثبتُّهُ في مؤلَّفي (فن الاختزال في القرآن الكريم). مع المُلاحظة أنّه جلّ شأنه قد أتى بعد الأحرف المُقطّعة (الر) بإشارةِ وقف، ليدفعَ المؤمنَ الّذي يحاولُ تدبّرَ هذه الآية الكريمة ليقفَ طويلاً وهو يتأملُ بتأمّلٍ عميقٍ أبعاد معطيات الرؤية الإلهيّة للأشياء، ومدى سعةِ دائرتها، ولينطلق بعدَ ذلك ليتدبّرَ الآية الكريمة وهو يحمل على منكبيهِ منظارَها الّذي أمسى بين يديه.

فقال اللهُ تعالى بعد أن أتى بأحرُف المقطّعة تلكَ والّتي جعلها كعُنوانٍ لمضمونِ سورةِ هودٍ قال: (كتابٌ) فأتى بكلمة (كتابٌ) مُنوّنةً على آخرها إشعاراً من جانبه تعالى لهذا المؤمنِ المتدبّر لهذه السورة بأنّ وحيَ هذه السورةِ والّذي أمسى بين يديه قد أمسى جزءً من كتابٍ عظيمٍ أنزلَه الله المطّلعُ على كلِّ شيءٍ والّذي لا يغيبُ عن عينيهِ شيءٌ من غيبِ السماواتِ والأرضِ ماضياً كانَ أو حاضراً أو سيأتي به المستقبل. وقد أنزلهُ جلّ شأنه على طرازٍ وأسلوبٍ ما تعارف عليه الكتّاب والأدباء حينَ يجلسونَ ليؤلّفوا كُتُباً. وهو مؤلَّفٌ كذلكَ من مقدّمة ومتنٍ وخاتمة.

فهذه المعاني جميعها أفادت بها كلمةُ (كتابٌ) وبما اقتضاهُ التنـ ـوينُ الـ ـواردُ عل ـى آخرها.

ولم يكتفِ اللهُ تعالى بما ذكرهُ وأشارَ إليهِ من خلالِ تلك الكلمة. بل وراح جلَّ شأنُهُ يُلفتُ نظرَ هذا المؤمن إلى بعضِ نواحي عظمةِ هذا الكتاب وإلى أصلٍ من أصولِ تفسيرِه وقال: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾.

ونلاحظُ أنَّهُ تعالى قد أورد فعل (أُحكمت) مُنكراً وبصيغة المبني للمجهول. إشارةً إلى أنَّ عمليَّةَ إحكامِ لآياته قد جرت على مضامينه الَّتي اشتملَ عليها هـ ـذا الكتاب من جهة. ولإحكامِ صياغةِ آياتهِ العظيمةِ صياغةً بلاغيَّةً مُعجِـ ـزةً وعل ـى مستوى التَّحديَ الَّذي يحملهُ هذا الكتابُ العظيمُ أيضاً. لذلكَ، وانطلاقاً من هـ ـذه الدّلالاتِ آنفةِ الذِّكرِ عُدنا نتساءلُ عن معاني كلمتي ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾؟ فقد وردَ في معجم (محيط المحيط)، إذا قُلتَ: أحكم الله تعالى هذه الآية معنـ ـاهُ أنَّـ ـهُ أتقـ ـن صياغتها ودلالتها. أمَّا كيف يكون هذا الإتقان؟ فيكون هذا الإتقانُ مُتميِّزاً عل ـى كلِّ صعيد تناولته هذه الآية المذكورةُ وبدون أيِّ استثناء.

فإنْ سُئلتُ عما فهمتهُ من القصدِ من عمليةِ الإحكامِ المُشارِ إليها آنفاً؟ أقولُ إنَّ من المعلومِ أنَّ آياتِ هذا القرآن العظيم قد بحثت مواضيعَ شتى: فقوله تعـ ـالى ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ على صعيدِ مواضيعِ الأحكامِ الشرعيةِ قُصدَ به أنَّ الآيات من هذا النوع قد صيغت على نوعين من الصياغة. فالنوعُ الأولُ من تلكَ الآياتِ يكونُ فيهِ الحكمُ الشرعيُّ فيها مُصاغاً صياغةً دستورية. وأما النوع الثاني منها يكون الحكـ ـم الشرعي نفسه مُصاغاً بصياغة قانونية؟ وعلى شاكلة ما هو معروف في المحـ ـاكم في عصرنا الحاضر. وأمَّا على صعيدِ المواضيع الأُخرى غير الأحكام الشرعيَّة، فإن آياتها هي أيضاً على نوعين من الصياغة: فالنوع الأول من الآيات يحمل دلالات متصفة بصفة الإجمال. وأما النوع الثاني منها تكونُ آياتهُ شارحةً لذاكَ الإجمال المشارُ إليه،

وبحيث تعودُ الآياتُ الشارحةُ مُفسرةً للآياتِ ذاتِ الصيغةِ المجملة. وأما على صعيد بحثِ تعاليم الكتب السماوية المنسوخة وما يقابلها في هذا الكتاب العظيم. فقد صيغت تلك الآيات على نوعين من الصياغة أيضاً. فالنوعُ الأولُ منها تكونُ الآياتُ فيه محكمةً بمعنى أنّها تحملُ تعاليمَ جديدةً مما لا أساسَ لها في تعاليمِ الكتب السماويةِ المنسوخة. وأما النوع الثاني من الآيات فتشتمل على تعاليم مشابهة لتعاليم الكتبِ المساويةِ المنسوخةُ أو أنّها وردتْ كمثلِ تلك التعاليم المنسيّة ولكن بصياغة بلاغيّة معجزة، لذلك استحقّتْ أن تُسمى باسمِ الآيات المتشابهة. فهذا تقسيمٌ أفادتنا به الآياتُ الأوائلُ من سورة (آل عمران) وعلى حسب ما أوردتهُ في الجزء الأولُ وضّحتهُ في الرَّدّ على (القراءةِ المُعاصرة). فهذه هي دلالاتُ قولـه تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ وعلى حسبِ فهمي لها واجتهادي وهي المعاني التي يُلاحظُ قارئ مؤلفاتي ملاحظةَ تطبيقاتها فيها.

وننتقلُ من ذلكَ إلى قول اللهِ تعالى بعدَ ذلك، إلى قوله: ﴿ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ لنقومَ بتدبره. فالحرف (ثمّ) يفيدُ معنى الترتيب، وبذلك يشيرُ على مرحلية عمليّة هذا الاحكام والإتقان الّتي أُجريت على آياتِ هذا الكتاب العظيم. وبمعنى أنّ الآيات بعد أن ﴿أُحْكِمَتْ﴾ قد ﴿فُصِّلَتْ﴾. وقد أُشيرَ من خلال هذه الكلمة (فُصّلت) إلى النوع الثاني من الصياغة الّذي أوردناه أعلاهُ. كما تفيد هذه الكلمة معنى تقسيم سور هذا القرآن العظيم إلى فصول متمايزة. وعلى شاكلة المعهود من كُتُبِ الكتابِ والمؤلفين. كذلك تفيد كلمةُ (فصّلت على أنّها شرحت وبيّنت ما ورد مجملاً في الآيات المحكمات. فأنت تقول فصل الشيء وتعني جعله فصولاً متمايزة. كما تقول فصل الكلام بمعنى بيّنه وضد أجمله (محيط المحيط) ومعجم (أقرب المورد) و (المقاييس).

فلما فرغ الله جلّ شأنه من قولهِ ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾. انبرى جلَّ

شأنهُ ليوضّحَ للقارئ من هي الجهة الّتي أنزلت ها الكتاب المحكمة والمفصّلةُ آياتُ ـهُ، فأضاف وقال: (من لدن حكيم خبير).

نتساءلُ أولاً عن حكمةِ إيرادهِ جلّ شأنه للظرف (لَدُن) بدلاً من الظ ـرف (لدى) المناسبُ أصلاً في هذا المقام. فلمَ لم يقل اللهُ تعالى هذ ـا: (م ـن ل ـدى)؟ والجوابُ على ذلكَ على حسبِ فهمي وتقديري هو ليفيدَ كلامَ اللهِ تعالى الـ ـزمن الحاضر المُنزلُ فيه هذا الكتاب العظيم على قلب محمد رسول الله (ص). حي ـث أنّ الظرف (لدى) لا يفيد الزمن المذكور. كذلك كانت الحكمة منه أن يشير ج ـلّ شأنه بواسطة الظرف (لدُن) إلى محل ابتداء الغاية ولذلك جرّ تعالى ظرف (لـ ـدُن) بحرف الجرّ (من) وقال (من لدُن). وليعني من خلال ذلك أنّ ابتداء زمان ومكـ ـان صدور هذا الكتاب العظيم المحكم والمفصّلة آياته، قد ابتدأ من جانب ذاتِ اللهِ عزّ وجلّ وفي ظلّ صفتيه (الحكيم الخبير). وعُدنا نتساءلُ عن دلالةِ صفةِ الله (الحكيم)؟ فقد وردَ في (محيط المحيط): الحكيمُ لُغةً هو الذاتُ المُتّصف بالحكمةِ والمتقنُ للأمورِ والّذي يجمع ما بين العلمِ والعملِ، وصاحبُ الحجّةِ القطعيّةِ المُـ ـسماة بالبرهـ ـان. فالحكيمُ هو مَن اتّصفَ بجميع هذه الصفات.

ونتساءلُ ثانيةً عن معنى صفة الله (الخبير)؟ قال أصحابُ المعاجم: الخـ ـبير في اللّغة هو الذاتُ العليمُ ذو الخبرة التامة والعارفُ حقيقةَ الأشياء. وقد اشتُقّت هذه الصفةُ من قولك: خبرتُه بمعنى امتحنتهُ وبلوته. ومن قولكَ خبرَهُ بمعنى علِمَ حقيقته. فإن قلت: لأخبُرنّ خُبْرَكَ فتقصد لأعلمنّ علمك. وإن قلت: من أين خبُرت هـ ـذا الأمر؟ فتقصد من أين علمت خبره وداخله. (محيط المحيط).

والآنَ وبعد أن أحطنا علماً بدلالاتِ ألفاظِ هذه الآية الكريمـ ـة: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ نُحاولُ تذكُّرَ وتلخيصَ جميع ما ذكرناهُ آنفاً من معاني ودلالات توضيحاً لمعاني هذه الآية الكريمة الّتي لم يتجاوز عددُ كلماتها ثمانية كلمات، وعلى

ضوء رؤية الله الغيبيّة الّتي نبّهتنا إليها الأحرفُ المُقطّعةُ (الٓر). فبماذا أفادتنا به هذه الآية الكريمة.

ألا وكان الله تعالى راح يقوم من خلال هذه الآية الكريمة أن اعلموا أيها النامُ أنّ ربّكم قد أخذ بعين حُسبانه ما وصلت إليه مُتغيراتُ زمانكم من جهة نُسيانكُم اللهَ الّذي خلقكم، وبسبب هيمنة الشركِ بالله تعالى على أذهانكم وأفئدتكم، وبسببِ التّحريف الّذي أصابَ الكتبَ السماويةَ السابقة المُترلة من قبلكم، ولانتشار الظُّلم والطُّغيان في مُجتمعاتِكُم، فاللهُ رقّ لحالكم، وقد صاغ من أجلِ هدايتكم هذا الكتاب السماويّ العظيمَ المشتملَ على مجموعةٍ من الآيات، قد صاغها مُتقنَةَ الصياغة والمضمون في جميع المجالات الّتي تناولت الكلامَ عنها آياتُ هذا المتاب العظيم وبحثتها، وفي ظلال ما يحملهُ ربُّكم من صِفتَي الله (الحكيم الخبير) وما يحملانه من دلالاتٍ لا تحدُّها حدود. فهذا المضمون كله قد تضمنته آية الاستهلال المذكورة هذه الّتي استهل الله عز وجلّ بها سورة هود. وهذا هو السببُ الّذي دفعَ محمّداً رسول الله (ص) والّذي أوتي (جوامعَ الكلم) أن يقولَ بحقّ هذه السورةِ (شيبتّني سورة هود وأخواتها). واستناداً إلى ما ذكرناهُ آنفاً من دلالاتٍ وبيّناتٍ تكون هذه الآية الكريمة قد حمّلها اللهُ جلّ شأنهُ أصلين من أصول تفسير كتابه العزيز، وليس أصلاً واحداً والّتي ينبغي على المُفسِّر أن يلتزمَ بهما خلالَ قيامهِ بتدبرِ آيات هذا القرآن العظيم ولتفسيرِ تلكَ الآيات.

فالأصلُ التّفسيريُّ الأوّلُ هو ضرورة مراعاة وجودِ تسلسلٍ موضوعيٍّ بين الآيات القرآنيّة فلا يتناول هذه الآيات وكأنّها مقطوعةً بعضها عن بعضها الآخر.

والأصلُ التفسيريُّ الثاني هو أنّ يتناولَ آيات هذا القرآن العظيم على أنّها سفر بعضها بعضاً، وأنهُ لا تضاد بين تلكَ الآيات. وأنا لا أريد أن أذهب بعيداً، بل استقي المثالَ الأوّل الّذي يثبتُ منهُ مصداقية وجودِ أصلَي التّفسيرِ هذينِ من ضمن

سورةِ هودٍ نفسِها، ومُوضحاً من هلال آياتِ السورة م ـا بين ـها م ـن تسلـ سل موضوعي مندهشٍ للعقول، هذا التّسلسلُ الّذي لا يتبيّنهُ إلا الإنسانُ المتدبِّرُ الّـ ذي يتدبرُ تلك الآياتِ وبأصول تفسيرها أيضاً.

فليلاحظ القارئ كيف أن الله تعالى ما إن فرغ من إعطائه فكرةً عن بعضِ صفات هذا الكتاب العزيز المنزل لصالح البشريَّة، إلا وقد لفت جلَّ شأنه نظرَ هذا الإنسان بادئ ذي بدء إلى المقصدِ الأساسيِّ من خلق الله إيّاهُ في هذه الحياة الدنيا، وليُمكّنَهُ من القيام بمحاولةِ الربطِ موضوعيّاً ما بين هذا القـ ـرآن العظـ ـيم المـ ـنزل لصالحه، وما بين محاولةِ مُعاونته تعالى إياهُ على تحقيق المقصد من خلقه. وليثبتَ لهُ من خلال ذلك أنّ خالقهُ هو (الحكيم الخبير) المُطّلعُ على خفايا أمورِ عباده، وأنّـ ـهُ الأرأفُ بهؤلاءِ العبادِ منهم من رأفتهم بأنفسهم.

ولاحظ يا أخي القارئ ذاكَ الأسلوبَ الّذي أتبعهُ اللهُ جلَّ شأنهُ عندما أراد أن يخطو هذه الخطوة الثانية. فلام يأتِ بها على طريقةِ الكُتّابِ الأرضيّينَ فَجّةً وجافّةً باردةً برودةَ الثلجِ في موسمِ الشتاء. بل اختارَ تجاوزَ الأسلوبَ المذكورَ، وعمدَ إلى أسلوبِ الحضِّ على تحصيلِ الإنسان لهذا المقصد الأسمى لحياته. فاختـ ـار حـ ـرف التحضيض (ألاّ) المختصُّ بالجُملِ الفعليّةِ الخبريّة. وليستهلَّ به الآيةَ الثانيةَ من هـ ـذهِ السُّورةِ وليقول في هذه الآية الثانية:

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾

فأجملَ اللهُ عزَّ وجلَّ عمليَّةَ حضِّهِ تلكَ لهذا الإنسانَ وعلى لسانِ محمَّدٍ رسولهِ الكريمِ (ص)، وموضّحاً في الوقتِ نفسهِ المهمّةَ الأساسيّةَ لهذا الرّسـ ـولِ الـ ـصّادقِ الأمين. وبذلكَ يكونُ جلَّ شأنهُ، ومن خلالِ هذا الأسلوبِ في الحضِّ على عبادةِ اللهِ تعالى وحدهُ، يكونُ تعالى قد حقّقَ أمرين اثنين في وقتٍ واحدٍ: فوضّحَ في الأوَّلِ منهما أنّ عبادةَ اللهِ عز وجلَّ كانت هي الباعثُ على خلقِ اللهِ تعالى هذا الإنسان. كما يكونُ قد نبَّهَ في الأمرِ الثاني ذهنَ هذا الإنسانَ ليعبُدَ ربَّهُ على أساسِ أنّ ربَّـ ـهُ

وخالقهُ هو إلهٌ أحدٌ لا شريكَ لهُ في مُلكه. هذا وإنّي كثيراً ما وضّحت للقارئ أن معنى هذه العبادة هو أنْ يسعى هذا الإنسانُ ليتّصفَ سلوكيّاً بصفات الله تعالى من جهة، وليُحاول التعرفَ على خالقه من جهة أخرى وليجذبَ محبّتهُ وقُربهُ ورضوانه. وقد نبّهَ اللهُ تعالى ذهنَ هذا الإنسانَ إلى أنّهُ تعالى قد أرسلَ هذا الرّسولَ ليكونَ للناسِ ﴿نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ في هذا الخُصوص.

ولم يكتفِ اللهُ جلّ شأنه بتوضيح المقصدَ الّذي من أجله خلقَ هذا الإنسان على سطح كوكبنا الأرضيّ، بل وراحَ تعالى يُنبّهُ هذا الإنسانَ إلى الوسائلِ الّتي يُعالجُ بها عصيانهُ لربّه عزّ وجلّ وليمحو اللهُ تعالى بهذه الوسائلِ ما يرتكبهُ هذا الإنسانُ من ذنوبٍ وأخطاء. لذلكَ نلاحظُ أنّ اللهَ تعالى راحَ يقولُ في الآية الثالثة، وبنفسِ الأسلوب الإنشائيّ الّذي سبقَ لنا أن ذكرناه، قال:

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾

وبذلكَ يكونُ اللهُ جلّ شأنُهُ قد جمع في هذه الآية الكريمة ما بين عمليّة توضيح الوسائل الّتي تُمكّنُ الإنسانَ الخطّاءَ من مُعالجة ما ارتكبهُ من أخطاء، وما بين بيان الحوافزَ المُرتجاةُ من وراء ذلك. وفي الوقتِ نفسه قد هدّدَ هذا الإنسانَ العاصي بهذا (يومٍ كبيرٍ) فهو تعالى لم يُهدّدُ برفع العصا في وجهه هذا الإنسانَ الخطّاءَ، ولكن هدّدهُ بأسلوبِ الحُنوّ والرّأفة وقال: ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ﴾ ومُشعراً ذهنَ هذا الإنسان بمدى العاطفة الّتي يُكنُّها لهُ خالقُهُ عزّ وجلّ الّذي يخافُ على هذا الإنسان إنْ هو أهملَ عبادة ربّه ولك يستغفرْهُ ولم يتُبْ عن ذنوبه ولم يرجع إليه. يخافُ ربُّهُ عليه أنْ يؤدي به كُفرُهُ ومن خلال ما حذّرهُ منهُ أن يؤولَ مصيرهُ إلى ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾. فأشارَ بذلكَ إلى حالِ أولئكَ الّذينَ سيتولّون

ويكذّبونَ رسولهُ محمداً (ص) وإلى مصيرِهِمُ الّذي أخبرَ عنهُ في الآياتِ الأخيرةِ من آياتِ هذه السورةِ وقالَ هناك: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ و﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

ولم يكتفِ اللهُ تعالى بذلكَ، بل وقد عمدَ إلى تنبيهِ ذهنِ عبادهِ إلى حقيقةِ أنّهُم سينتقلونَ من هذه الحياةِ الدُّنيا في نهايةِ المطاف. فوضّحَ ذلكَ في الآيةِ الرّابعةِ وقال:

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

فبهذهِ الصّياغةِ البلاغيّةِ وبهذا الأسلوبِ الإنشائيِّ الفريدِ من نوعهِ ومن خلالِ هذهِ الآياتِ الأربعةِ يتجلى لأعيُننا تسلسلٌ موضوعيٌّ واضحُ المعالمِ لا لُبسَ فيه. وإنَّ الإنسانَ الّذي يُلاحظ رأفةَ الله تعالى بعبادهِ هذه الّتي تجلّت من خلالِ الآياتِ آنفةِ الذكر وعلى حسبِ ما وضّحناه، يعجب في نفسه ولا يتصوَّرُ أن يظلَّ هناك على سطحِ الأرضِ إنسانٌ يكفرُ بهذا الخالقِ الرَّؤوف. فيتساءل حينئذٍ وفي الوقت نفسه عن دواعي الكفر بالله تعالى المنشر من حوله في أرجاء عالمه، كما يتساءلُ عن سببِ وجودِ وانتشارِ الفسادِ في الأرض. يتساءلُ هذه الأسئلة كلّها وبصورةٍ تلقائيّةٍ.

فإذا علمَ هذا المُتسائلُ أنَّ من خصائصِ هذا القرآن العظيم أنه لا يدعُ سؤالاً وجيهاً يساورُ نفسَ قارئ كتابه العزيز إلا ويجيبُ على ذاكَ السؤال في نفس المَوضعِ الّذي نشأ فيه هذا السؤالُ وبأسلوبِ الله تعالى المتميّز. وبذلكَ يكونُ جلَّ شأنهُ قد أوجبَ من خلالِ وجودِ هذه الميّزةِ وتلك الخصوصيّةِ الّتي اختصَّ بها هذا الكتابُ السماويُّ المباركُ أقولُ: يكونُ تعالى قد أوجبَ على الإنسانِ الّذي يتدبَّرُ آياتِ هذا القرآنِ العظيم أن يتبيَّنَ حقيقةَ ما أجابَ به اللهُ عزَّ وجلَّ على السُّؤالِ المذكورِ وفي هذا الموضعِ بالذاتِ الّذي نشأ فيه ذاكَ السؤال.

واستناداً إلى الخصوصيّةِ القرآنيّةِ الّتي أوردناها نُلاحظ كيف أن الله تعلى قد استهل إجابته عل السؤال المذكورِ بحرف (ألا) الّذي يفيدُ تنبيهَ ذهنِ هذا المتسائلِ

من جهة (محيط المحيط). وليؤكّدَ لهُ حقيقةَ ما راحَ يُجيبُ بِهِ عليهِ وعلى الـ ـسؤالِ المذكورِ الّذي طرحه.

فهو جلّ شأنه أتى بالحرف (ألا) وقال في هذه الآية الخامسة:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

وهذه الإجابةُ على السؤال الّذي طرحَ نفسه أوردها اللهُ تعـ ـالى بأُسـ ـلوبِ التصويرِ الفنّي الرائع والبليغ. ومن بابِ أنَّ الصّدرَ لا يُثنى في حقيقةِ أمره.لكنّهُ تعالى استعارَ كلمةِ (الثّني) للصّدر لتصويرِ ما استعارة من أجلِ تصويره تصويراً فنيّاً وقال: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ وليُنبّهَ من خلال فعل ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ الأذهـ ـانَ إلى الأسـ ـبابِ الحقيقيةِ الّتي تحولُ بين الناسِ وبينَ إيمانهم بخالقهم عز وجل. وقد حصرَ جلّ شـ ـأنهُ تلك الأسبابَ في سببين رئيسين: فالسبب الأول دل عليه قولـ ـه تعـ ـالى: ﴿يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ﴾ بمعنى أنّهُ تُخالجُ صدور الناس أسئلةٌ يتولّدُ عنها شكوك يكتمونها في صُدورِهم فلا يطلبون الحقيقةَ ولا يسعونَ إلى إزالةِ تلك الشكوكِ وإلى معالجتـ ـها بالاستفسار عن أجوبتها من رُسلِ اللهِ الكرامِ ومن أتباعهمُ المخلـ ـصين. وبـ ـذلك يحرمون أنفُسهم من نعمة الهدى ونعمة الإيمان بالله تعالى الّذي أرسلَ رُسُلَهُ الكرام من أجلِ هدايةِ هؤلاء المُتشككين. فهذا مرضٌ شائعٌ بينَ الناس ويـ ـشكلُ حقيقـ ـةً ملموسةً لديهم وواقعاً لا ينكرهُ الكفارُ أنفسهم. وقد عبرَ اللهُ تعالى عـ ـن الـ ـسببِ الثاني من خلال قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ﴾ وهذا الكلامُ انطوى على تصويرٍ فنيٍّ يُصورُ حال الكافر الّذي لا يسعى إلى تبديل حاله الّذي يكونُ عليه. ويسير بعقـ ـلٍ تقليديٍّ ولا يُعيدُ نظرهُ فيما توارثهُ عن آبائه وأجداده من مُعتقداتٍ وتقاليـ ـد. وإنَّ هذا السبب الثاني نفسه يحولُ دونَ هؤلاءِ ودونَ سماعِهم صوت مُنادي الله الّـ ـذي

يُناديهم ليهديهم سبيل الرَّشاد. وبذلك يكونُ الله تعالى قد أجاب على السؤال المطروح بإجابةٍ بلاغيّةٍ معجزة. ومنبِّهاً في الوقتِ نفسه ذهنَ السائلِ إلى هاتين العَقبتين اللتين تحولان بين الناسِ وبينَ أن يؤمنوا بخالقهم وعلى الدوّام.

ولم يكتف اللهُ جلّ شأنهُ بإجابته سالفةِ الذكر، بل وراح يُوضّحُ ما تتمتعُ به ذاتُهُ المُقدسةُ من قدرات أهّلته لمعرفة تلك الأسباب الّتي أتى ذكرها آنفاً، يوضّحها وبنفس الأُسلوب البلاغيّ فأتى بحرف (ألا) للمرّة الثانية، ليفيد معنى الابتداء والتنبيه، وأضاف يقول في نفس الآية الكريمة: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وبمعنى أنّها لا تخفى على الله تعالى من ذلك كله خافية.

ولما كان في هذا البيان الإلهيّ يشكّلُ في حدّ ذاته ادّعاء ضخماً، وكان هذا الادّعاء بحاجة لإثباته بدليل ثابت الأركان فقد لاحظناه جلّ شأنهُ لم يلبث أن راح يُدلي بدليلِ مصداقيّةِ ما بيّنهُ وادّعاهُ وبأسلوب علميّ قائمٍ على الملاحظة والاستنتاج العلميّين وأضف يقول في الآية السادسة:

﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾

وقد استقى الله جلّ شأنهُ دليلهُ المطلوبُ وعلى حسبِ ما تضمنتهُ هذه الآية السادسةُ من واقعِ هذه الحياة الدُّنيا الّتي يُعايشُها الناس قاطبةً، وبتخليصٍ غير معيبٍ وبصياغةٍ بلاغية معجزةٍ تأخذ بمجاميع القلوب. فما هي معالمُ هذا الدليل العلمي المُشار إليه؟

أقول: إن أمكننا إثباتُ ما للدليلِ المشار إليه من حقيقة علميّة، وبمفهومنا المعاصر. يكون قد توفرَ بين أيدينا دليلٌ يَثبُتُ منهُ أنّ هذا القرآن العظيم لم يُنزَلْ من أجلِ مُعالَجةِ أحوال زمنٍ بعينه من بين الأزمان. بل إن رب العالمين قد أنزلهُ

لمعالجة أحوالِ كلّ زمانٍ ومكان.

ألا لقد تأسسَ هذا الدليلُ على مقدمةٍ وعلى نتيجة، وقد استند الله تعالى فيه إلى حقيقةٍ كونيةٍ مُستخلصةٍ من هذه المقدمةِ وتلكَ النتيجة. فالمقدمة والنتيجة المُستخلصة منها تضمنها قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا﴾. والحقيقة الكونية المُشارُ إليها تضمنها قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾. والأمر الّذي ترتب ذكرناه تضمنهُ قولهُ تعالى: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾. وإلى القارئ تفاصيل ما ذكرناه.

وأتناولُ النواحي البلاغيّةَ الواردةَ في هذه الآية الكريمة فأقول:

أولاً- إن صيغة ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا﴾ أتى تعالى فيها بحرف (إلاّ) الّذي تبادرُ للذهنِ منه دلالته على الاستثناء عموماً. على حين أنّ الله تعالى قد أورده في هذه الفقرة بمعنى (غير أنّ) وليسَ بمعنى الاستثناء. فكيف تبيّنا هذه الحقيقة؟ تبيّناها لورودِ جمعٍ مُنكر قبلها لمَا يُعرف من جهة. ولاستحالة إمكانية حذف موصوفِ الاستثناء في هذه الفقرة من جهةٍ أخرى، وبخلافِ كلمةِ (غير) الّتي لو وردت هنا عوضاً عن حرف (إلاّ) المذكور، لصحّ حذفُ الموصوف. (راجع محيط المحيط).

وقد كانت الغايةُ من هذه العمليةِ البلاغيةِ قلبَ مفهومِ الفقرةِ مكن دلالةٍ إلى دلالةٍ أخرى لصالح الدليل العلميّ المطلوب. فمن خلال هذه الخطوة البلاغية، تحوّلَ معنى هذه الفقرة المذكورة إلى معنىً آخر تقريري، وليُصبح تقديرُ قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللّهِ رِزْقُهَا﴾ أنّكَ لن تعثر أيها الباحث المحقق على دابةٍ في الأرض مهما كانَ حَجْمُها أو شكلُها، إلا وأن يكونَ الله الخالقُ قد هيأ رزقها وبما يُناسب حَجمَها وشكلَها يقيناً وبما ينفعُها ويحفظُها من كلّ ما يُهددُ كيانها

بالمرضِ أو بالزّوال.

فإن تأمل القارئ هذا المعنى الّذي نشأ عن تلك الخطوةِ البلاغيَّةِ الّتي نبَّهنا إليها يتأكدُّ حينئذ من صحة ما ذهبنا إليه. وإنَّ هذا المعنى الجديد وسّعَ دلالةَ الفقرة المذكورة فمنحها بُعداً علميّاً واسعاً فتسألني أيُّها القارئُ: عن كيفية ذلك؟

أقول: إن معنى الاستغراق الّذي أفاده قوله تعالى ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾، ما عاد بإمكاننا أن نُمرّ عليه مرورُ الكرام. بل لقد بات من واجبنا أن نستعرض ما على الأرض من دوابٌ وحيثُما تواجدت تلك الدواب لنحصي أعدادها وأنواعَها وأشكالها وفحصَ أجهزتها الباطنيّة ودراسة طريقة تناسلها وذلك كله فحصاً وتمحيصاً وبأسلوبِ علميٌّ أيضاً. لنُكوِّن فكرة شاملة وحقيقةً أشار إليها المعنى الّذي أفادته الفقرةُ المذكورة. ومن ثمَّ نقومُ باستعراض أنواع الأغذية الّتي تتغذى بها كلُّ فئة من فئاتِ تلك الدواب، وللإطلاع على أسلوبها في الحصول عليه، ومدى ملاءمته لأجهزتها الهضمية الّتي جُهزت بها، ولنستعرضَ أنواعَ الأمراضِ الّتي تُهددُها وأنواع الأدوية الطبيعية الّتي خُلقت من أجلِ مُعالجتها، وان ندرُسُ كيفية اهتداءِ كلِّ فريق من تلك الدوابِ إلى غذائه وإلى دوائه وبشكلٍ غريزيّ.

أن نقوم بكلِّ ذلك لتُساعدنا معرفتهُ على التعرُّفِ على مدى القُدُرات الّتي يمتلكها هذا الخالقُ الّذي خلقَ جميعَ هذه الدواب وعلى النحو الّذي ذكرناه، وعلى مدى علمه بذات الصُّدور، وأن نحيطَ علماً بكيفيَّةِ خلقِهِ تعالى لجميعَ هذه الأعداد ودواءِ وطريقةِ تناسُلٍ، وبشكل غريزيّ، ومن دون أن تحتاج إلى مناهجَ تعليميَّة. فهذا كلهُ إعجازٌ من جانبِ اللهِ الخالقِ على إعجاز.

إلا أنَّ العمليةَ البلاغيةَ الّتي أحدثها اللهُ جلَّ شأنُه في الفقرةِ الأولى من هذه الآية الكريمةِ وعلى النحوِ الّذي بيَّناه. يكفي أيضاً ليدفع الباحثين ليؤسسوا

مؤسسات بحث وعلى نطاق واسع للقيام بهذه المهمات جميعها، ومن مُنطلق إيماني، وليس من مُنطلقِ فكرٍ ماديٍّ بحت، كما هو جارٍ في عصرنا الحاضر.

ثانياً- ومن تلك الخطوات البلاغيَّة الّتي أجريتُ في هذه الآية الكريمة الّتي تضمَّنت هذا الدليلَ العلميَّ المُشارُ ليه، وهو أنّهُ تعالى أتى بالواو العاطفة والدّاخلة على فعل (ويعمل) وبحيثُ أفادت معنى الحال، ولِيُصبحَ معناها أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يخلقْ هذه الدَّوابُّ وحسب، بل ﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾. وفي هذه الحالة يكونُ اللهُ تعالى قد ثبّتَ أخرى. راجع معجم (محيط المحيط).

وعلى هذه الصورةِ تكونُ هذه الخطوةُ البلاغيَّةُ المذكورة قد أفادت معنىً تقريرياً لقوله تعالى الواردُ في الفقرة المذكورة. والّتي لولاها فما كان ليتبادر لذهنِ القارئ بدونها ما وضّحناه. وقد عادت تلكَ الفقرة تُفيدُ بأنَّ الله تعالى الّذي خلق جميع الدوابِ على الصورةِ الحاليَّة، ما كان يقدرُ أن يخلقَها كذلكَ لولا أنّهُ كان يعلمُ عِلمَ اليقين﴿مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾. وإنَّ هذا العلمَ اليقينيَّ المذكورُ هو الّذي مكّنهُ من أنْ يخلقَ هذه الدوابَّ على أشكالها وأحجامها وأنواعها وأجهزتها الّتي هي في صُدورها وطرائقَ تناسلها، ويخلقُ الأغذية المناسبة لها والمقصدَ الحقيقيّ الّذي تؤدّيه أيضاً في هذه الحياة الدُّنيا.

وبعدَ أن اصلَ بالقارئ إلى هذا الحدِّ من المعرفة والبيان. يسألني هذا القارئ مزيداً من الإيضاح، فأقول: لقد وردَ في معجم (محيط المحيط): تقوم استقر فلانٌ بالمكان استقراراً بمعنى ثبتَ وتمكّنَ وسكن. والمُستقرُّ هو موضعُ ومكانُ الاستقرار. أما القرَارَ فمعناهُ المطمئنُ من الأرضِ والمستقرُّ الثابتُ منها. وقد وُصِفَت النارُ في الآية من سورة (ص) بالقول (فبئس القرار). وقد وصفت الأرض في سورة (المؤمن) بصفةِ القرار أيضاً، حيث ورد فيها: ﴿جعل لكم الأرض قرارا﴾. أما بشأن قوله تعالى ﴿وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ فالمستودعُ اسمُ مفعول وهو مكانُ الحفظ

والوَديعة. وعليه يكون الله جلّ شأنهُ، ومن خلالِ قولِه تعـالى ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾ قد قسّم الحياةَ الدّنيا إلى قسمين هما المُستقرُّ والمُستودع. كما يكـونُ قد قسم حياةَ كلِّ كائنٍ حيٍّ على قسمينِ أيضاً: مرحلة مُستودعة إشارةً إلى المـدّة الّتي يقضيها الجنينُ في بطنِ أمه. ومرحلةُ مُستقرّه حيث يسكنُ ويستقر. كما يكونُ اللهُ تعالى قد قسّمَ أحوالَ الغلالِ إلى قسمينِ أيضاً: فالقسمُ الأوّلُ يتمثّلُ من خلالِ مرحلةِ وضعها في المستودعات والقسمُ الثاني يتمثّلُ من خلالِ مرحلةِ استقرارها في البُطونِ. كذلك يكونُ اللهُ تعالى قد قسَّمَ الحياةَ الدّنيا إلى مستودعٍ لهـذه الأنفـس ولأجسادِها، وأنَّ الحياةَ الآخرةَ هي المستقرُّ الّتي ستنتهي إليه. وقد جاء هذا التقسيم نابعاً من واقع كل شيء، وينطبق أيضاً على حياة الدّوابِّ الّتي تدبُّ علـى الأرضِ الّتي تُشكّلُ محورَ هذا الدليل العلميّ المطروح في هذه الآية الكريمة سالفة الذّكر.

فالله جلّ شأنهُ إذ قسمَ هذا التقسيمَ وقال: ﴿وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَا﴾ فكأنهُ تعالى قد قالَ بألفاظٍ أُخرى: ما دام الله تعلى قد ثبت أنّهُ هو الّذي أعطـى هذه الدوابَّ أشكالها وأحجامها وغيرَ ذلك مما ذكرناهُ، فيكون حال ذات الله تعالى أنه يعلم علماً يقينيّاً مُستقرَّ هذه الدّوابِّ ومُستودَعها. إذ لولا علمهُ اليقينيُّ بكـلِّ شيء فما كان باستطاعته تقدير كل شيء على وجهِ الضّرورة والكمال. لكان قد ظهرَ نقصٌ في أكثر من جهةٍ من الجهات المتعلّقة بهذه الدواب.

ثالثاً- ومن مظاهر هذه العملية البلاغية أنّ اللهَ تعالى قـد قـال في الفقـرةِ الأخيرةِ من هذه الآية الكريمةِ قال: ﴿كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾. والّذي نُلاحظه أنّ اللهَ تعالى لم يُورد أيَّ حرفَ عطفٍ في بداية هذه الفقرةِ من جهةٍ، وقد أتى بكلمة (كلٌّ) لتشمل أفرادَ جميعَ أفراد كلِّ (دابّةٍ) تدبُّ على الأرض (محيط المحـيط) مـن جهةٍ ثانية. كذلكَ أتى جلّ شأنه بكلمةِ (كتاب) ليس بمعناها المُتبـادر للأذهـان والشائع على الألسنة، بل بمعنى التّقدير. فصاحب معجم (محيط المحيط) أوردَ عـدّةَ

معانٍ لكلمة (كتاب) لا يتناسب منها مع سياقِ هذا الكلام الإلهيّ وسياقه هذا إلا معنى التقدير الّذي ذكرناه.

فالّذي كان قد تبادرَ لذهنِ المفسرينَ القدماء رحمهم الله من خلال قوله تعالى: أنَّ وجودَ جميعِ الدوابِ وأرزاقها ومستقرّها ومُستودعها، وهو مدوّنٌ في اللوحِ المحفوظ. على حين أنَّ العملية البلاغية الّتي ذكرناها ونبّهْنا إليها قَلَبَت هذا المعنى القديم المتبادرَ إلى ذهنِ القارئ من خلال هذه الفقرة، لصبحَ المعنى هو أنّ جميع ما طرحُ هذا الدليلُ العلميُّ الّذي توصلنا إليه، وهذه الحقيقةُ الكونية الّتي أسفر عنها بشأن كلّ ما يتعلق بوجود الدّوابّ في الأرضِ وما يتعلقُ بالمهمات الّتي تُؤديها بشكلٍ غريزي، إنما هو طرحٌ ثابتٌ وتقدير مبينٌ من جانبِ اللهِ العليم الحكيم. فهذا هو معنى قوله تعالى ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

ولربّما تساءلنا عن دلالة كلمة (مبين)؟ وعن كيف أصبحَ هذا التقديرُ مبيناً؟ وأي شيءٍ راح يُبيِّنه ويُوضحه؟ وما دلالةُ حذفِ مفعولِ كلمة (مبين)؟

أقول: لقد عُدنا نعلم من خلال ما سبق لي أنْ وضحتهُ بشأن هذا الحذفِ البلاغي، هو أنّ الغاية البلاغية من كلّ حذفٍ بلاغيٍّ من هذا النوع، يعمدُ إليه الكاتبُ من أجلِ توسيع المعنى ولتصريفِ الفعل لعدةِ اتجاهات. وعليه تُصبحُ هذه الحقيقةُ الّتي أسفرَ عنها هذا الدليلُ العلميُّ مُبينة وموضّحةً لهذه الحقيقةِ الّتي كان قد اشتملَ عليها الادعاءُ الّذي حاولنا إثباته. وهو أنّ الله تعالى يعلمُ حين ينطوي أصحابُ العقول التقليدية على شكوكهم، ولا يُبدونها ولا يسعون إلى تذليلها، فهو تعالى يعلم ما يُسرون وما يُعلنون، بداعي واسعِ علمهِ وواسعِ إحاطته ببواطن الصُّدور وخفاياها. فالخالقُ الّذي استطاعَ أن يخلقَ هذا الإنسانَ فهو يعلمُ مُستقرهُ ومُستودعهُ، والمقصدَ من حياته أيضاً.

وعلى هذه الصورةِ ومن خلالِ تقديم هذا الدّليل العلميّ أمكنه تعالى ومن خلالِ ما أنهى به هذه الفقرةِ الأخيرةِ العودةُ إلى الموضوع الأصليّ الّذي دارَ الكلام

عنه قبلَ تقديمه تعالى لهذا الدَّليل العلميِّ. فكيف عاد اللهُ جلَّ شـأنه إلى موضـوع السورةِ الأصلي؟ فهذا ما سنلاحظهُ من خلالِ تدبُّرنا الآية السابعةَ الَّتي راحَ تعـالى يقولُ فيها:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاء لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

فكيف حققَ تعالى هذه العودة إلى الموضوع الأصلي؟ فهل أجرى ذلك على نسق ما يفعله الكُتّاب يقولون لنعُد على أصل الموضوع. أم أنه اختار أسلوباً مُتميزاً عن جميعِ ما تعارفَ عليه الأُدباءُ والكُتاب؟

والحقُّ يُقالُ إنَّ كلمة (مبين) نفسها قد ساعدتْ على العـودة إلى أصـل الموضوع. فالله تعالى قد نبّه من خلال حذف مفعولها، على أنّه مادام قد ثبت مـن خلال الحقيقة الَّتي أظهرَّها هذا الدليل، بأنّه تعالى كان قدّر لكلِّ نوع مـن هـذه الدَّوابِّ مقصداً يؤديه، فلا يُعقل أن يكون قد خلق هذا الكون اللانهائي مـسخراً لصالح هذا الإنسان، ولا يكون لوجودِ هذا المخلوقِ مقصداً أسمى لحياتهِ ولا يكونُ مكلّفاً بالسّعي على تحقيقه.

فبهذا الأسلوبِ الذّكيِّ عاودَ اللهُ جلَّ شأنهُ وبعد كلمة (مبين) يوضّح هـذا المقصد الأسمى وحيثياته، ولذلكَ لاحظناهُ جلَّ شأنهُ وقد أضافَ بعـدها يقـول: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، وبمعنى فكّروا أيّها العقلاء كيفَ أنّهُ بعد أن ثبتَ لدى العلماء أنّ خلق هذا الكونِ وما فيه من دوابٍّ قد مضى عليه مليارات الأعوام ومرّ خلالها بستة أيّام أي بستة أدوار، من باب أنّ اليـومَ يُطلـقُ أصلاً على مطلقِ الزمن، فقد ثبتَ علميّاً أنَّ خلقَ الله لهذا الإنسان قد تمّ بعدَ مُرورِ تلكَ الأدوارُ السِتّةِ، وهلْ يُفهمُ من خلالِ ذلكَ إلاّ أنّهُ تعالى قد أجّلَ خلـقَ هـذا

الإنسان من أجلِ أن يُهيّئَ لهُ أسبابَ بقائه ودوامه ورقيِّه وتطويره؟. فهل تتقبّل عقولكُم أن يُقدمَ خالقكُم على تحقيق ذلك كلّه على تلكَ الصورة من دون أنْ يكونَ اللهث تعالى قد جعلَ لخلقه إياكمْ مقصداً ينبغي أنْ تسعوا إلى تحقيقه.

ثمّ قارنوا ما بين ما مَنحكم اللهُ خالقُكم إيّاهُ من قوى فطريةً، واستعدادات روحيّةً، وما بين ما منحه تعالى لهذه الدواب من قوى فطرية واستعدادات وهي المُسخرةُ من أجلكُم. فهل تصحُّ المقارنةُ بين الطرفين؟ وما دمتم أرقى خلقاً وقوىً، فكيف يجعل الله تعالى لكلّ دابة مقصداً لحياته، ولا يكون قد جعل لحياة الإنسان مقصداً.

وأضاف تعالى يوضح للقارئ كيفيّةَ تسيير الله تعالى لمجريات الأمور في هذا الكَونِ قبلَ أن يخلقَ هذا الإنسانَ وقال: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾. بمعنى أنّه ما كانت هنالك من وسيلة سوى أنّهُ جلّ شأنهُ كان يوحي ويُصدرُ أوامره إلى ملائكته، وكانتْ ملائكةُ الرحمن يفعلون ما يؤمرون، فكانوا يهيئون أسبابَ خلق كلّ شيء ووفقَ مشيئة ربّهم. وعلى اعتبار أنّهُ قُصدَ بكلمة (الماء) في هذه الآية الكريمة وحيَ الله تعالى وعلى سبيل الاستعارة. ومن باب أن الله تعالى قد جعل من الماء كل شيء حيّ. وهو الأمرُ الثّابتُ علميّاً أيضاً. كذلك فالعرش كلمةٌ استُعيرت كمصدر بمعنى قوام الأمر في هذا المقام. هذا المعنى الوارد في (محيط المحيط). أي أنّ قوامَ خَلْقِ هذه السماواتِ والأرضَ كان مدارهُ الوحي السماوي الحاملُ لأوامرِ الله عزّ وجلّ.

ومن ثمّ لاحظنا أنّ اللهَ تعالى قد أتى بلام التعليل، وليعللَ بها أسباب إبداع الله تعالى لهذه السماوات والأرض، ولتعليل المقصد من خلقها، وقال: (ليبلُوكُم) فاشتق هذا الفعل من بلاهُ أي جرّبه واختبره وامتحنه (محيط المحيط).

وقد راحَ اللهُ تعالى يُعطينا فكرةً عن الفلسفة الّتي حملتها هذه الكلمة وعن

موضوعها وقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. وهذا الكلامُ يتطلّبُ منّي الإفاضةَ في شرحِ هذا الكلامِ البلاغي. بسببِ أنّه كلامٌ بليغ ومستملٌ على حذفٍ بلاغي أيضاً وليربط اللهُ تعالى به ما بين دلالةِ هذه الفقرة وما بين دلالةِ الآيةِ الآتيةِ الّتي وضحت المقصدَ من خلقِ هذا الإنسانِ من قبلُ، والّتي قال تعالى فيها هنالكَ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾. ومن أجلِ أنم يتجلى من خلال ذلك كُلّه عظمة التسلسلِ الموضوعيّ والنظم البلاغيّ المُعجزِ الحادثُ في هذه الصِّياغة الّتي صيغت بها هذه الآيات الكريمة.

فقولهُ تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قد تضمّنَ أمرينِ اثنين: الأوّل أنّ هذه الحياة الدنيا إنّما تقومُ فيها عمليّةُ امتحان وابتلاء لهذا الإنسان. وعندما نقول امتحاناً وابتلاءً له، فمن واجبنا أن نضعَ في اعتبارنا أنّ عمليّة الامتحانِ هذه تكون عارضةً وغيرُ دائمة. ويكونُ المكانُ الّذي تجري فيه الامتحانات مُؤقتاً أيضاً ويُستعملُ فقط للمدّة الّتي تتطلّبُها هذه الامتحانات أيضاً. هذا من جهة ثانية ومن جهة ثالثة فإنّ عمليّة الامتحان تقتضي الإخفاء: تقتضي من المُمتحنِ إخفاءَ الأسئلة عن الطلابِ والّتي يريدُ منهم أن يُجيبونهُ عليها، وإخفاءَ الكُتبِ المطلوبةِ من بين أيديهم وغيرُ ذلك من أمورٍ تتطلّبُها عمليّةُ الامتحان. ومتى يعمدُ الممتحنُ إلى الإظهار؟ فلا يعمدُ إليه إلاّ حينَ إعلانِ النتائج وهو المسمى في كتابِ اللهِ تعالى بدار الجزاء.

وعلى هذه الصورةِ تكونُ كلمةُ (ليبلوكُم) قد تضمّنت الإشارةَ إلى وجودِ عالمينِ كونيّين هما عالمُ الابتلاءِ وهو هذه الحياةُ الدُّنيا. إضافةً إلى العالمِ الّذي سمّيناهُ بدارِ الجزاء هذا العالمُ الّذي يأتي بعد موتِ هذا الإنسانِ حيثُ يُثابُ المرءُ فيه أو يُهان. وهذه الدّلالاتُ تفسّرُ وجودَ جوانبِ الغيبِ الخفيّة عن أنظارنا، وتستدعي من طرَفنا الإيمانَ بالغيب.

والأمرُ الثاني الّذي تضمنهُ قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ هو أنّ عملية الامتحان والابتلاء هذه تنحصرُ في نطاق أعمالِ الإنسان، ولـ يس في شيء آخر سواها. لذلك كانَ من واجبِ هذا العامل الّذي يعملُ أن يضعَ نـ صبَ عينيه أن يعملَ وفقَ ما أنزلهُ الله خالقهُ من أجل إصلاحه من تعاليمَ سماويّة. ذلكَ أنَّ مفاهيم الخير والشرِ تظلُّ مبهمة إلى أن يتبيّن المرجعُ والميزانُ الّذي تُقـ ـاس عليـ ـه وليعملَ الإنسانُ بموجبِ مُعطياته.

ثمَّ إنّ لكل عملٍ من أعمال الإنسانِ نتائجه الخافيّةُ عن الأنظار في هذه الحياةِ الدُّنيا الّتي هي بمثابةِ دارٍ للابتلاء وللامتحان. وقد قامَ الله جلَّ شأنهُ بإخفائها عـ ـن أنظار عبادهِ الّذينَ يمتحنهم والغرضُ من ذلكَ ليقومَ سبحانه وتعالى بعَرضِ نتـ ـائجَ الأعمالِ الخفيَّة عن الأنظار والُمشارُ إليها لإظهارها للناسِ في الدارِ الآخرةِ الّتي تأتي بعدَ الموت مكشوفةً للعَيان.

هذا وإنّ كلمة (أحسن) الواردة في قوله تعالى. هي صيغةُ تفضيلٍ لتُشيرَ إلى روحِ التّسابق الضّروريّة في ميدان التّسابُقِ في العملِ الّذي يتطلّبهُ كسبُ رضى هذا الخالق الّذي يمتحنُ هذا الإنسانَ في نطاق أعماله.

وعلى هذه الصورةِ يتبيّنُ لأعيننا كيفَ أنَّ اللهَ جلَّ شأنهُ قد نبَّهَ أذهاننا مـ ـن خلال قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ إلى فلسفة هذه الحياةِ الدنيا وكيفَ أنّها محطةُ امتحان وابتلاء. كما يكونُ قد نبَّهنا في الوقتِ نفسه إلى الحكمة الّتي دَعتِ الله جلَّ شأنهُ إلى أن يخلق هذا الإنسان حُرَّ التّفكيرِ وحرَّ العملِ واتخـ ـاذ قراره بنفسه. وهو معتقدٌ أنّ هذه الحياة الدنيا إنّما هي ساحة سباقٍ على صـ ـعيدِ العملِ الصالحِ. وأنّ من العمل ما هو خير ومنهُ ما يكون شرّاً. فإن شاء هذا الإنسان المخلوق التمييزَ ما بين الخيرِ والشرِّ، فما عليه إلا أن يدرس أسماء الله الحسنى الّـ ـتي تتصّفُ بها ذات خالقه عزّ وجلّ، وأن يتّخذَها ميزاناً ومعياراً للتفريقِ بين ما هـ ـو

خيرٌ وبين ما خز شرّ. وأن يعمل على محاولة التخلُّق والاتّصاف في عمله بما يساعده على إيجاد حالة تجانُسٍ ما بينَ ما يفعلهُ ويعملهُ وما بين ما تحلّت به صفات ربّه عزَّ وجلَّ عليه في هذا الكون الفسيح. وبذلكَ يكون اللهُ جلَّ شأنهُ ومن خلال قول ـه ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، يكون قد حثنا على أن نتأسى بصفة اللهِ الرحمنِ الّ ـذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلقَهُ دون مقابل. وبصفة ربِّ العالمين لنسعى إلى محبّةِ جميع خلقِ اللهِ ولنساعدهم على تطوير أنفسهم ليهتدوا إلى السبيل القويم وليبلغ ـوا رش ـدهم أيضاً.

أقول: بهذا الأسلوب المتميزِ وبهذا النّظمِ البلاغيِّ المُعجز. قد أعادنا صاحب هذا الكتابِ العزيز الحكمةُ آياته إلى أصلِ الموضوعِ الّذي يختتمُ هذه السورة وم ـن بعد أن أجابَ على تساؤلاتنا الافتراضيةِ بإجابات علميّة مُقنعة. ومُوضِّ ـحاً م ـن خلالها فلسفةَ هذه الحياة الدُّنيا بألفاظٍ معدوداتٍ ومنبّهاً من خلال ذل ـك ذه ـنَ الباحثِ المحقّقِ إلى وجودِ الحياةِ الآخرةِ والبعثِ بعد الموت.

ومن ثمَّ راحَ اللهُ جلَّ شأنهُ بعد ذلك يضيفُ ويُشيرُ على وجود سببٍ ثالثٍ يحولُ بينَ الناسِ وبينَ إقدامهم على الإيمان بربِّهم عزَّ وجلّ، وبنفس هذا الأسلوبِ من النظمِ البلاغيِّ المُعجزِ، وقال: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

فهو تعالى أتى بكلمةِ (سحرٌ) الّتي لها أكثر من معنى. فأنتَ تق ـول: س ـحر فلانٌ فلاناً أي خدعه. والسحرُ هو عمليةُ إخراجِ الشيءَ في أحسنِ معارضهِ وعلى حدِّ الافتتان، لذلك يُقالُ عم الجمالِ الفائقِ إنّهُ سحرٌ (محيط المحيط).

والمهم في الأمر هو أنْ نُحيط علماً بهذا السبب الثالث الّذي يقف على طريق إيمان المرءِ كعقبةٍ كأداء، وقد حصرهُ اللهُ ربُّنا في موضوعِ (ظن السوء). إذ توج ـدُ شريحةٌ من الناسِ، لا تُحاكمُ ما يُلقى على أسماعها من تعاليم ومن مواعظَ ونصائحَ

يأتي بها رسلُ الله تعالى. وتفعلُ ذلكَ من جراءِ غلبةِ سوءِ الظن على عقولِ أفـ ـراد هذه الطبقةِ من الناس. فبدلاً من أن يُحاورَ الواحدُ منهم ويُحقِّقَ في مصداقيَّة مـ ـا يأتي به رُسلُ الله الكرام. يذهبُ ذهنُهم إلى أنَّ للذي يعظُهم مـ ـصلحةً شخـ ـصيةً عندهم ومطلباً ويسعى على تحقيقه. فلذلكَ يتّهمونهُ بالسحرِ وبالخداعِ وبإبرازِ الأمرِ على غير حقيقته. وقد عبر اللهُ تعالى عن حالتهم تلكَ بأسلوبهِ البلاغـ ـيِّ وقـ ـال: ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

وهكذا يتبيّنُ للقارئِ مدى إعجاز نظم آيات هذا الكتاب السماويِّ العزيزِ الّذي يمثل واسعَ رؤية الله وواسع شموليّتها جميعَ صُعدِ الحياةِ بسبَبِ أنّهُ مُنزلٌ ﴿مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، وهي آياتٌ يتبادر من مُعطياتها لأوّلِ وهلّةٍ، معاني تختلـ ـفُ كثيراً عن مضامينها الحقيقية. تلكَ المضامينُ الّتي لا تُدرك إلا إذا عمد هذا القارئ إلى تدبرِ هذه الآيات وفقَ مَنهجيَّةِ كتابِ الله وأصول تفسيره.

وقبل أن ننتقلَ إلى شرحِ الآية الكريمةِ الثامنةِ الّتي بعدها، أرى من المُناسبِ أن أكشفَ عن حقيقةِ مضمونِ ما اشتملَ عليه قوله تعالى: ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ من نُكاتٍ بلاغيَّة. فأنتم تُلاحظونَ أنَّ الله تعالى استهلّها باللم الّتي هي إنْ دخلت على فعلِ المُضارعِ نصبتهُ بأنْ مُضمرة بعدها وبعيد ـها (محـ ـيط المحيط). وفي وقتٍ توهمُ فيه هذه اللازم أنّها لامُ التّعليل، ولذلك ورد فعلُ (يقولنَّ) بعدها منصوباً.

والناحيةُ الثانيةُ تجلّت في أنَّ اللهَ تعالى أتى بحرف (إنْ) مُخفف ـاً مـ ـن (إنَّ) الثقيلة، ونصبت في الوقتِ نفسه المبتدأ ورفعت الخبر بعدها ولذلكَ قال تعالى بعدها ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. كذلك أتى تعالى بحرف (إلاّ) الّذي تغلبُ دلالتهُ على الاستثناءِ والحصر، بينما أوردهُ هنا زائداً لا عملَ له. وعليه فإنَّ الإنسانَ الّذي لا يتدبَّرُ هـ ـذا

الكلامَ البلاغيَّ على الصورةِ الّتي قُمنا بها لا تتضحُ لهُ دلالاتُهُ الحقيقية.

واستناداً إلى ما بيّناهُ آنفاً فقد عاد قولُ اللهِ تعالى: ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعني أنّ الكفار دأبوا دوماً على ظنِّ السوءِ عموماً برُسُلِ اللهِ وأنبيائه عوضاً عن أنْ يُحاوروهم وأن يُحاولوا تبيُّنَ صدقهم. فهم كانوا يظنّونَ أنَّ رُسُلَ اللهِ يأتونهم بعقيدة البعث بعد الموت، من قبيل الخداع ومن قبيلِ تلوين الباطلِ وزخرفتِه وهو ما عبَّرَ تعالى عنهُ بكلمةِ (سحر)، حال أنَّ ظنونهم الفاسدة ما قامت في يومٍ من الأيّام على أساسٍ من الحقيقةِ متين.

فلمّا فرغَ اللهُ تعالى من عمليَّةِ الكشفَ عن السببِ الحقيقيِّ الكامن وراء كُفرِ الكافرين وعن عدم إدراكهم بأنَّ اللهَ تعالى يُرسلُ هؤلاء الرُّسلِ لتصحيح ما توارثه هؤلاء الناس من عقائدَ مَوروثة. ولتذكيرهم بالمقصدِ الحقيقيِّ من حياتهم وفلسفتها. فقد راح اللهُ تعالى يوضح للقارئ حقيقةً كونيَّةً مترتبة على فلسفة الامتحان والابتلاء الّتي تضمنها قوله تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ...﴾. وهي أنّ عملية الامتحان هذه الّتي تحدُثُ في هذه الحياة يعقُبها دوماً فترةُ إعلانٍ للنتائج المترتبة على ذاكَ الامتحان وفي هذه الحياة الدنيا أيضاً. لذلكَ نلاحظهُ تعالى راح يُشيرُ إلى هذه الحقيقة وذلكَ في هذه الآية الكريمة الثامنة ويقول:

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾

وليلاحظ القارئ كيفَ أنّي لم أقتبس لهُ حتى الآن ما فسَّرَ بهِ المفسرونَ القدماء الآيات السبعة السابقة الّتي قمتُ أنا بتدبُّرها وفقَ منهجيَّةِ القرآنِ الكريمِ وأصول تفسيرهِ الّتي فتحها اللهُ تعالى عليَّ بفضلٍ خاصٍّ منه. والّذي منعني من ذلكَ و أنَّ جميع معانيها كان جديدةً وتُغايرُ ما ذهبت إليه أذهانُ المفسرينَ القدماء

رحمهم الله. لكنَّ القارئ سيلاحظُ بعد الآن كيفَ أقتبسُ لهُ بعضاً مما كـ ـانوا قـ ـد فسّروا به آيات هذه السورة العظيمة وبما كانَ يتبادر لأذهانهم ومن دون أن يتقيّدوا بتلك المنهجيَّة وتلك الأصول.

فالّذي تبادرَ لذهنِ العلامةِ الفخرِ الرازي رحمهُ اللهُ من هذه الآيـ ـة الكريـ ـة الثامنة قولهُ وهو يفسّرها: (اعلم أنّه تعالى حكى عن الكُفّار أنّهم يكذّبونَ الرّسول (ص) بقولهم: ﴿إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. فحكى عنهم في هذه الآية نوعاً آخر من أباطيلهم وهو أنه متى تأخر عنهم العذابُ الّذي توعدهم الرّسول (ص) به، أخذوا في الاستهزاء ويقولون: ما السبب الّذي حَبَسه عنّا؟ فأجاب الله تعالى بأنّهُ إذا جاء الوقتُ الّذي عينهُ الله لنزُولِ ذلك العذاب الّذي كانوا يستهزئون به، لم يـ ـصرفونْ ذلك العذابُ عنهُم وأحاطَ بهم ذلك العذاب).

فهذا المعنى هو المعنى الّذي تبادرَ لذهنهِ رحمه الله تعالى من هذه الآية الكريمة بسبب عدمِ تدبُّرهِ إياها أُصولياً ووفقَ منهجيتّها، ولعدمِ ربطه دلالتـ ـها بتسلـ ـسُلها الموضوعيِّ البالغ السبك والقائمُ على النّظم البلاغي المُعجز. أمّا وقد أحطنا علمـ ـاً بالنواحي البلاغيةِ الّتي ذكرناها من قبلُ والدّالة على أسلوب طرحِ الآية لأفكارها، وعلى ضوءِ معطياتِ قولهِ تعالى من قبلِ ذلك، قولهُ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾. فيتجلّى لعيينا معنىً أعمقَ من المعنى الّذي تبادرَ لذهنِ الرازي رحمهُ الله.

والحقيقة كما أرها هي أن الله تعالى راح يُلقي الضوءَ على المرحلـ ـة الّـ ـتي تعقُبُ عمليةَ الامتحان والّتي تُعلنُ فيها نتائجهُ. وليوضّحَ لأذهاننا قانوناً قدرياً قـ ـد سنهُ اللهُ تعالى لنُصرةِ وتأييد رسلهِ الكرام الّذينَ يُكذّبهم أصحابُ العقولِ التّقليديّـ ـة القائمة أفكارها على مجرَّد الظنون. وهو قولهُ تعالى في الآية (٥١) من سورة غافر: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) وليشيرَ إلى فتـ ـرة إعلان هذه نتائجَ الامتحانات والّتي تتجلّى أخيراً فيما يحلُّ بالكُفرِ وبالكافرين مـ ـن

هزيمةٍ في آخر المطاف، وكيفَ أن العاقبةَ الحسنةَ تكونُ لصالحِ المؤمنين.

وعليه لنتدبّر صياغةَ هذه الآيةِ الكريمة، ولنتبيّن منها دلالتها على النتائج المرجوّةِ من الإيمان ومن عملِ الصالحاتِ وعلى النتائجِ المترتبةِ على سوءِ الظنِ والكُفرِ والعصيان، ولتتضح لنا من خلالِ ذلك عظمةُ هذا النظمِ البلاغيّ المُعجز وضمنَ هذا التّسلسُلِ الموضوعي لهذه الآيات القرآنية العظيمة.

فالّذي نلاحظه أوّلَ ما نُلاحظهُ هو أنّ اللهَ تعالى قسم هذه الآية الكريمة إلى شطرين. وقد فصلَ بينَهُما بحرف الابتداء والتّنبيه (ألا). وليَنبّه اللهُ تعالى أذهاننا من طرفٍ خفيٍّ إلى أن إعلانَ نتائج الامتحانِ لا تُعلنُ بعد إعلان النبيِّ المُرسلِ لدعوته مُباشرةً. بل لابد أن تُترك فترةً زمنيةً لامتحان هؤلاءِ الناس المُرسَل إليهم هذا الرسول ومن حضروا ذات الإعلان. حتى إذا مَضتْ تلكَ الفترةُ الزمنيّةُ وأثبتتَ المؤمنون ثباتهم على التعاليمِ الّتي أنزلها ربُّهم لصالحهم، وبقيَ الكفارُ على كُفرهم وعلى ظنهم ظنَّ السوءِ بهذا الرسول، حينئذ يأتي وقتُ إعلان نتائجَ ذلكَ كلهِ فينزلُ العذابُ بساحةِ الكُفار، وتكونُ العاقبةُ للمؤمنينَ المتّقين.

فليلاحظ القارئ كيفَ أتى اللهُ تعالى بكلمةِ (أمّة) لتعني طائفةً من الناس (محيط المحيط) كما أتى بكلمةِ (معدودات) ليشيرَ بها على أنّ إعلانَ نتائجِ الامتحان يأتي بعد تبيُّنِ أعمالِ هذهِ الطائفةِ من الناس ويكونُ قد انتهى هذا الامتحان وحينئذٍ يحينُ وقتُ إعلان نتائج الامتحان.

ولما شاءَ اللهُ تعالى توضيحَ حقيقةَ سوءِ ظنِّ الكُفار برسول الله، وحقيقةَ انطوائهم على أنفسهم، وهو الأمرُ الّذي سيزيد من شكوكهم على مرّ الأيام، ويزيدُهُم بُعداً عن ربهم ومعاداة لرسُله الكرام، فإنّ هؤلاءِ المكذبينَ تعودُ تتملّكُهُمُ الجرأةُ بعدَ ذلكَ للمطالبةِ بإنزالِ العذابِ الّذي أنذرهم به ورسولهم. وقد عبّرَ تعالى عن ذلكَ كلهِ بكلمتينِ اثنتين وقالَ بحقِّ هؤلاءِ الكفار: ﴿ليقولُنّ ما يحبسُه؟﴾. وبذلكَ يكونُ اللهُ تعالى قد أنهى من خلال هذا الشطر الأول من الآية ما شاء تنبيه

أذهاننا إليه بما يتعلّق بالمرحلة الأولى الّتي تعقّب الامتحان والّتي تُعلن بعدها نتـائج الامتحان.

ومن ثمّ بدّل تعالى أسلوبهُ الإخباريَّ وعمدَ إلى أسلوبِ الجزمِ ليجزمَ القـولَ بما يتعلّقُ بنتائجِ ما يأتي به الامتحانُ من أمور. فأتى تعالى بحرف الابتداء والتنبيـه (ألا) وراح يقول: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. ومعنى أنّه يومَ يحلُّ موعدُ إعلانِ نتائجِ الامتحانِ المشارُ إليه، سـيترلُ العذابُ بهؤلاءِ الكُفارِ لا محالة وتحلُّ بهم عاقبةُ كفرِهم وعصيانهم وما كـانوا بـه يستهزئون. ولتعلوا كلمةُ الحقّ نتيجة لذلك وبصورة طبيعية وتكونُ العاقبةُ الحسنةُ للمؤمنين المتّقين الّذين صبروا طوال مُدة الّذي جرى على صعيد الأعمال.

فعلى أساس من هذه المعاني الّتي تجلت لأعيننا واستناداً إلى الأصلِ التفسيريّ الّذي نبّهنا إليه كلامُ الله تعالى في مُحكم كتابه العزيز. فعلى أساسٍ منهُ ومن المعاني الّتي برزت لأعيُننا، وخلافاً لما تبادر لذهنِ الرازي رحمه الله، فقد عادت تتجلـى لأعيننا عظمةُ هذا النظم البلاغي المعجز الّذي صيغت به هـذه الآيـة الكريمـة، وبموسيقيّة تُشنّفُ الآذانَ وتخشعُ من جراءِ وقعها الأفئدةُ الّتي هي في الصدور.

ثمّ إنّ هذا الطرحَ بأنّ هذه الحياةَ الدنيا هي حلبةُ امتحان على صعيدِ أعمالِ الإنسانِ، فإنّ هذا الطرح المذكور يقتضي من جانبِ الله تعالى أن يُطلعنا بعدهُ على بيان آليّة عمله. لذلكَ نُلاحظُ أنّه جلَّ شأنهُ ما إن فرغ من الكلامِ عن الكلامِ عن عمليةِ ونتائجِ الامتحانِ المذكور، إلا وتوجه لبيانِ هذه الآلية. فخـصص لبيانهـا وشرحها ثلاثة آيات بيّنات، اثنتان منهما تشرحُ أحوالَ الكفار، والثالثـةُ تـشرحُ أحوالَ المؤمنينَ والمتعلّقة بنتائجِ هذا الامتحان. بمعـنى أنّ الله تعـالى راحَ يوضـحُ للقارئ وجهَ الجانب العمليّ لفلسفةِ الابتلاءِ الّتي وضّحها في الآياتِ من قبل.

فقد راح اللهُ تعالى يبيّن أنّ هذه الحياةَ لا تستقرُ على حالٍ واحدةٍ. بل تتغيّرُ

دوماً ومن جميع الجهات أيضاً. وأنّ الغرضَ من ذلك كله أنْ يُمتحنَ هذا الإنسان في جميع تلكَ الأحوال على صعيدِ أعماله، ليتبينَ مدى تحمُّله لمسؤولية حياته، ومدى صبره على ما مُواجهةِ عقابِها ومدى تقديرِه لنعمها الّتي أسبغها اللهُ تعالى عليه.

وليلاحظ القارئ الآن الخطواتِ البلاغيَّة لتي خطاها جلّ شأنه في الآيتين المتعلّقتين بوصف حال الكفار وسط هذه المتغيّرات. فهو تعالى كان يستهلُّ كلَّ آية منها بقولهِ (ولئن). وهو نفسُ الاستهلال الّذي استهلّ به الآية الآنفة الذكر، كما أتّى في الآية الأولى بكلمة إنسان مُعرّفةً بالألف واللام ليُشيرَ بذلك على أنّهُ ما يزال يتكلم عن حالِ الكفّارِ المعهودين الظّانينَ أنهم يحتفظونَ بإنسانيتهم وهم يستهزئون برسُل الله تعالى وبأنبيائه الكرام. ومن خلال قوله تعالى (منّا) كخطوة ثالثة على طريق الصياغة البلاغية، يكونُ قد أوحى لأذهاننا جلّ شأنه بأنّ كُلّ ما يحدث في هذه الحياة الدنيا من متغيرات، يكونُ مصدرها الله تعالى نفسُهُ الّذي هو مُسبّبُ الأسباب. وأضافَ بعدها كلمة (رحمةً) وليُصبح (منّا رحمةً) لينسبَ في الوقت نفسهِ ظاهرةَ التعطُّف والتّرفُّق والغُفران المُتجلّية ضمنَ هذه المتغيرات، لينسبُها إلى نفسهِ عزّ وجلّ أيضاً. وقد راحَ تعالى يقولُ بعد ذلك (ثمّ نَزعناها منه) ومعنى نزعناها عطّلناها وأفسدنا. حيثُ تقولُ: نزعَ فلانٌ الشيءَ ومعناهُ عطّلهُ وأفسده (محيط المحيط). ومن ثمّ أتّى تعالى بحرفِ التوكيد (إنّ) ليصفَ حقيقةَ حالِ الكافرِ خلالَ ذلكَ كُله وقال: ﴿إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾. بمعنى أنّ حالَ هذا الكافر الّذي يجهلُ فلسفةَ هذه الحياةِ الدُّنيا والمتعلّقة بأعماله، تناوبُهُ هذه الحالاتُ وتدفعُهُ حالاتُ يأسه إلى الكفرِ بنعمة ربه الّذي رحمه بها وأنعمها عليه. بل ويعمدُ أحياناً من شدَّة يأسه إلى الانتحار. فهذا هو معنى قوله تعالى في الآية التاسعة:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ﴾

ومن ثمّ راحَ جل شأنه يصفُ الوجه الآخر لحياةِ هذا الكافرِ الجاهلِ بفلسفةِ الحياةِ على صعيد الأعمال. فاستبدلَ اللهُ جلَّ شأنهُ الأسماء بضمائرها، تنبيهاً مـ ـن جانبه تعالى إلى أنّهُ مايزالُ يشرحُ حالَ هؤلاء الكُفار. واستمر بقولُ (ولئن) ولُيبقي على التجانس بين وقع الآيات في نفسِ السامعِ. كذلك استبدلَ كلمـ ـة (رحمـ ـة) بكلمة (نعماء) وهي جمعُ نعمةٍ وتفيدُ معنى الحالةِ الّتي يستلذُّها الإنسانُ إذا وافقتْ هواه وعلى حسب قول صاحب التعريفات. كما تعني كلمـ ـةُ (النعمـ ـةُ) النفـ ـعَ والإحسانَ الّذي يُصيبُ العبدَ، لا لغرضٍ ولا لعوضٍ على حسبِ قولِ صـ ـاحبِ التعريفات (محيط المحيط). كذلكَ أتى تعالى بكلمةِ (ضراء) لتُفيدُ تقلُّبَ أحوالِ هذه الكافرِ وقال: ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾. علماً بأنَّ السيئةَ تعني الخطيئة. فوصفَ تعالى حال هذا الكافر الذائق طعم النعمة النازلة عليه، بأنه يعودُ يظنُّ أنَّ الله تعالى قد غفر له خطاياه وهو الآن يُنعمُ عليه. حالَ أنَّ الله تعالى قد غفرَ له خطاياه وهو الآن يُنعمُ عليه. حال أنَّ الله تعالى يمرره من حالاتٍ مُتغيرات، فهو مرّره قبل هـ ـذه الحال بحال ضرّاءَ مسّتهُ، والغرض من هذه المتغيرات كلِّها كـ ـانَ لمجـ ـرَّد ابتلائـ ـه وامتحانه ليس إلا. ووصف اللهُ تعالى حقيقةَ هذا الكافرَ بعدَ أن صـ ـارَ إلى الحالـ ـةِ الجديدةِ وقال: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾، أي أنّه بعد تلقيه هذه النّعماءَ ينقلبُ إلى حالـ ـةِ سرورٍ وتفاخرٍ وينسبُ تلكَ النعمةَ الإلهيّة إلى جَهْدِه وتحصيله. وهذا كُلُّهُ قد شكَّلَ معنى قوله تعالى في هذه الآية العاشرة:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾

وهكذا تكونُ قد جاءت هذه الآية الكريمةُ مُصاغة صياغةً مُعجـ ـزةً حقّـ ـاً. ويكونُ اللهُ تعالى ومن خلال هاتين الآيتينِ الكريمتين قد أعطانا فكرةً واضحة المعالمِ تصوّرُ لنا الأحوالِ الّتي يتقلّبُ من خلالِها الكافرُ وهو يُواجـ ـه مُـ ـتغيراتِ حياتـ ـه اليوميّة.

ومن ثمّ أتى اللهُ تعالى بالآية الثّالثة ليصفَ من خلالها أحوالَ المؤمنينَ بوجودِ اللهِ عزَّ وجلَّ وفي مقابلِ أحوالِ الكُفّارِ الّذينَ وصفَ أحوالهم في الآيتين السابقتين الذكر والجاهلينَ لفلسفةِ هذه الحياةِ الدنيا والنتائجِ المترتبةِ عليها. وقد راحَ اللهُ جلَّ شأنهُ يستثني من نوعِ الإنسان فئة المؤمنين الّذينَ باتوا مُحيطين بعلمٍ فلسفةِ حياتهمُ الدُّنيا، وأنّ ما يُواجههُم فيها من مُتغيراتِ الغرضُ منها ابتلاؤهُم وامتحانُهم ليعلمَ ربُّهُم مدى صبرهم وثباتهم على عملِ الصالحاتِ، فاستثناهُم وراحَ اللهُ تعالى وقالَ بشأنهم في الآية الحادية عشرة وقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

ولنستمع قبلَ إبداءِ رأينا في تفسيرِ هذه الآية الكريمة إلى رأي الرازي رحمه الله والّذي أبداهُ بشأن معاني هذا الاستثناء الّذي ذكرتهُ هذه الآية الكريمة وما نقلهُ من أقوال. فهو كتبَ يقول: (لفظُ (الإنسانِ) في هذه الآية فيه قولان: القولُ الأولُ: أنّ المرادَ منهُ مُطلقُ الإنسان ويدلُّ عليه وجوه. الأوّلُ أنّهُ تعالى استثنى منهُ قولهُ ﴿إلاّ الّذينَ صبروا وَعَملُوا الصَّالِحَاتِ﴾ والاستثناءُ يُخرجُ من الكلامِ ما لولاهُ لَدخل. فثبت أنّ الإنسانَ المذكور في هذه الآية داخلٌ فيهِ المؤمنُ والكافر، وذلكَ يدلُّ على ما قُلناه. الثاني: أنّ هذه الآية موافقةٌ على هذا التقرير لقوله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وموافقةٌ أيضاً لقولهِ تعالى ﴿إِنّ الإنسانَ خُلقَ هلوعاً إذا مسَّهُ الشرُّ جزعاً وإذا مسَّهُ الخيرُ مَنوعاً﴾. الثالث: أنّ مزاجَ الإنسان مجبولٌ على الضَّعفِ والعجز. قالَ ابنُ جريج في تفسيره هذه الآية: يا ابن آدم إذا نزلت بكَ نعمة من الله فأنت كفور. فإذا نُزعت منكَ فيؤوسٌ قنوط. والقولُ الثاني: أنّ المرادَ منهُ الكافر، ويدلُّ عليه وجوه، الأوّل: أنّ الأصلَ في المفرد المحلّى بالألف واللام أن يُحملَ على المعهودِ السابق لولا المانع. وههنا لا مانعَ فوجبَ حملهُ عليه. والمعهود السابقُ هو الكافرُ المذكورُ في الآيةِ المتقدّمة. الثاني: أنّ الصفات المذكورة للإنسان في هذه الآية لا تليقُ إلاّ بالكافر.

لأنّهُ وصفهُ بكونه يؤوساً. وذلك من صفات الكافر لقوله تعالى ﴿إنّهُ لا ييأسُ م ن روحِ الله إلاّ القوم الكافرون﴾ ووصفهُ أيضاً بكونه كافراً. وهو تصريحٌ ب الكفر. ووصفهُ أيضاً بأنّهُ عندَ وجدان بأنّهُ عند وجدانِ الرّاحة يقول: ذهبَ السيئاتُ عني. وذلكَ جراءةٌ على الله تعالى. ووصفه أيضاً بكونه فخوراً. وذلكَ ليس من صفاتِ أهلِ الدين. ثمّ قالَ الناظرونَ لهذا القول: وجبَ أن يُحملَ الاستثناء المذكورُ في هذه الآية على الاستثناءِ المُنقطعِ حتى لا تُلزمنا هذه المحذورات).

وبعدَ طويل الكلام وعمليّةِ نقل الآراء أضافَ ال رازي رحم ه الله يخت صر ويقول: (فحاصلُ الكلامِ أنّهُ تعالى بيّنَ أنّ الكافر عند البلاد لا يكونُ من الصابرين. وعند الفوزِ بالنّعماء لا يكونُ من الشاكرين. ثمّ لما ق رّرَ ذل كَ ق ال ﴿وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ المرادُ منهُ والمرادُ منهُ ضدّ ما تقدّم ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أن يكونَ عن دَ البلاد من الصابرين. وقوله (وعملوا الصالحات) المرادُ منهُ أن يكونَ عن دَ الراح ة والخيرِ من الشاكرين. ثمّ بيّنَ حالهم فقال (أولئكَ لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبير) فجمعَ لهم بين هذين المطلوبين: أحدهما زوالُ العقاب والخلاص منه. وهو المرادُ من قوله (لهم مغفرة) والثاني الفوزُ بالثواب. وهو المراد من قولِه (وأجرٌ كبير). ومن وقفَ عل ى هذا التفصيل الّذي ذكرناهُ، علم أنّ هذا الكتابَ الكريمَ كما أنّهُ مُعج زٌ بح سب ألفاظه، فهو أيضاً مُعجزٌ بحسبِ معانيه). فبهذا التّطويلُ الّذي اعترفَ به نفسهُ فسّرَ رحمهُ الله الآياتِ الثلاث الأخيرات. فلم ينطلِق مما انطلقنا منهُ من مُنطلقات.

أقول: لقد لاحظنا كيفَ أعطانا اللهُ تعالى فكرةً موجزةً عن حالِ الفريقين: المؤمنُ والكافرُ من خلال هذه الآياتِ الثلاثة. وبذلكَ يكونُ تعالى قد ربطَ أحوالَ هؤلاء جميعهمْ فلسفةَ الحياة ومُعطياتها. ويكونُ قدأبرزَ جلّ شأنهُ من خلالِ ذل كَ كُلّه تسلسُلاً موضوعياً مُدهشاً.

ولْيُلاحظ القارئ كيف أنّ الله تعالى حين أنهى هذه الآية الثالثةَ الأخيرةَ والّتي

وصفَ فيها عاقبة المؤمنين المتقين، بقوله تعالى ﴿أُوْلَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾.

فقد قسمَ اللهُ تعالى أجرَ هؤلاء المؤمنينَ إلى قسمين: القسمُ الأوَّلُ على (مغفرةٌ) دالّةٌ على ما أسفرتْ عنها عمليةُ إعلان نتائج الامتحان. وعلى (وأجرٌ كبير) دالٌّ معناه على ما ينتظرُ المؤمنَ بعدَ إعلان النتائج المذكور. وهما حالتانِ اقتضتهما عمليّةُ الامتحان وعلى حسبِ ما سبق لي أنْ وضَّحت.

إنَّ كلمةَ (المغفرة) اشتُقت من غفرَ الشيءَ يغفرهُ غفراً ومعناهُ ستره. وتقولُ غفرَ الله لهُ ذَنبهُ معناه غطى عليه ما ارتكبهُ من ذنبٍ وعفا عنه (محيط المحيط). وعليه فالمؤمنُ هو في حقيقةِ أمرهِ بشرٌ يخطئُ ويصيب. كذلك فالكافرُ هو بشرٌ أيضاً يخطئُ ويصيب. لكنَّ الله عز وجل وعدَ هنا طائفةَ المؤمنين المتقينَ أن يسترَ ضَعفهُم، وان يعفو عن ذنوبهم التي هي من قبيل الأخطاءِ غير المتعمَّدة في نهاية المطاف، يومَ إعلان نتائجِ الامتحان في الحياة الدنيا، لذلكَ ينصُرهم يومئذ نتيجةً لذلك على طوائف الكُفار وفي نهاية المطاف.

ثمَّ أنَّهُ تعالى حين قال: (وأجرٌ كبيرٌ) فالأجرُ هو الجزاءُ المنتظرُ لقاءَ عملٍ يعملهُ صاحبه. وقد وصف اللهُ تعالى الأجرَ هنا بكونه (كبيرٌ)، ومُشتقاً إياهُ من قولكَ: كَبَرَهُ بمعنى زاد عليه. (محيط المحيط) وليدُلَّ بذلك على أنَّ الله تعالى لن يسترَ اللهُ لهم أيا جزاءً وعطاءً على عملهمُ الصالحاتِ أزيدَ مما يستحقونهُ على ما فعلوه. وهذه إشارةٌ إلى ما ينتظرُ هؤلاء المؤمنين بعد موتهم من عطاء.

وعلى هذه الصورةِ يكونُ اللهُ تعالى قد أكمل دعوةَ الناسِ إلى عبادته حتى هذه اللحظةِ ووضّحَ مُستلزماتِ هذه العبادة. كما يكون قد وضَّحَ أسبابَ كفرِ الناس بربِّهم وأسبابَ بُعدهم عن الله ربهم أيضاً. وبينَ فلسفةَ هذه الحياة الدنيا وما يترتب على تلك الفلسفة من مسؤوليات. فأورد ذلك كله بنظم بلاغيٍّ مُعجزٍ يتبادر منهُ غيرُ ما أريدَ منهُ وبتسلسلٍ موضوعيٍّ مُحكمِ الصياغةِ والسبكِ، كما أجابَ على الأسئلةِ الطارئة والاعتراضات.

وليلاحظ القارئ كيف أن الله عز وجل ما إن فرغ من ذلك كُلّه إلا وراح يقولُ في الآية الثانية عشرة، ومُستأنفاً كلامه، قال:

فَلعلَّكَ تاركٌ بعضَ ما يوحى إليكَ وضائقٌ به صدرُكَ أو يقولوا لولا أُنـزِلَ عليه

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾

نتساءلُ أوّلاً عن العلاقةِ الموضوعيّةِ الّتي تربطُ ما بين مضمونِ هـذه الآيـة الكريمةِ وما بين مضمون الآية الكريمة الّتي قبلها؟

وأنقلُ قبلَ كلّ شيء ما تبادر منها لذهن العلامة الرازي رحمـهُ الله، قـال: (اعلم أنّ هذا نوعٌ آخرُ من كلماتِ الكُفار، والله تعالى بيّن أنّقلبَ الرسولِ ضـاق بسببه. ثمّ إنّهُ تعالى قواهُ وأيدهُ بالإكرامِ والتأييد) وراح يقول بعد ذلـك (فكـانَ يضيقُ صدرُ الرسولِ (ص) أن يُلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه، فهيجهُ الله تعالى لأداء الرسالة وطرْح المبالاة بكلماتهم الفاسـدة وتـرك الالتفـات علـى استهزائهم، والغرض منه التنبيه..). يُستدلُّ أنّ الرازي رحمه الله فهمَ من هذه الآية:

أولاً: أن صدر محمدٍ (ص) كانَ يضيقُ باستهزاءِ الكُفار به.

ثانياً: وأن الله تعالى طلبَ منهُ ونبّهُ إلى تجنبِ المبالاةِ باستهزائهم.

ثالثاً: كما أنّ تعالى هيّجَ رسولهُ الكريم ودفعه لأداء رسالة ربع عز وجلّ.

فهل صحّ ما فهمهُ الرازي مما تبادرَ لذهنه من هذا الكلام الإلهيّ؟ ففي نظري أنّهُ رحمهُ اللهُ لم يبلُغْ المعنى الّذي يربطُ هذه الآية بما قبلها ربطاً موضوعيّاً. ثمّ إنه لا يليقُ بسيد رسُلِ الله وخاتمهم أن يبالي وأن يضيقَ صدرهُ بما يقولون. فالسؤال الأهمُّ هنا هو أن ندرك حكمة اعتراض الكفار الواردُ في هذه الآية الكريمة وفي هذا المقام بالذات؟ فهذا ما يقتضيه الأصل التفسيريُّ الّذي أفادتنا به الآية الأولى من هـذه

السورة والمتمثلُ في ضرورةِ التَّقيُّد بتسلسُلٍ موضوعيٍّ للآيات.

أول: لقد وردَ في معاجم اللغة أنّ الحرفَ المُشبهَ بالفعلِ (لعلّ) الّذي استُهلّتْ به هذه الآية الكريمة، والمضاف عليه كاف الخطاب، يستعملهُ العربُ بمعان ثلاثة. الأول: أن يكونَ الحرف (لعلّ) يفيد الترجي والإشفاق من المكروه، وفي هذه الحالة يختصُّ ببيان المُمكن الّذي لا وثوق بحصوله. والمعنى الثاني: أنْ يرد حرف (لعلّ) للتعليلي. كقوله تعالى ﴿لعلّهُ يتذكّرُ أو يخشى﴾. والمعنى الثالث: أن يكون حرف (لعلّ) يفيد الاستفهام، وحينئذٍ كثيراً ما يقترنُ خبرهُ بالحرف (أن). ثمّ إنّ كلمة (تاركٌ) اسم فاعل من تركَ أي رفضَ وأعرضَ قصداً أو اختياراً أو قهراً. كذلك فإنّ كلمةَ (ضائقٌ) ضدّ (مُتّسع)، وتشيرُ إلى الشكِّ في القلبِ. ويُعبّرُ بهذه الكلمة عما ضاق به صدرُ الإنسان. وأما كلمة (نذيرٌ) فقد اشتُقّتْ من قولكَ أنذره بمعنى أعلمه وحذرهُ من العواقبِ المُحتملة قبل حلولها، إضافةً إلى أنّه اتبعَ أسلوبَ التخويفِ فيما أعلمهُ به وما حذّره من عواقبه. وأما كلمة (وكيلٌ) فمن وَكَلَ بالله أيْ استسلمَ إليه. فإن وردت هذه الكلمة (وكيل) بصيغة الفاعلِ فعني الحافظُ على كلّ شيء (محيط المحيط). كذلك فإنّ كلمة (كنزٌ) تعني المالَ المطمورَ في الأرض، ويشارُ بكلمةِ (كنز) المذكورة إلى ما في الأرضِ من المدفونِ من الذّهبُ والفضّة.

والآن وبعد أن اتّضحَتْ لأعيننا الدلالاتُ الحقيقيةُ لألفاظ هذه الآية الكريمة. عادَ بإمكاننا تدبُّرَها وفقَ منهجية وأصولِ تفسيرها. وأنا إذ قُمتُ بتدبرِ هذه الآية الكريمة بأصول تفسيرها واستناداً إلى مُعطيات ألفاظها، فقد لاحظتُ أنّ الله عزّ وجلّ حين أنهى الآية السابقة بقولهِ تعالى ﴿لهم مغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ﴾ وكان تعالى قد قصدَ من خلالهِ أنّ للمؤمنين أجرٌ أعظمُ ممّا يستحقونه من جرّاءِ صبرهم وقيامهم بعملِ الصالحات. فإنّ اللهَ جلّ شأنه ومن خلال قوله المذكور لم يوضّح للقارئ ماهيّة هذا الأجر الكبير، أهو أجرٌ ماديٌّ أم أنه أجرٌ روحيٌ؟ ومادام قد علِمَ أنّه

يستوي المؤمنُ والكافرُ في موضوعِ تعرُّضِه لنتائجِ مُتغيراتِ الأحوالِ الدُّنيوية. فـ إنَّ الإنسانَ الّذي يُصغي إلى وعدَ الله تعالى المذكور والّذي قطعه جلَّ شـ أنهُ لعبـ اده المؤمنين وسماهُ (الأجر الكبيرِ)، وأنَّ هذا الوعدَ قد أتّى به رجلٌ أميٌّ ويتيمُ الوالدين ويكفُلُه عمُّهُ ايضاً، ولا حول له ولا قوة وهو محمَّدٌ صلواتُ الله عليه. أقـ ولُ: إنَّ الّذي يسمعُ بهذا الوعد ويكونُ ممن يفكرُ بتفكيرٍ مادي محضٍ. لابدّ وأن يستهين بما أوردَهُ هذا الرسولُ الموصوف. وحينئذ إنا أن يقوم صاحبُ هذا الـ تفكيرِ المـ ادي باتهامِ محمدٍ (ص) بالكذبِ وبوقاحةٍ ظاهرةٍ. وإما أنْ يعمدَ على الاسـ تهزاءِ بهـ ذا الوعدِ مع شيءٍ من الإشفاق على صاحبه. ويقومُ حينئذٍ بتوعيـ ةِ عقـ ولِ هـ ؤلاء الموعودينَ بهذا الأجرِ الكبير. فيوضّحوا لهم أنَّ الّذي يَعُدهم لا يقدرُ ما يعدُهم بـ ـه بشكلٍ من الأشكال.

وقد لاحظتُ أنَّ اللهُ جلَّ شأنُهُ قد قامَ في هذه الآية الكريمةِ بالرّدِّ اعتـ راض المُعترضينَ المتوقّعُ حدوثُهُ من جانبِ الكافرين أصحابُ التفكيرِ الماديّ. ولقـ ـد راحَ اللهُ جلَّ شأنهُ يطرحُ اعتراضهم الّذي افترضناهُ ويجيبُ عليه بنظمٍ بلاغـ ـيٍّ مُعجـ ـزٍ وبدلالةٍ تختلفُ عما يتبادرُ للذهنِ منه. وسيرى القارئ كيف أن الله عزّ وجلّ ما إن انتهى من ذلك إلا وعادَ إلى موضوعِ السورةِ الأصليِّ. وعلى شاكلةِ ما فعلهُ مـ ـن قبلُ حسبما وضّحناهُ على محلّه.

فأوّلُ سؤال نطرحهُ على أنفسنا عند تدبُّرنا لهذه الآية الكريمة هو: بأيّةِ المعاني أوردَ جلّ شانهُ الحرف المشبَّهَ بالفعلِ (لعلّ) الّذي استهلّ به هذه الآية؟ فاستناداً إلى ما ذكرناهُ نُدركُ أنّهُ تعالى قد استعمله بمعنى التّرجيّ والتّوقُّعُ والإشفاقَ من المكروهِ ويختصُّ بالمُمكنِ الّذي لا وُثوقَ بحصوله.

ونأتي على حرف (لولا) في الآية أيضاً. فهو يُستعملُ بمعانٍ أربعة: الأوّلُ أنَّ لولا تختصُّ بالماضي وتُستعملُ للتّوبيخِ والتّندمِ كقولهِ تعالى: . والثـ ـاني أنَّ لـ ـولا تختصُّ بالمضارعِ وتُستعملُ للعرضِ والتّخصيصِ. نحو (ولا تستغفرون الله). والثالثُ

أنّ لولا تدخلُ على جملتين اسمية فعلية لربطِ امتناعِ الثانيةِ بوجودِ الأولى، نحو: لولا فريد لأكرمتُك. والّذي نُلاحظُهُ هو أنّ هذه المعاني الثلاثةَ لا تصحُّ في هذه الآية الكريمة. فلا يبقَ أمامنا إلاّ أن نأخذ بمعنى الاستفهام الّال عليه حرف (لولا) في هذه المقام. فهو معنى كانَ قد استعمله الله جلّ شأنهُ في مقامٍ آخر قال فيه: ﴿لولا أخرتني إلى أجل قريب﴾.

واستناداً إلى ما أوردناهُ آنفاً يكونُ معنى (لولا) الوارد ضمنَ قوله تعالى: (لولا أُنزلَ عليه كنزٌ)، يكونُ اللهُ تعالى قد أوردها هنا على لسانِ الكفارِ من أصحابِ التفكيرِ الماديِّ وبمعنى الاستفسارِ والاستفهام. وليعودَ حالُهُمْ أنّهم ما إنْ سمعوا وعدَ ما جاءَ به محمّدٌ (ص) بهذا (الأجرُ الكبير) الواردُ في آخرِ الآية السابقة. وفي وقتٍ كانوا يعلمون فيه بحالِ محمّدٍ (ص) من أنّه لا يملكُ من المالِ ما يمكّنهُ من الوفاءِ بالوعدِ المذكور. فإنّ هؤلاء الكفار سارعوا ليقولوا للمؤمنين الموعودين بهذا الوعدِ بالأجرِ الكبير: أفلا تُلاحظون أنّ هذا الرسولَ لا يملكُ ما يُساعدهُ على الوفاءِ بما يعدكُمْ به؟ وقالوا لهم ذلكَ وبإشفاقٍ منهم عليهم: ﴿لولا أُنزلَ عليه كنزٌ﴾ ليُمكّنهُ هذا الكنزُ من تحقيقِ ما وعدكم به من هذا الأجرِ الكبيرِ المذكور.

فبهذا الأسلوبِ من تدبّرِ ألفاظِ هذهِ الآية الكريمة ومن خلالِ احتمالاتِ معانيها المُشتملة عليها نكونُ قد توصّلنا إلى فهمٍ مُغايرٍ لفهم العلامة الرازي رحمهُ اللهُ من هذه الآية الكريمة. أقول: إنّ الله تعالى قد توقعَ في هذا المقام طرحَ هذا الاستفهامِ من جانبِ هؤلاء الكافرين. ودليلُنا هو أنّهُ تعالى فصلَ ما بين استفهامهم وما بينَ إجابته تعالى المذكورةَ عليهم بحرفِ التأكيد (إنّ) وقد أدخلَ عليه حرف (ما) لإبطالِ عملِ (إنّ) فلا تعودُ تنصبُ وترفع. وهذا الأسلوبُ، وأداتهُ الّتي استعملها اللهُ تعالى للفصلِ ما بين الاستفهامِ وما بين الإجابةِ عنهُ هو في حد ذاته أسلوبٌ بلاغيٌّ غيرُ عاديٍّ. خصوصاً وأنّهُ تعالى استهلَّ هذهِ الآية بفاءِ الاستئناف،

إشعاراً من جانبه تعالى باستقلاليّة هذا الاستفهام وباستقلاليّة جوابه المذكور أيضاً.

وكأنّ الله تعالى حين استأنفَ كلامهُ وقال: قد أشارَ إلى ما يرجوهُ الكُفّارُ من استفهامهمُ المُشارُ إليه. وهو أنْ يُحرجوا رسول الله (ص) ليتركَ بعضَ الّـ ـذي أُوحي إليه. وليُنبّهَ في الوقتِ نفسه إلى أنّهم كانوا يُحاولون القيامَ بـ ـا لا يثقـ ـون بتحقيقه أيضاً. وبمعنى أنَّ سؤالَهم واستفهامهم الّذي طرحوهُ كانَ على حدِّ ظنِّهم لا يُحرجُ رسولَ اللهِ (ص) ولا يضيقُ به صدرُه.

فعلى هذه الصورةِ نكون قد توصّلنا إلى عكس ما تبادرَ مـ ـن هـ ـذه الآيـ ـة الكريمةِ لذهنِ العلامة الرازي رحمه الله. إذ يوجدُ في هذه الآية الكريمة تقديمٌ لبيـ ـان القصدِ من سؤالِ السائلِ، على مضمون السؤال نفسه. وقد كانَ القصدُ من هـ ـذا التقديم لفتَ الأذهانِ إلى الحقيقة الّتي توصّلنا إليها آنفاً وقد ذلك كُلّه من خـ ـلال استعمالِ الله تعالى للحرفِ (لعلّ). وليوضّحِ تعالى مسبقاً على أنّ السائلِ لم يُفلح في تحقيقِ مقصده لنا عن حقيقة أنّ الوعدَ بهذا (الأجرّ الكبيرّ) ما كانَ وعـ ـداً بـ ـأجرٍ ماديٍّ، بل هو أجرٌ أُخرويٌّ. وقد استغلَّ الكفـ ـارُ ورودَ هـ ـذه الوعـ ـد ليزلزلـ ـوا باستفهامهمُ المذكورِ المذكورُ إيمانَ المؤمنين وليحرجوا هذا الرسولَ الصادقَ الأمين (ص).

ولا أدري كيف سلّمَ الرازي بأن صدرَ رسول الله (ص) كان يضيقُ مـ ـن جرّاءِ استهزاءِ وضحكِ الكُفّار، وهو يعلم، وعلى حسب مـ ـا أورده في تفـ ـسيره نفسهُ، أنّ زعماءَ قريشٍ أتوا عند عمّ الرّسول ليُرونهُ بشتى المُغرياتِ من أجـ ـلِ أنْ يتركَ التبشيرَ برسالةِ ربه عزّ وجلّ، ولكنّهُ أجابَ وقال: (والله لو وضعوا الشمسَ في يميني والقمرَ في شمالي على أن أتركَ هذا الأمرَ، ما فعلته). فهل يجيب محمـ ـدٌ (ص)، بمثلِ هذه الإجابة، ويضيق صدرهُ بمُضايقاتِ هؤلاء الكُفار؟ أنا شخصياً لا أتصوّرُ حدوثَ ذلك بشكلٍ من الأشكال.

وننتقل مما سلفَ ذكرهُ إلى ما أنهى اللهُ تعالى به هذه الآية الكريمة. فقد أنهاها

جلَّ شأنهُ وقال: ﴿إِنَّمَا أَنتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

فالملاحظُ هو أنَّهُ تعالى استهلَّ هذه الفقرة الأخيرة بحرف التوكيد (إنَّ) والّتي أبطلَ تعالى عملَها من خلالِ إدخالها على حرفُ (ما) وقال (إنما). أما قوله تعالى: ﴿أَنتَ نَذِيرٌ﴾ فقد حملَ الإجابةَ على اعتراضِ الكافرينَ بجوابٍ اشتملَ على عناصر ثلاثة:

أولاً: بأنَّ رسولنا الكريمَ لم يزعمْ في يومٍ من الأيامِ أنَّهُ هو المُكلّفُ بتوزيع هذا الأجرَ الكبير، فهو مجرَّدُ رسولٌ ونذير. (ثانياً): ثمَّ إنَّ كلمة (نذير) أُشيرَ بها إلى أنَّ هذا الرَّسولَ يحملُ ضمنا رسالة تحذير على هؤلاء الكافرين من عواقبِ كُفرهم وقبل حلولِ عذاب الله تعالى الّذي سيحلُّ بهم. (ثالثاً): وأن محمداً (ص) قد وَعد المؤمنين بهذا الأجرِ الكبيرِ بأمر ربِّه عزَّ وجلَّ وليس من عند نفسه. وقد راحَ اللهُ تعالى وبما يحملهُ من قُدُراتِ أهّلَتهُ ليأمرَ رسولهُ الكريم بهذا الأمر، راحَ يُضيفُ ويقول: (واللهُ على كلِّ شيءٍ وكيل). بمعنى أنَّ الله تعالى قد نبهَ أذهان هؤلاءِ المُعترضين على حقيقة أنَّهُ جلَّ شأنه على كلِّ شيءٍ (وكيل) أي محافظ.

وكأنَّ اللهَ تعالى قال بألفاظ أخرى: اعلموا أيُّها المُعترضون بأنَّ اللهَ الّذي أرسل محمداً (ص) وأمرهُ هو خالقُ هذا الكون ووكيلٌ ومحافظٌ عليه بواسطة ملائكته، ولم يخلقه عبثاً، وبذلك يكون الله الّذي وعد بهذا الأجر الكبير هو مالكُ خزائنِ السماواتِ والأرض. فبهذه الأسلوب في الإجابة يكونُ جلَّ شأنهُ قد أجابَ على اعتراضِ الكفار وبإجابة مُصاغة صياغةً بلاغيَّةً مُعجزة.

والآنَ وبعد الّذي ذكرناه لنرى كيف أنَّ الله تعالى ما إن فرغ من الإجابة على الاعتراضِ سالفِ الذكر إلا وقد عاد جلَّ شأنه إلى الكلام في الموضوعِ الأصليِّ للسورة؟ فكيفَ حدثتْ تلك العودة؟ فلنلاحظ كيف أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ، قد اختصر الطريقَ في الآية الثالثة عشرة وقال:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

فاللهُ جلَّ شأنهُ استهلَّ الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى فيها (أم يقولونَ افترا). استهلّها بحرفِ (أم)، وهو حرفٌ تكفي الإجابةُ عليه بقولك كلا أو نعم. ومن ثمَّ أدخلهُ على فعلِ (يقولون) ومعناهُ يعني يعترضون ويزعمون. كما أتى بكلمةِ (افتراه) بمعنى اختلقهُ من عندِ نفسه ونسبهُ إلى اللهِ ربِّه. (محيط المحيط).

وقد فعلَ اللهُ تعالى ذلك ليشيرُ من خلاله إلى أنَّ هؤلاء الكفار قد اعترضوا أصلاً اعتراضهم المذكورُ ليثبتوا من خلاله أنَّ محمداً (ص) قد افترى هذا الكتاب على ربِّه ولمْ يُنزلهُ ربُّهُ عليه. فهذه هي الحقيقةُ الّتي شاء تعالى الإشارةَ إليها من خلالِ قوله تعالى في هذه الفقرة (أم يقولونَ افتراهُ).

وقد شاءَ اللهُ تعالى أن يُبدي مبلغَ حميَّته لرسولِه الصادق الأمين، فقامَ بتحدّي هؤلاء الكفارِ بتحدٍّ صارخٍ وقال في الفقرة الثانية: (قلْ فأتوا بعشرِ سورٍ مثلهِ مُفتريات) وذلك ليُفحمَ عزَّ وجلَّ هؤلاءِ الكفّار وليشلَّ ألسنتهم عن الاعتراض ثانية. وقد أثبتَ تعالى في حقيقةِ الأمر وبصورةٍ أبتَ مدى حميَّتهُ لرسولِه العظيم (ص).

ولم يكتفِ اللهُ تعالى بهذا التّحدّي آنفِ الذكر. بل وأضافَ عليه بقول: (وادعوا من استطعتُمْ من دون الله إنْ كُنتُمْ صادقين). وكأنَّهُ تعالى قد قالَ لهم بألفاظٍ أُخرى: هيا نقّبوا من يومنا هذا وإلى يومِ الدّينِ عمَّنْ يُساعدُكمْ أيضاً على مواجهةِ تحدينا الصارخِ المُشارُ إليه.

ومن الضرورةِ أنْ يتذكَّرَ القارئُ في هذه المناسبةِ بأنَّ هذا التّحدّي القُرآنيَّ قد أعلنهُ اللهُ تعالى في مكّةَ المكرَّمةَ يومَ لم يكنْ قد اكتمل نزولُ هذا الكتابُ السماويّ.

أضف إلى ذلكَ أنَّ كلمة (قرآن) لا نعثُر عليها في سياقِ التَّحدّي الآنفِ الذكر، من اجلِ أنْ نُعيد إليه ضمير كلمة (مثله). وبالتالي فإنَّ هذا الضَّميرَ يعودُ على الـ وحي القرآنيِّ الّذي اشتملَ على الوعدِ بهذا (الأجر الكبير) الّذي استغلّهُ هؤلاء الكُفـار للاعتراضِ على رسول الله (ص). وإنَّ هذا الوحيَ الإلهيَ المقصودُ بهـ ـذا التحـ ـدي والّذي يرجعُ إليه هذا الضمير الوارد في كلمة (مثله) يكونُ قد ابتدأ من قوله تعالى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾. وحتّى هـ ـذه الآية الّتي أوردت التحدي الآنف الذكر. وما دام قد وردَ في الآية المذكورة آنفـ ـاً كلمة (كتاب) فهذا يعني أنَّ اللهَ تعالى قد تحدى هؤلاء الّذين اعترضوا على الوعـ ـدِ (بالأجر الكبير) أن يأتوا بعشرِ سورٍ (مثله) أي بعشر سورٍ من مثل سـ ـورِ هـ ـذا (الكتاب)، وشرطَ أن تُشابه مضامينُ وحيِ سورةِ هود. فهذه هي الحقيقة الّتي أشارَ إليها ضميرُ المذكّر الواردُ في كلمةِ (مثلهِ مُفتَريات).

أما لماذا قالَ اللهُ جلَّ شأنهُ في الفقرة الثانيةِ من هذه الآية الكريمةِ ﴿وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ فالمقصودُ من ذلك نفيُ أن يكونَ هذا الرسول محمَّدٌ بن عبد الله (ص) أن يكونَ قد افترى هذا الكتاب الّـ ـذي تُـ ـشكّلُ سورةُ هودٍ إحدى سوره والّتي ورَدَفيها الوعدُ (بالأجرِ الكبير). وكأنَّ الله جلَّ شأنهُ قد قال بألفاظٍ أخرى: يا من اعترضتم على الوحيِ الّذي وعدَ بهذا (الأجر الكبير) فلو كانَ باستطاعةِ محمَّد (ص) أن يفتري مثلَ هذا (الكتاب) المحكمةُ والمفصَّلةُ آياتهُ وعلى هذه المستوى من الحكمةِ والخبرة، فابحثوا في جميع أرجاء العالم وادعوا مـ ـن استطعتُم من الناسِ ليُعينكم على مجابهة هذا التحدي الّذي تحدَّيناكم به آنفاً. هذا إن كنتم صادقين فيما تزعمونَ وتفترونَ عليه (ص). وإنَّ ما يؤكدُ هذه الحقيقة الّـ ـتي ذكرناها هو أنّنا نُلاحظ بأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أعرضَ عن الكلامِ عن الكفارِ المكذبين، وراح بعدَ ذلكَ يُخاطبُ المؤمنين أولئكَ الّذينَ حاولَ هؤلاءِ الكُفارُ تشويشَ إيمانهم

بما أسلفنا ذكره.

وأرى وقبلَ الانتقالِ إلى معرفةِ ما خاطبَ اللهُ تعالى به المؤمنين. أقول: أرى أن أُطلعَ هذا القارئ على ما فسَّرَ الرازي رحمهُ الله به آيـ ـةَ التحـ ـدّي المـ ـذكور. فالرازي كتبَ يقول (اعلم أنَّ القومَ لمّا طلبوا منهُ المعجز، قـ ـالَ: مُعجـ ـزي هـ ـذا القرآن. ولمّا حصلَ المُعجزُ الواحدُ، كانَ طلبُ الزيادةِ بغياً وجهلاً. ثمَّ قرّرَ كونـ ـهُ مُعجزاً بأن تحدّاهم بالمعارضة. وتقريرُ هذه الكلام بالاستقصاء قد تقدَّمَ في البقـ ـرة وفي سورة يونس أي أنَّ الرازي رحمهُ الله لم يفطن إلى عدمِ وجودِ كلمة (قرآن) في سياق الكلام.

قُلنا إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ وبعدَ أن أوردَ تحدّيه المذكور. قد توجَّـ ـهَ بخطابـ ـه إلى المؤمنينَ وليقول لهم في الآية الرابعةَ عشرة:

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

ونتناول هذه الآية الكريمة نتدبَّرها فقرةً إثرَ فقرة. فنلاحظ فقرةً إثرَ فقـ ـرة. فنلاحظ أنَّ اللهَ جلَّ شأنهُ قالَ في الفقرةِ الأولى (فإنْ لَّمْ يستجيبوا لكم). فهو تعالى أتى بالفاء كحرفِ استئناف ليستأنفَ كلامهُ وليتوجَّهُ بخطابه إلى فريق المـ ـؤمنين، وليقولَ لهم إني قد سلَّحتُكم بهذا النَّوعِ من التَّحدّي سالفِ الذكر لتواجهوا بـ ـه هؤلاءِ الكفّار الّذينَ يكذّبونَ بحقيقةِ هذا (الأجر الكبير) الّذي وعدتكم بـ ـه عـ ـن طريق هذا الرسول الكريم. فادأبوا على تحديهم به وإلى يومِ الدين. فإن تولـ ـوا ولم يستجيبوا لكم ليردّوا على هذا التحدّي.

وهنا أتى اللهُ تعالى بفاء الاستئنافِ ثانيةً ليستأنفَ كلاماً جديـ ـداً وقـ ـال في الفقرةِ الثانية: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾. فالملاحظُ هو أنَّ اللهَ تعالى قد استأنفَ كلامهُ ثانيةً. وليعود من خلالِ ذلكَ ليبحثَ في الموضوعِ الأصليِّ الّذي تدورُ حولهُ

آياتُ هذه السورة. وهو الموضوعُ الّذي أتى على ذكرِ (الأجر الكبير). ومُطَمئناً الّذينَ آمنوا بأنّه وعدٌ ﴿أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ﴾.

أقولُ: فبهذا الأسلوبِ الذكيِّ ومن خلاله تمكّنَ اللهُ جلَّ شانهُ من العودةِ إلى الموضوعِ الأصليِّ الّذي طرحتْهُ الآياتُ الأوائلُ من هذه السورةِ والمُتعلّقُ بوجودِ الله تعالى وبوحدانيّته. ولذلك أضافَ تعالى يقولُ في الفقرةِ الثالثةِ: ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ونفى تعالى بذلك جميعَ أنواعِ الشرك، وثبتَ مفهومَ عقيدةِ الوَحدانيَّة. وقد استعملَ تعالى في هذه الفقرةِ كلمةَ (إله) المُشتقّةُ من الولهِ والمحبّة. وليُبرزَ من خلالِ تلك الصّفةِ علاقةَ العبوديَّةِ بالألوهيَّةِ والقائمة على تجاذُبِ المحبَّةِ بينهما.ومن ثمَّ أتى تعالى بفاء الاستئناف للمرَّةِ الثالثة وقال في الفقرة الأخيرة: (فهلْ أنتم مُسلمون؟). ونتساءلُ الآنَ عن دلالةِ هذه الفقرة؟ وعمّا تبادرَ منها لذهن الرازي رحمهُ الله؟

فالّذي تبادرَ لذهنه أنّهُ كتبَ يفسِّرُ هذه الفقرة وقال (ومعنى قولهُ فهل أنتم مُسلمون أي فهل أنتم مُخلصون. ومنهم من قالَ: فيه إضمار، والتّقدير: فقولوا أيُّها المسلمونَ للكُفّار اعلموا أنّما أُنزلَ بعلمِ الله. والقولُ الثاني أنْ هذا خطابٌ مع الكفّار. والمعنى أنَّ الّذينَ تدعونهم من دونِ اللهِ إذا لم يستجيبوا لكم في الإعانةِ على المُعارضة، فاعلموا أيُّها الكُفّار أنْ هذا القرآن إنّما أُنزلَ بعلمِ الله فهل أنتم مسلمون بعدَ لُزومِ الحجّةِ عليكم. والقائلونَ بهذا القولِ، قالوا هذا أولى من القولِ الأوَّل، لأنّكم في القولِ الأولِ احتجتُم إلى أن حملتم قوله (فاعلموا) على الأمرِ بالثباتِ أو على إضمارِ القول. وعلى هذا الاحتمال لا حاجة فيه إلى إضمار، فملن أولى. وأيضاً فعودُ الضميرِ إلى أقربِ المذكورينَ واجب. وأقربُ المذكورينَ في هذه الآية هو هذا الاحتمال الثاني. وأيضاً أنَّ الخطابَ الأوَّلَ كان مع الرسول عليه الصَّلاة والسّلام وحدهُ، بقولهِ (قل فأتوا بعشرِ سور). والخطابُ الثاني كان مع جماعة الكفّار بقوله (وادعوا من استطعتُم من دونِ الله) وقولهُ (فإن لم يستجيبوا لكم)

خطابٌ مع الجماعة. فكانَ حَملهُ على هذا الّذي قُلناهُ أولى). وبعد أن أوردَ الرازي رحمه الله هذه الأقوال. راح فيما بعدُ يُصرِّحُ ويقول: (وأمّا قولُهُ فهل أنتم مُسلمون؟ فإن قُلنا: إنّهُ خطابٌ مع المؤمنين، كانَ معناهُ الترغيبُ في زيادةِ الإخلاص. وإن قُلنا: إنّهُ خطابٌ مع الكُفّار كان معناهُ الترغيبُ في أصلِ الإسلام).

أقول: إنَّ الرازي وغيره ممن ذكر أقوالهم رحمهُمُ الله قد تناولوا هذه الفقرة من دونِ أن يلتزموا بمنهجيّة القرآن وأصول تفسيره. لذلك اختلفوا وذهبوا مذاهبَ شتى. فأنا لا أرى أنّها تمثّلُ دعوة لهؤلاء الكفّار ليصبحوا مُسلمين. بل أرى أنَّ الله تعالى قد راحَ يخاطبُ هؤلاءِ المعترضين في هذه الفقرة، وعلى شاكلةِ الّذي يحاورُ شخصاً. فهو جلَّ شأنهُ وبعد أن ألقة على هؤلاء حجّتهُ القاطعةُ قال: انظروا أيُّها الكُفّار كيف رددْنا عليكُم بأدلة قاطعة وقد وضّحنا لكم من خلالِها القوانينَ الناظمةَ لأعمالكم، وقد وعدنا المؤمنين بهذه الحقائق العاملينَ الصالحات بالأجرِ الكبيرِ الّذي أوردناه. ولقد تحدَّيناكُم تحدياً أعجزَكُم، وأثبتنا من خلاله صدقَ ما حملهُ رسولنا إليكم من وحي قُرآني أنبأكُم عن وجودِ ربّكمُ الّذي أرسله إليكم، ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟ بمعنى فهلْ أنتُم ممَّنْ يُسلِّمونَ معنا بجميع تلك الحقائق التي أسلفنا ذكرها، أم أنّكُم ستجحدونَ بها من بعدِ أن أفحمناكم بها. فإن أنتم لم تُسلِّموا بتلكَ الحقائق، تدينون أنفُسكم من حيث لا تشعرون وتستحقونَ بعدئذ ما قدَّرناهُ للمكذبينَ من عذابٍ أنذركم به هذا الرسولُ (النّذير)؟ فهذا هو معنى قولِهِ تعالى هنا.

والدليلُ على مصداقيّة ما ذهبنا إليه من معنى، هو أنَّ اللهَ تعالى راح يُخاطبُ هؤلاءِ الكافرين المعترضين بعد ذلك ويقولُ لهم بألفاظ لا تُخالطُها غلظةٌ، بلْ تشفُّ عن شفقة وأسى. ويقولُ في الآية الخامسة عشرة من هذه السورة: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾

إنّ قولهُ تعالى هذا ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ فالخطابُ فيه مُوجّهٌ على هؤلاء المكذبين الّذين خوطبوا من خلال قوله تعالى ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ فلم يرد هذا الخطابُ الإلهيُّ عامَّ الدلالةِ ومُنقطعاً عن سياقه وعن تسلسُله الموضوعيّ. بل إنَّ هذا الخطاب الإلهيّ مُوجّهٌ إلى هؤلاء المُفحمينَ إن أنتم لم تُقرّوا بهذه الحقيقة بداعي خوفكم على هذه الحياة الدنيا وزينتها وتفضيلكم إياها على ما ينتظرُ المؤمنَ من أجرٍ كبيرٍ في الحياة الآخرة ومن جنّات النّعيم.

فقولهُ تعالى المشارُ إليه خاصٌّ ويحملُ جميعَ هذه الدلالة الّتي أتينا على ذكرها. فما هو دليلنا على صحّةِ رأينا المذكور؟ الليلُ تحملهُ الفقرةُ الثانيةُ من هذه الآية الكريمة والّتي قالَ تعالى فيها (نُوفِّ إليهم أعمالهم فيها) فقد انتقلَت صيغةُ الخطاب المباشرة، إلى صيغة ثانية مُخالفة. فصيغةُ اسم الموصول (مَن) انقلبَت على صيغة الجمع (منهم) وإنَّ ضميرَ (منهم) يعودُ في الأصلِ إلى هؤلاءِ المكذّبين الّذين لم يقروا بما أفحمهم به اللهُ جلَّ شأنه.

وقالَ اللهُ تعالى بعد ذلك ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾. ففعل (نُوفِّ) اشتُقَّ من وفّى فلاناً حقّهُ معناه أعطاه إياهُ وافياً تاماً. فماذا يُوفِّ اللهُ تعالى لهؤلاء المكذبين الّذينَ فضّلوا زينة الحياة الدنيا على نعيم الآخرة؟ قال تعالى (نُوفِّ إليهم أعمالهم فيها). فالوعدُ بالتّوفيةُ يتعلّقُ بتوفيةِ الأعمال. وكيفَ يُوفِّ الإنسانُ عمله؟ يكونُ هذه الإنسانُ قد وُفيّ عملهُ إذا جنى ثمّراتِ ما عملهُ وثمّراتِ النيّة الّتي انتواها حينَ أنجزَ العملَ موضع الكلام. ويعود معنى قولهِ تعالى (نُوفِّ إليهم أعمالهم). أنّهُ تعالى يدعُ هؤلاء المكذبينَ محمداً (ص) والشاهدَ منه) أن يسعوا ويعملوا ما شاءوا أن يعملوهُ في هذه الحياة الدنيا. وأنّهُ تعالى لن يُعرقلَ عملهم المذكورُ بشكلٍ من الأشكال. ويترُكهُم يقطفون ثمّارَ ما عملوهُ (فيها) أي في هذه الحياة الدُّنيا الّتي غرّتْهُم زينتُها.

وأكّدَ تعالى هذا الوعدَ في الفقرةِ الأخيرةِ من هذه الآيةِ الكريمةِ وقال ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾. فأنتَ عندما تقول: بخسهُ حقَّهُ، فمعناه: ظلمهُ ومقصَهُ إياه (محيط المحيط). ومن المعلومِ أنَّ لأعمالِ الإنسان نتائجُها الماديّة والروحيّة إن هي اقترنت بالنّيات. قالَ تعالى: إننا لا نبخسُهم شيئاً من نتائج أعمالِهم الّتي يعملونها في هذه الحياة الدنيا شيئاً بل ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾. لكنّهُ تعالى قالَ هنا من طرفٍ خفيٍّ بالنسبة لنتائج الأعمالِ الروحيّة. إنّما ينبغي على هؤلاء أن يعلموا أنّهُم لا يستوونَ مع المؤمنينَ في هذا المجال. بسبب أنَّ أعمالَ المؤمنينَ مقرونة في هذه الدنيا بالنّيّاتِ الصالحة. فالكفّارُ تُحبطُ نتائج أعمالهم الروحيّة على حين يجني المؤمنون هذه الثمّار. خصوصاً وأنّهم (صبروا وعملوا الصالحات). وهو السببُ في أنّهم وُعِدوا أيضاً (مَغفرةٌ وأجرٌ كبيرٌ). فإلى هذه المعاني جميعها أشارتِ الفقرةُ الأخيرةُ من هذه الآية الكريمة وهي قولهُ تعالى ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

ولْنلاحظ كيفَ استدركَ الله جلَّ شأنُهُ ونبَّهَ هؤلاء الكُفار إلى أنَّ نتائج أعمالِ الإنسان لا تقفُ عندَ هذه الثمّارِ الماديّة الّتي يجنيها الإنسانُ في حياته الدُّنيا. بل وتترُكُ آثاراً خفيّةً أيضاً لكن لا تبدو هذه الآثارُ لهذه الأعينِ المادية. لكنّها تتجسّمُ تلكَ الآثارُ يومَ القيامة، وتتراوح ما بين آثارٍ من نور وما بينَ آثارٍ من نارٍ. وقد أشار اللهُ عزَّ وجلَّ إلى هذه الحقيقة في الآية السادسة عشرة وقال:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

فلْنلاحظ كيفَ أنَّ اللهَ أتى بضمير (أولئك) في بداية هذه الفقرة الأولى، وليشيرَ مرّةً ثانيةً إلى فريقِ الكافرين المكذبين. وليقول بحقِّ نتائجِ أعمالهم الروحيّة الّذينَ ليسَ لهم في الآخرةِ إلا النار). فالفعل (ليس) ينفي غيرهُ بالقرينة (محيط

المحيط)؛ وإنّ قولهُ تعالى (لهم في الآخرة) ثبّتَ ما نفاه فعل (ليس). وأمّا الحرف (إلاّ) فقد استثنى (النّار) الّتي تمثّلُ النتائجَ الروحيّةَ لأعمال هؤلاءِ الكفّار.

وقد أتى اللهُ جلّ شأنه بواوِ العطفِ ولتُفيدَ معنى الحال لدخولها على فعل (حبط) وقالَ في الفقرة الثانيةِ من هذه الآية الكيمةِ (وحَبِطَ ما صنعوا فيها). فما هي دلالةُ هذه الفقرة؟

فالواو للإضافة وتفيد وصفَ الحال. وفعل (حَبِطَ) معناهُ بطلَ. فما هو الّذي بطلَ؟ فقال: (ما صنعوا فيها). فحرف (ما) اسم موصول بمعنى الّذي. وأمّا فعل (صنعوا) فمن صنعَ الشيءَ بمعنى عمله. والصنعُ هو العملُ والإحسان. تقول: ما أحسنَ صُنعَ الله (محيط المحيط).

وليصبحَ معنى (وحَبِطَ ما صنعوا فيها). أنّ ما سيعمله هؤلاء في هذه الحياة الدنيا بعدَ تفضيلهم زينتها على أجرِ الآخرة سيكونُ مُحبطاً وباطلاً لا تُرجى من ورائهِ ثماراً روحيّةً . علماً بأنّ فعلَ (الصُّنع) يفيدُ معنىً مُضافاً إلى معنى كلمة (العمل)، وهو معنى تزيينُ وتحسينُ الشيءِ المعمول ولجذبِ المُشترين إليه. فحين تقول: صنَّعَ البائعُ الأمتعةَ، معناهُ أنّهُ أبرزَ جيِّدَها وأخفى رديئها أي أخفى عيوبها (محيط المحيط). وكانت الحكمةُ من هذا المعنى المُضاف الإشارةَ من طرفٍ خفيٍّ إلى أنّ الكافرين المُشارُ إليهم يتّصفونَ بصفةِ الدّجل. أي بالتظاهرِ بخلافِ ما يفعلونهُ في الخفاء.

وقد أنهى اللهُ جلّ شأنهُ هذه الآية الكريمة بالفقرةِ الّتي قال تعالى فيها: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. فكلمةِ (باطلٌ) فالمعلومُ هو أنّ التّنوينَ يؤتى به للتّفخيم. وأنت عندما تقول: بطلَ الشيءُ فمعناهُ أنّهُ ذهبَ خسراً وضياعاً فهو باطل. أو قُلتَ: بطّلَ الشيءَ فمعناه عطّلهُ وأذهبهُ ضياعاً، وضدّ أقامَه. أو قلتَ: أبطلَ الرَّجُلُ: فمعناه كذبَ ونطقَ بالباطلِ فهو مُبطل. والباطل عكسُ الحقّ. وليُصبحَ معنى هذه الفقرة الأخيرة: أنّ أسلوبَ هؤلاء المكذبين في تزيين الأشياء

وإخفاءَ حقائقها لن يصبح غير ذي جدوى وحسب. بل و (باطـ ـلٌ) أيـ ـضاً. أي سيثبتُ عد هلاكهم وانتقالهم من هذه الحياة الدنيا أنَّ جميعَ ما عملوهُ لم يكن يمتُّ إلى (الحقّ) بصلةٍ من الصلات. فالباطلُ استعملَ هنا ضدَّ معنى الحقّ.

ألا إنَّ في هذا الإخبارِ عن مصيرِ هؤلاء الكفّار المكذبين يُعدُّ في حـ ـدِّ ذاتـ ـه ادّعاءً كبيراً. ولا يقبله عقلُ الإنسانِ إلا من خلالِ تقديمِ الـ ـدليل الّـ ـذي يُثبِـ ـتُ مصداقيّته. ونحنُ قد علمنا من خلال إطلاعنا على مَنهجيّة القرآن الكريم وأُصـ ـولِ تفسيره. بأنَّ اللهَ جلَّ شأنهُ حيثُ يطرحُ ادّعاءً من الادعاءات، يُتبعهُ فـ ـوراً بـ ـدليلٍ يُثبتُ به مصداقيّةَ ما ادّعاه. فمادامَ اللهُ عزَّ وجلَّ قد طرحَ الادّعاءَ الّذي تـ ـضمَّنتهُ هذه الآية السادسةُ عشرة في هذا المقامِ. فقد كانَ من واجبنا أن ننظُرَ إلى الآية الّتي تأتي بعدها على أنَّ تضمَّنت دليلَ مصداقيّةِ ذاكَ الادّعاء. فهذا ما اقتضاه الأُصـ ـلُ التفسيريُّ المذكور.

والحقيقة هي أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد راحَ يقدّمُ الدّليل المطلوبَ. ود طرحـ ـهُ اللهُ جلَّ شأنهُ بصيغةِ الاستفهامِ الاستنكاري ومُصاغاً صياغةً بلاغيّةً مُعجزةً، وذلكَ في الآية السابعة عشرة، وقال:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

أقول: إنَّ ما يؤسفُ لهُ هو أنَّ المفسرين القدماء رحمهمُ اللهُ تعالى الّـ ـذين لم يحيطوا علماً بأصولِ التّفسيرِ الّتي كشفها ربي عليٌّ لم يفهموا من هذه الآية الكريمة بأنَّ اللهَ تعالى قد أتى بهذه الآية الكريمة وهي مُتضمّنةٌ دليلاً يُثبتُ تعالى من خلالـ ـه مصداقيّةَ ما ادّعاهُ من ادّعاءٍ كبيرٍ في الآية السابقة. وهذا هو السبب في أنّهـ ـم مـ ـا فهموا مضمونها، بل واختلفوا في فهمِ ما تضمنتهُ كثيراً.

فالعلامة الرازي رحمهُ الله وهو صاحب التفسير الكبير كتبَ تحتَ هذه الآية الكريمة يقول: (واعلم أن هذه الآية مشتملٌ على ألفاظ أربعة كلُّ واحد مُجمـ ـلٌ: فالأوّلُ أنّ هذا الّذي وصفهُ الله تعالى بأنّهُ على بيّنة من ربّه مَنْ هو؟ والثاني: أنّهُ ما المرادُ بهذه البيّنة؟ والثالثُ: هل أنّ المرادَ من قوله (يتلوه) هو القـ ـرآنُ، أو كونـ ـهُ حاصلاً عقيبَ غيره؟ والرابع: أنّ هذا الشاهدَ ما هو؟ فهذه الألفاظُ الأربعةُ مُجملةٌ. فلهذا كثُرَ اختلافُ المفسرينَ في هذه الآية). وبعدَ أن استعرضَ رحمـ ـهُ الله بعـ ـضَ الأقوال، فقد وضّحَ رأيهُ بعد أن أتى بفاء الاستئناف وقال: (فالحاصل أنّـ ـهُ تعـ ـالى يقول: اجتماعُ في تقرير صحّة هذا الدين أمورٌ ثلاثةٌ أوّلُها دلالةُ البيّنـ ـات العقليّـ ـة على صحّته. وثانيها شهادةُ القرآن بصحّته. وثالثُها شهادةُ التوراة بصحّته. فعنـ ـد اجتماع هذه الآية وأقربُها على مطابقة اللفظ. وفيها أقوالٌ أخر). وقد اسـ ـتعرض رحمهُ الله ما عاصرهُ من أقوال ومنبّهاً إلى أنّ منهم من قال (أن لا يكونُ المرادُ بقوله (ويتلوه) القرآن، بل حصولُ هذا الشاهد عقيبَ تلك البيّنة).

وأقولُ باختصار شديد: إنّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد قدّمَ في هذه الآية الكريمة دليلاً مؤلفاً من عناصرَ ثلاثة ما إن اجتمعتْ في شخصٍ ادّعى النّبوّةَ إلا ويكونُ صـ ـادقاً. فما هي هذه العناصرُ المطلوبةُ والّتي اجتمعتْ في شخصِ محمّد (ص) الّذي ادّعى أنّهُ نبيٌّ ورسولٌ ومن عند الله عزّ وجلّ، والّتي يثبتُ من خلالِ اجتماعها في شخـ ـصه الكريم أنّهُ كانَ نبيّاً صادقاً؟

وللإجابة على هذا السُّؤال نُحاول تدبُّرَ هذا الدَّليلَ وتراكيبه. فـ ـأوّلُ مـ ـا نلاحظهُ هو أنّهُ تعالى حذفَ جوابَ الاستفهام والّذي تقديرهُ: كمنْ هو كـ ـاذبٌ، ولا تتوفّرُ في شخصه هذه العناصرُ الثلاثةُ المذكورة الواردة في هذه الآية الكريـ ـة. ومن ثمَّ نُلاحظُ أنّهُ تعالى طرحَ أولَ عُنصرٍ وقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ﴾.

أي أنّ المُدّعي الصادقُ يكونُ (على بيّنة من ربّه)، وتبدو معالمُ تلكَ البيّـ ـة لأعيُنِ الناس من حولِه. وإنّ الّذي يُصاحبُ محمّداً (ص) يتلمّسُ هذه الحقيقة عنده.

أ فما تُلاحظونَ كيف التفَّ لفيفٌ من ضعفاء من ضعفاء الناسِ حوله ويتحمَّل ون أنواعَ الاضطهاد بسببِ ذلك ومع ذلكَ يثبتونَ على الإيمان؟ فما هو هذا ال شَّيءُ الّذي كانَ يُثبّتهُم على إيمانهم بصدقِ نبوّته إلاّ ما يلاحظونهُ من دلائلِ كونه (ص) على بيِّنة من ربِّه؟ هذا بما يتعلّقُ بزمنِ محمَّد (ص). أما وقد مضى على بعثته أربعةَ عشر قرناً من الزَّمانِ فقد عادتْ بينَ أيدي الناسِ جميعاً دلائلَ وبراهينَ على صدقِ نبوّته (ص) بما لا يدعُ شكٌّ على كونِ محمَّدٍ بن عبد الله نبيّاً. وأنّهُ كانَ على بيِّنةٍ من ربِّه عزَّ وجل.

ومن ثمَّ أتى تعالى بواوِ العطفِ وعَطَفَ على العُنصر الأُولِ عُنصراً ثانياً: وقال: (ويتلوهُ شاهدٌ منهُ). فما معنى ذلك؟ إنَّ معناهُ هو أنْ يبعث الله تعالى بعد موتِ النبي محمد (ص) وفي الزّمان المستقبلِ وتبعاً للضرورةِ وبسببِ ما يطرأُ على أمته وعلى العالمِ من تطوُّراتٍ تستدعي بعثة هذا (الشاهدَ) ليشهدَ على صدق نبوَّته صلى الله عليه وسلم. وأن يكونَ هذا الشاهد من أمتهِ (ص) أيضاً، وليس من أمةٍ أخرى غير أمة محمدٍ (ص). فإنْ حدثتْ مثلُ تلكَ المتغيراتِ وبعث الله تعالى هذا الشاهدَ ومُعلناً أنّهُ مصداقَ هذا العنصر الثاني، فإنَّ من واجبِ هذا (الشاهد) أن يُثبتَ بصورةٍ عمليَّة ومن خلال ما يقومُ به ويحققه من إنجازات أن يُثبتَ مصداقيَّةَ نبوَّة محمدٍ (ص) وبما لا يبقى بعد ذلك من مجال للشك فيها بشكلٍ من الأشكال. فمن تلك الإنجازات أن تتشكَّلَ على يديه جماعةً مؤمنةً وعلى نفس نهج صحابة محمَّدٍ رسول الله. وأن يعيد الخلافة الّتي فقدها المسلمون نتيجة ما كسبته أيديهم ونتيجةً لما طرأت على أفكارهم وعلى مُعتقداتهم من انحرافٍ وتشويه. وأن يعيد إلى الإسلام حياتُه الروحيَّة.

ومن ثمَّ أتى اللهُ تعالى بواو العطف للمرَّةِ الثانيةِ عُنصراً ثالثاً وقال: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا﴾. فما هي دلالةُ هذا الكلام الإلهيِّ البليغ؟

الإمامُ في اللغةِ معناه المرشد. وعليه فإنّ معنى قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا﴾ معناهُ أنّ كتابَ موسى كان قد تضمَّنَ نبوءاتٍ مُتعلقةٍ ببعثةِ محمـ ـدٍ (ص) تُرشِدُ الباحثَ عن الحقيقةِ إلى انطباقِ تلكَ النُّبوءاتِ علـ ـى شخـ ـصه (ص) بالذات.

فمن أبرزِ تلكَ النُّبوءات، نبوءةُ سفرِ التثنية الإصحاح (١٨/١٨)، والّـ ـذي وردَ فيه: (**سأُقيمُ لُهمْ نبياً من وَسطِ إخوتِهمْ مثلكَ، وأجعلُ كلامـ ـي في فمـ ـه، فيُخاطِبُهم بكلِّ ما آمره به. وأيُّ رجلٍ لم يسمع كلاميَ الّذي يتكلّمُ به بـ ـاسمي فإنّي أُحاسبهُ عليه. ولكن أيُّ نبيٍّ اعتدَّ بنفسه فقالَ باسمي قولاً لم آمرهُ أنْ يقولَهُ أو تكلّمَ باسمِ آلهةٍ أُخرى، فليقتل ذلكَ النبي. فإن قُلتَ في قلبِكَ: كيفَ نعرفُ القول الّذي لم يقُلهُ الربُّ؟ فإن تكلّمَ النبيُّ باسمِ الربِّ ولم يتمّ كلامهُ ولم يحدثْ، فذلك الكلامُ لم يتكلم به الرب، بل للاعتداء بنفسه تكلمَ به النبيُ، فلا تَهَبهُ**).

والمعلومُ تاريخيّاً أنّ محمداً (ص) تكلمَ عن الربِّ، ولم يُقتل، وتحقّقَ جميع مـ ـا أنبأَ به، وبالتالي فهو نبيٌّ صادقٌ وفقَ هذه النبوءة الّتي تنبّأ بها موسى عليه الـ ـسلام، والمُدرجة في أيامنا هذه في سفرِ التثنية المُشارُ إليه.

ولم يُقلْ الله جلَّ شأنُهُ بشأنِ كتابِ موسى أنّهُ (إماماً) أي مُرشداً وحسب، بل قالَ (ورحمةً) أيضاً. بمعنى أنّ من مَظاهرِ رحمتنا بأُمّةِ موسى أننّا تفضّلنا علـ ـيهم بالنُّبوءةِ المُشارُ إليها. فهل استفادَ أهلُ الكتابِ من هذهِ الرحمةِ الإلهيّـ ـة؟ ذلـ ـكَ أنّ اليهودَ والمسيحيينَ يؤمنون بهذا العهد القديمِ الّذي بينَ أيديهم إيماناً مُشتركاً.

وبعدَ أنْ قدّمَ اللهُ تعالى الدليلَ المؤلّفَ من عناصره الثلاث الّتي تبيّنّاها، والّتي كانَ أحدها قد أشارَ بأسلوبٍ راقٍ وغيرُ مباشرٍ، على بعثة (شـ ـاهد منـ ـهُ) يـ ـومَ تتخلّفُ أمّةُ محمّدٍ وتتكالبُ عليها الأُمَمُ للقضاءِ عليها. فقد عادَ الخطابُ في بقيّـ ـةِ هذه الآية الكريمةِ وفي الآياتِ الّتي ستأتي بعدها، عادَ الخطابُ الإلهيُّ يـ ـتكلّمُ عـ ـن

اليهود والمسيحيينَ الّذينَ لا يلتزمونَ بمُعطيات نُبوءة سفر التثنية الّذي نقلناهُ آنفاً ويُثابرون على تكذيبِ محمَّدِ بن عبد الله الصادق الأمين الّذي لم يعُد هناك من شكٍّ في صدقِ نبوَّته إطلاقاً.

وإشارةً إلى هؤلاء المذكورينَ راحَ بعدَ فراغه من تقديمِ الدَّليلَ المطلوب يقول: (أولئكَ يؤمنونَ به). فأشارَ بضمير (أولئك) إلى أتباعِ كتابِ موسى المرشدُ والرحمةُ من يهودٍ ومن مسحيين يؤمنونَ بهذا العهدِ القديمِ وبما تضمَّنهُ من تلك النُّبوءات. أي أنَّ اليهودَ والمسيحيينَ الّذين يأخذونَ بمضمون نبوءةِ متاب موسى، ولا يستكبرونَ، يرضخون لمُعطياتِ هذا الدليلِ السالفِ الذكرِ، ويؤمنونَ بصدقِ نبوَّةِ محمَّدٍ (ص)، ويخشونَ أن يسيروا على نمطِ من كانَ قبلهُم، ولا يقولون: (افتراه).

وأما اليهودُ والمسيحيونَ الّذينَ يرفضونَ هذا الدليلَ، ولا يردونَ أنْ يُذعنوا لهذه الحقيقة، فقد راحتِ الآية تتكلّمُ عنهم، ويقولُ تعالى بشأنهم فيها: (ومن يكفُرْ به منَ الأحزابِ، فالنارُ مَوعدُه). وهذه الفقرةُ أمستْ تتكلّمُ عن اليهودِ وعن المسيحيين الّذينَ سيُعاصرونَ زمنَ بعثة (شاهدٌ منه)، هذا الّذي تُشكّلُ بعثتهُ العنصرَ الثالث للدليلِ الآنفِ الذكر. أي أنّهُ تعالى عادَ يتكلّمُ عن عصرنا بالذات. وقد سمى اللهُ جلَّ شأنهُ يهودَ ومسيحيي عصرنا هنا بالأحزاب، بكونهم لا يُشكلونَ طائفةً واحدةً، بل طوائف كثيرة. (محيط المحيط).

والمُلاحظُ هو أنّهُ جلَّ شأنهُ أتى بفاء الاستئناف وقال: (فالنارُ موعدُه). أي أنَّ هذا الكافرَ الجديدَ من هؤلاءِ الأحزابِ سيكونُ مصيرهُ نفسُ مصيرِ الّذين سبقوهُ من المكذبين، والّذينَ سبقَ أن قالَ تعالى بحقهم: ﴿أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾.

والمُلاحظُ أيضاً أنّهُ جلَّ شأنهُ أتى بفاء الاستئنافِ للمرَّةِ الثانية وقال: ﴿فَلَا

تكُ في مريةٍ منهُ إنّهُ الحقُّ من ربّكَ ولكنّ أكثرَ النّاسِ لا يؤمنونَ﴾. نتساءلُ: على من توجّهَ اللهُ تعالى الآنَ بخطابهِ في هذهِ الفقرةِ؟ فالمعقولُ هو أنّهُ تعالى أخذَ هذا يُخاطبُ الّذين آمنوا بمحمّدٍ وبالشاهدِ المبعوثِ من أُمّتهِ وفي زماننا الحاضرُ بالذات. هذا المؤمنُ الّذي راحَ يُعاصرُ هؤلاءِ اليهودِ والمسيحيين الّذينَ لم يأخذوا بمُعطياتِ الدّليلِ الآنفِ الذكرِ، ولا بمُعطياتِ نبوءةِ كتابهمُ المقدّس، والّذينَ توعّدهُمُ اللهُ تعالى بمصيرِهمْ إلى النار، وسماهُم (الأحزاب).

فبماذا يُخاطبهُ وماذا يقولُ لهُ؟ فقد استأنفَ اللهُ تعالى كلامهُ وراحَ يقولُ لهذا المؤمنِ بمحمّدٍ والساهدِ منه: (فلا تكُ في مريةٍ منهُ، إنّهُ الحقُّ من ربّك). أي إيّاكَ أيُّها المؤمنُ بهما أنْ تسمعَ ما توَعّدْنا بهِ هؤلاءِ من أنّ النارَ مَوعدُ كُلِّ واحدٍ منهُم، ومن ثمَّ تشكُّ في مصداقيّةِ توعُّدِنا المذكور. قالَ: (إنّهُ الحقُّ من ربّكَ). فأتى تعالى بحرفِ (إنَّ) للتأكيد. كما أتى بضميرِ الغائبِ الّذي يعودُ إلى قولهِ تعالى (فالنارُ موعدُه). كذلكَ أتى كلمة (الحقّ) مُعرَّفةً بمعنى أنَّ الّذي نطقَتْ بهِ هذهِ الآياتُ الكريمةُ هو قولٌ صادقٌ وثابتٌ. (محيط المحيط) وإنّها من جانبِ ربّكَ عزَّ وجلَّ. والحكمةُ منهُ للإشارةِ على أنَّ اللهَ الّذي خلقَ الإنسانَ ويُطوّرهُ لتحقيقِ مقصدٍ مُعيَّنٍ، يستحيلُ عليهِ أن يترُكَ هؤلاءِ المكذبينَ ينحرفونَ عن المقصدِ المُشارِ إليه، ولا يُهلكُهُمْ ولا يجعلُ مصيرَهُمْ على النار. وليُصبح معنى (إنّهُ الحقُّ من ربّكَ) أنّنا إذ توعدناهم بالنار فإنَّ وعيدنا هذا هو قولٌ ثابتٌ وصادقٌ ومن جانبِ ربّكَ فلا ترتابَ فيه. وقد استدركَ سبحانهُ وتعالى وقال بعدَ ذلكَ: ﴿ولكنّ أكثرَ النّاسِ لا يؤمنونَ﴾. وقد قصدَ تعالى من كلمةِ (الناس) هنا هؤلاءِ الّذينَ سيتفاخرونَ على المسلمينَ وغيرِهم بعدَ ظهورِ هذا الشاهدِ بأنّهُم وحدهُمُ هم (الناس) المُتحضّرون)، فكيفَ يقبلونَ أنْ يربطوا أنفسهُم بمن هم أقلُّ منهُم مُستوىً ومِن المُتخلفين؟ خصوصاً وأنَّ هؤلاءِ (الناس) يشكّلونَ الأكثريّةَ في العالم. فقصدهُم بقولهِ المذكور

وأنبأ بحقّهم أنّ أكثريّتهم لن يبالوا بهذا الوعيد ولن يكونوا مِـن المـؤمنين. ألا إنّ هؤلاء اليهود والمسيحيين، ممن أفحمهُمُ اللهُ عزّ وجلّ، وبمُختلف الطُرق، والّـذينَ أثبتَ لهم أنّ محمّداً (ص) كانَ نبيّاً صادقاً، ومع ذلكَ يظلّونَ على تكذيبهم إياهُ فقد استحقوا أن يُطردوا من رحمةِ ربّهم ويُلعنوا. وقد راح تعالى يُقرّرُ هـذه الحقيقـة ويقول في الآية الثامنة عشرة:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾

فانطلقَ سبحانهُ لتقريرِ هذه الحقيقةِ ومُنطلقاً مما تضمّنتهُ نُبوءةُ سِـفرِ التّثنيـةِ السالفةِ الذكرِ والّتي كانت قد وضعت معياراً للتّفريقِ بينَ الصادقِ والكاذبِ وهو أنّ الكاذبَ لا يُفلحُ ولا يتحقّقُ ما يفتريه على ربّه من أقوال. فلخّصَ تعالى هـذا المُنطلقَ وقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾. ومن ثمّ تنـاولَ هـؤلاءِ المكذّبينَ بكلامه وقال: (أولئكَ يُعرضونَ على ربّهم) فما معنى هذه الفقرة؟

قالَ صاحبُ (محيط المحيط): إنّ فعلَ (يُعرَضون) اشتُقّ من قولكَ: عرضَ عليه شيئاً فقصدُ أنّه أراهُ إياه. فالسؤالُ هنا: كيفُ ومتى سيُعرضُ هؤلاءِ المُكذبون؟ ومن سيعرضُهُم على ربِّهم؟ فإنْ نحنُ عُدنا إلى التّفسيرِ الكبيرِ للعلامة الرازي رحمـهُ الله، نُلاحظُ أنّ المُفسرينَ القُدماء وعلى حسبِ ما نقلهُ من أقوالِهم قد اختلفوا كثيراً في موضوعِ فهمِ هذه الفقرةِ من الآيةِ الكريمة.

أقول: إنّ القرآنَ الكريمَ يفسّرُ بعضهُ بعضاً. وقد علمنا من سياقِ هذه الآيـةِ أنّها تتنبّأُ عن أهلِ الكتابِ من الّذينَ سيكذّبونَ (الشاهدَ) على صدقِ نبوّةِ محمّـدٍ رسولِ الله (ص). أولئكَ المُنذرين في سورةِ الكهف. والّذينَ وردَ بحقهـمْ في الآيـةِ (٩٠) من سورةِ مريمَ عليها السلام: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً، أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً، وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَداً﴾.

وبناءً على مُعطياتِ سباقِ هذه الآية الكريمة ومُعطياتِ الآياتِ الأُخرى الّتي أشرنا إليها، فإني أفهَمُ من قولهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعۡرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾ إشـارتهُ إلى ضجيجِ ملائكةِ اللهِ تعالى مما سيُقدِمُ عليه المُشارُ إليهم من أهلِ الكتاب من تكذيبٍ وتآمُرٍ على الإسلامِ والمسلمين.

ونتناولُ الفقرةَ الثانيةَ الّتي قالَ تعالى فيها: (ويقولُ الأشهادُ هـؤلاءِ الّـذينَ كذبوا على ربِّهِم) نتساءل من جديد: مَن هم هؤلاءِ الأشهاد؟ كـذلك اختلـفَ المفسِّرونَ القدماءُ في أمرهم. لذلك نرجعُ على معنى كلمة (أشهاد) ونُحاولُ فهمَ مضمونِ هذه الفقرةِ على ضوءِ سباقها وسياقها أيضاً.

فكلمةُ (أشهاد) جمعُ شاهدٍ وشهيد (محيط المحيط). وعليهِ فـفي رأيـي أنَّ هؤلاءِ الأشهادُ هم كلُّ مَن آمنَ بهذا الشاهدِ وكذَّبهُ هؤلاء المكـذبون. وإنَّ مـن اجتماعِ ضجيجِ ملائكةِ اللهِ تعالى ومن شهادةِ هؤلاء المؤمنينَ، ثار غضبُ اللهِ تعالى على هؤلاء المكذبين وقالَ بحقِّهِم: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. ونتـساءلُ للمـرَّةِ الثالثةِ عن معنى هذه الفقرةِ الأخيرةِ من هذه الآية الكريمة.

أقول: إنَّ حرف (ألا) استُعملَ للابتداء وللتنبيه. (محيط المحيط). والمُلاحظُ أنَّهُ تعالى قد استعملَ لهؤلاءِ المكذبينَ صفةَ (الظالمين). وهي جمعٌ مُفردهُ (ظالم). والظالمُ صفةٌ تُطلقُ على الإنسانِ الّذي يتجاوزُ حدوده. (محيط المحيط). ثمَّ إنَّ (الملعونُ) هو المطرودُ من رحمةِ ربِّه، والمُستحقُّ للعقاب.

واستناداً إلى المعاني الّتي ذكرناها، يعودُ معنى ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى استجابَ لضجيجِ ملائكتهِ ولشهادةِ هؤلاءِ المؤمنين، وقـررَ أنْ يُعاقـبَ هؤلاءِ المكذبينَ بعدَ أن يطرُدَهُم من رحمتهِ جلَّ وعلا. لذلكَ سنلاحظهُ جلَّ شـأنهُ سيتوجَّهُ بعدَ هذه الآيةِ الكريمةِ إلى فضْحِهم والتنبيهِ إلى ما أضمروهُ مـن صـفاتٍ شريرةٍ، وما يقومونَ بهِ من مؤامراتٍ ضدَّ الإسلامِ، ويُذكِّرُهُم بأمثالهم من الأمـمِ

الغابرة الّتي شابهتهُم في صفاتهم واستحقّت عقابَ السماءِ والطّرد من رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ. وعليه ننتقلُ إلى الآية التاسعة عشرة والّتي قالَ تعالى فيها:

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

نتناولُ فعل (يصدون). قال صاحب (محيط المحيط) تقول: صدّك عن كذا ومعناه منعكَ عنهُ ودفعكَ بعيداً عنه وصرفكَ عنه أيضاً. وأما (سبيل الله) فهو طريقُ الله وما أمركَ به تعالى من تعاليمِ الخير. وأما فعل (يبغونها) فقد اشتُقَّ من بَغاهُ أي طلبه. وأما كلمة (عوجاً) فهي ضدُّ الاستقامة من حيث دلالتها. (محيط المحيط).

فإن أخذ المؤمنُ بهذهِ المعاني للكلماتِ المستعملةِ في هذه الآية الكريمة بعين اعتبارهِ حين يجلس يتدبَّرُ دلالتها، فسيتبين له معالمُ ثلاثِ صفاتٍ قتالةٍ سيتصفُ بها هؤلاءِ المكذّبونَ وقد وضّحتها لنا هذه الآية الكريمةُ.

فالصفةُ الأولى الّتي يتّصفون بها هو أنّهم يصُدّون عن سبيل الله. فأنتَ تقول: إنَّ فلاناً صدَّني عن كذا والمعنى أنّهُ منعني ودفعني وصرفني عنه (محيط المحيط). وللمنعِ والصَّرفِ عن شيء والدَّفع عنهُ طرقٌ وأساليب. وما دامَ اللهُ تعالى قد أتى بهذه الصِّفةِ مُطلقةً غيرَ مُقيَّدةً فقد نوَّهَ بذلكَ إلى أنّهُ لنْ يدعوا طريقاً من الطُّرُقِ وأُسلوباً من الأساليبِ إلا وسيعملونَ عليه لِصرفِ المؤمنين بواسطتِه عن دينهم الإسلامي الحنيف. فهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

والصفة الثانية الّتي يتّصفُ بها هؤلاءِ المكذّبونَ عبَّرَ تعالى عنها بقوله: (ويبغونها عِوَجاً). وقد حذفَ تعالى من هذه الفقرةِ الجارَّ والمجرور والتّقدير: يبغونها عوجاً لأهل الإيمان، وقد أتى هذا الحذفُ لداعٍ بلاغيّ. فهذه الصفةُ تعني أن هؤلاء قد دأبوا على إضمارِ الشرِّ لأهلِ الإيمان في كلِّ ما يفعلونه. فجُلُّ همِّهم أن يؤذوا الجماعات المؤمنةِ بمختلفِ الوسائلِ والأدوات. ذلك أن العربيُّ إذا قال: بغيتُكَ الشرَّ يعني طلبتهُ لك. وهذه صفةٌ باتت تصدُرُ من جانبِ هؤلاءِ واضحةَ المعالمِ في زماننا

الحاضر ومما يُغنينا عنِ الخوضِ في تفاصيلها. فهذا هو معنى قوله تعالى ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾.

والصفة الثالثة الّتي يتصفُ بها هؤلاءِ المكذّبونَ من أهلِ الكتاب تضمّنها الشطرُ الثالثُ من هذه الآية الكريمة وهو قولهُ تعالى: ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

إنّ ما يتبادرُ لذهنِ القارئ من كلمةِ (الآخرة) في هذا المقام هو أنّ اللهَ تعالى قصدَ بها الحياةَ الآخرةَ الّتي تأتي بعد الموت. وهو المعنى الّذي كان قد تبادرَ منها لأذهانِ المفسرينَ القدماء. ونعلمُ أنّ من خصائصِ كلامِ اللهِ القرآني أن المُتبادرَ منهُ لا يكون على العمومِ هو المقصودُ بذاته، بل يكونُ المقصودُ معنى آخر لا يُدرك إلا عن طريقِ تدبُّرِ كلامِ اللهِ تعالى، ووفقَ منهجيَّته وأصولِ تفسيرِه.

فالسؤالُ الّذي يُواجهُنا هنا: ما المعنى الحقيقي لكلمةِ (الآخرة) في هذا المقام؟ أقُصدَ به الحياةَ الآخرةَ الآتيةَ بعدَ الموت والمعروفةِ بدارِ البقاء، أم أُريدَ بها البعثةُ الإسلاميَّةُ الآخرةُ الواردُ ذكرُها في سورةِ الضُّحى، وفي مُقابلِ البعثةِ الإسلاميَّةِ الأولى، وذلكَ ضمنَ قولهِ تعالى هناكَ: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

وهنا يلعبُ هذا الأصلُ التّفسيريُّ الثامنُ دَورَهُ أيضاً، ويدفعُنا بالتالي لِنفهمَ المرادَ من لفظِ (الآخرة) المذكور على ضوء المقصودِ من الإنذارِ الوارِدِ في الآيةِ الثالثةِ من هذه السورةِ وهو قولهُ تعالى فيه: ﴿فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾. فهذا ما يقتضيه التّسلسُلُ الموضوعيُّ لكلامِ اللهِ جلّ شأنهُ. أي أنّ لفظَ (الآخرة) هنا يحملُ معنىً مُرتبطاً بموضوعِ البعثةِ الثانيةِ للإسلام، وبالعذابِ الّذي سيترلُ بهؤلاءِ المكذبين في ذلكَ الحين، والّذي وردَ بحقهِ: ﴿فَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ

﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾، وهو عقابُ الله الّذي تضمَّنتهُ اللّعنةُ الذكر.

فهذا هو المعنى الّذي أفهمه من قوله تعالى في هذا الشطر الأخير من هذه الآية الكريمة والّذي يحملُ الصفة الثالثة الّتي سيتّصفُ بها هؤلاء المكذبين والّذي عبَّرَ تعالى عنهُ من خلالِ قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾.

إنَّ كلمةَ (كافرون) قُصِدَ بها هنا معنى مُنكرون. وإنَّ تكرارَ ضمير (هم) أحدثه الله تعالى ليشيرَ به على أصحابِ الصفاتِ الثلاثة الّتي أتى على ذكرها، والمُنكرون إنذارَ (عذابَ يومٍ كبيرٍ) مُقدَّرٍ لمعاقبتهم على تكذيبهم (الشاهدَ منه). وهذه الصِّفةُ الثالثةُ باتَتْ واضحةَ المعالمِ في تصرُّفاتهم في زماننا الحاضرُ. فقد باتَ هؤلاءِ يعتقدونَ أنّهم سادةُ عالمنا المُعاصر، من جراءِ ما تحقّقَ على أيديهم من اكتشافاتٍ علميةٍ وتقنياتٍ مُتطورةٍ وأسلحةٍ كثيرةٍ فتاكةٍ، وأموالٍ مجموعةٍ متعددةٍ وغنىً يتباهون به في وجهِ بقيّةِ شعوبِ العالمِ الفقيرةِ والنامية.

والآن، وبعدَ الّذي ذكرناه، فقد راحَ تعالى يوضّحُ للقارئ حقيقةَ هؤلاءِ الكُفّارِ الّذين تملّكتهُم الكبرياءُ والغرور، واتّصفوا بهذه الصِّفات الثلاثة المقيتة وما تجرُّه عليهم من عواقب. فعاد اللهُ تعالى فأتى بنفسِ الضَّمير (أولئك) الّذي كانَ قد استهلَّ به الآية (١٦) من قبلُ قال فيها: ﴿أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾. أقول: أتى تعالى بالضَّمير (أولئك) وراح يقول في الآية العشرين:

﴿أُولَـئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء
يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾

وتعالَ أيّها القارئ لنتدبرَ هذه الآية الكريمة وفقَ ما علمناه من منهجيّةِ هذا الكتابِ السماويِّ وحسبَ أصولِ تفسيره.

فتناولُ الفقرةَ الأُولى منها، وهي قولهُ تعالى: ﴿أُولَـٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾. فنتناول كلمة (معجزين) فقد اشْتُقَّتْ من أعجزَ حيث تقول: هـو شخصٌ أعجزٌ ومعناهُ أنَّهُ شخصٌ يبدو في ظاهرة أنَّهُ مُمتلئٌ، ما الحقيقةُ فهي أنَّهُ في باطنه غيرُ ناضج. فإن نحنُ اشتققنا كلمةَ (مُعجزين) من الإعجاز، فيصبحُ معنى (لم يكونوا مُعجزينَ في الأرض) أي ما كان باستطاعتهم الرَّدُّ على التَّحديّ القـرآني الّذي تحدَّيناهم به سابقاً، ولا هم أتوا في مقابلِ ذلك بشيٍ خارجٍ عن طوقِ البشر، فجميعُ ما اكتشفوهُ وحصلوا عليه يدخُلُ في نطاق ما سلَّحنا به هذا الإنسان مـن إمكانياتٍ وقُدُرات، لذلك لا يحقُّ لهم أن يتملكّهُمُ في نطاقِ ما سـلّحنا ه هـذا الإنسان من إمكانيّاتٍ وقُدُرات، لذلك لا يحقُّ لهم أن يتملكّهُمُ الغرور والكبرياءُ ولا أن يعتقدوا أنّهم (معجزين في الأرض). أما بالنسبة لاشتقاق كلمة (معجزين) من فعل اعجزَ، فالمعنى أنَّ هؤلاء يتظاهرون بخلافِ ما يُبطنونـه. فهـذا معنيـان مُحتملانِ لهذه الفقرةِ الأُولى من هذه الآية الكريمة.

ونتناولُ الفقرةَ الثانيةَ منها والّذي قال تعالى فيها: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾، فقد وضّحَ معجمُ (محيط المحيط) أنَّ صيغةَ (ما كانَ لهم) تعني مـا كانَ ينبغي لهم. ثمَّ إنَّ كلمةَ (أولياء) جمعٌ مفردُهُ ولي، مِن وَليَ الشيءَ وعليه، معناهُ أنّهُ ملكَ أمرهُ وقامَ به. ووليَ فلاناً معناهُ: نصره. ويصبح بالتالي معنى قوله تعـالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾، أنَّ الّذي يتّصفُ بصفاتِ هؤلاءِ المكذّبينَ ما كانَ ينبغي لهم أنْ يجدوا لهم من دونِ اللهِ وليّاً ينصرُهُم ويقومُ بأمرهم وبالعنايـة بهم. ويكونُ اللهُ تعالى من خلالِ قوله الآنفِ الذكرِ قد أعلنَ بأنَّ هؤلاءِ ما عـادوا يُرتجى أنْ يتلطّفَ بهمْ ربُّهُم بأيِّ شكلٍ من الأشكال.

ونتناولُ الفقرةَ الثالثةَ من هذه الآيةِ الكريمة، والّتي قال تعالى فيها ﴿يُضَاعَفُ

﴿لَهُمُ الْعَذَابُ﴾. ففعل (يُضاعف) اشتُقَّ من ضاعفَ له أي جعلَ ما يعطيه إياه ضعفين. ثمَّ إنَّ (العذاب) يعني النَّكالَ والعقوبة (محيط المحيط)، وبه يصبح معنى (يُضاعفُ لهُمُ العذاب) أي أنَّ عقوبَتُهم تصيرُ ضعفين. فلماذا هذا التضعيف؟ يفهمُ جوابُ هذا السؤال من سياقِ كلامِ الله تعالى. فهو تعالى كان أمهلهُم إلى زمنِ بعثةِ (الشاهد) الّذي سيشهدُ على صدق نُبوَّة محمَّد (ص). كذلك هيأ لهم أسباب نهضتهمُ الأخيرةُ الّتي أنبأ عنها تعالى في سورةِ الكهف. فلا هم استفادوا من بعثة (الشاهدِ منه). وظنّوا أنّهُم بلغوا ما بلغوه من رقيٍّ ماديّ بلَياقَتِهمُ الشّخصيَّةِ وبذلكَ كفروا بفضلِ الله تعالى عليهمْ في هذا المضمار. وصموا آذانَهُم عن جميعِ ما أنذرهُم الله تعالى في كتابه العزيزِ من إنذارات. لذلكَ كُلّه (يُضاعفُ لهُمُ العذابُ)، ويُعاقبونَ بضعفِ ما يُعاقبُ الله تعالى به المذنبَ الآثمَ على ما يُصدرُ عنه من معاصٍ وآثام.

ونتناول الفقرةَ الرابعةَ من هذه الآيةِ الكريمةِ والّتي قال تعالى فيها: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾. فهو تعالى نبَّهَ هنا إلى أنَّ ما اتَّصفَ به هؤلاءِ وما ركبَ رؤوسهُم من غرور واستكبار، قد عطلَ قُدرتهم على سماع ما أنذرناهم به، وحالَ كُلُّ ذلكَ دونهم ودونَ الاعتبارِ بالمصيرِ الّذي آلتْ عليه الأمم الكافرةُ الّتي سبقتهُم من قبل والّتي شابهَ حالُها حالَ هؤلاء.

وهذا الوصفُ البليغُ الّذي تضمنتهُ هذه الفقرةُ الرابعةُ قد تحقَّقَ أيضاً في أيامنا هذه. وبذلك يصدقُ ما أنبأنا عنهُ ربُّنا بحقِّهم من قبلُ حيثُ قالَ هناك: ﴿أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وننتقلُ لنتدبَّرَ الفقرةَ الأخيرةَ والّتي قال تعالى فيها: ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾. فقد أوردَ تعالى فيها (كان) بمعنى صار وليصبح معناها: بأنَّ جميعَ ما أورده الله تعالى بحقِّ هؤلاء، هو من قبيلِ الحقائقِ الثابتة، لأنَّهُ ما دامَ هؤلاء الكفارُ المشار إليهم من

أهلِ الكتابِ قد آلَ حالُهم إلى ما ذُكر آنفاً، فمنَ البديهيِّ جداً أن يعودوا عُمي ـانَ البصيرةِ ولا يُبصرونَ حقيقةَ ما تضمَّنهُ هذا القرآنُ العظيم.

وقد راحَ تعالى يُلقي الضَّوءَ على النتائج المُترتِّبةِ على ما آل إليهِ حالُ هؤلاء، وذلك في الآية الحادية والعشرين، قال:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

فعبَّرَ تعالى من خلالِ قولهِ: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ وذلكَ في الفقرةِ الأُولى عن النتيجةِ الحتميةِ الّتي ذكرناها. فهو أتى بفعل (خسروا) المُشتقِّ من قول ـك: خَ ـسرَ التاجرُ،بمعنى أنّهُ غُبِنَ ولم يربحْ في تجارته. كما يقول: خسرَ الرجلُ خُسراناً بمع ـنى ضلَّ عن الطَّريقِ وهلكَ وعليهِ فإنَّ قولهُ تعالى: ﴿خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، وردَ هنا على شاكلةِ قوله تعالى في مقام آخرَ (سَفِهَ نفسهُ) والمعنى أنهم وبسبَبِ ما اتَّصفوا بهِ وما أقدموا عليهِ فإنَّهُم ضلوا الطريقَ وتسبَّبوا بالهلاكِ لأنفُسهم.

ومن ثمَّ أتى تعالى في الفقرةِ الأُخيرةِ بواوِ العطفِ وأدْخلها على فعلِ (ضـ ـلَّ) لتفيدَ معنى الحال، وراحَ يصفُ حال هؤلاء وما سيؤولونَ إليه وقال: ﴿وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ وبمعنى أن أكاذيبهم وافتراءاتهم الّتي أشاعوا بحقِّ محمدٍ (ص) و (الشاهد منه) وبحقِّ كتابِ اللهِ العزيزِ، كل ذلك لم يُجْدهم فتيلاً، وطاشَتْ سهامُهم فلم تُصبْ أهدافها في هذهِ الحياةِ الدُّنيا.

ومن ثمَّ راحَ تعالى ينبئُنا عن المصيرِ الأُخرويِّ الّذي ينتظـ ـر هـ ـؤلاءِ بعـ ـد إهلاكهم، وذلكَ في الآية الثانية والعشرين، وقال:

﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾

إنَّ كلمةَ (لا جَرَمَ) تُفيدُ القَسَمَ وإنَّ معناها: لا محالةَ ولابُدَّ (محيط المحـ ـيط). وأما كلمةَ (الأخسرون) فصيغةُ تفضيل، وتستدعي من طرفِ الباحثِ المتـ ـدبرِ أنْ

يسألَ نفسهُ عدّة تساؤلات. فالسؤال الأول: لِمَ وردتْ هذه الكلمةُ بصيغةِ التفضيل "أخسرون"؟ والسؤال الثاني: من هي الأقوامُ الّتي وازنَ ربنا عز وجل ما بين عاقبتها وما بين عاقبة هؤلاء الّذينَ يتكلّمُ عنهُمْ من خلال قوله تعالى بحقّهم (الأخسرون)؟ والسؤال الثالثُ: ما هي حقيقةُ هذه الخسارةَ وماهيتها ونوعيتها؟

أمّا لِمَ صيغةُ التّفضيلِ هذه، فلأنّه تعالى يريد أن يُوازن ما بين مصير هؤلاء، وما بين أقوام أخرى كان حالُها قد شابهَ حالَ هؤلاء. وهو تعالى سيأتي على ذكرِ تلكَ الأقوامِ بعدَ أن يُوضّحُ لنا مصيرَ جماعةِ المؤمنين. وهذه الأقوام المشارُ إليها، والّتي سيأتي اللهُ جلّ شأنهُ على ذكرها فيما بعدُ فهم أقوامُ نوحٍ، وعادٍ، وثمودٍ، وقوم إبراهيم ولوط، وقوم مَدْيَن، وقومُ موسى وهو نبي الّذينَ يتكلّمُ تعالى عنهُم من أهلِ الكتاب. وسنرى كيفَ أنّه تعالى قد مهّدَ هنا من خلالِ كلمةِ (الأخسرون) ليستعرضَ فيما بعد مصائرَ جميع هذه الأقوام الّتي ذكرناها. وأما هي حقيقةُ وماهيّةُ الخسارةِ الّتي تلحقُ بهم فهي أنّهُم كادوا يسودوا على العالم كلّه، بما تحقق على أيديهم من عُلومٍ وتقنياتٍ مُتطورةٍ وأسلحةٍ فتاكة، ويضيعُ كلُّ ذلكَ دفعةً واحدةً، فهي خسارةٌ تحرقُ لوحدها أكبادهم. فهذه هيَ أجوبةُ تلك التساؤلاتُ الّتي أثارتها في أذهاننا كلمةُ (الأخسرون) والّتي وردت مُقترنةً بحذفٍ بلاغيٍ واضحُ المعالم.

وكما قلتُ فإنّ اللهَ تعالى وقبلَ أن يقومَ بالمقارنةِ المطلوبة، شاءَ جلّ شأنه أن يوضّحَ لنا الحالُ الّذي سيصيرُ إليه جماعةُ المؤمنين. لذلك نُلاحظهُ تعالى وقد أتى بحرف (إنَّ) الّذي يفيدُ التأكيدَ وراحَ يقول في الآية الثالثة والعشرين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَى رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

فكلمة (وأخبتوا) وهي كلمةٌ لم ترد من قبل. واشتُقّت من قولك: أخبتَ إلى ربّه فمعناه تيقّن بوجوده واطمأنّ إليه وإلى واسع علمه وواسع قُدُراته. وأصْلُ معنى

الخُبوُت هو عمليَّةُ نزول في مُتسَعٍ من أرض رمليَّة. وهذا المعنى يُعدُّ في حد ذاته قرينةً على أن (وأختبوا) قد استُعملَ بمعناه المجازيِّ، وليسَ بمعناهُ الحقيقيِّ، وعلى حسبِ ما وردَ في الأساس (محيط المحيط)، وبذلك يكون تعالى قد نبهَ أذهانَ هؤلاءِ المؤمنين في هذا المقام ومن خلال هذه الكلمة ليعملوا الصَّالحات ونفوسُهُم تأملُ من ورائها بلوغَ مرتبةِ النفسِ المُطمئنةِ الّتي قال تعالى بحقها في مقامٍ آخر: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. هذه المرتبةُ الروحيَّةُ الّتي لا يبلُغها المؤمنُ إذا عملَ عملاً صالحاً لكنَّهُ خاوٍ من روحِ السعي لجذبِ محبةِ اللهِ وقُربهِ ورضوانه، ومن اليقين بواسعِ علمِ اللهِ وعظيمِ قدراته. وبهذا الأسلوبِ البلاغيِّ يكونُ تعالى قد ربطَ هذه المعلومةِ بمُعطياتِ الآياتِ الأوائلِ من هذه السورة.

ثمَّ إنَّ كلمةَ (أصحاب) الّتي استُعملتْ في هذه الآية الكريمة تعني لُغةً مُلازمةَ إنسانٍ لأيِّ شيء سواءَ أكانَ هذا الشيءُ إنساناً أو حيواناً أو مكاناً أو زماناً (محيط المحيط). وإن لم تدُم ملازمتهُ إلى أبدِ الدهر. وقد شاءَ اللهُ تعالى أن يؤكِّدَ لنا مُلازمةَ هؤلاءِ المؤمنون لجنَّتِهِمُ الموعودةُ، لذلك أضاف جل شأنه يقول: (هم فيها خالدون) وبذلكَ يكونُ تعالى قد تداركَ هذا النَّقصَ الحاصلَ من دلالة كلمتي (أصحاب الجنّة).

علماً بأنَّ الخلود في اللغة يعني المُدّة الطويلة دامت أم لم تدُم. وهو تعالى استعملها بحقِّ المؤمنين من أصحابِ الجنَّة بمعنى الدوام، لكنَّهُ لم يستعملها بمعنى الدَّوام بحقِّ الكافرين. وهذا بحثٌ لا يتَّسعُ هذا المقامُ لشرحهِ وتفصيله.

ولْيُلاحظ القارئ كيفَ أنَّ اللهَ جلَّ شأنهُ قال في سورةِ القلم، الآية (١٧): ﴿ ﴾. فهو تعالى استعملَ هنا كلمة (أصحاب) ولم يضف إليها كلمات (هم فيها خالدون) بسبب أنها جنَّةٌ أرضيَّة، لا تتعلق بالحياة الآخرة. وبسببِ أنَّ ملازمة أصحابها لها محدودٌ بزمانِ مُلكيتهم لها في هذه الحياة الدنيا وحسب. وهكذا نكون

قد أجبنا على كل ما لاحظناه وتساءلنا عنه.

فلما انتهى الله جلّ شأنه من توضيح المصير السعيد الّذي سيؤول إليه المؤمنون بعد موتهم وانتقالهم إلى الحياة الآخرة. شاءَ تعالى القيامَ بمقارنةٍ يُقارنُ من خلالها ما اتّصف به كلُّ فريق من الفريقين: المؤمنون والكافرون. فصوّر حال الفريقين بتصويرٍ فنيٍ رائعٍ، وبنظمٍ بلاغيٍ مُعجزٍ وقال في الآية الرابعة والعشرين:

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

فهو تعالى صوّرَ الكفارَ المكذبين لرسولهِ الكريمِ (ص) أن ليس لهم في الآخرة إلاّ النار، وأنّ النّار موعدهم، وشبّهَهُمْ بإنسانٍ قد فقد بصَره، وسمعه أيضاً، أي أنه عادَ كالأعمى والأصَم. وفي مقابل ذلك صورَ الله تعالى المؤمنينَ فشبَّهَهُم بإنسانٍ مُتمتّعٍ ببصرهِ وبسمعه. وقد أتى بهاتين الصفتين بصيغة الاستغراق، ليُفخّم من سمعهم وبصرهم. وهو تعالى لم يستعمل هذه الصّفات بدلالاتها الحقيقية، بل استعارها للتّعبيرِ بها مجازاً عن حقائق ما اتّصفَ به كل فريقٍ من صفات.

فمنَ المعلومِ أنّ المعنى الحقيقيَّ لكلمةِ (الأعمى) هو فقدانُ حاسةِ البصرِ المعروفةِ من كلتا العينين. أما معناها المجازيُّ، فيوصفُ بها من عَميَ قلبُه عن رؤيةِ الحقّ، وضلّ ضلالاً بعيداً. وهو وصفٌ دقيقٌ توصفُ به أحوالُ الكافين المكذّبين. ثمّ إنّ المعنى الحقيقي لكلمةَ (الأصَمّ) هو فُقدانُ الإنسان حاسّةَ سَمْعِه المعروفة. أما معناها المجازيُّ، فيوصفُ به كلُّ إنسانٍ رَكبَ الغرورُ والكبرياءُ رأسهُ واستعلى على الإصغاء إلى كلّ ما يُقالُ له. وأما كلمةُ (البصير) فمعناها الحقيقي هو من كانت عيناهُ سليمتان. أما معناها المجازيُّ، فيوصفُ به الإنسانُ الّذي يكونُ من عادته التفكُّرُ والتأمُّلُ في كلِّ شيء من الأشياء يَعرضُ لعينِي بغايةِ الوصولِ إلى معرفةِ حقيقةِ هذا الشيء الّذي رآه. وأما كلمةُ (السميع) فمعناهُ الحقيقيُّ هو كلُّ مكوّن

كان سمعهُ سليماً ويسمعُ بكلتي أُذنيه. أما المعنى المجازيُّ لكلمةِ (سميـ ـع) فقُـ ـستعارُ ليوصَفَ بها الإنسانُ الّذي اعتادَ الإصغاءَ لكلِّ ما يسمعهُ، وهو يحـ ـاولُ الإحاطـ ـة بعلمهِ ومعانيه ودلالاتهِ، ومُستعملاً في ذلك عقلَهُ وفهمهُ ومحاكمتهُ ومنطقه. وبذلك يكون الله جلَّ شأنه قد صور كلا الفريقين بتصويرٍ فنيٍ رائعٍ، وبتشبيهٍ عديمِ المثال.

ولنُلاحظ كيفَ أنَّ الله تعالى راحُ يُخاطبُ هذا القارئ لهذه الآية الكريـ ـة والّذي أصغى إلى هذا التّشبيه بتلكَ الأوصافِ يسأله: (هل يستويانِ مثلاً؟).

فمن الطّبيعيِّ جداً أنَّ القارئ إذا أمعنَ فكرهُ وهو ينظرُ إلى كلِّ صورةٍ مـ ـن الصُّورتينِ الفنّيّتينِ المذكورتين بمفردها، وحاولَ المُقارنةَ بينهما، فكانَ من الطبيعـ ـيِّ جداً أن يُجيبَ على التّساؤلِ الآنفِ الذِّكرِ بقوله: (لا يـ ـستويان). بـ ـسبَبِ أنَّـ ـهُ سيُلاحظُ الفوارقَ التالية:

الفرق الرئيسي الأوَّل: فالّذي يُشاهدُ أعمىً لا يبصرُ بعينيه، ويكـ ـونُ هـ ـو بنفسه مُطّلعاً على حاله. فإن هو أخذ بعينِ اعتباره أن الله عز وجل يـ ـتكلم مـ ـن خلالِ هذا التّشبيه بلسانِ مجازيٍّ وليس بلسانِ الحقيقية، يُدركُ الفرقَ الأولَ وهـ ـو دلالتُه على عمى أفئدةِ هؤلاءِ الكفارِ عن إدراكِ وجودِ خـ ـالقهم وربهـ ـم، وعـ ـن مُشاهدةِ أنواره. في الوقت الّذي يكونُ المؤمنُ البصيرُ مؤمناً بوجودِ ربّهِ ومـ ـشاهداً لعظيمةِ تجليّاته وأنواره.

كذلكَ فإنَّ الّذي يُشاهد أعمىً لا يُبصرُ بعينيه، ويُريدُ الوصولَ إلى هدفـ ـه المنشود، فإنّ هذا الأعمى سيتعرَّضُ لتعثّرِ قدميهِ ويسقط، ولربما لا يصلُ إلى هدفـ ـه المنشود أيضاً. على حين أنَّ البصيرَ يصلُ على هدفِ المنشودِ بسهولةٍ تامـ ـة. هـ ـذا بلسانِ الحقيقة. أما إذا أخذ هذا المُشاهدُ بعينِ اعتباره المعنى المجازيَّ لكلمةِ (البصير)، يكون الله عز وجل قد وضحَ من خلالها حقيقةً واقعةً، وهي أنَّ المـ ـؤمنينَ الّـ ـذينَ يعملونَ على أحكامِ شرائعِ ربهم عز وجل يصونون أنفُسهم من استعمالِ مُختلفِ الأشياء المادية وغيرِ الماديّةِ استعمالاً سيئاً ويصونونَ بذلك أنفسهم مـ ـن جوانبـ ـها

الخطرة. كالخمر على سبيل المثال ما إن نبّهَ الإسلام أذهان المؤمنين إلى ما يحمله الخمرُ من أخطار، إلا ولُوحظ أن أولئك المؤمنين أعرضوا عن تناولها. وصانوا أنفسهم من أخطارها.

وكذلك فإنّ الّذي يُشاهدُ أعمى لا يُبصرُ بعينيه ويُحاولُ مُعاركة عدوهِ دفاعاً عن نفسه، يستحيلُ عليه التفريقُ والتمييزُ ما بين صديقه وما بين عدوهِ في جميع أحواله. على حين يستطيعُ هذا الإنسانُ المُبصرُ القيامَ بعمليّة التّفريقِ المذكورة. هذا على مستوى المعنى الحقيقي. أما إذا أخذ بعين اعتباره المعنى المجازي لكلمة (البصير)، فيفهمُ من خلال ذلكَ الفرقَ ما بين الأعمى والبصير، ودلالتهُ على أنّ الطّرفَ الكافرَ على حين يعمدُ على إكراهِ الناسِ على تركِ عقائدهم بأسلوبِ العُنفِ والإكراهِ بسبب عمى بصرهِ ومن غيرِ أن يُميّزَ ما بينَ عدو أو صديق. كحال (أبو جهل) وزبانيتُهُ كانوا يعذّبون أصحابَ محمّدٍ رسول الله (ص)، من غيرِ أيِّ ذنبٍ يصدُرُ عنهُم ومن غيرِ أن يكونوا من أعدائهم. على حين أنّ الإنسانَ البصيرَ وبدلالته المجازيّة لا يكون متعصّباً، ولا يعمدُ إلى إكراهِ الناسِ في الدين، ويفرّق في الوقتِ نفسه ما بينَ عدوّه وما بين صديقة الحقيقيّ.

الفرق الرئيسي الثاني: ويتعلق بمقارنته جلّ شأنه ما بين الأصم والسميع. فالّذي يُشاهدُ إنساناً أصماً لا يستطيعُ السمعَ من خلال أذُنيه، لا يستفيدُ من كلّ ما يُتلى عليه من علومٍ ومعارفَ ومواعظَ ونصائح. على حين يستطيعُ سليمُ السمعِ الاستفادة من كلّ ما يسمعهُ بل ويُحسّنُ به سُلوكهُ اليومي. أما إنْ هو قام بهذه المُقارنة بدلالاتها المجازيّة، فهو تشبيهُ حالِ هؤلاء الكُفّار بالأصم، ودلالتهُ على أنّ صفقيِّ الغرورُ والاستكبار قد هيمنت عليهم إلى درجة شلت معها حاسة السمع عندهم، وما عاد بإمكانهم أن يستفيدوا مما أنزلهُ الله خالقُهم ولصالحهم من معارفَ وعلومٍ وأحكامٍ ونصائحَ ومواعظ. على حين أنّ الفريق المؤمنَ لا يكون حالهُ كمثلهم، بل يستفيد مما أنزلهُ ربهُ لصالحه منها جميعها. وليس هذا وحسب، بل وإنّ

هذا المؤمن لا يقف عند هذا الحدّ، بل إنّ بُعدهُ عن العقلية الطائفية وعن ذهنية التعصُّبِ يدفعَانهِ للاستفادةِ مما يتكشف على يَدي عدوِّه من اكتشافاتٍ وعلوم. فقد رُويَ عن رسول الله (ص) قوله: (الحكمة ضالّة المؤمن أنّى وجدها التقطها)، وقد أشارَ قوله المذكور إلى ما ذكرناه.

كذلك فإنّ الّذي يُقارنُ ما بين الأصم والسميع بدلالاته المجازية يفهم منها إشارتها إلى حرمان الفريق الكافرِ من التعرُّفِ إلى ربهِ ومن الاتصالِ به عزّ وجلّ، ومن التلذذِ بسماعِ كلامهِ وإلهامهِ الأخاذ، على حين أنّ الفريقَ المؤمنَ لا يكون حالهُ على هذا المستوى من الحرمانِ من هذه النعمِ الإلهية. بل إنّ كل مؤمنٍ يتقربُ من ربهِ ويتعرّفُ عليه ويستمع إلى كلامهِ وعلى قَدرِ صَبرهِ على تحمُّلِ الشدائدِ وعملهِ الصالحاتِ وعلى قدر إخباته ويقينهِ واطمئنانه بربِّهِ عزّ وجلّ. ويزيد هذا المعنى جلاءً ووُضوحاً حينَ يُلاحظُ أنّ اللهَ تعالى قد استعملَ صفتي (السميع والبصير) بصيغةِ المُبالغة أيضاً.

ونعمدُ الآن إلى فهمِ دلالاتِ هذه المقارنةِ والتّصويرِ الفنيِّ البلاغيِّ بمنظارٍ آخرَ غيرِ المنظارِ الّذي نظرنا من خلالهِ إلى مُعطياتها. وهو أسلوب الله تعالى الحضاري في معالجتهِ لحالِ كلٍّ من الفريقينِ وتصويرهِ لتلك الأحوال.

فالّذي يُلاحظهُ الباحثُ المُدقّقُ هو أنّ الله تعالى تجنّبَ شتْمَ هؤلاء الكُفّار كما تجنبَ سبهم وإهانتهم، وأعطانا بذلك درساً حضاريّاً في مثل هذه الأحوال. فالّذي فعلهُ تعالى هو أنّهُ اقتصرَ على إبرازِ حقيقيةِ ما يتصّفُ به الفريقينِ من صفاتٍ واقعيةٍ لا تتجاوزُ حدودَ تلك الحقائق المذكورة، وامتاز في الوقتِ نفسه من خلالِ قيامهِ بهذه المقارنةِ بصياغةِ ذلك كُلّه بنظمٍ بلاغيٍّ مُعجزٍ وبتصويرٍ فنّي رائع. وذلك ضمن هذين الشطرين من هذه الآية الكريمة ومن خلال ثمّانية كلمات فقط.

أمّا الفقرةُ الثالثةُ والأخيرةُ من هذه الآية الكريمة، وهي قولهُ تعالى: ﴿أفلا

تَذَكَّرُونَ﴾. فهو تعالى أتى أولاً بهمزة الاستفهام. وقام بعملية حـ ـذف بلاغ ـيٌ لفعل (تذكرون)، كما أبْهَمَ الجهَةَ الّتي يُخاطبها من خلال استفهامه المُشارُ إلي ـه. فهو تعالى عَمَدَ إلى كل ذلك ليَدَعَ المؤمن الباحثَ المُتدبّرَ يُمعنُ فكرهُ فُيصرّفُ هذا الكلام لعدة احتمالات.

وكأنَّهُ جلّ شأنه يُخاطبُ القُراءَ بادئ ذي بدء. ويقول لُهم: أفلا تتعظ ـون أيها الناسُ الّذين تُتلى عليهم هذه الأوصافُ البشعةُ والّتي تسبّبتْ لأصحابها الهلاكَ والدّمارَ من جراءِ انتهاجهم أُسلوبَ التّفكيرِ المادي وإنكـ ـارهم أمـ ـورَ الغيـ ـب، واختلاقهم مختلفَ الافتراءات على رسولنا وعلى جماعةِ المؤمنينَ، أفـ ـلا تتعظ ـون بأسلوبنا السامي الحضاريّ حينَ عالجنا مُشكلتهم وابتعدنا عن أسـ ـلوبِ الـ ـسبِ والشتمِ والتهويلِ حين وضّحنا حقيقة سلوكهم اليومي؟ أفلا تتذكرون، فتصححون سلوككم مع كل من ينتهجُ حقيقةَ ويتصف بما اتصفوا به؟ فهذا هو المعـ ـنى الأوّلُ لهذا الاستفهامِ في الخطاب. وأما المعنى الثاني فهو أن يكون الله جل شأنه قـ ـد راح يخاطبُ الكُفارَ أنفسهم، من طوائفِ وجموعِ أهلِ الكتابِ الغربيين المعاصرينَ الّذينَ تناسوا جميعاً وُجهَ إليهم من إنذاراتٍ في كتاب الله العزيز. فقد راح تعالى يخاطبُهم ويقول لهم "أفلا تتذكرون وتتعظونَ بمصائرِ الأممِ الغابرةِ أمثالكم، لتتجنبوا عذابَ (الآخرة) الدنيوي والأخروي المقدرُ لكم في نهاية المطاف.

فإن نحنُ أخذنا بهذا المعنى الثاني بعين اعتبارنا، يعاودنا قوله تعالى الّذي قالـ ـه من قبل وهو ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ وهو القـ ـولُ الّـ ـذي تساءلنا عنده هناك عمّن يكون المقصود بصيغة الجمع (الأخسرون) فيه.

وبذلكَ نُرك بصورةٍ لا شعورية أن الله تعالى قد خطى من خلالِ خطوتـ ـه الثانية هذه خُطوةً تُعيدنا إلى الموضوعِ الأصليّ لسورةِ (هود) ومن حيث لا نسعُر. وقد أعدّنا في الوقتِ نفسه ليقدمَ لهؤلاء الكُفار أمثلة ونماذجَ عن الأممِ الغابرةِ الّتي

شابهوها، وليشكّلُ كُل مثال من تلك الأمثلة دليلاً تاريخياً قاطعاً على وجود الله عز وجل من جهة وعلى المصير الّذي ينتظرُ الّذينَ يكذبونَ رسُلَ الله تعالى من جهـ ـة أُخرى. وهو أسلوبٌ حاذقٌ ومُعجزٌ في الوقتِ نفسه. ويبـ ـز عظمـ ـة التسلـ ـسلِ الموضوعيّ لمضمونِ أفكارِ هذه السورةِ العظيمة.

فمن مثالِ أيِّ من الأُممِ الغابرةِ انطلقَ سبحانه وتعالى يعرض أدلتـ ـه لهـ ـؤلاءِ الكفارِ من أهلِ الكتاب؟ فالّذي نُلاحظهُ هو أنّهُ تعالى انطلق من تقديمِ مثالِ نـ ـوحٍ مع قومه. هذا الرسولُ الّذي زعمت التوراةُ المعاصرةُ أنّهُ هو جدّهُم الأعلى. فهـ ـو من نسل سامِ ابن نوح عليه السلام. وقد ابتدأ تعالى فأتى بالواو العاطفـ ـة ليبـ ـدي ترابُط ما سيذكرهُ مع الّذي قبله، كما أتى جلّ شأنه بالحرف (لقد) الّـ ـذي يفيـ ـد ابتداءَ كلامٍ جديدٍ وراح يقول في الآية الخامسة والسادسة والعشرين:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ۝ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾

وبذلك يكونُ تعالى قد أعادَ إلى ذاكرةِ هؤلاءِ ما قالهُ تعالى في الآية الثانيـ ـة وهو: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾. ولا فرق بينَ قولِ نـ ـوحٍ هنا: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وبين نصِّ الآية الثانية المـ ـذكورةِ إلا فرقَ القائلين. وبذلكَ يرتبطُ مضمونُ هذه المثالِ بالموضوعِ الأُصليّ للسورةِ بشكلٍ عجيب.

والمعلومُ أنّ اليومَ لا يُوصفُ بصفةِ أليم. وهذه قرينةٌ تدلُّنا على وجودِ حذفٍ بلاغيٍّ، أي لأنّهُ تعالى قد حذفَ كلمةَ (حادثٌ) وليشيرَ بهذا الحذفِ إلى الطوفـ ـانِ القادم، ويعودُ تقديره ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ حادثٍ أليـمٍ يترُكُ ذكرى أليمة﴾.

كذلك فإنَّهُ سبحانهُ وتعالى عندما قال على لسان نوح: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾. فقد وصفَ كلمةَ (نذيرٌ) على أنَّهُ (مبينٌ)، لينبه في الوقت نفسه إلى أن رُسل الله الكرام لا يعمدونَ لنشرِ دعوتهم بالعُنف وإكراه الناس على قبول ما يُرسلون به لإنذارهم ولإيقاظهم من غفلتهم، وإنَّما يعمدون إلى سلاحِ الحجج وتقديم البيِّنات، وعلى حسبِ ما يفهمُ من كلمةِ (مبينٌ) المشتقةُ من ابانَ الشيء بمعنى وضحه فهو مبين (محيط المحيط). وبذلك يكون تعالى قد استعمل السلام في (لكم) بمعنى الاختصاصِ أيضاً، أي أنَّ إنذارَ نوحٍ مُختصٌّ بقومه وحدهُم.

والشيءُ المُدهشُ حقاً، هو أنه تعالى راحَ بعد ذلك يوردُ ما جرى ما بين نوحٍ وما بينَ قومهِ من حوارات. وانتهى من كل ذلك ليقول: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا "إشارة وقف" فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وهذا الإنباءُ فيه إعجازٌ كبيرٌ يثبتُ منه صدقُ هذا القرآن العظيم وصدقُ نبوة محمدٍ سيد النبيين(ص). ذلك أنَّهُ لو كان محمد (ص) قد طالعَ هذه التوراة المعروفةَ، فما كان بإمكانه إيرادَ حواراتِ نوحٍ مع قومه وبهذا التفصيلِ المُخالفِ لمعطياتِ التوراةِ المعروفة، خصوصاً ادعاؤه هنا أنَّها أنباءٌ غيبيّة وأنّه (ص) وقومه العرب ممن كانوا مؤمنين بالعقيدةِ المسيحيَّة أو اليهودية وبالعهد القديم ما كانت لديهم المرجعياتِ لهذهِ الحوارات لضياعها عَبرَ السنين. ودليلُنا على مصداقيَّة ذلك، هو أنَّنا إذا راجعنا سفرَ التكوين من التوراة المعاصرة، وخاصةً منهُ ما أوردهُ كاتبهُ عن نوحٍ وعن مهمتهِ وسيرته، فقد ورد في الإصحاحِ السادس، وابتداءً من الجملة الخامسة من هذا السفر، قوله: (**ورأى الربُّ أنَّ شرَّ الإنسانِ قد كثُرَ على الأرض، وأنَّ كلَّ ما يتصوَّرهُ قلبهُ من أفكار، إنما هو شرٌّ طوال حياته. فندمَ الرَّبُّ على أنَّهُ صنعَ الإنسان على الأرضِ، وتأسَّفَ في قلبه، فقال الربُّ: "أمحو**

عن وجه الأرضِ الإنسانَ الّذي خلقتُه الإنسانَ مع البهائمِ والزّحّافاتِ وطيورِ السماء، لأني ندمتُ على أني صنعتهم. أما نوحٌ فنالَ خطوةً في عينَي الرّبّ. وهذه سيرةُ نوح: كان نوحٌ رجلاً باراً كاملاً في بني جيله. وسارَ نوحٌ مع الله. ولد نوحٌ ثلاثة بنين: ساماً وحاماً ويافث.

وفسدت الأرضُ أمامَ الله وامتلأت عُنفاً. ورأى الله الأرض، فإذا هي قد فسدت، لأنّ كلّ بشرٍ قد أفسد طريقهُ عليها. فقال الله لنوح: "قد حان أجلُ كلِّ بشرٍ أمامي، فقد امتلأت الأرض عنفاً بسببهم. فها أنا ذا مُهلكُهم مع الأرض. اصنع لكَ سفينةً من خشب قطران واجعلها مساكن واطلها بالقارّ من داخل ومن خارج. كذا تصنعُها: ثلاثمّائةُ ذراع طولها وخمسون ذراعاً عرضُها وثلاثون ذراعاً علوُّها. وتجعل سقفاً للسفينة وإلى ذراع تُكملهُ من فوق. واجعل باب السفينة في جانبها، وتصنعُها طوابقَ: سفلياً وثانياً وثالثاً. وها أنا ذا آتٍ بطوفانِ مياهٍ على الأرض لأهلكَ كلَّ ذي جسدٍ فيه روح حياة من تحت السماء، وكل ما في الأرض يهلك. وأقيمُ عهدي معك، فتدخلُ السفينةَ أنت وبنوكَ وامرأتك ونسوةَ بنيكَ معكَ، ومن كلّ حي، من كل جسد اثنين، كُلّ تدخل السفينة لتحفظ حيةً معك، ذكراً وأنثى تكون: من الطّيورِ بأصنافها ومن البهائمِ بأصنافها ومن جميعِ الحيوانات الّتي تدبُّ على الأرض بأصنافها، يدخلُ إليكَ اثنان من كلّ لتُحفظ حيَّةً. وأنت فخذ لك من كلّ طعامٍ يؤكل واجعلهُ مؤنةً لك، فيكون لك ولهم مأكلاً فعملَ نوحٌ بحسبِ كلّ ما أمره الله به. هكذا فعل. وقال الله لنوح: "ادخل السفينة أنت وجميع أهلك، فإني رأيتك بارّاً أمامي في هذا الجيل. وتأخذ من جميعِ البهائم الطاهرة سبعة سبعةً، ذكوراً وإناثاً، ومن البهائمِ غير الطاهرة اثنين ذكراً وأنثى. وتأخذ أيضاً من طيور السماء سبعة سبعة، ذكوراً وإناثاً لحفظ نسلها حياً على وجه الأرض كلها. فإنني بعد سبعة أيام ممطرٌ على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة وماحٍ عن وجه الأرض كلّ كائنٍ

صنعته". فعمل نوحٌ بحسب كل ما أمره الربُّ به. وكان نوحٌ ابن ست مائة سنةٍ حين كانت مياهُ الطوفان على الأرض. ودخل نوحٌ السفينة هو وبنوه وامرأته ونسوة بنيه معه هرباً من مياه الطوفان. ومن البهائم الطاهرة ومن البهائم غير الطاهرة ومن الطيور ومن كل ما يدبُّ دخل السفينة اثنان اثنان إلى نوح، ذكوراً وإناثاً، كما أمر الله نوحاً. وبعد سبعة أيام كانت مياه الطوفان على الأرض.

في السنة الستمائة من عمر نوح، في الشهر الثاني، في اليوم السابع عشر منه، في ذلك اليوم تفجرت عيونُ الغمر العظيم وتفتحت كوى السماء. وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة. في ذلك اليوم نفسه دخل نوحٌ السفينة هو وسامٌ وحامٌ ويافث بنوه، وامرأة نوح وثلاث نسوة بنيه معهم، هم وجميع الوحوش بأصنافها، من كل طائر وكل ذي جناح. فدخل السفينة إلى نوح اثنان اثنان من كل ذي جسد فيه وروح حياة، والداخلون دخلوا ذكوراً وإناثاً من كل ذي جسد، كما أمر الله نوحاً. وأغلق الرَّبُّ عليه.

وكان الطوفان أربعين يوماً على الأرض، فكثُرت المياه وحملت السفينة فارتفعت عن الأرض. وارتفعت المياه جداً جداً على الأرض، فتغطت جميع الجبال الشامخة الّتي تحت السماوات كلها. فارتفعت المياه خمس عشرةَ ذراعاً على الأرض، وتغطت الجبال. كل ذي جسدٍ يدبُّ على الأرضِ من الطيورِ والبهائم والوحوش وجميع ما تعجُّ به الأرض، والناسُ كافةً، فماتَ كلُّ من في أنفه نسمةُ حياةٍ من كلِّ مَن في اليَبَسِ. ومُحيَ كلُّ كائنٍ على وجه الأرض من الناس حتى البهائم والحيوانات الدابة وطيورُ السماء، فمحيت من الأرض وبقي نوحٌ ومن معهُ في السفينةِ فقط. وارتفعت المياهُ على الأرضِ مُدة مائة وخمسين يوماً.

وذكرَ الله نوحاً وجميع الوحوش والبهائمِ الّتي معه في السفينة. وأمر الله

ريحاً على الأرض فسكنت المياه. وانسدَّت عيونُ الغمْر وكوى السماء واحتبس المطر من السماء. وراحت المياه تتراجع عن الأرض، ونقصت في نهاية المائة والخمسين يوماً واستقرت السفينة في الشهر السابع، في اليوم السابع عشر منه، على جبال أراراط. وكانت المياه لا تزال تنقص على الشهر العاشر، وفي أول يوم منه ظهرت رؤوسُ الجبال. وكانت في نهاية الأربعين يوماً أن فتح نوحٌ نافذةَ السفينة الّتي صنعها، وأطلق الغراب، فخرج وراح يتردَّدُ إلى أن خفّت المياهُ عن الأرض. ثمّ أطلق الحمامة من عنده ليرى هل قلّت المياهُ عن وجه الأرض. فلم تجد الحمامة موطئاً لرجلها، فرجعت إليه إلى السفينة لأن المياه كانت على وجه الأرض كلها. فمدَّ يده فأخذها وادخلها إليه إلى السفينة. وانتظر أيضاً سبعة أيام أخر، وعاد فأطلق الحمامةَ من السفينة. فعادت إليه الحمامةُ وقت المساء، وفي فمها ورقة زيتون خضراء. فعلم نوحٌ أنَّ المياهَ قلّت على الأرض. وانتظر أيضاً سبعة أيام أخر ثمّ أطلق الحمامة فلم ترجع إليه ثانيةً. وكان في سنة إحدى وستمائة من عمر نوح، في اليوم الأول من الشهر الأول، أن جفّت المياه عن الأرض. فرفع نوحٌ غطاءَ السفينة ونظر فإذا وجهُ الأرض قد جفَّ. وفي الشهر الثاني، في اليوم السابع والعشرين منه يبست الأرض.

في السنة الستمائة من عمر نوح، في الشهر الثاني، في اليوم السابع عشر منه، في ذلك اليوم تفجرت عيونُ الغمر العظيم وتفتحت كوى السماء. وكان المطر وسامٌ وحامٌ ويافث بنوه، وامرأة نوح وثلاث نسوةً بنية معهم، هم وجميع الوحوش بأصنافها، وجميع الطيور بأصنافها، من كل طائر وكل ذي جناح. فدخل السفينة إلى نوح اثنان اثنان من كل ذي جسد فيه روح حياة، والداخلون دخلوا ذكوراً وإناثاً من كل ذي جسد، كما أمر الله نوحاً. وأغلق الرّبُ عليه.

وكان الطّوفان أربعين يوماً على الأرض، فكثُرت المياهُ وحملت السفينةَ

فارتفعت عن الأرضِ. وارتفعت المياه جداً جداً على الأرض، فتغطّت جميع الجبال الشامخة الّتي تحت السماوات كلها. فارتفعت المياه خمس عشرة ذراعاً على الأرض، وتغطت الجبال. فهلك كل ذي جسدٍ يدبُّ على الأرضِ من الطيورِ والبهائم والوحوش وجميع ما تعجُّ به الأرضِ، والنّاسُ كافّةً، فماتَ كلُّ مَن في أنفه نسمةُ حياةٍ من كلّ مَن في اليَبَسِ. ومُحيَ كلُّ كائنٍ على وجه الأرض من النّاس حتى البهائم والحيوانات الدّابة وطيورُ السماء، فمحيت من الأرض وبقي نوحٌ ومن معهُ في السفينةِ فقط. وارتفعت المياهُ على الأرضِ مُدّةَ مائة وخمسين يوماً.

وذكرَ الله نوحاً وجميع الوحوشِ والبهائمِ الّتي معه في السفينة. وأمر الله ريحاً على الأرض فسكنت المياه. وانسدَّت عيونُ الغَمْرِ وكوى السماء واحتبس المطر من السماء. وراحت المياه تتراجع عن الأرض، ونقصت في نهاية المائة والخمسين يوماً واستقرت السفينة في الشهر السابع، في اليوم السابع عشر منه، على جبال أراراط. وكانت المياه لا تزال تنقص إلى الشهر العاشر، وفي أول يوم منه ظهرت رؤوسُ الجبال. وكانت في نهاية الأربعين يوما أن فتح نوحٌ نافذةَ السفينة الّتي صنعها، وأطلق الغراب، فخرج وراح يتردَّدُ إلى أن جفّت المياهُ عن الأرض. ثمّ أطلق الحمامة من عنده ليرى هل قلّت المياهُ عن وجه الأرض. فلم تجد الحمامة موطئاً لرجلها، فرجعت إليه إلى السفينة لأن المياه كانت على وجه الأرض كلّها. فمدَّ يده فأخذها وأدخلها إليه إلى السفينة. وانتظر أيضاً سبعة أيام أخر، وعاد فأطلق الحمامة من السفينة. فعادت إليه الحمامة وقت المساء، وفي فمها ورقة زيتون خضراء. فعلم نوحٌ أنَّ المياهَ قلّت على الأرض. وانتظر أيضاً سبعة أيام أخر ثمَّ أطلق الحمامة فلم ترجع إليه ثانيةً. وكان في سنة إحدى وستمائة من عمر نوح، في اليوم الأول من الشهر الأول، أن جفّت المياه عن الأرض. فرفع نوحٌ غطاءَ السفينة ونظر فماذا وجهُ الأرض قد جفَّ. وفي الشهر

الثّاني، في اليوم السابع والعشرين منه يبست الأرض.

فخاطب الله نوحاً قائلاً: أخرج من السفينة أنت وامرأتك وبنوك ونسوة بنيك معك، وجميعُ الوحوش الّتي معك من كلّ ذي جسدٍ، من الطُّيور والبهائم وكل دابٍ يدب على الأرض، أخرجها معك لتعج بها الأرض وتنمو وتكثر. فخرج نوح وبنوه وامرأته ونسوة بنيه معه، وجميع الوحوش والحيوانات الداب ة والطيور وكلّ ما يدب على الأرض بأصنافها خرجت من السفينة.

وبنى نوحٌ مذبحاً للرب، وأخذ من جميع البهائم الطاهرة ومن جميع الطيور الطاهرة، فأصعد محرقاتٍ على المذبح. فتنسّم الرّب رائحةَ الرّضى، وقال الرّب في قلبه: "لن أعودَ إلى لعنِ الأرض بسبب الإنسان، لأن م ا يت صوّرهُ قل ب الإنسان يترع إلى الشرّ منذ حداثته، ولن أعود إلى ضربِ كلّ حيٍّ كما صنعتُ ما دامت الأرض. فالزرع والحصاد والبرد والحرُّ، والصّيف وال شتاء والنّه ار واللّيل لا تبطل أبداً". وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم: "أنموا. وأكثروا واملئوا الأرض. وخوفُكم وذعرُكم يكونان على جميع وحوش الأرض وجمي ع طي ور الأرض وأسماك البحر، فإنها مسلّمةٌ إلى أيديكم وكلّ حيٍّ يدبُّ يك ون لك م مأكلاً، وكما أعطيتكم العشبَ الأخضر أعطيكم هذا كلّه. ولكن لحماً بنف سه أي بدمه، لا تأكلوا. أما دماؤكم، فأطلبها، من يد كلّ وحشٍ أطلبها، ومن ي د الإنسان: من يد كلّ إنسان أطلبُ نفسَ أخيه. من سفَكَ دمَ الإنسان سُفكَ دمُه عن يد الإنسان، لأنه على صورةِ الله صنع الإنسان. وأنتم فانموا وأكثروا ولتعج الأرضُ بكم وتسلّطوا عليها.

وخاطب الله نوحاً وبنيه معه قائلاً: "ها أنذا مقيم عهدي معك م وم ع نسلكم من بعدكم ومع كل ذي نفسٍ حيّة معكم، من الطُّيور والبهائم ووحوش الأرض الّتي معكم: أي كل ما خرج من السفينة وجميع حيوانات الأرض. وأقيم عهدي معكم، فكل ذي جسدٍ لا ينقرض بعد اليوم بمياه الطوفان، ولا يك ون

بعد اليوم طوفانٌ ليتلف الأرض"، وقال الله: "هذه علامة العهد الّذي أنا جاعله بيني وبينكم وبين كل ذي نفسٍ حيّةٍ معكم مدى الأجيال للأبد: تلك قوسي جلتها في الغمام فتكون علامة عهدي بيني وبين الأرض. ويكون أنه إذا غيّمت على الأرض وظهرت القوس في الغمام، ذكرتُ عهدي الّذي بيني وبينكم وبين كل نفسٍ حيةٍ في كل جسدٍ، فلا تكون المياهُ بعد اليوم طوفاناً لتُهلك كلّ ذي جسد، وتكون القوسُ في الغمام حتّ إذا رأيتها ذكرت العهد الأبدي بين الله وكل نفسٍ حيّةٍ من كلّ ذي جسدٍ على الأرض". وقال الله لنوح: "هذه علامة العهد الّذي أقمته بيني وبين كلّ ذي جسدٍ على الأرض".

وكان بنو نوح الّذين خرجوا من السفينة ساماً وحاماً ويافث. وحام هو أبو كنعان. هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح، ومنهم انتشرَ النّاس في الأرض كلّها. وابتدأ نوحٌ حارث الأرض يغرس الكرم. وشربَ من الخمر، فسكرَ وتكشّفَ في داخل خيمته. فرأى حامٌ أبو كنعان عورةَ أبيه، فأخبر أخويه وهما في خارج الخيمة. فأخذ سامٌ ويافث الرّداء وجعلاه على كتفيهما ومشيا إلى الوراء فغطّيا عورةَ أبيهما، ووجههما إلى الجهة الأخرى، فلم يريا عورة أبيهما. فلما أفاق نوحٌ من خمره، وعمم ما صنع به ابنهُ الصّغير. فقال: "ملعونٌ كنعانُ، عبداً يكون لعبيد إخوته". وقال: "مباركٌ الرّب إلهُ سام وليكن كنعان عبداً له، ليوسع الله ليافث وليسكن في خيام سام، وليكن كنعان عبداً له". وعاش نوحٌ بعد الطوفان ثلاثمّائة سنة وخمسين سنة. فكانت أيام نوحٍ تسعمائة وخمسين سنة ومات). من الإصحاح السادس الجملة الخامسة وحتى الإصحاح التّاسع ٢٩.

والآن فإن القارئ الباحث الّذي يُطالعُ قصّةَ نوحٍ هذه والُمستقاة من التّوراة المعاصرةِ بصورةٍ حرفيّة، سيُلاحظُ انقسامَ هذه القصّة إلى قسمينِ بارزين: فقد خصّصَ كاتبُ سِفرِ التّكوينِ القسمَ الأوّلَ منها لوصفِ حال النّاسِ ما قبلَ طوفانِ نوحٍ عليه السّلام. كما خصّصَ القسمَ الثّاني منها لوصفِ ما جرى بعد الطّوفان.

وقد وردَ بينهما وصفٌ دقيقٌ لسفينةِ نوحٍ. ففي القسم الأُول مـ ـن القـ ـصّةِ أبـ ـرزَ الكاتبُ أوّلاً الأرضَ وقد امتلأت بالشرورِ والأفكارِ السّيئةِ والعنف. ونبّهَ في القسمِ الثّاني إلى أنّ الإله الّذي يتصّورهُ الكاتبُ قد ندمَ على ما صنعَتْ يداهُ لذلك قرّرَ محو وتدميرَ كلّ شيءٍ كان قد صنعهُ من قبل. ولقد أبرزَ الكاتب في القسم الأوّلِ مـ ـن القصّةِ نوحاً على أنّهُ مُجرّد (رجلاً باراً كاملاً في بي جيله).

ولرّبما يتساءلُ القارئ عن السّببِ الّذي دفعني لنقلِ كاملِ قصّةِ نوحٍ عليـ ـه السلام من هذه التّوراة المعاصرة؟ وأُجيبُ وأقولُ: إنّني فعلتُ ذلك من مُنطلـ ـقِ أنّ الله تعالى قد أنزل هذا القرآن العظيمَ ليصحّحَ بواسطته جميع ما تشوّهَ من حقـ ـائقِ الكتبِ السماويةِ السّابقةِ على أيدي رجالِ الدّينِ من أتباعِ أهلِ الكتاب، وكانَ من جُملةِ ذلكَ تصحيحُ ما تضمنّتهُ قصّةُ نوحٍ. خصوصاً وأنّ الله تعالى قد أنهى كمـ ـا سبق لي أن ذكرته ما أورده من حقائقَ تتعلّقُ بهذه القصّةِ من خلالِ قولهِ تعـ ـالى في نهايتها: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا﴾. وهو قولٌ يفرضُ علينا استعراضَ قصّةِ نوحٍ الواردة في التّوراةِ بحذرٍ شديد. والقيام بتوضيحِ جوانبِ الخطأ الواقعِ فيها بصورةٍ موضوعيّة وعلى ضوءِ المعلومات الّتي أفادنا بها علمُ الله الغيبي، ولإثبات مصداقيّة ما أورده القرآن الكـ ـريم بـ ـشأنها أيضاً.

فإن تذكّر هذا القارئ الآيتين سّالفتي الذكّر قبل هذا واللّتين قـ ـال تعـ ـالى فيهما: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾. وقام هذا القارئُ بتدبّرِ صياغتهما البلاغيّـ ـةِ وفقَ منهجيّةِ وأصولِ التّفسيرِ. فسيتبيّن له أنّ الله علاّمَ الغيوبِ قد تنـ ـاولَ القـ ـسمَ الأوّلَ من هذه القصّةِ بالنّقدِ وبتصحيحِ ما وردَ فيها من أفكارٍ مغلوطة. ومن مُنطلق أن الله عزّ وجلّ ما يزالُ خطابهُ مُوجّهاً إلى طوائف وجموعِ أهلِ الكتـ ـابِ الّـ ـذين

أمعنوا في ضلالتهم وفي تكذيبهم لنبوّة محمد (ص) وفي تكذيبِ هذا (الشاهد منه). فما هي نواحي النّقدِ والتّصحيح هذه؟

أقول: أفلا يُلاحظ هذا القارئ كيف أنّ الله عزَّ وجلَّ قد تناولَ في هـ اتين الآيتين ثلاثة جوانبَ هامّة: الجانبُ الأوّلُ منها يتعلّقُ بشخصيّة نوحٍ نفسه وبيانَ ما ترتّبَ من أمورٍ على عمليّةِ التصّحيح المذكورة. والجانبُ الثّاني ما يتعلق بأسـ ـباب الطّوفانِ الحقيقيّة العائدة إلى ما سادَ مُجتمعَ قومِ نوحٍ من فساد. والجانبُ الثّال ـث التّعرّضُ للإشارة إلى العاقبةِ الّتي كانت قد ترتّبتْ على ذلك كلّه.

فتعالَ معي أيّها القارئ المتدبّرُ، لنتدبَّرَ الفقرةَ الأُوّلى من الآية الأولى من هذه القصّةِ والمُصّاغة بأسلوبٍ بيانيٍّ مُعجز. والّتي وردَ فيها قولهُ تعـ ـالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾. فالمُلاحظ أنّه تعالى تناول في هذه الفقرة الأوّلى بالنّقدِ والتصّحيح ما ذكرهُ كاتبُ سفرِ التّكوينِ بحقّ نوحٍ عليه السلام، أنّه كان مجرّد رجلٍ بارٍّ عـ ـاديّ فهو قال هناك: (كانَ نوحٌ رجلاً بارّاً كاملاً في بني جيله). وقد صحّحَ تعالى مـ ـن خلال هذه الفقرةِ الأوّلى زَعمهُ النّاقصُ وأثبتَ جهلهُ بحقيقةِ شخصيّة نـ ـوحٍ عليـ ـه السلام ووضّحَ اللهُ تعالى أنّ نوحاً كانَ نبيّاً مُرسلاً من قِبَل الله جلَّ شأنهُ الّذي كان قد بعثَ آدمَ من قبله نبيّاً مُرسلاً أيضاً. فهذا النّقدُ والتّصحيحُ المذكورُ أوردهُ قولـ ـهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ ووردَ مُصاغاً بأسلوبٍ بلاغيٍّ مُعجز أيضاً.

ولم يكتفِ الله تعالى بالنّقد والتّصحيح المذكور، بلْ راحَ تعالى يُلقي الـ ـضّوءَ على المُهمّةِ الّتي كانَ تعالى قد كلّفَ نوحاً القيامَ بها. لذلك يُلاحظ القارئ كيـ ـف أنّهُ تعالى حقّق ذلك من خلال الفقرةِ الثّانية من الآية والّتي قال تعالى فيهـ ـا علـ ـى لسانِ نوحٍ عليه السلام: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وقد صـ ـيغت هـ ـذه الحقيقـ ـة بأسلوبٍ بلاغيٍّ مُعجزٍ أيضاً.

وقد عمد اللهُ تعالى إلى تصحيحِ ما أوردهُ كاتبُ سـ ـفرِ التّكـ ـوينِ بـ ـشأنِ

الأسبابِ الّتي أودت إلى إغراقِ النّاسِ بالطّوفان. وقد تناول جلَّ شأنه هذا الأمر بعينه في الفقرة الأوّلى من الآيةِ الثّانية والّتي أوردَ فيها على لسان نوحٍ، وبأسلوبٍ بلاغيٍّ مُعجزٍ أيضاً: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾. فأشارَ تعالى من خلالِ قوله المذكورِ إلى أنَّ قومَ نوحٍ كانوا يعبدونَ الأصنام وأنّهُ كانوا مُشركينَ بالله عزَّ وجلّ. الأمرُ الّذي استدعى من جانبِ الله تعالى أنْ يبعثَ نوحاً ليعظهُم وليُطالبَهم بالإعراض عن الشّرك، والعودة إلى توحيدِ الله عزَّ وجلَّ الّذي بعثَ اللهُ تعالى به إلى آدمَ عليه السّلام. فالشّركُ هو المرضُ الّذي كانَ قد استشرى بينَ أفرادِ قومِ نوح، وهو السّببُ الوجيهُ الّذي أصرَّ عليه قومُ نوحٍ واستدعى من جانبِ الله تعالى إهلاكَ قومِ نوحٍ بالطّوفان من باب ولانحرافهم بذلك عن المقصدِ الأصليِّ لوجودهم على سطحِ هذا الكوكبَ الأرضيّ. ويكون تعالى من خلال هذه الفقرة الأُولى قد صحّحَ قولَ كاتبِ سفَرِ التّكوينِ الّذي كتبَ يقول: (**رأى الرّب أنّ شرَّ الإنسانِ قد كثُر على الأرضِ، وأنّ كلَّ ما يتصوّرهُ قلبُه من أفكار، إنما هو شرٌّ طوالَ حياته. فندم الرّب على أنّهُ صنعَ الإنسانَ على الأرض**). ولقد وكانت حكمة هذا التّصحيح التلميحُ إلى هؤلاء المكذّبينَ المعاصرينَ من أنَّ الشّرك الّذي يتبنّونهُ سيتسبّبُ لهم بما يُشبهُ طوفانَ نوحٍ من دمارٍ مُنذرينَ به قبل وقوعه.

وبعد أن فرغ تعالى من خلال هذه الفقرة الأُولى من عمليّة التّصحيح المذكورةِ راح تعالى يؤكّد على العاقبة الّتي كانت تنتظر قومَ نوحٍ ومن خلالِ الفقرةِ الأخيرةِ من الآيةِ وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾.

فاللهُ جلّ شأنهُ عندما أتّى بكلمة (**أخاف عليكم**)، قد أتّى بها من باب أنَّ كلمةَ الخوف تُشيرُ إلى انفعالٍ في النّفسِ يحدثُ لتوقّعِ ما يَردُ من المَكْروه أو يفوتُ من المحبوب. وأنّ كلمةَ خافَ معناها: علمَ وتيقّن (محيط المحيط) ويكون الله عزَّ وجلَّ قد وضّحَ حقيقةَ نفسيّةِ النّبيِّ نوحٍ بشكلٍ خاص ونفسيّة محمد (ص) وغيره

من أنبياء الله الكرام بشكلٍ عام وهو أنّ أفئدتهم جميعهم كانت عامرةً بمحبّة جميع عبادِ الله تعالى وبدونِ تفريقٍ بينهم، إلى جانبِ أنّ نوحاً كان عالماً ومتيقناً بالحادث الأليم الّذي سيؤول إليه حالُ قومه المُشركين.

وانتقلَ تعالى بعدَ الّذي أجراهُ من تصحيحٍ لما وردَ في سفرِ التّكوين. أقولُ انتقلَ لإنبائنا عمّا كان قد جرى بين نوحٍ وقومه من حواراتٍ قبل حدوثِ طوفان نوح. إنّما بما يتناسب وهذا الخطاب المُوجّه إلى هؤلاءِ المكذّبينَ المُعاصرين. لذلك لاحظنا أنّ الله تعالى أتى بعد ذلك بفاء الاستئناف إشعاراً من جانبه تعالى إلى أنّه راح يُورد تلك الحوارات وبما يتناسبُ مع سياقِ الكلام، وقال في الآية السابعة والعشرين:

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾

إنّ كلمةَ (الملأ) تشيرُ إلى الأشرافِ من وجهاءِ قومِ نوحٍ ومن طبقةِ الحُكّامِ منهم خاصّة الّذينَ كذّبوا نوحاً عليه السّلام وحرّضوا قومهُ عليه.

وإنّ اعتراضهُم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾. هو اعتراضُ من يفكّرُ بأسلوبِ تفكيرٍ ماديّ محض، وهو وغيرُ عابئ بأيّ شيء يمتُّ إلى الروحانيّة بصلةٍ من الصّلات؟ فهذا هو الحال الّذي كان عليه الملأ من قوم نوحٍ والّذي يُقابله حال هؤلاء المكذّبينَ المُعاصرينَ الّذين تخلّوا عن كنيستهم في بدايةِ نهضتهم الصّناعيّة الأخيرة وما عادوا ينظرون إلى الأشياءِ إلا بمنظارٍ ماديّ محض.

وفي الفقرةِ الثّالثةِ راح تعالى يُصوّرُ للقارئ العقليّة الطّبقيّة الّتي كانت مُهيمنةً على عقولِ قومِ نوحٍ عليه السلام، ومن خلال قولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾. فكلمة الجمع (أراذلنا) والّتي مفردُها (رذيل) معناهُ

الإنسان الدّون الخسيسُ والرّديءُ من كلّ شيء (محيط المحيط). أمّا قوله (بادي الرّأي) فيعني الوَهلةَ الأولى.

أيّ أنّ قومَ نوحٍ اعترضوا عليه بسبب نظرتهم الطّبقيّةِ وموازينهمُ الفاسدةُ وكأنّهُم قالوا لنوحٍ: إنّ تعاليمكَ يا نوحُ لم تجذب إليها إلاّ الطّبقةَ الخسيسةَ الدّونَ في مجتمعنا، أمّا أصحابُ المَشْوَرةِ والحلّ والعقدِ فقد ظلّوا بعيدينَ عن التأثّرِ بكَ وعن التّأثُّرِ باتّباعك.

ومن ثمّ وضّح جلّ شأنه في الفقرةِ الرّابعة من هذه الآية الكريمة اعتراضاً ثالثاً اعترض به قومُ نوحٍ عليه وقالوا: **(وما نرى لكم علينا من فضل)**. فالمُلاحظُ أنّهُ تعالى أتى هنا بواو العطفِ وبفعل (نرى)، وبكلمة (فَضْل) الّتي تعني مُطلقَ الخيرِ والإحسان. وليصبح معناه: إن كنت يا نوح تحمل في نفسك سرّاً تُخفيه عنّا، فلا نرى من أثرٍ لسرّكَ المذكور، فها أنّك لم تُحسن إلينا بشيءٍ متميّزٍ يُشعرنا بسرّكَ الخفيِّ المشارِ إليه. أي أنّ أصحابَ التّفكيرِ المادّيّ من قومِ نوحٍ يزنون قيمة الرسّالات السّماوية ليس بموازين روحيّة أخلاقيّة ولكن بموازين مادّية. لذلك لا تتراءى لهم في أشخاص الرسّالات السّماوية من فضل يتميّزونَ به عليهم، وبسببِ بُعدهم عن إعطاءِ القيمَ الأخلاقيةَ أيّةَ قيمة من حيث الأساس.

ومن ثمّ أتى تعالى في بدايةِ الفقرة الخامسةِ والأخيرةِ من هذه الآية الكريمة بحرفِ الإضراب (بل وانتقل لبيان النّتيجةِ الّتي استخلصها قومُ نوحٍ واستناداً إلى اعتراضاتهم، فعبّر عن النتيجةِ المُشار إليها وقال: **(بل نظنكم كاذبين)** بمعنى أنّهم استنتجوا من خلالِ جميع ما اعترضوا به على نوح عليه السّلام من اعتراضاتٍ زانوها بموازينهم الفاسدة، إنّهُم استنتجوا كَذِبَ كونِ نوحٍ رسولاً من عندِ الله تعالى، وكَذِبَ هؤلاء الّذين امنوا معه أيضاً.

وفي الحقيقة فإنّ هذه الموازين المذكورةَ تحولُ دوماً بينَ الإنسانِ وبينَ أن يَهتدي إلى سَبيل الخير والإيمان؟ ذلك أنه يستحيل على صاحب العقل التقليديّ

والطّبقي والمادّي إلاّ أنْ يركب الإباء والاستكبار رأسهُ عندما يسمعُ أصواتَ دُعاةِ رُسلِ الله وأنبيائه الكرام، فالإنسانُ الّذي لا يتحرَّرُ من هذه العقلية يستحيلُ عليهِ سماعَ صوتِ داعي السّماء أيّاً كان وفي أيّ زمانٍ عاش.

وكأنّه تعالى ومن خلال مُعطيات هذه الاعتراضات الّتي اشتملت عليها هذه الآية الأخيرة، قد مهّد بها لبيان الحُجَجِ والبيّنات الّتي قدّمَها نوحٌ عليه السّلام لقومهِ لإثباتِ مصداقيّةِ نبوّته ولذلك راح تعالى يقول على لسان نوحٍ عليه السلام وذلكَ في الآية الثامنة والعشرين:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾

فلم يأتِ بذلك بأسلوب الأُدباء والكُتّاب الأرضيّين، بل تميّز أسلوبُهُ بأنّهُ عَمَدَ إلى أسلوب التّقابل والتّتابع وهو يعرضُ إجاباتِ نوحٍ على اعتراضاتهم، فكان يروي لنا جوابَ نوحٍ وبنفس التّدرّج الّذي كانت تدرّجتْ فيه اعتراضاتُ قومهِ عليه. والحكمةُ من ذلك أنْ يفسحَ اللهُ تعالى للقارئ المتدبّر مجالَ المقارنةِ والقيامِ بتدبّرِ ذلك وفق منهجيّة القرآن الكريم ووفقَ أصولِ تفسيره. وقد أورد تعالى ذلك كُلّهُ بصياغةٍ بلاغيّةٍ ليُخفيَ المعانيَ الحقيقيةَ المقصودةَ وبما يتبادرُ لذهنِ القارئِ من معانٍ تتبادرُ لذهنه.

وكنّا لاحظنا بأن أهم ما اعترضهُ قومُ نوحٍ عليه قد عبّرَ تعالى عنه وعلى لسانهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾. وفي مقابل ذلك فإنّ نوحاً عليه السّلام قال ردّاً على قومه ومن خلال هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ؟﴾. وقبل بيان ما فهمته أنا من هذا القول أنقل أوّلاً ما تبادر منه

لذهنِ الإمام الرّازي رحمهُ الله تعالى فقد قال: (إنّ البيّنـة أيّ النبـوّة أو المُعجـزةَ [فعَميتْ عليكم] أي صارت مظنّةً في عقولكم، فهل أقدر على أن أجعلكم بحيثُ تصلونَ إلى معرفتها شئتم أم أبيتُم؟ والمراد أنّي لا أقدرُ على ذلك البتّة). تتـساءلون وهل يختلف المعنى الحقيقي لهذه الآية الكريمة عمّا تبادرَ لذهنِ المفـسّرِ المـذكور؟ وأُجيبُ وأقولُ: نعم، وإلى القارئ المتدبّرِ مصداقيّةُ ما أقول.

فليلاحظ القارئ باديءَ ذي بدء كيف أنّه جلّ شـأنُهُ بفعـلِ (أ رأيـتم) ومُستَهلاً إيّاهُ بهمزة الاستفهام. فمن المعلوم أنّ العَيْنَ مُختصّةٌ بعمليّة رؤية الأشـياء المادّية، ولا يوجد هنا أيُّ شيءٍ ماديّ معروضٍ لأعينِ أعداءِ نوحٍ ليروه ويشاهدوه. وهذا الأمر يشكّلُ في حدّ ذاته قرينةً دالةً على أنّ المقصودَ هنا من قوله (أ رأيـتُم) هو الرّؤيةُ القلبيّةُ وما يتْبعها من اتّخاذ قرارات ضمنيّة وليسَ الرّؤية العينيّـة. فـإن أخذنا بعين النّظر أنّ اللهَ تعالى قد استهلّ فعلَ (أ رأيتُم) بهمزة الاستفهام، فقد أصبحَ معنى (أ رأيتُم) أي هل بإمكانكم يا قومي اتّخاذَ قرار ضمنيٌ والتسّليمُ معـي علـى سبيل الافتراض: (إن كنتُ على بيّنةٍ من ربّي وآتاني رحمة). فنوحٌ عليه السّلام لم يقل لقومه أن (افرضوا) وعلى شاكلة ما يقولهُ رجلان يتحاوران حولَ أمـرٍ مـن الأمور. وعليه فإنّ السّببَ في هذا الاستبدال وكما توضّحَ لأعيُننا هـو أنّ كلمـة (افرضوا) ليست دقيقةَ الأداء للمعنى المقصود. فهي تعني (ولا شكّ) وحسب وكلُّ ما ثبتَ بدليلٍ قطعيٌّ لا شُبهة فيه، ويكفر جاحدهُ ويعذّب تاركه أيضاً لاشـتقاقها من فرض وهذا المعنى لا يوافقُ قومُ نوحٍ عليه بشكلٍ من الأشكال. فهذا هو السّببُ المعنويُّ الّذي كانَ كامناً وراءَ استبدالِ كلمة (افرضوا) بكلمة (أرأيـتم) الأسـلمُ تعبيراً وإن كانت غيرُ شائعة الاستعمال بينَ الرّجالِ المُتحاورين. فهي الكلمةُ الّـتي تعني: أتسلّمونَ بالأمرِ الّذي أدعوكم إلى التّسليمِ به على سبيلِ الافتراض (محـيط المحيط) وفي وقتٍ لا تكونون فيه مسؤولين عمّا تفترضونهُ وتُسلّمونَ به. وهكذا أنّي تعالى بأوّل خطوةٍ بلاغيّة ما أدركَ العلاّمة الرّازي رحمهُ اللهُ دلالاتها، بسببِ أنّهُ أخذ

لها معناها المُتبادرُ لذهنه و لم يَعمدَ إلى تدبُّرِ دلالتها، من حيثُ الصّياغةِ ومن حيث الدّلالةِ ومن حيث الاستبدال.

ولنتساءل الآن عمّا طالبَ نوحٌ قومَه أن يسلّموا به على سبيل الافتراض؟

فالّذي طلبَ نوحٌ من قومهِ التّسليمَ به على سبيلِ الفرض، عبّرَ جلَّ شأنُهُ عنهُ بقولهِ: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ أي أنّهُ تعالى أتى بحرف (إنْ) وبمعنى الجزاء، فهيَ توقعُ الثّاني من أجلِ وُقوعِ الأوّل، وليترتّبَ بواسطةِ إيرادِ (إنْ) على قومِ نوحٍ التّسليمُ بما أرادَ منهُم التسّليمَ به. ومن ثمّ أدخلَ تعالى حرفَ (إنْ) على فعلِ (كان) الّذي يُفيد حدوثَ شيءٍ في الماضي وانقطاعهُ مع الاستغناءِ عن أنّ يوردَ خبر فعل (كان) المذكور، وعلى حدِّ قول الجوهريّ. كما أتى تعالى بكلمة (البيّنة) الّتي يُرادُ بها هنا الحجّةُ والبرهان. وأضاف قولهُ (من ربّي) وبذلكَ يكونُ تعالى قد أعطى كلمةَ (البيّنة) معنىً أعمقَ وأوسعَ دلالةً، فعبّرَ بها عن مدى صلة نوحٍ بربّه وعن مدى يقينِه بوجودهِ عزَّ وجلَّ. ثمّ أضاف يقول: ﴿وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾. علماً بأنّ كلمة (الرّحمة) اشتقّت من رحمهُ الله إذا رقَّ له وغفرَ ذنوبهُ وتعطّفَ عليه. وبما أنّه أضاف الجار والمجرور (من عنده) على كلمة (الرّحمة) فقد أضاف بذلك معنىً إضافياً أيضاً وهو أنّ هذه الرّحمة الإلهيّة الّتي تلقّيتُها من جانبِ ربّي لمْ تأتِ نتيجةً حتميّةً لأعمالي الصالحاتِ، ولكنّها تُمثلُ الفضلَ الإلهيّ الخاص عليّ. هذا الأمرُ الّذي استوفتهُ كلمةُ (الاصطفاء) في مقاماتٍ أخرى من كتابِ اللهِ العزيز كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ . . .﴾ أي أتاه بيّنةً من ربّه ورحمةً من عنده.

وعلى هذه الصّورةِ يكونُ نوحٌ قد وضّح لقومهِ ما طالبهُم التسّليم به على سبيل الافتراض. ولنُلاحظَ كيفَ أتّى تعالى بعد ذلكَ بفاء الاستئناف وقال:

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾. فأرادَ من ذلكَ أنّ هذه الحقيقةَ الّتي طالبتكُم بالتسليمِ بها يا قومي وعلى سبيل الافتراض، إنّكُم في الأُصلِ قد أنكرتموها، والتبسَتْ عليكم هذه الحقيقةُ، و لم يكن بإمكانكم التعرفُ عليها لأنّها (عَميَت عليكم). بسبب أنّه ـا لا تُرى بالعين المجردة. فهي حقيقةٌ لا تمتُّ إلى الأشياءِ المادية بصلة مُعينة من الصّلات. وعلى هذه الصورة تبيَّنَ خطأُ ما ذهبَ إليه ما تبادر لذهن الرازي من هذه الآيـ ـة الكريمة من معنىً ظاهريّ.

فلمّا انتهى من بيانِ ذالكَ قال: ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾؟

ففعلُ (كارهون) اشتُق من قولك: فلانٌ كرِهَ الشيء إذا تجنبَ محبّته، وابتعدَ عنهُ بسبب كراهيته له. ثمّ إنّ كلمة (كارهون) وردتْ محذوفاً مفعولها، ولـ ـصبحَ معنى ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ أنّ تسليمكم الافتراضـ ـيُّ هـ ـذا لا يُلزمكم في الواقع إلاّ بعد أن تتخلّوا عن تعصبكم لعقائدكم وتتخلّوا عن كراهيتكم العمياء. وكأنّه جلّ شأنهُ يقول هنا بألفاظ أخرى: إنّه ما لم يتخلّ المرءُ عن تعصُّبه وكراهيته، وما لم يجعل الحوارَ سبيلاً إلى معرفة شيء من الأشياءِ مهما كانَ نوعهُ، يستحيل عليه إدراكُ الحقائقَ الخافيةَ عن الأعينِ المجردة والّتي لم تكن قد خُصـ ـصّتْ أصلاً لترى ما وراء هذه الطبيعة وما هو كائنٌ في الخفاء.

فبهذا الأسلوبِ من الصياغة البلاغيّة المُعجزة قد لفتَ نوحٌ عليـ ـه الـ ـسلام أنظارَ قومه إلى الوسيلة الصحيحة لتحصيلِ معرفة ما كانَ خافياً عن عيونهم مـ ـن حقائقَ تلقاها من جانبِ ربِّه صاحب الفضلِ العظيم. ويكونُ في الوقتِ نفسه قـ ـد وضّح لقومه أنّهُ يُدركُ مدى تعصُّبهم لعقائدهم، ومدى بُعدهم عن روح الحـ ـوارِ معه.

وبكلمةٍ مُختصرةٍ فإنّ نوحاً عليه السلام قد أجابَ على قول قومه: ﴿مَا نَرَاكَ

إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا﴾ أجابَ على اعتراضهمُ المذكورُ: إنّ البيّنةَ والرحمةَ الّتي آتـ ـاني ربي إيّاها لا تُرى بالعينِ المجردة، ولا يُستفادُ منها لتُغيِّرَ شيئاً في شكلِ الإنسانِ الخارجيّ لتجعله مُختلفاً عن سواهُ من الناس. بل إنّ هذه البيّنةَ والرَّحمـ ـةَ الإلهيّـ ـةَ تُفيـ ـدُ في مضمونِ وصفاتِ مَن يتلقاها وتنزلُ عليه. وإنّ الحقدَ والتّعصّبَ والكراهيةَ ليـ ـستْ هي بالوسائلِ السليمةِ للإطلاعِ على هذا المضمونِ الّذي لا يُدركُ إلا عن طريـ ـقِ التحقيقِ عنهُ ومُحاورةِ أهله. فهذا هو ما يقتضيه العقلُ والمنطقُ السّليم.

وقد أشارَ حذفُ مفعول (كارهون) إلى قولِ نوحٍ عليه السلام الـ ـواردُ في سورةِ نوح وهو يشكوهم إلى ربّه عزّ وجلّ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَـ ـوْمِي لَـ ـيْلاً وَنَهَاراً، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾. فوضـ ـعُ الأصـ ـابعِ في الآذانِ اسْتُعيرَ هنا للتعبيرِ به مجازاً عن صدودِ قوم نوحٍ عن محاورتهِ وعن صدودهم عن التناظُرَ معه وعن مدى كُرههم إياه. وإنّ قوله ﴿استغشوا ثيابهم﴾ وردَ كنايـ ـةً عن عدمِ تزحزُحِهم عن حالة الحقدُ والتعصّب والاستكبارِ الّتي كانت مُسيطرةً على نفوسهم.

والمعنى الثالث المقصودُ من حذفِ مفعول (كارهون) الإشارةَ مـ ـن طـ ـرفٍ خفيّ إلى المكذّبينَ من أهلِ الكتابِ الّذينَ دأبوا على الاستكبارِ عن محاورةِ أمة محمد (ص) وجماعةِ (الشاهد منه) بصورةٍ عامّة، واكتفاؤهم بتوجيه الاعتراضاتِ علـ ـى تعاليمه من بعيد. وهذا يعني أنّ حالَ هؤلاء قد شابه حال قوم نوحٍ علي الـ ـسلام.

والمعنى الرابعُ لهذا الحذف البلاغيُّ هو إشارتهُ إلى أنّ الإنسانَ الّذي يحكُمُ بظـ ـواهرِ الأمورِ على بَواطنها، لا يكونُ قد اختارَ سبيلاً يوصلهُ إلى معرفـ ـةِ حقيقـ ـةِ هـ ـذه البواطن. وقد أعطى المؤمنين أنفسهم من خلالِ هذا المعنى درساً وموعظةً ليتجنّبوا الحكم بظواهرِ الأمور على بواطنِها كيلا يقعوا فيما وقعَ فيه قومُ نوحٍ من آثام.

وبعد أن ردَّ نوحٌ على قولِ قومهِ الّذينَ قالوا ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، انتقلَ ليَرُدَّ في الآية الّتي بعدها على قولهم: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾. فاختصرَ جوابهُ في الآية التاسعة والعشرين وقال:

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾

وقد أتى هذا الجوابُ يتبادرُ منه لذهنِ السامعِ غيرُ ما قُصِد منه، لكونه مُصاغاً صياغةً بلاغيَّةً أيضاً. فهو تعالى أتى في هذه الآية الكريمة بفعل ﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾ وبصيغة النفي. والّذي يتبادرُ للذهنِ من هذا القولِ أنّهُ يُفيدُ نفيَ طلبِ الأجرِ المادّيِّ، حالَ أنّ المعنى المقصود به هو غير ذلك تماماً. فالسؤال (لا أسألكم) اشتُقَّ من سألَ بمعنى طلب بخضوع (محيط المحيط). ويكون نوحٌ من خلالِ قولِه المذكورِ قد أعلنَ خضوعهُ للقوانين والأنظمة المرعيَّة في محلِّ إقامته والّتي سنَّها أعداؤهُ ولساسةُ قومه. كما يكونُ في الوقتِ نفسهِ قد نفى ما كان أُشيع عنه من أنّهُ أسسَ حزباً سياسياً، القصدُ منهُ القيامُ بثورةٍ وانقلابٍ عليهم وليصلَ بهذا الأسلوبِ إلى سُدّةِ الحكمِ في بلاده. وليشيرَ في الوقتِ نفسهِ إلى أنَّ هذا بعيدٌ عن شأنِ حال أنبياءِ الله تعالى ورسله الكرام الصادقين. وأنَّ هذا هو أسلوبُ الساسةِ وأُسلوبُ الّذين يعملونَ في الحقلِ السياسيِّ.

وإنَّ كلمةَ (مالاً) الّتي وردتْ في جوابِ نوحٍ عليه السلام، لم يقصدْ بها النقدَ المادّيَّ، بل قَصَدَ بها معناها العامُّ والشامل. ففي اللّغةِ العربيّة يُطلقُ (المالُ) على ما مَلَكَهُ الإنسانُ من كلِّ شيء (محيط المحيط).

وبذلك يكون جلّ شأنه قد نفى من خلال قوله على لسان نوح: ﴿وَيَا قَوْمِ

﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا﴾، نفى أن يكون نوحٌ ساعياً لطلبِ مركزٍ سياسيّ، أو أن يكون ساعياً للحصول على زعامة شعبية، أو أنه قصد من وراء تأسيس جماعته المؤمنة، جمعَ الأموال الماديّة وتكديسها بصورةٍ غير مشروعة أو الإثراءُ عن طريق ادّعاء النُّبوّة.

وأما في الفقرةِ الثانية من هذه الآية الكريمة والّتي قال فيها على لسانِ نوحٍ عليه السلام: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ فالملاحظُ هو أنّهُ تعالى أدخلَ حرفَ (إنْ) على جُملةٍ اسميّة، وقال: (إنْ أجريَ إلا على الله،) وليُفيدَ حرف (إن) هنا معنى (ليس). وليصبحَ معنى قولهُ: (إنْ أجريَ إلا على الله) أنني لم أقُم بتأسيسِ هذه الجماعةِ المؤمنةِ لجمعِ الأموالِ عن طريقهم ولأُصبحَ ثريّاً. وهنا أتى بحرف الاستثناء (إلا) وقال: (إلا على الله) بمعنى أنني أسعى فقط إلى إطاعةِ ربي راجياً منهُ رضاهُ ومحبّتهُ وفضلهُ ورحمته.

ثمّ إنّ كلمةَ (أجري) الّتي أوردها هنا ما قصد نوحٌ بها الأجرَ المادي. بل قصدَ بها دلالتها اللُّغويَّةَ وهي الجزاءُ والذكرُ الحسن (محيط المحيط)، ومن خلال تأسيسِ هذه الجماعةَ المؤمنةَ وعقدِ بيعةٍ ما بيني وما بين كلّ فردٍ من أفرادها. حيثُ يَشتملُ عقدُ هذه البيعةِ على تعاليم تُفيدُهُم وهيَ في صالحهم. فهذا هو معنى (الأجر) أصلاً. أما لو أنّه كان تعالى قد استعمل عوضاً عن كلمةِ (الأجر) كلمةَ (الجزاء)، فما كانَ له أنْ يؤدي المعنى الّذي ذكرناه. بسببِ أنّ كلمةَ (الجزاء) تُفيدُ معنى النفعِ والضررِ في آنٍ واحد، كما تشيرُ في الوقتِ نفسهِ إلى وجودِ عقدٍ ما بين الطّرفين وفي وقتٍ يجوزُ أن تستعملَ. مما لا يُشير إلى وجودِ عقدٍ بينهما أيضاً. أي أنّ نوحاً عليه السلام قصد من وراء قوله (إن أجري إلا على الله) نفي ما سبَقَ لنا أن وضحناهُ من جهة، وللإشارةِ إلى أنّ جميع ما تأسّست عليه جماعتهُ وتعاليمُ عقدِ بيعتهم الّتي بايعوه عليها، كانت جميعُها تعاليمٌ تسمو عن طلبِ المالِ الماديِ وذاتُ

صبغةٍ أخلاقيةٍ وجميعها مُفيدة، وفي صالحِ إقامةِ مُجتمعٍ أمنٍ وسلام.

فلما فرغ تعالى من أداءِ هذه المعاني جميعها وبهذه الصِّياغةِ البلاغيَّـةِ الَّتي أوردها على لسانِ نبيِّهِ نوح عليه السلام: (إن أجري إلا على الله) أتى بعد ذلك بواو العطف وأتى بفقرةٍ ثالثةٍ أضافَ يقول فيها على لسانِهِ أيضا: (وما أنا بطاردِ الَّذين آمنوا) فماذا قصدَ من قولهِ المذكور؟

فقد أرادَ أنَّهُ ما دام هذا هو حالُ الجماعةِ المؤمنةِ الَّتي أسَّسْتُها، وهذا هو حال التعاليمِ الَّتي بايعني كُلُّ فردٍ من أفرادها على تطبيقها، فلا يُناسبُ من وجهةِ العقل والمنطقِ والمصلحةِ العامةِ أنْ أقومَ بحلِّ هذه الجماعةِ المؤمنة الَّتي التزمَ أفرادُها بهذه التعليم الفاضلة. إذ لا يستشعرُ المفكِّرُ منها أيَّ شيءٍ يهددُ أمنَ الدولةِ وسلامتَها. ولو أنَّ الأفرادَ الَّذينَ انضمّوا إلى هذه الجماعة هم في نظركُم يا قومي من أراذلكم أي من طبقةٍ تحتقرونَها ولا تُقيمونَ لها وزناً، ولم يأتوا من وجهاءِ القوم. وبهذه المعاني يكونُ تعالى قد أبدى إعجازاً بلاغياً من خلال هذه الصياغة ومن خلال هذا التسلسل الموضوعي المترابط والمنسجم موضوعياً. ويكونُ الله جلَّ شأنهُ قد وضح في الوقت نفسه الحيثيات الَّتي كان نوحٌ يُبرر بها تأسيس جماعتهِ المؤمنةِ الفاضلةِ في أنظارِ مُكذبيهِ من الملأِ من قومه.

وقد أضاف نوحٌ عليه السلامُ في الفقرةِ الرابعةِ يقول بعد ذلك مباشرةً: (إنّهم مُلاقوا ربّهم). فالملاحظُ أنَّهُ تعالى أتى بحرف التأكيد (إنّ) وكد أن تعاليمَ جماعةِ نوحٍ ستُثمرُ في نهاية المطاف أن يصلَ كلُّ فردٍ مؤمنٍ مبايعٍ إلى التَّعرُّف على ربِّه جلَّ شأنهُ وإلى الاتصالِ بهِ وملاقاته. بمعنى أنَّ تعاليم هذه الجماعة المؤمنة ستُثمرُ حالةً من حالات اتصال العبد بربه.

وإنَّ هذا المعنى الَّذي فسَّرتُ بهِ قولَ نوحٍ: (إنَّهم مُلاقوا ربّهم) فسَّرتُهُ على ضوءِ مُعطَياتِ ألفاظهِ وبما يقتضيهِ التَّسلسل الموضوعي. لكنَّ هذه المعنى يختلفُ عن

المعنى الّذي كانَ قد تبادرَ لذهنِ المفسرينَ القدماء. فهم فهموا منهُ أنّ نوحاً قـ ـصدَ منه أنّ هؤلاء المؤمنين سيؤول حالُهُم بعد موتهم إلى يومِ الحسابِ الّذي سيقطفونَ فيهِ من ثمارِ أعمالهم الصالحات. فلم ينتبهوا إلى أنّ نوحاً قد قصدَ بهذهِ الألفاظِ بيانَ ما تُحدثُهُ هذه التعاليمُ في نفوسِ المؤمنينَ من انقلابٍ في نفوسهم وصلاحية تؤهلُهم للاتصالِ بربهم عزّ وجلّ وللفوزِ بالتعرفِ عليه ولنيلِ محبتهِ وقُربهِ ورضـ ـوانه. وأنَ نوحاً لو قامَ بطردِ هؤلاءِ المؤمنين وبتنحيتهم عنه، لباءَ بغضبِ الله تعالى الّذي أرسلهُ لتأديةِ هذه المهمّة، ولوقعَ تحت طائلة العقابِ والمسؤوليّة الجزائيّة. أي أنّ نوحاً عليه السلام قد وضحّ لقومه أنّ جماعته هي جماعةٌ روحيةٌ ولا شأنَ لهـ ـا بالـ ـسياسة ولا تُهدّدُ أمنَ قومهِ ولا سلامَتهم.

وبعدَ أن أجابَ نوحٌ على قومهِ بهذه الإجاباتِ، راحَ يقولُ لهم في الفقـ ـرةِ الأخيرةِ من الآية: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾. فهو أتى بحرفِ الاستدراك (ولكنّي)، الأمرُ الّذي يدفعُ القارئَ المتدبرَ ليتساءل تلقائيا: عن الحاجة الّتي دعـ ـتْ نوحاً ليستدركَ في هذا المقام؟ خصوصاً وأنّهُ استوفى الإجابة على اعتـ ـراضِ قومـ ـهِ وعلى حسبِ ما رأيناه؟ ثمّ ما معنى أنْ يقول لهمْ ﴿أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾.

أقول: إنّ كلمة (تجهلون) اشتُقّت من جهل الشيء ضدّ علمه. ويُـ ـستعمل مجازاً للاستخفاف بالمخاطب ولاتهامه بالسفه والعصيان. أقولُ: إنّ الداعي الّـ ـذي دعا نوحاً ليستدركَ في هذا المقام، هو أنّ ما ردَّ به نوحٌ عليه السلام على قومه يُعتبرُ باصطلاحِ القانون والعُرفِ حالةً من حالات الدّفاع المشروعة. وبما أن نوحاً عليـ ـه السلامُ كان مُرسلاً ونبياً، ومأموراً بتحذيرِ قومهِ مما يترتب على عصيانهم لأوامـ ـرِ ربهم من عقاب، فقد كان من واجبه ألا يقتصرَ على الدفاعِ ولا علـ ـى ردّهِ علـ ـى اعتراضاتِ قومه. بل و كان الواجب عليه أن ينتقل من تلك الحالِ إلى حالة النقـ ـد والتهجُّمِ على المكذبين، وإلى تهديدهم بما ينتظرهُم من جراء اعتراضاتهم الـ ـسخيفة

ومن جراء تكذيبهم لرسالته من عقاب وعذاب.

فهذا هو السببُ الوجيهُ الّذي جعل نوحاً يقولُ بعد انتهائه من إجاباته: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾. وقد أتى قولهُ هذا مُصاغاً صياغةً بلاغيّةً مُدهشة. فما معنى هذه الفقرة الأخيرة؟

إنّ كلمة (تجهلون) اشتقّتْ من قولكَ: جهل فلانٌ الشّيءَ أي ما أحاطَ به علماً. وتستعملُ هذه الكلمة بمعنىً مجازيٍّ للاستخفاف بواسطتها بالمخاطبِ أيضاً.

والآن إذا عاد القارئُ بذاكرته إلى آخرِ ما اعترض به قوم نوح عليه. يلاحظ أنّهم قد اتّهموا هناكَ نوحاً وجماعته المؤمنة بالكذب على الله تعالى. فقد قالوا هناك: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ﴾. وقد كان من واجبِ نوحٍ عليه السلام أن يرد على اتهامِهمُ المذكور. فهذا هو السّببُ في أن نوحاً استدركَ هنا وقال: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾. وحاذفاً مفعولَ (تجهلون). فهو أتى هنا بالفعل (أراكم) المشتقُّ هنا من الرؤيةِ الذهنيّةِ واتّخاذ القرار. وليصبحَ المعنى: أنّ من كانَ بيتُهُ من زجاجٍ فلا يرمي عدوّه بالحصى والحجارةِ من داخله، ووفقَ القولِ المأثور. فإنّي أراكم يا قومي، وعلى الصعيدِ العمليِّ السلوكيِّ تسلُكون سلوكَ سفه وعصيان ولا تسلكونَ سلوكَ فضيلة وأخلاق. وقد كان من واجبكم، والحالُ هذه، أن تستحيوا من ذلك فلا تُهاجوني وجماعتي وأنتم تلاحظون فينا معالم التقوى والفضيلة وإطاعة رب العالمين. وعليه فأنتم (تجهلون). وقد أفادَ قوله المذكور المعاني التالية:

أولاً: فقد قصدَ نوحٌ: أنّكُم تجهلونَ حقيقة ما أتاني ربي من بينة ورحمةٍ خافيةٍ عن أعينكم، ومع ذلك تتهجمون علينا وتتهمّوننا بالكذبِ زوراً وبُهتاناً.

والمعنى الثاني الّذي قصدهُ نوحٌ من قوله المذكور هو أنّ الّذي دفعكُم إلى الحالةِ الّتي أنتم عليها، هو أنكم حاقدونَ ومتعصّبونَ ولا تتخذونَ الحِوارَ سبيلكُم

إلى المعرفة، بل تستسلمون إلى ما يهيمن على أفئدتكم من حقد وتعصُّبٍ يُعمي أبصاركم عن معرفةِ حقيقةِ رسالتي.

والمعنى الثالثُ الّذي رمى إليه نوحٌ عليه السلام، هو أنكم يا قومي تجهلونَ ما يترتبُ على غضبِ ربكم عليكم من مسؤوليَّةٍ وعقاب، لذلك تعمدون إلى تكذيبنا وأنتم مُستهترونَ بتلك العاقبةِ وذاك العقاب. ومُتناسين أني بلغتكُم رسالة ربي إليكم لتذكيركم ولتعبدوا الله الّذي لا إلهَ محبوبَ سواهُ في هذا الكونِ وأنيّ لكم منه نذير مبين.

فبهذا الأُسلوبِ المُتحضِّرِ نقدَ نوحٌ عليه السلام قومه. ومن جراءِ الحذفِ البلاغيِّ المذكور الّذي قامَ به.

وإنَّ الله تعالى يكونُ قد أشار من خلالِ هذه الانتقاداتِ الثلاثةِ بإصبعِ الاتهامِ ومن طرفٍ خفيٍّ إلى المخاطبين من فئة المكذبينَ من أهلِ الكتابِ والمقصودين بهذا المثالِ التاريخي. ولإعطاءِ المؤمنينَ موعظةً ودرساً في كيفيةِ الرّدِّ على مُهاجميهم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ وبشكلٍ مؤدّب وحضاريّ.

وليلاحظ القارئ كيف أنّ نوحاً ما إن انتهى من ذلك كله إلا وراحَ يقولُ في الآية الثلاثين:

﴿وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

ففي قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أتى بفعل (ينصرني) ومعناه من يُعينني. وقد اشتقَّهُ من قولك: نصرَ الله المظلومَ أي أنَّهُ أعانه فلم يخذله. ومن قولك: نصر الله فلاناً على عدوه، بمعنى نجاهُ وأعانهُ وخلّصهُ من شرورِ عدوِّه وقوّاهُ عليه (محيط المحيط).

وبذلكَ يصبحُ معنى هذا الشطر الأول من هذه الآية الكريمة: أن يا قوم ما دمتُ مأمورا من الله ربي لأُأسسَ هذه الجماعةَ المؤمنةَ، فإن أنا استجبتُ لرغباتكم

وفَرَطْتُ عَقْدَها وأبعدتُ هؤلاء المؤمنين عني وحرمتُهم من سَمَاعِ ما بُعثتُ لأُسمعهم وأعلّمهم إيّاه من مواعظَ وتعاليم، فإنْ العقلَ والمنطقَ يقتضيانِ أنْ أقعَ تحت طائلـ ـة المسؤوليةِ الجزائيةِ من جانب ربّي يقيناً. وحينئذٍ سأفقدُ تأييدَ ربي ونُـ ـصرتَهُ الّـ ـتي وعدني بها من قبل.

وقد قالَ في الشطرِ الثاني من الآية: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ وقد سبق له تعالى أن استعمل نفسَ هذه الصياغةِ من قبلُ يومَ ضَرَبَ لنا مثَلَ الفريقين، وسألنا هـ ـل يستويان؟ وأنهى ذلك بقوله هناك: (أفلا تذكّرونَ؟) حيث قام بحـ ـذفِ مفعـ ـولِ (تذكّرون) ولنلاحظ كيف حذفَ مفعولَ (تذكّرونَ) هنا وفي هذا الشطر أيـ ـضاً. وليعود من معانيه:

أولاً- أفلا تتعظون. مما حدث لمن قبلكم من الأممِ الّتي كذبت رُسُلَها، والّتي حاقَ بها من جراءِ ذلكَ هلاكٌ ودمار.

ثانياً- وأفلا تخشونَ عذاب الآخرةِ الّذي حذرناكُم منهُ والّذي يترتّبُ على مثابرتكم على تكذيبنا وعلى عصيانكم لمشيئةِ ربكم عزّ وجلّ؟.

ثالثاً- وأفلا تتعظون من هذه المفارقات السلوكية الكائنة ما بين سـ ـلوكِكُم وما بينَ أحوالِ وسلوكِ هؤلاء المؤمنين الساعينَ للقاء ربهم عزّ وجلّ وهم يسيرون على دربِ تحقيق المقصد الأسمى من وجُودهم في هذه الحياة الدنيا؟.

وهكذا تولّدت جميعُ هذه المعاني من جراءِ حذفِ مفعول (تذكّرون).

ولم تقف أجوبةُ نوحٍ عليه السلامُ عند هذا الحدّ. بل وراحَ يُبرّئُ نفسهُ ممـ ـا يَنسبه إليه أعداؤه وما توهموه بحقه. وقد قام يُدلّلُ في الوقت نفسه على مدى يقينه بوجود ربهِ وعلى مدى تأييدهِ إياه، لذلكَ أضاف نوحٌ عليه السلام يقول في الآيـ ـة الواحدة والثلاثين:

﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ

تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

والمعنى أنّي اعترفُ يا قومي بين يدي الله ربّي الّذي أرسلني أنّهُ إن زعم تُ شيئاً خلافَ ما ذكرتهُ لكم، فإنّي أكونُ قد تجاوزتُ قدري وظلمتُ نفسي وظلمتكم معي وظلمتُ هذه الجماعةَ المؤمنةَ وأكونُ حينئذٍ أستحقُّ العقابَ من جانبِ الله الّذي أرسلني.

وهذا الدّفاعُ الّذي دافعَ به نوحٌ عن نفسه، يكشفُ عن عظمةِ شخصيّةِ نوحٍ عليه السلام وعن عظمةِ رسالته الّتي استدعت إغراقَ قومهِ بذاك الطّوفان العظيم المعروف. والّتي تستدعي أن يحدُثَ في عصرنا أيضاً طوفاناً يشبهُ طوفانُ نوح بسببِ ظهورِ الفساد في البرِّ والبحرِ بما كسبتْ أيدي النّاس.

وعلى هذه الصُّورةِ يكون الله تعالى قد انتهى من إنباء مُكذّبي عصرنا عمّا كان قد جرى من أحداثٍ ما بين نوح عليه السّلام وما بين قومه، وفي حدود تلكَ الاعتراضات وأجوبتها، تلك الّتي أتى بها اللهُ تعالى جميعها بأسلوب التّقابلِ وكما سبقَ لي أن ذكرت. وهي معلوماتٌ لا نعثرُ لها من أساسٍ في التّوراة المعاصرةِ المشوّهةِ الّتي كان كُتّابها يجهلونَ حقيقةَ آدم وحقيقةَ رسالته. وحقيقةَ رسالةِ نوح عليهما السّلام.

وهذا وإنَّ القارئ الّذي يستعرضُ جميع ما أتتْ به الآياتُ من أنباءٍ متعلّقةٍ بقصّة النّبيّ نوحٍ والّتي أتينا على شرحها آنفاً، يكون قد أخذَ فكرةً تاريخيّةً عن أحداثِ ما جرى بين نوحٍ وقومهِ الّذين كانوا قد تناسوا توحيد ربّهم، وعكفوا بالتالي على عبادةِ ما نحتتْهُ أيديهمْ من منحوتاتٍ لشخصيّاتٍ سياسيّةٍ أوْهَمَتْ الرّعيةَ بأنّها من سُلالةِ الآلهة، وهذه حقيقةٌ قد تعرّضتُ لشرحها في المبحثِ الثّالثِ من كتاب (اللهُ جلّ جلاله). أي أنَّ هذه الأنباء الّتي أفادَنا بها كلامُ الله علاّمِ الغيوب، قد

ربطت ما بينَ موضوعِ بعثةِ آدمَ وأحداثها، وما بين موضوعِ بعثةِ نوحٍ وأحداثها برابطةٍ موضوعيَّةٍ وبتسلسُلٍ منطقيٍّ طبيعيٍّ. وقوّمت في الوقتِ نفسه مُعطياتِ القسمِ الأوَّلِ من قصّةِ نوحٍ الواردةِ في سفرِ التّكوينِ من التّوراةِ المعاصرةِ تلك القصّةَ الّتي سبق لي أن نقلتُها للقارئِ بصورةٍ حرفيَّة. هذا وإنَّ هذه المعلوماتِ القرآنيّةَ جميعُها عادت مفيدةً على صعيدِ معرفةِ تاريخِ البشرِ وتطوُّراته ما بعد انتقاله من دورِ عصورهِ الحجريّةِ القديمة، وهَجْرِه سُكنى الكهوفِ على أيدي آدم عليه السّلام. فهذه المعلومات القرآنيّة ألقت ضوءاً على مُجرياتِ حياةِ البشرِ خلال فترةِ ألفي عامٍ سبقت ما هو معروفٌ من تاريخ هذا البشر والّذي لا يتجاوزُ ستّةَ آلاف عام.

والّذي بقي هو أن يُنبئنا اللهُ جلَّ شأنُهُ عن المرحلةِ الّتي توتّرت فيها علاقاتُ نوحٍ مع قومهِ والّتي بلغت أوجها، والّتي أتمَّ نوحٌ حجّتَهُ السّماويةَ على قومه، وعادوا مستحقّينَ أن يترلَ بهم عذابُ الطّوفان الّذي أنذرهم به نوحٌ عليه السّلام.

ولنلاحظ كيفَ استهلَّ الله جلَّ شأنُهُ إنباءنا عن هذه المرحلةِ الأخيرةِ من أحداثِ القصّة، فأنبأ كيف اتّخذَ قومُ نوحٍ منه موقفاً حاسماً، ونقلَ لنا قولهم وذلك في الآية الثانية والثلاثين:

﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾

فالّذي يتبادرُ لذهنِ السّامعِ من ألفاظِ هذه الآيةِ الكريمة هو أنَّ قومَ نوحٍ اجتمعوا معهُ وأنّهم خاطبوهُ بالخطابِ الّذي تكلّمتْ عنهُ ألفاظُ هذه الآية الكريمة، لكنَّ المؤمنَ الّذي يجلسُ يتدبّرُ صياغتَها البلاغيّةَ ووفْقَ منهجيّةِ القرآنِ الكريمِ ووفقَ أصولِ تفسيرِه، تتبيّنُ له حقائقُ ودلالاتٌ تختلفُ عمّا تبادرَ منها لذهنه.

وقد يعجبُ القارئُ من ادّعائي المذكور ويُطالبني بالدّليل. فأقول: ألا يُلاحظَ القارئُ انعدامَ وجودِ واواتِ الإضافةِ من ضمن فقراتِ هذه الآيةِ الكريمة، وتلاحظُ تعدُّدَ فاءاتِ الاستئنافِ فيها؟ وهل يُعقلُ أن يحدُثَ هذا صدفةً ومن دونِ مُعطياتٍ ودلالات؟ وفي كتابٍ معجزٍ وصادرٍ عن ربِّ العالمين؟.

والحقيقةُ هي أنّ الله عزّ وجلّ أوجزَ كلامهُ في هذه الآية الكريمة وموضّحاً لنا أحوالَ عدّةِ أدوارٍ أخيرةٍ مُتلاحقةٍ طرأت فيتلكَ الفترة، و لم يتكلّم عن دورٍ واحدٍ بعينِه. فقولهُ تعالى على لسانِ قومِ نوحٍ: **(قالوا يا نوحُ قد جادلتنا)** قد عبَّرَ به عن الدَّورِ الأوَّل. وإنّ قولهُ جلّ شأنُهُ من خلالِ قولهم: **(فأكثرتَ جدالنا)** قد عبَّرَ بـ ـه عن الدَّورِ الثّاني. فلو كانَ هذانِ الدَّورانِ دوراً واحداً لكانَ ينبغي أن يُؤتى هنا بواوِ العطف وليسَ بفاءِ الاستئناف. وقد اختصرَ ربّنا عزّ وجلّ قولَ قومِ نوحٍ ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ليعبّرَ به عن الدَّورِ الثّالث الأخير. وهو تعالى لم يأتِ في بدايةِ هذه الفقرة أيضاً بواوِ العطف، بل أتى بفاء الاستئناف ليُشعِرَنا بأنّهُ تعـ ـالى يختصرُ هذا الدَّورَ الثّالثَ الأخيرَ الّذي بلغتْ فيه تطوُّراتُ الأحداثِ أوجها. وهـ ـذا الاختصار وهذه العمليّةُ البلاغيّةُ تدخلُ أصلاً فيما اختصّ به الأسلوبُ القرآنيُّ وتميَّزَ به عن أساليبِ الكُتّابِ والأدباءِ الأرضيّين. خصوصاً وأنّهُ تعالى يُعرض خلالَ سردهِ للقصّةِ عن ذكرِ ما لا ضرورةَ له من التّفاصيل.

فمن هذا المنطلق أتناولُ الفقرة الأولى من هذه الآيةِ الكريمةِ والّتي اختصرتْ المرحلةَ الأولى ومن خلالِ قولِ قومِ نوح: **(قالوا يا نوحُ قد جادلتنا)**. إنّ كلمـ ـةَ **(جادلتنا)** اشتُقّت من قولكَ جادَلَه وتعني قد خاصمَهُ خصاماً شـ ـديداً. فتقـ ـولُ: تجادلا أي تخاصَما بلَدَدٍ. والجدلُ هو لَدَدٌ في الخصُومةِ وقدرةٌ عليـ ـه. ولا يكـ ـونُ الجدالُ أصلاً إلاّ لمُنازعةِ شخصٍ شخصاً آخرَ أو جماعةً غيره (محيط المحيط).

وعليه فإن الله تعالى قد اختار كلمةً دقيقةَ التّعبيرِ ليُعبِّرَ بها عن المرحلة الأولى من دعوة نوحٍ قومه. وهي كلمةٌ عبَّرتْ عن استعلاءِ قـ ـومِ نـ ـوحٍ عليـ ـه وعـ ـن استهتارهم بجميع ادّعاءاته، وعن تخوّفهم من الجماعة المؤمنة الروحيّة الّتي أسّـ ـسها، وكانوا يظنّونَ به ظنونَ السّوء. فقد مرّت تلك السّنواتُ الأُولى بدورٍ كلُّهُ جـ ـدالٌ ومُنازعةٌ وخصامٌ، وليس بحوارٍ هادئٍ يؤدّي إلى نتيجةٍ مُرضيةٍ وسـ ـليمة. وهـ ـذه

الحقيقةُ أكدّها تعالى بإيراده حرفَ (قد)، هذا الحرفُ الّذي يفيدُ التّأكيدَ والتّحقيق (محيط المحيط).

ومن ثمّ أتى الله جلّ شأنُهُ بفاءِ الاستئنافِ وقال على لسان قومِ نوح: **(فأكثرت جدالنا)**. أي أنّ قومَ نوحٍ قد قالوا في هذه المرحلةِ الثّانية أنّ يا نوحُ (أكثرت جدالنا). وإنّ صيغة كلمة (أكثرت) وردت بصيغة المُبالغة، إشعاراً من جانبِ الله تعالى هذا السّامعَ من خلالِ ذلك بأنّ جميعَ ما علّلَ به نوحٌ أقوالهُ المُتعلّقةُ بشأنِ تأسيسِ جماعتهُ الّروحيّة، لم تُجْدِه نفعاً في نظرِ قومه. بل على العكس من ذلك زادت قومهُ الفاسقينَ المُتكبرينَ شكوكاً وظنوناً فاسدةً. فكانوا ينظرونَ إلى هذه الجماعةِ على أنّها تشكّلُ خطراً مُحتملاً على نظامهمُ السياسيّ. ولارتيابهم من دأبِ نوحٍ عليه السّلام على الاستمرارِ في القيامِ بدعوته إيّاهم ليتركوا عبادةَ الأصنامِ وليلتزموا بما جاءَ به من تعاليم. وهي مرحلةٌ يُفسّرها قولُ نوحٍ عليه السّلام في سورةِ نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً﴾.

ومن ثمّ أتى تعالى بفاءِ الاستئنافِ للمرّةِ الثّانية وليختصر هذا الدّور الثّالث والأخير وقال على لسان قوم نوح: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. وهكذا صوّر تعالى من خلال اختصاره أوضاعَ هذا الدّورِ الثّالث المذكور فصوّرَ للقارئ حالةَ الهَيجانِ والغضَبِ الّتي تملكّت خلالها قومَ نوحٍ عليه السّلام، ونقلتهُم من حالةِ التّرقُّبِ إلى حالةِ الفورانِ والتهجُّمِ على نوحٍ عليه السّلام. وتحدِّيهُم إيّاه أن يُنزِلَ بهم ما توعّدهُم به من عذابِ الله تعالى في بدايةِ المطاف.

فإن لم يتحقّق هذا الوَعيدُ يملكونَ بذلكَ كلمةَ الفصلِ والخطاب، وبعد هذا الإكثارِ من مجادلتهم نوحاً الّذي دأبَ على تسفيه أصنامهمُ العابدينَ لها على الدّوام. أي أنّ هؤلاء انتقلوا لاتّهامِ نوحٍ عليه السُّلام بالكَذِبِ وبصورةٍ قطعيّة. واستعدّوا في الوقتِ نفسه لمهاجمته ولمهاجمةِ جماعته المؤمنةِ بنيّة للقضاء عليهم،

وليحسموا هذا الجَدَلَ العقيمَ الّذي طالَ أمدهُ وعلى حسبِ ما اعتقدوه. هذا الجدلُ الّذي يهدرُ أوقاتَهم لصالحِ نوحٍ وجماعته، وليس لصالحهم بالتّأكيد.

إلاّ إنّ الحالةَ الّتي وصلَ إليها آنذاكَ نوحٌ مع قومه تُشبهُ إلى حدٍّ كبيرٍ الحالة الّتي كانَ قد وصلَ إليها محمَّدٌ رسولُ الله مع قومه أيضاً. تلك الحالةُ الّتي قرّرَ قوم محمَّدٍ (ص) فيها قتلهُ وتوزيعَ دَمه بين القبائل كيلا يعودُ يحقُّ لأحدٍ من رجالات القبائلِ الحقُّ بالمطالبة بدمه عليه السّلام.

وبعد ذلك أتى الله جل شأنه بآية خالية من فاءات الاستئناف ومن واواتِ الإضافة وبما لا يتجاوز عدد كلماتها خمس كلمات وقال على لسان نبيه نوح وذلك في الآية الثالثة والثلاثين:

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾

فصور تعالى من خلال مضمون هذه الآية الكريمة أمرين هامين:

وقد وضّح في الأمر الأوّل الموقف الشجاع الّذي وقفه نبيُّ الله نوحٌ عليه السّلام. والّذي عبَّرَ من خلاله عن مدى يقينه بوحي ربّه وبمصداقية رسالته.

وقد صور تعالى في الأمر الثّاني جُرأة نوحٍ عليه السلام. ومبلغ تحديه واستمرارهُ في تحدّيه لقومه بحدوث ما أنذرهم به من قبل.

فليلاحظ القارئُ كيفَ أنّ اللهَ تعالى أتى بالحرف (ما) وأدخلهُ على الحرفِ المشبه بالفعل (إنّ). هذا الحرفُ الّذي يُفيد التّأكيد. وبذلكَ كفَّ (إنّ) عن عملها فلم تعُد تنصبُ ولا ترفع، وعادتْ تفيدُ التّأكيد والحصرَ فقط، وقال: (إنما يأتيكم به الله) وليكونَ معنى كلامه: إنّي على يقينٍ أنّكُم تستحقّونَ أن ينزلَ هذا العذابُ فيكم، والّذي كنتُ قد أنذرتكم به من قبل. علماً بأنّ نزولَ هذا العذابُ الّذي توعّدتكُم به لا صلةَ لهُ بشخصيَ الضّعيف، بل إنّهُ يتّصلُ باللهِ الّذي خلقكم جلّ شأنه.

ومن ثمَّ أتى بحرف (إنْ) المُخفّفة من (إنّ) ومُدخلاً إيّاها على جُملة فعليّة

لتعود (إنْ) منسوخاً عملها (محيط المحيط) كما أتى بفعل (شاء) محذوفاً فاعله دفعاً لتكرار اسم الجلالة (الله) فلم يقل: إنْ شاء الله. بل قالَ (**إنْ شاءَ**) وبمعـ ـنى إن أراد وقدّر. وليُصبح معنى هذه الفقرةِ الأولى من هذه الآية الكريمـ ـة: لا تظنّـ ـوا أنّـ ـي تراجعتُ عمّا أنذرتكم به من قبل. فالإنذارُ والوعيدُ المذكورُ له مصداقيته، ولستُ بكاذبٍ فيه. ولكنّ سَوْقَ هذا العذاب وإنزالَه بكم لا يعودُ إلى مشيئتي بل يعود إلى مشيئةِ ربِّ العالمين وإلى إرادته وتقديره. فالله هو الّذي يملك تقدير مـ ـدى أدائـ ـي لرسالته الّتي أوسد أمرها إليّ. وهو الله الّذي بإمكانه تقديرُ مـ ـدى اسـ ـتحقاقكم للعذابِ المذكور.

أمّا قولُ نوحٍ عليه السّلام في الفقرةِ الأخيرةِ من هذه الآية الكريمـ ـة: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ فقد استهلّهُ اللهُ جلّ شأنُهُ بواو العطف، كما هو مُلاحظٌ، وليس بفاء الاستئناف ليُشعرَ القارئ بأنّه راحَ يُكمل له الإجابةَ الّتي أجابَ بها نوحٌ علـ ـى قومِه الّذين اتّخذوا منهُ موقفهُم الهجوميُّ الأخير.

وقد أتى تعالى في هذه الفقرةِ بالحرف (ما) فأدخلها على الجملـ ـة الأسميّـ ـة (أنتم) ولِتُفيدَ معنى (ليس) وليعود المقصود من قولهِ المذكورُ: (**ليس أنتم بمُعجزين**). وهكذا يكون تعالى قد نفى من خلال زيادة حرفِ الباء الّذي زادهُ على خبرِ ليس إفادةَ نفيها للحالِ العائدِ لزمنِ إطلاقِ هذا الجواب.

وأرى من المناسب في هذا المقامِ أنْ أنقُلَ للقارئ ما تبادر لـ ـذهن الإمـ ـام الرازي رحمه الله من قولِ نوح: (**وما أنتم بمعجزين**). فقد كتبَ الرازي يفسِّرُ هذا القولَ ويقول: (**فلا يمتنعُ على الله تعالى ما يشاءُ من العذابِ إن أرادَ إنزاله بكم. وقد قيل معناه: وما أنتم بمانعين. وقيل: وما أنتم بمصونينَ منه، وقيل: وما أنـ ـتم بسابقينَ إلى الخلاصِ منه. وهذه الأقوالُ متقاربة**). فهل صحّ ما تبـ ـادر لـ ـذهن الرّازي ولذهن بقيّة المفسّرين المنقولة أقوالهم على لسانه؟

أقول: إنَّ المفسرينَ القدماء ذهبَ ظنُّهُم إلى أنَّ كلمةَ (مُعجزين) قد اشتقَّها الله جلَّ شأنهُ من فعلِ (أعجز) فلانٌ فلاناً أي صيّرهُ عاجزاً. حالَ أنَّهُ تعـ ـالى أتـ ـى بكلمةِ (مُعجزين) من فعلِ المُغالبةِ (عاجَزَ) فلانٌ فلاناً بمعنى سابقَهُ فَسبَقَهُ. وليعـ ـود معنى هذهِ الفقرةِ الثّانيةِ من جوابِ نوحٍ عليه السّلام: أن يا قومِ إن كنتُم قد دبّـ ـرتم أمرَ القضاءِ عليَّ وعلى جماعتي المؤمنةِ ولِتُسابقوا بذلكَ ربّكمْ والزّمنَ الّذي سـ ـيُنزلُ فيهِ الله تعالى عذابه بكم. فاعلموا أنّكم قد أخطأتُم التّقديرَ في هذا المجال. وإنَّ من واجبكم أن تتذكّروا أنّ الله تعالى سبق له أن سنَّ قانوناً قـ ـدريّاً لـ ـصالحِ أنبيائـ ـهِ وجماعاتهم المؤمنة، والّذي كتبَ فيه ليغلبنَّ اللهُ ورسله. وانطلاقاً من هذا القـ ـانونِ القدريِّ أقولُ لكم إنّكُم لن تُفلحوا في هذا التقّديرِ الّذي قدَّرتُموه. فهذا ما أجاب به نوحٌ عليه السّلام في هذا الشّطر الأخير من هذه الآية الكريمة ليزيدَ في إظهـ ـار مدى يقينِه بتأييد ربّه إيّاه، وبيقينِه القويِّ بحتميّةِ وُقوعِ ما أنذر به قومَه بأمرِ ربِّه من عذاب.

ثُمَّ إنَّ الملاحظَ أنَّ الهَ تعالى قد حذف مفعولَ (مُعجزين). وقد كان القـ ـصدُ من هذا الحذفِ البلاغيِّ أن يُذكّرَ السّامعَ بواسعِ علمِ الله تعالى الغـ ـيبيِّ وبقوانيـ ـنِهِ القدريّة المسنونة لصالحِ رسلِه ولصالحِ المؤمنين بهم. ليُذكّرَ في الوقت نفسه هـ ـؤلاء المكذِّبينَ من طوائفِ أهلِ الكتابِ المعاصرين المُوجَّهُ إليهم تقديمُ مثالِ قومِ نوحٍ عليه السّلام، لذكّرهم بأنَّ ما لديهم من أسلحة وتقنيّاتٍ وأنَّ ما توصّلوا إليه من سطوةٍ على العالَمِ كلّه، لن تمكّنهم من النّجاةِ ممّا أُنذروا به في سورةِ الكهف خاصّةً، وقبلَ أربعةَ عشر قرناً من الزّمان. فهذه هي معاني **(وما أنتم بمعجزين)**.

وقد شاءَ اللهُ تعالى أن يُنبّئنا أيضاً عن الخطابِ الّذي خاطبَ به نبيّـ ـهُ نـ ـوحٌ قومَهُ، وُصاغهُ صياغةً بلاغيّةً أيضاً، وقال على لِسانه وذلـ ـك في الآيـ ـة الرّابعـ ـة والثلاثين:

﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ

﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

ولقد تبادرَ لأذهانِ بعضِ المفسرّينَ القدماءَ من هذهِ الآية الكريمة أنّ المقصود منها أنّ نوحاً قالَ لقومه إن كانت مشيئةُ الله تهدفُ إلى إغوائكم وإضلالكم فلا مفرّ من وقوع ذلك. وإنّ هذا المعنى الّذي ذهبوا إليه أدّى إلى اختلافهم في أمرِ موضوع محاسبةِ الله تعالى الإنسانَ الّذي كتبَ اللهُ تعالى أن يغويه. وقد ذهبوا في ذلك مذاهبَ شتّى. حال أنّ مضمونَ هذه الآية الكريمة يتناقى مع ما تبادرَ لتلك الأذهان القديمة.

ألا إنّ اللهَ تعالى أورد كلمة (نُصحي) وقد اشتقّها من قولكَ: نصح فلانٌ فلاناً بمعنى وعظه. كما أوردَ قولهُ: (أنصحُ لكم) فاشتقّهُ من قولكَ: نَصَحَ له بمعنى وَعَظَه وأخلصَ له في وَعْظِه إيّاه. (محيط المحيط) وليصبحَ معنى قولِ نوح: **(ولا ينفعكم نُصحي إن أردت أن أنصحَ لكم)**، أن: يا قومي إن كان الله تعالى، ووفق علمه الغيبيّ بسرائركم، إن كان قد قرّرَ إهلاككُم بسبب سوءِ أعمالكم، فلن تُجدِ شيئاً مُداومتي على وعظكم وإخلاصي لكم. وسيحولُ اللهُ جلّ شأنهُ بينكم وبين وصولكُم إلى ما هدفتم لتحقيقه في الخفاء.

وعليه فلم يكن المقصودُ من كلمةِ (الإغواء) في هذا المقام إبعادَ قومِ نوحٍ عن الإيمان بما أُرسلَ به، بل أرادَ إبعادهم عن تحقيقِ هدفهمُ المنشود، ألا وهو سعيُهم ليُسابقوا نزولَ عذابِ الله تعالى وليتمكّنوا بذلك من القضاءِ سريعاً على نوحٍ وعلى جماعتهِ المؤمنة. فهذا هو المعنى الّذي ينسجمُ مع سياقِ كلام الله تعالى وسياقه وتسلسلهِ الموضوعيّ. والّذي يؤكّدُ مصداقيّةَ ما ذهبتُ إليه من معنى، هو أنّ القارئَ لابدَّ أنْ لاحظَ كيفَ أتى تعالى بضميرِ الشّأن (هو) وقال (هو ربّكم) ومن ثمّ وضعَ بعدَ ذلكَ إشارةَ (وقف). ومن ثمّ قالَ بعدها: (وإليه تُرجعون).

فهذه هي أجوبةُ نوحٍ عليه السّلام ورُدودُهُ الّتي واجهَ بها ثورةَ قومهِ عليه، وذلكَ قبل أنْ يحلَّ بهم عذابُ الطّوفان. ولم تُفهم هذه الأجوبةُ على حقيقتها من

قبلِ المفسّرينَ القدماء رحمهمُ الله تعالى. لكنّنا أحطنا بها علماً وفقَ منهجيّةِ القـرآن الكريم، ومن خلال تدبُّرنا إيّاها على أساسٍ من أصولِ تفسيره، وخاصّـةً منـها مُعطياتُ تسلسلِ أحداثِ هذه القصّةِ الموضوعيَّة.

ولْيُلاحظ القارئ الأسلوبَ الحضاريَّ الّذي عمدَ إليه نوح عليه السّلام ليُدينَ قومَهُ وليُلقي حُجّتَهُ الأخيرةَ عليهم. فقد اختصرَ الله عزَّ وجلَّ ذلكَ وعبَّـرَ عنـهُ بصياغةٍ بلاغيَّةٍ وعلى لسانِ نوحٍ عليه السّلام، وقال:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾

لقد اختلفَ المفسِّرونَ القدماء في أمرِ قوله ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ فقـد ذهبـوا مذاهبَ شتّى. فذهب ذهنُ بعضهم إلى أنّه تعالى يتكلّمُ به عن محمّـدٍ رسـول الله (ص). وذهبَ ذهنُ بعضهم الآخر إلى أنّه يتكلّمُ عن نوحٍ عليه السّلام نفـسه. والحقيقةَ هي أنّ اختلافهُم يَرجعُ لجهلهم بأصولِ تفسيرِ آياتِ هذا القران العظيم.

ألا إنّ اللهَ عزَّ وجلَّ عندما استهلَّ هذه الآيةَ الكريمةَ بحرف (أم) وأدخلهُ على فعلِ (يقولون) فقد أوردهُ على صورةٍ لا تتطلّبُ إلاّ الإجابةَ عليها بكلمةِ (نعـم أو لا) ولا عملَ لها سوى ذلك في هذا المقام (محيط المحيط). ويكون اللهُ جلَّ شأنهُ قد فَعَل هنا، مثلَ ما كان قد فعلهُ في سورة الكهف عندما شرعَ يروي قـصّةَ أهـلِ الكهفِ والرّقيم.

فالحقيقةُ هي أنّ الله عزَّ وجلَّ قد قصدَ من قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ الكلامَ عن الاتّهامِ الرئيسيِّ الّذي اتّهمَ به قومُ نوحٍ إيّاهُ. وهو الاتّهامُ الّذي دأبـوا علـى توجيهه إليه طوال المدّةِ الّتي أعقبتْ ادّعاءهُ النُّبوَّة. ولذلك نلاحظُ أنّ اللهَ تعـالى أتبع الفقرةَ المذكورةَ بفعلِ الأمر (قل) المُوجَّهُ إلى نبيِّه نوحٍ عليه السلام. وقالَ لـهُ أجبهُم وقل: ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ وقد وردَ قـولُ

نوحٍ هذا ردّاً على مُطالبتهم الّتي طالبوا نوحاً عليه السّلام بها قائلين: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. حيثُ أنّهُم كانوا قد كرّروا اتّهامَهم إيّاه بأنّه قد افترى إنذارهُ الّذي توعّدهم به. وراحوا يتهمونه اتّهاماً لا رَجعة عنه، لانقضاء عدّة أدوارٍ على عدمِ ظهورِ ما يؤكّدُ مصداقيّةَ هذا الوعيد. فهذا هو الاتّهامُ الّذي شاء اللهُ تعالى الردَّ عليه وعبّرَ عنه من خلالِ قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾.

أمّا جوابُ نوحٍ عليه السلام الّذي أجابَ به على قومه والّذي قالَ فيه: (**إن افتريتُهُ فعليَّ إجرامي**). قد أرادَ به أنّكُم يا قومي إن صَدَقَ اتّهامُكمُ النّهائيُّ لشخصي من أنّني افتريتُ على الله جميعَ ما بلّغتُكُم إيّاه. فبإمكانكم أن تَزينوا عمليّةَ الافتراءِ المزعومةَ بموازينكم الّتي تعارفتم عليها والّتي تتلخّصُ في ضرورةِ محاسبةِ من ينتحلُ صفةَ رسولٍ من عند الله تعالى كذباً وزوراً. فلو كنتم صادقينَ في زعمكم ثمّ واتّهامكُمُ المُشارُ إليه، لكانَ الله جلّ شأنُهُ قد بطشَ بي وأنزلَ بي وبَالَ عمليّةِ إجرامي المزعومة هذه. وما دام الله تعالى لم يُهلكني ولم يُعاقبني، بالرّغم من مُضيِّ هذه المدّةِ الطويلةِ على ادعّائي المذكور، ففي هذا الواقعِ يكمنُ دليلُ صدقِ نبوّتي ومصداقيّةُ ما أنذرتكُم به من وعيد. فهذا هو جوابُ نوحٍ عليه السّلام الحضاريّ الّذي أجابَ به على قومِهِ والمتضمّنُ دليلَ صدقِ نبوّته وصدقَ وعيده وتضمّنهُ قولهُ: (**إن افتريتُهُ فعليَّ إجرامي**)، وبدليلِ استهلالِ دفاعهُ (فعليَّ إجرامي) بفاءِ الاستئنافِ أيضاً.

ولم يكتفِ نوحٌ عليه السّلام بما قالهُ، وما أدانَ به قومه إدانةً حضاريّةً مهذّبةً، بل توجّه ليضيفُ على ذلك وليقول لهم: (**وأنا بريءٌ ممّا تُجرمون**). أي وما لكم لا تُحاسبونَ أنفُسكم بنفسِ المعايير المُتعارف عليها بينكم؟ فهل يعصي مُستخدمٌ لديكم أوامرَكُم، ومن ثمّ تَدعُونَهُ بالتّالي وشأنهُ من غيرِ أنْ تُعاقبوه على جريمةِ عصيانه؟ فحاسبُوا أنفسكم أوّلاً، فأنتم تعصونَ الله تعالى ليلَ نهار، وفي وقتٍ كنتم

تُلاحظونَ فيه أنّي مُطهِّرٌ ومُبرّأٌ من ارتكابِ المعاصي والآثامِ الّتي ترتكبونَها. وعليه فإنّكم تعدّونَ بذلكَ من المُجرمين، وتستحقّون أن يُنزِلَ الله تعالى بكم العذابَ الّذي دأبتِ على توعُّدِكم به من زمنٍ طويل.

وهكذا يكونُ نوحٌ عليه السّلام قد أدانَ قومهُ من ضمنِ ما نصّت عليه قوانينهمُ المرعيَّة. فلم يُواجههُم بالسّبابِ ولا بالشتائمِ، ولا باستعمالِ الألفاظِ النّابية. وقد شاء الله تعالى من خلال الإنباء عن هذه الإجاباتِ الأخيرةِ الّتي أجابَ بها نوحٌ على قومه، اقول: قد أراد أن يُعطي القارئ فكرةً واضحةً ومختصرةً عن مدى سموِّ ما كان يتمتّع به نبيّهُ نوحٌ عليه السّلام من صفاتٍ حسنةٍ وأخلاقٍ حميدة، وذلك في مقابلِ صورةِ قومهِ الإجراميّة الّتي كان يتصّف بها الملأ منهم خاصّةً.

وقد كان لهذا الإنباء مقصداً آخر وهو أن يذكر تعالى من خلاله هؤلاء المكذّبين من أهل الكتاب الموجّهُ إليهم هذا المثالُ وهذا الكلامُ أصلاً، حتى يُقارنوا ما بين ما يتصّفونَ به من صفاتٍ رذيلةٍ وأسوا ممّا اتصّفَ به قومُ نوحٍ عليه السّلام، وليوقنوا في قرارةِ أنفسهم استحقاقهم لعذابٍ شبيهٍ بعذابِ طوفان نوح.

وليلاحظ القارئ كيف أنّ الله تعالى ما إن فرغَ من إنباء القارئ عن جميع ما ذكرناه وعن المرحلة الأُخيرة من مراحل دعوة نبيّه نوحٌ قومه، إلاّ وراحَ يخبرُ في تلك الفترةِ من الزّمانِ نوحاً عليه السّلام وينبئه أنّه لن يؤمنَ من قومهِ إلاّ من كان قد آمن، وراح يهدّئُ من روعهِ لكي لا يحزن من جرّاء هذا الإخبار. وقال تعالى يوجزُ هذا الوحيّ الأُخير بمضامينهِ المذكورةِ من خلال قوله تعالى في الآية السادسة والثلاثين:

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

فمن خلال الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة يكون اللهُ تعالى قد أعاد إلى ذاكرة القارئ ما كان تعالى قد قاله عند كلامه عن الّذين كذبوا (المشاهد منهم)

حيثُ قال هناك: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وانتهى من ذلك ليُصوّرَ ما ترتَّبَ على ذاك الكفر وقال: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾.

ومن ثمَّ نُلاحظُ أنَّ الله تعالى توجّهَ بخطابهِ إلى نوحٍ عليه السّلام وقالَ لـ ـه في الآية السابعة والثلاثين:

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾

فإن تدبَّرَ المؤمنُ هذه الآية الكريمة بأصولِ تفسيرها، ومن أهمِّ هذه الأصول أن يُراجعَ معاجم اللغويّين ليفهمَ دلالات مُفرداتها، فإنّهُ يُلاحظُ فعلَ الأمر (واصنع) فقد اشتُقَّ من قولكَ صنعَ الشيءَ بمعنى عمله. كما يُلاحظُ كلمةَ (الفُلك) فهي تعني السّفينة، وهي كلمةٌ تُذكّرُ وتؤنّثُ وتستعملُ مفرداً وجمعاً، كذلك قـ ـال تعـ ـالى (بأعيُنِنَا)، ومفردُ (أعيننا) هو العينُ الّتي تُبصرُ والمعروفة، وقد تُطلقُ العـ ـينُ علـ ـى الجماعة وعلى أهلِ البلد فتقول: فُلانٌ عينٌ في قريته، وقد تُستعملُ كلمةُ (العـ ـين) مجازاً لتعني الحفظَ والإكرام (محيط المحيط).

وعليهِ فما معنى قولهُ تعالى هنا: (بأعيُنِنَا)؟ فإنْ نحنُ راجعنا ما فهمـ ـهُ منـ ـها المفسّرونَ القدماءُ رحمهمُ اللهُ تعالى، والّذينَ لم يطّلعوا على أصولِ تفسيرِ الآيـ ـاتِ القرآنيّة، نلاحظُ أنّهُم أخذوا لكلمة (بأعيننا) معنى في حفظِنا وإكرامنا، وهو المعنى الّذي تبادرَ منها لأذهانهمُ رحمهم الله تعالى أي أنّهم أخذوا بالمعنى المجازيِّ، من دونِ أن توجدَ قرينةٌ تدلُّهم على ذلك، ومُهملينَ في الوقتِ نفسهِ سّباقَ الآيـ ـةِ الكريمـ ـةِ وسّياقها وتسلسلها الموضوعيّ.

نعودُ نتساءلُ عن معنى قولهِ تعالى (بأعيُنِنَا) في هذا المقام؟ فأقول: يوجّهُنا نحو المعنى الحقيقي عدّة أمور: الأوّلُ منها: أنّ فعل الأمر (واصنع) وإن كان موجّهاً إلى نوحٍ نفسه، فلا يُعقل أن يُقصدَ به انفرادُ نوحٍ نفسهُ بعمليّة صُنع السُّفينة وبـ ـدون الاستعانةِ بأحدٍ يعاونهُ على صُنعها، فعمليّة صُنعِ سفينةٍ تحتاجُ لإنجازهـ ـا إلى أيـ ـدٍ

عاملة، وإلى خبير. فهذان العُنصران لابدّ من توفرّهما. فنسلّمُ بأن نوحاً هو الخ بير بسبب أنّه مُوجّه بتوجيه من وحي ربّه عزّ وجلّ الّذي أمره بصنع السفينة. فمن أين يأتِ نوحٌ باليدِ العاملة؟ أجابه تعالى إجابةً بلاغيّةً وقال (بأعيُنِنا): فالباء اس تعملت بمعنى الاستعانة. وأعينٌ جمع عُبّر به تعالى عن اليد العاملة وهم الأهل وأفراد الجماعة الرّوحية المؤمنة. والأمر الثّاني يُستفادُ من صيغة الجمع (أعيُننا) ذاته. فالمعلوم أنّ الله تعالى عندما شاءَ أن يمُنَّ على نبيّه موسى عليه السّلام استعملَ كلمةَ (عين) مفردةً وقال في الآية (٣٩) من سورةِ طَهَ: ﴿ ﴾. وقد استعملَ فقرةَ (ولتصنع على عيني) بدلالتها المجازيّة أي بحفظي وإكرامي. وما دام تعالى قد استعمل كلمة (عين) هن ا جمعاً، فللدّلالة على كثرةِ الأيدي العاملة، وليس بمعنى الحفظ والإك رام. والأم رُ الثّالث: هو كلمة (وحينا) ذاتها، فهي تعني الحفظ والإكرام. خصوصاً وأنّه تعالى قد أنهى هذه الآية الكريمة بقوله ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾. وهل يقرّر تعالى إغراقَ قومِ ن وحٍ وإهلاكهم، ويسهى بالتّالي عن نوحٍ عليه السلام نفسه؟ فلا يجعله تحت عين هِ أي تحت حفظه وإكرامه؟

وعليه أميل إلى الأخذ بجميع هذه المعاني الّتي ذكرتُها لكلمةِ (بأعيُننا) في هذا المقام. هذه المعاني الّتي تخالفُ ما تبادر منها لأذهان المفسّرين القُدماء.

أمّا قولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، فمعناهُ: أنهاك يا نوحُ أن تبدأ بصُنع السّفينة، وأنتَ تدعوني وتستعطفني من أجلِ أنْ أعفوَ عن قومكَ ف لا أعذّبُهم بالعذاب الّذي يستحقّونهُ وهو عذابُ الطّوفان. فلا تنسَ أنهم حكموا بذلك على أنفُسهم يوم هدّدوكَ وتوعّدوا بقتلكَ ومن معك. فهذا المعنى نبّهتنا إلي هِ واوُ الحالِ الّتي استُهلَّ بها هذا الأمرُ الإلهيُّ المذكور.

وأمّا في الفقرةِ الثّالثة والأخيرة من ه ذه الآي ة الكريم ة، وه ي ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾: فقد أتى اللهُ جلَّ شأنُهُ بكلمة (مُغرقون) مُشتقّةً من قولكَ: فلانٌ غَ رِقَ

في الماء بمعنى: غارَ فيه ورسب. ومن قولك: غرَّقَ فلانٌ فلاناً، أي قَتلَ ـه (محـ يط المحيط).

فهو تعالى استهّلَ هذه الفقرة الأخيرة بحرف (إنّ) الّذي يفيد التأكيد فأدخلهُ على ضمير الجمع وقال: (إنّهم مُغرقون) فليؤكد قراره النّهائي المتعلّقُ بإهلاكِ قـ ـومِ نوحٍ والقضاء عليهم جميعهم. وهو القرارُ الّذي استدعى وجوب إحْـ ـداث هـ ـذا التحوُّل في حياةِ نوحٍ من مُبشّرٍ ومنذرٍ إلى صانعِ سفينةٍ هو وأهلهُ وجماعتهُ المؤمنـ ـةُ أيضاً. وليوضّحَ في الوقتِ نفسهِ أنّه جلّ شأنُهُ قد عاملَ قومَ نوحٍ بالمثـ ـل، وأثبـ ـتَ بالتّالي أنّهم ما كانوا (بمعجزين) أي ما كانوا قادرينَ على استباقِ الأحداث.

فتدبّر أيّها القارئ هذا الإعجازَ البلاغيَّ فقد صاغَ تعالى هذه الآيةَ الكريمـ ـةَ الّتي لا يتجاوزُ عدد كلماتها ثّماني كلمات، ومع ذلكَ تضمّنت جميعَ ما ذكرناه منها من دلالات، وبما لا يخالف ما يتبادر لأذهان السّامعين أيضاً، وبموسيقيّة تتلاءمُ مع مُعطياتِ ألفاظها ومعانيها. فكأنّه جلّ شأنه قد خاطبَ من خلال هـ ـذه الألفـ ـاظِ الثّمانية وبهذه الصّياغة البلاغيّة نوحاً عليه السّلام أن يا نوح مادام قومُك قد قرّروا أخيراً القضاء عليك واستعجالَ العذابَ المُقدر بحقهم. فإني أسـ ـبقهم وأُهلكهـ ـم وأقضي عليهم معاملةً بالمثل، وأُنجيكَ وجماعتك المؤمنة وأهْلك وآمُركَ بالتوقُّف عن مُخاطبتهم أيضاً.

أقول: إنَّ مضمون هذه الآية الكريمة، يُستنتج منه أوّلاً: أنَّ طوفانَ نوحٍ كان محدوداً بالمنطقةِ الّتي كان يقطُنُ فيها قومُ نوحٍ عليه السلام، و لم يعـ ـمَّ الطوفـ ـانُ المذكورُ سطحَ الكرةِ الأرضية بأجمعه. وهذا المعنى يختلفُ عن المعنى الّـ ـذي أوردهُ كاتبُ سفرِ التكوين، ولم يثبتُ علمياً.

ويُستنتج ثانياً: أنَّ سفينةَ نوحٍ عليه السلام صُنعت لتُّسع فقط لـ ـه ولأهلـ ـهِ ولأفراد جماعتهِ ولعددٍ محددٍ من المواشي الّتي تُفيدهم في تأمين ما يحتاجونهُ من طعامٍ أيامَ الطوفان. وليس كما زعمَ كاتب سفر التّكوين من أنّها صُنعت لحمـ ـلِ كـ ـلِّ

أنواعِ وأصنافِ حيواناتِ الكرةِ الأرضيّة.

ويُستنتج ثالثاً: من مضمون هذه الآية الكريمة أنَّ حجمَ ومساحةَ سفينةِ نوح ما

كانت بتلك الضخامةِ والسعةِ الّتي صوّرها كاتبُ التوراةِ المحرفةِ الّذي كان يجهلُ حقيقةَ قصةِ نوحٍ مع قومه. فلو صحّت روايتُهُ، فما كانَ باستطاعةِ أحدٍ إنجازَ صُنعِ السفينةِ المزعومةِ بما توفّرَ من أدواتٍ في ذاكَ الزمان، ولو أمضى عمرهُ كُلَّهُ في صُنعها.

وليلاحظ القارئ كيف أنَّ اللهَ تعالى راحَ يُصوِّرُ لهُ، بتصويرٍ فنيٍ رائعٍ ما كان يجري خلالَ فترةِ صُنعِ السُّفينةِ الّتي صنعها نوحٌ عليه السلام. حيثُ قال اللهُ تعالى في الآية الثامنة والثلاثين:

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾

فالمُلاحظُ هو أنَّ اللهَ تعالى وضعَ على آخرِ الفقرة الأولى ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾ إشارةَ وقف. فلماذا هذه الإشارة؟ أقول: الحكمةُ من هذه الإشارةِ ليدفعَكَ أيُّها القارئ لتتمهّلَ ولتستوعبَ واسع دلالات قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ﴾.

أولاً: فالواو المُدخلة على الجملة الفعليّة يصنَعُ هي واو الحال. وللتّنبيه إلى أنّ حالَ نوحٍ عليه السلام قد تبدّلَ من رَجُلٍ كان يُبلّغُ رسالةَ ربه، إلى رجلٍ صانعٍ لسفينة.

ثانياً: وأنّ هذا التبدّلَ الجذريَّ في حياة نوحٍ عليه السلام، كان مُلفتاً لنظرِ قومه ومدعاةً لسُخريتهم أيضاً.

ثالثاً: وأنّ نوحاً عليه السلام وإن كان يدركُ هذه الحقائق وما ينتجُ عن ذلك التّحول في حياته من آثار سيئةٍ على قومه. فإنّه كان على مبلغٍ كبيرٍ من اليقينِ باللهِ

تعالى وبواسع علمه الغيبيّ وبقُدراته. لذلك دأب على صُنع السفينة هو ومن معهُ من جماعته المؤمنة، غير عابئينَ بشيء سواه. وعليه فقد كانت إشارة الوقف المذكورة تدفع القارئ ليسمع وليتفكّر في جميع هذه الأمور والاستنتاجات الّتي أتيت على ذكرها آنفاً.

ونتناولُ الفقرةَ الثانيةَ الّتي يقولُ تعالى فيها: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا﴾. فقد سبق لنا أن علمنا أنّ كلمة (ملأ) تعني سياسيّ القومِ ووُجهاؤهم. ثمّ إنّ (سخروا منه) معناهُ هزئوا منه. وبذلكَ يكون اللهُ جلّ شأنه راحَ يوضّحُ حكمةَ إشارة الوقفِ وذلكَ من خلالِ هذا التّصويرِ الفنيِّ الّذي يصوِّرهُ في هذه الفقرة، وليؤكدَ مصداقيّةَ ما استنتجه منها. فهو تعالى صوّر للقارئ أنّ بعضاً من ساسةِ ووجهاءِ قوم نوحٍ كان يصدُفُ مرورهم من مكان صُنع سفينة نوحٍ عليه السلام. وكانوا لا يمرُّون بسلامٍ، بل كانوا يتوقفونَ عندهُ ليستهزئوا بتحوله الجذريّ في سلوكه اليوميّ. وبذلك كانوا يتمادونَ في طغيانهم وفي تجاوزِهم لحدودهم، فلا ينظرون إلى حالة التحوُّل تلك إلا بنفسٍ منطلقةٍ من الاستعلاء والاستكبار وموازينه.

أمّا في الفقرةِ الثالثة الّتي قالَ فيها: **(قال إن تسخروا منا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون)** فالملاحظ أنّه تعالى أتى بحرف (إنْ) الّذي يوقعُ الثاني من أجلِ وقوعِ الأول، فهي تستعمل لإفادة معنى الجزاء. وأدخلَ جلّ شأنُهُ حرفَ (إنْ) على فعل **(تسخروا منّا)** وليصبح المعنى أنّكم يا معشر السّاسة والوجهاء لم تغيّروا من عقليةِ التعصبِ والاستكبارِ الّتي اتّصفتُم بها وتبادروننا بالسخرية والاستهزاء.

ومن ثمّ أتى تعالى بفاء الاستئناف وأدخلها على حرف (إنّ) الّذي يفيدُ التأكيد، وعلى ضميرِ جمع المتكلّم وليصبحَ جزاء المبادرة **(فإنّا نسخرُ منكم)** أي أنّنا نحن أيضاً نسخر من حالكم هذه ومن بقائكم على نظرتكم الخاطئة تلك. ثمّ

أتى تعالى بكاف التشبيه فأدخلها على الحرف (ما) لتعني معنى المبادرة وليس معنى التشبيه، وقال (كما تسخرون). أي أنّ مبادرتكم إيّانا بالسخرية منا، تستدعي من جانبنا أن نفصح لكم عما في أفئدتنا من نظرةٍ متعلقةٍ بكم أيضاً وهو أننا نستهزئ بحالكم هذه أيضاً. وقد راحَ تعالى يشرح بعد ذلكَ دواعي سُخرية نوحٍ وجماعته من قومه فأتى بفاء الاستئناف وقال في الآية التاسعة والثلاثين:

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

أي أن نوحاً عليه السلام ما ردَّ على سُخرية الملأ من قومه بوسيلة السبابِ والشتائم، بل ردَّ عليهم بردٍّ موضوعيّ. وهو أنّ الوقت آتٍ لا محالة، ذلك الوقتُ الّذي تتيقّنونَ فيه وتعرفون حقيقةَ ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

فكلمةُ العذاب قُصدَ بها العقوبةَ وكلُّ ما حالَ دونَ الإنسانِ وتحقيقِ مراده. ثمّ إنّ فعل (**يُخزيه**) الواوي اشتُق من خزاهُ ومعناهُ مَلكَهُ وكفه عن هواه. فإذا قلت: خزيَ فلانٌ فمعناهُ أنّهُ وقع في شهرةٍ وبلية فذلَّ وهان. وليشير تعالى بذلك إلى شُهرةِ هلاكهم القادمُ بوسيلة غرقهم بماءِ الطّوفان.

ومن ثمّ أتى تعالى بالواو الّتي تفيدُ معنى الحالِ وأضاف يقولُ على لِسانِ نوحٍ عليهِ السلام: (**ويحلُّ عليه عذابٌ مُقيم**). أي وستتيقّنونَ من تدومُ عقوبتهُ حتى إلى ما بعدَ الموت.

فبهذه الإجابةِ الّتي نقلها ربُّنا عزَّ وجلَّ إلينا بهذا الأسلوب. يكونُ تعالى قد أنهى موضوعَ إخبارنا عن الحواراتِ الّتي دارتْ بينَ نبيّه نوح وبين قومه. وما إن انتهى من ذلك إلا وشاء أنْ يُطلعنا على تطوراتِ الأحوالِ الّتي جرت بعدَ ذلكَ. فأتى جلَّ شأنهُ بحرف (حتى) الّذي يفيدُ انتهاءَ الغاية وبمعنى (إلى أن) وقال في الآية الأربعين:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن

سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾

فأتى بكلمةِ (أمرنا) حيثُ تقولُ: أمرهُ وضدّ نهاه. ويعني فعلُ أمر بمعنى الشأن لقوله تعالى: (وما أمرُ فرعون) أي وما شأنُهُ. وكتبَ صاحبُ الكُلّيّات يقول؟ يستعملُ الأمرُ في الأفعالِ فيجمعُ على أوامر. ويستعملُ بمعنى القول أيضاً. فإذا قُلتَ: أمرَ الشيءُ فمعناهُ كثُرَ وتمّ. كذلكَ استعملَ تعالى كلمةَ (فار) حيثُ تقول: فارَ الماءُ وتقصدُ أنّهُ نبعَ من الأرضِ وجرى. وتقول: فارَتِ القدرُ بمعنى جاشتْ وغلَتْ وارتفع ما فيها. كذلكَ أتى بكلمةِ (التّنور) وهي كلمةٌ تُطلقُ على الكانونِ الّذي يُخبَزُ فيه. وأصله (تنوور) على وزن تفعول، واشتقَّ من كلمةِ النور أو النار. فحذفوا الهمزةَ وعوَّضوا عنها بنونٍ أُخرى فصارَ تنّور. وأمّا كلمةُ (زوجين) فتُطلقُ على البعلِ كما تُطلقُ على الزَّوجة. ولذلكَ فإنَّ كلمةَ (زوج) هي خلاف كلمة (فرد). وعليه يُقالُ للاثنينِ زوجان وهما من ذكرٍ وأنثى. واستناداً إلى المعاني الّتي ذكرناها يصبحُ معنى قوله تعالى: (من كلّ زوجين اثنين) أي احملْ يا نوحُ معكَ في السّفينةِ اثنينِ من كُلِّ صنف. هذا وإنَّ لفظَ (كُلّ) المُستعملُ في هذه الفقرة، فهو اسمٌ موضوعٌ لاستغراقِ أفرادِ المُنكّر، نحو قوله تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾. ولا يستعملُ هذا الاسمُ إلا مُضافاً أو تقديراً. ثمَّ إنَّ كلمةَ (جميع) أوسعُ دلالةً وشموليّةً. وهذا هو السببُ في أنَّ كُلَّ ما يقبلُ التجزئة يؤكّدُ بكلمةِ (كلّ) حسّاً. فتقول: قبضتُ المالَ كُلَّه. كذلكَ أتى تعالى بكلمةِ (الأهل) هذه الكلمةُ الّتي كانت تُطلقُ على الخيمةِ ومن تحتَها. وصارت تُطلقُ على أهلِ الرجلِ الّذي يجمعُهم مسكنٌ واحدٌ. ومن ثمَّ أصبحت تُطلقُ على مَن يجمعُهم نسبٌ أو دينٌ أو صناعةٌ أو نحو ذلك. وأمّا كلمةُ (قليل) فتُستعملُ ضدَّ كثير، ويعبَّرُ بها عن قلّةِ العدد. حيثُ تقول: قومٌ قليلٍ. وبهذا المعنى ورد قولهُ تعالى في سورةِ الأعراف: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾.

ولقد اختلفَ المفسّرونَ القدماءُ فيما قصدَهُ تعالى من كلمة (تنّور) فـ ـذهبَ ظنُّهم إلى أنّ المقصودَ به في هذه الآية الكريمة هو (الكانون) الّذي يُبنى ليَخبزوا فيه العجين. وقد دفعهم هذا المعنى ليتساءلوا عمَّن كانَ يملكُه. فاختلفوا في هذا الأمر، كما اختلفوا في مكانِ وُجودِه. أمّا الرازي رحمهُ اللهُ فقد ذهبَ في تفسيرِه الكبيرِ إلى أنّ اللهَ تعالى أطلقَ هذه الكلمةَ على أشرفِ مكانٍ في الأرضِ وأعلاها، فساقَ إليها الماءَ ليُحدثَ معجزةً من مُعجزاته. وأنّهُ يُحتملُ أن يكونَ تعالى استعملَ هذه الكلمة بمعنى (حمِيَ الوطيس). وأنّهُ تعالى خاطبَ نبيَّهُ نوحاً حينئذٍ وقالَ لـ ـهُ: ﴿إذا رأيـ ـتَ الأمرَ يشتدُّ والماءَ يكثرُ فانجُ بنفسكَ ومن معكَ الى السّفينة﴾. وفهـ ـمَ مـ ـن ورُودِ كلمة (التّنور) مُعرَّفةً بالألفِ واللامِ إشارتُها إلى أنّهُ لربّما كان نوحٌ يملكُ (التنور) أو كانَ للنّبيِّ آدمَ من قبله. وأمّا بشأنِ حمولةِ السّفينة فقد كانَ رأيُ الرازي أنّ قولهُ تعالى (من كلِّ زوجينِ اثنين) يشملُ حملَ زوجينِ من كـ ـلِّ نـ ـوعٍ مـ ـن أنـ ـواعِ الحيوانات. لكنّهُ استدركَ وقال: (إلا أنّهُ بحسبِ قرينةِ الحال لا يبعدُ بسببِ أنّ الناسَ يحتاجونَ إلى النّباتِ بجميعِ أقسامه) أن يشملَ النّباتَ أيضاً. وأوردَ الرازي رحمهُ الله عن ابنِ مسعودٍ أنّهُ قال: (**لم يستطع نوحٌ عليه السّلام أن يحمل الأسدَ حتّى أُلقيت عليه الحُمّى**). واستبعدَ الرازي روايةَ من روى أنّ من جُملةِ من حُملوا في السّفينةِ إبليسُ اللّعين.

إنّ هذه المعاني الّتي ذهبَ إليها الرازي وسواهُ من المفسرينَ القدماء اعتمدوا فيها على ما تبادرَ لأذهانهم من الآياتِ الكريمة وعلى ما وصلهُم من رواياتٍ غـ ـير صحيحةٍ ومتأثرة بما بثّهُ اليهودُ بين المسلمينَ من مُعطياتِ سفرِ التّكـ ـوين لـ ـديهم. وعليه فهي أقوالٌ لا يُستندُ إليها بشكلٍ من الأشكال.

فالقرآنُ الكريمُ لا يُفسَّرُ بما يتبادرُ لذهنِ المرءِ من آياته الكريمة. إنّما يُفـ ـسَّرُ بتدبُّرِ آياتهِ وفقَ منهجيّتهِ وبأُصولِ تفسيره. ومن جُملةِ أُصوله أنّ القـ ـرآنَ يفـ ـسِّرُ

بعضه بعضاً كما أثبتُّ ذلك في مؤلّفي (أصولُ التفسير)، وعليه فلا ينبغي أنْ نفهمَ هذا الإجمالَ (وفارَ التّنور) إلا على ضوءِ ما أوردهُ تعالى في سورةِ القمر (٩-١٦) حيثُ قالَ بحقِّ نوحٍ عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ، فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ، فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ، وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ، وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ، وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ، فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

ألا إنّ اللهَ جلّ شأنُهُ قد صوّرَ قولهُ (وفارَ التّنور) في هذه الآياتِ الجليلةِ القدرِ تصويراً فنياً رائعاً وبصياغةٍ بلاغيَّةٍ مُعجزةٍ أيضاً. فكلمةُ (فارَ) اختزلَ بها ما يحدُثُ لينابيعِ الأرضِ من جَيشانٍ حينَ تنهمرُ الأمطارُ مدّةً طويلةً، إذ تمتلئ الأحواضُ الّتي هي فيها في جوفِ الأرضِ وتفورُ مياهُها إلى سطحِ الأرضِ. كذلكَ فإنَّ اللهَ جلَّ شأنهُ أتى بكلمةِ (التّنور) المعهودة في أذهانِ العربِ قبلَ الإسلامِ وليُصوِّرُ بها تصويراً فنياً أيضاً ما يحدثُ في هذا الكانونِ على أثرِ إلقاءِ كميةِ وقودٍ كبيرةٍ، حيثُ تجيشُ نيرانُهُ أيضاً وتفورُ إلى أعلاه، وبذلكَ تكونُ الآياتُ من سورةِ القمرِ الّتي أوردناها قد فسَّرتْ قولهُ تعالى هنا: (وفارَ التّنور) ليسَ إلا.

ونتناولُ الفقرةَ الثانية الّتي قالَ تعالى فيها: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾. فالملاحظُ هو أنّهُ تعالى لم يأمر نوحاً أن يركبَ ومن معهُ من المؤمنين أولاً. بلْ أمرهُ أن يُدخلَ قبلَ ذلكَ إلى السفينةِ مواشيَ مما هو عندهُ منها ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ لعدّةِ اعتباراتٍ منها أنّ تحميلَ المتاعِ في وسائلِ الرُّكبِ يتمُّ قبلَ الصُّعودِ إلى ظهرِ المركبةِ. وإنّ المتاعَ الّذي كانَ نوحٌ عليه السلام بحاجة إليه هو ومن كانَ قد ركبَ معهُ زوجَانِ من كُلِّ صنفٍ من أصنافِ المواشي الّتي كانت عندهُ ليستفيدوا من ألبانها ولحومها طالما بقوا في السّفينةِ طوالَ أيامِ الطّوفان. فهذا

هو المعمولُ به بشكلٍ طبيعي.

وعليه فهل قصدَ تعالى من قوله ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ ما ذكرناهُ؟ أم أنّهُ تعالى قصدَ من قوله المذكورِ حملَ زوجينِ اثنينِ من سائرِ حيواناتِ الأرضِ؟ وهـو المعنى الّذي قالَ به كاتبُ سفرِ التكوين وما وصلَ إلينا من أقوالِ المفسرينَ القدماء.

وإجابةً على السؤالِ المذكورِ أقول: لو كانَ كلامُ الله تعالى يدورُ حولَ جميع من في الأرضِ لَصحَّ رأيُ هؤلاءِ الّذينَ ذكرناهم. ولكنَّ سياق كـلامِ الله تعـالى وسياقه يدورُ حولَ الكلامِ عن نوحٍ مع قومه. وهؤلاءِ يقطنونَ في بقعـةٍ صـغيرةٍ ومحدودةٍ من الأرض. وعقابُ الطوفان مختصٌّ بمعاقبةِ قومِ نوحٍ وحسب، لقوله تعالى بحقهم: ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ و لم يقل تعالى إنّهم مغرقونَ ومن في الأرضِ جميعاً.

فإذا أضفنا إلى ذلكَ أنَّ عددَ أفرادِ قومِ نوحٍ ما كانَ يتجاوزُ الآلاف لـضآلة عدد سكانِ الأرضِ في ذاكَ الزمان. فمعنى ذلك أنَّ مساحة الأرضِ الّتي كانَ يقطنها قومُ نوحٍ ما كانَ ليتجاوزَ عشراتِ الهكتارات من الأمتارِ المربّعة.

هذا من جهة. ومن جهة أُخرى فإنَّ كلمةَ (الطوفان) الّتي وردت في قـصّة نوحٍ مع قومه لم يفهمها المفسّرونَ القدماء رحمهمُ الله وفقَ مُعطياتها اللّغويّة. بـل فهموها على ضوءِ ما أفشاهُ اليهودُ بينهم من معنى. فالّذي يُراجعُ معـنى كلمـة (طوفان) في معاجمِ اللّغة يُلاحظ قولَ صاحب الكليّات: كلُّ حادثةٍ محيطةٍ بالإنسانِ فهي الطوفان. فصارَ مُتعارفاً في الماءِ المُتناهي في الكثرةِ لأجلِ أنَّ الحادثةَ الّتي نالت قومَ نوحٍ كانت ماءً. وقالَ صاحب معجم (محيط المحيط): الطّوفانُ المطرُ الغالـبُ والسيلُ المُغرقُ وما كانَ كثيراً من كلِّ شيء. فمن خلالِ معنى كلمـة (طوفـان) نُدركُ أنَّ أثرهُ لم يتجاوز رقعةَ الأرضِ الّتي كان يقطنها قومُ نوحٍ عليه السلام. فإذا أضفنا إلى ذلكَ أنَّ هذه الكلمةَ وردتْ مُعرَّفةً بالألفِ واللام، فإنَّ هذا التعريفُ قد أُشيرَ به إلى المعهودِ مما حدثَ لقومِ نوح بعد أن انفتحتِ السماءُ عليهم بماءٍ مُنهمر.

وفي رأيي أنّ قومَ نوحٍ كانوا يقطنونَ في منطقةٍ جبليّةٍ ذاتِ مناظرَ خلابةٍ وينابيع كثيرةٍ وأرضاً خصبةً صالحةً للزراعةِ ولرعي المواشي. وكانوا يُربُّون المواشي بأنواعها، ويعلّفونها مّما يزيدُ عن حاجتهم من حبوبِ الأرضِ ومن أعشابها. والدليلُ على صحّةِ رأيي هو قولهُ تعالى هنا: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾. أي مما تربونهُ من أنواعِ الماشيةِ لتطعمونَ منها في السّفينة. والدّليلُ الثاني ينحصرُ في قولِ ابن نوحٍ ﴿سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾. ولا يقولُ هذا القولَ إلا من كانَ مُرتفعُ الجبلِ قريبٌ منه.

ثمّ إنّ كلمة (كلّ) الواردة في قوله تعالى ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ إنما هي اسمٌ موضوعٌ لاستغراقِ أفرادِ المُنكرِ، وعلى حسبِ ما وردَ في (محيط المحيط). فلو كانت كلمةُ جميع هي الواردة في هذا النّصّ، لاختلفَ المعنى وأفادَ معنى الشموليّة.

فمن هذا كلّه نُدركُ بأنّ المقصودَ من الكلام عن طوفانِ نوحٍ في كتابِ الله العزيز هو الإشارةُ إلى أنّ الأمطارَ في تلكَ المنطقةِ من العالمِ ظلّت تنهمرُ أياماً بلياليها إلى أن فارتْ ينابيعُ الأرضِ بشكلٍ غيرِ طبيعيٍّ وسالتْ سيولٌ عارمةٌ من جراءِ ذلكَ حتى غمرت تلكَ المنطقة الجبليّة فأغرقت كُلَّ شيءٍ إلا من كانَ في سفينةِ نوحٍ عليه السلام. وإنّ هذه الآياتِ الّتي تكلّمت عن ذاك الطوفان لا تحتملُ معنىً أوسعَ من المعنى الّذي ذكرناهُ وتوصلنا إليه. وإنّ جميعَ المعاني الّتي أوردها المفسرونَ القدماءُ رحمهم الله وردتْ مشوبةً بأفكارِ اليهودِ في ذلك الحين. وإنّ مما يؤكدُ مصداقيّةَ المعنى الّذي ذهبتُ إليه هو أنّ اللهَ تعالى قالَ بعدَ ذلك: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

فالّذي يُستفاد من كلمةِ (الجوديّ) هو أنّ قوم نوحٍ كانوا يقطنونَ منطقةً

جبليَّة. فأنتَ تقول: جادَ الشيءُ بمعنى صارَ جيِّداً. والحقيقة هي أنَّ الأرضَ السهليَّةَ تصلحُ جميعها لاستواءِ سفينةِ نوحٍ عليها. أما المناطقُ الجبليَّةُ فليست هي كـ ذلك. وعليه فالمعنى أنَّها استوت على المكانِ المُناسب لها. ثمَّ إنَّ صاحب (محيط المحـ يط) قال: الجوديّ جبلٌ كائنٌ بأرضِ الجزيرةِ وقيلَ استوت عليه سفينةُ نوح. وأنا أقول: واستناداً إلى ياء النِّسبةِ من كلمةِ (الجودي) كقولكَ عربي وأعجمي، فللإشارةِ إلى المكانِ الجبليِّ المُناسبِ الَّذي حطَّت عليهِ سفينةُ نوحٍ عليه السلام بحفـ ظٍ مـ ن اللهِ تعالى ولُطفهِ وإكرامه. وعليه فإنَّ صُنعَ سفينةِ نوحٍ لم يتم ولم يُنجزْ على شاطئٍ بحرٍ من البحارِ المعروفة، لكنَّها صُنعت على أرضٍ جبليَّةٍ حيثُ لا يحتاج الإنسانُ إليها. وهذا هو السَّببُ في أنَّها أصبحت مدعاة سُخريةِ قومِ نوحٍ منهُ عليه السلام.

وتخلصُ إلى القول بأنَّ الله تعالى عندما خاطبَ نبيَّهُ نوحاً وقال لـ ـه: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ فقد أمرهُ أنْ يحملَ اثنينِ من كلِّ صـ نف مـ ن أصنافِ الماشية الَّتي كانت لديه في أرضه. والقصدُ من ذلكَ ليستفيدَ مـ ن لحمهـ ا ولبنها وبيضها ومن معه طوالَ أيامِ الطوفان.

وبعد أن توصلنا إلى الدلالات الحقيقيَّة للفقرتين السابقتين، نُحـ ـاول تـ ـدبُّرَ الفقرةِ الثالثة الَّتي قال تعالى فيها: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾. فـ ـإنَّ العـ ـربَ كانوا يُطلقونَ كلمةَ (أهل) على الخيمةِ أو على الَّذينَ تضمُّهم تلك الخيمة كالزوجِ وحليلته وأولاده. ومن ثمَّ عادت تُطلقُ كلمة (أهل) على الَّذين يجمعُهُـ ـم مـ ـسكنٌ واحد. كذلك استُعيرت لِيُطلقوها على الَّذين يجمعهم نسبٌ أو دينٌ أو صـ ناعةٌ أو نحو ذلك. ويسمّونَ أمَّةَ كلِّ نبيٍّ أهله (محيط المحيط).

وعليه يُصبحُ معنى هذه الفقرةِ الثالثة أن اللهَ جلَّ شأنُهُ أمر نوحاً أن يحملَ معه في السَّفينةِ أهل بيتهُ باستثناءِ ابنه الَّذي استعلى على والدهِ وكفرَ برسالته كما دلَّتْ على ذلك بقيَّةُ الآيات.

فإلى هنا تكونُ قد اتَّضحَتْ لنا الأخطاءُ الفاحشةُ الّتي وقع فيها كاتبُ سفرِ التّكوين الواردُ في التّوراة المُعاصرة، والمُتعلقة بقصّة نوح عليه السلام، الّتي لا يستسيغُها عقلٌ ولا مَنطقٌ سليمٌ، وقد كشفَ عنها الغطاء هذا القرآنُ العظيم. وهي الأخطاءُ الّتي أبعدتْ علماءَ النهضة الأوربيّةَ أنفُسهم عن هذه التّوراة الّتي كانت مقدّسةً في نظرِ آبائهم وأجدادهم من قبل.

وأضافَ اللهُ جلَّ شأنُهُ في الفقرةِ الرابعة يقول: ﴿وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾. ولنُلاحظ كيف أنّهُ تعالى أتى بواو العطفِ ليعطفَ (من آمن) على الّذين ستحملُهم السفينةُ من أهلِ نوحٍ عليه السلام. وقد أشارَ تعالى صراحةً بأنَّ عدد هؤلاءِ المؤمنينَ كان محدوداً وقليلاً. إشعاراً لنا بأنَّ حجم سفينة نوحٍ ما كانَ كبيراً فحمولتها كانت محدودة الوزن. ففي (محيط المحيط): كلمةُ (قليل) يؤتى بها في مقابلةِ كلمة (كثير)، ويُعبَّرُ بها عن قلّة العدد.

وبذلكَ يكونُ اللهُ تعالى قد أعطانا من خلال قولِه تعالى ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أقولُ أعطانا فكرةً تقريبيّةً عن حمولة سفينة نوحٍ لنُقدّرَ من أنفُسنا حجمها التّقريبيّ. ولنُصحّحَ المعلومات الّتي أفادنا بها سفرُ التّكوين.

ومن ثمَّ راحَ تعالى يُطلعُنا على الدُّعاء الّذي زوّدَ به نبيّهُ نوحاً عليه السلام. ليدعو به هو والّذينَ معه في السفينةِ أيامَ الطوفان. ليجذبوا نحوهُم رأفةَ الله تعالى ورحمتهُ ولُطفه، وقال في الآية الإحدى والأربعين:

﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ففعلُ (اركبوا) أتى من قولكَ: ركبَ الفُلكَ: وتقصدُ أنّهُ دخلها واعتلى سطحها. وأما حرف (في) فأتى تعالى بهِ زائداً. وأما كلمةُ (مَجريها) فمُشتقةٌ من

قولكَ جرى أي سار. وأما كلمةُ (مُرساها) فمشتقةٌ من رسي أي توقّف (محيط المحيط).

وليُصبحَ معنى هذا التّعليمَ الّذي نصّتْ عليه هذه الآية الكريمةُ أنّ الله تعالى علّمَ نبيّهُ نوحاً أن يستعينَ بربّه هو ومن معهُ من المؤمنين طوال أيامِ الطوفانْ. ومن مُنطلقِ التّعليمِ الّذي علّمنا تعالى إيّاهُ في مقامٍ آخر وقال: ﴿وما يعبأُ بكم ربّي لولا دُعاؤكم﴾ ذلكَ أن الله تعالى غنيٌّ عن العالمين. والحكمةُ الثانيةُ من تعليمه تعالى نوحاً هذا الدُّعاءُ، هو لتبشيره بصورةٍ غير مُباشرةً بالنهايةِ السّعيدة الّتي تنتظرهُ ومن معهُ في السفينةِ الّتي حملتهُ أيامِ الطوفان. خصوصاً وأنّهُ تعالى قالَ في الفقرةِ الأخيرةِ من هذا الدُّعاءِ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. فهو تعالى أتى بحرف (إنّ) للتأكيد. وليؤكّدَ يقينهُ بربّه من أنّهُ يعاملُ عبادهُ المؤمنينَ في مثلِ هذه الأحوال مُعاملة خاصةً فيسترُ ما صدرَ عنهم من ضعفٍ ويشملهُم برحمته الّتي وسعتْ كلَّ شيء.

وما أن انتهى اللهُ سبحانهُ وتعالى من إطلاعنا على الدُّعاءِ الّذي علّمهُ لنبيّه نوحاً، إلا وانتقل من ذلك ليصفَ ما جرى لسفينةِ نوحٍ عليه السلام بعد أن طغى الماءُ وابتدأ الطوفان، فقال في الآية الثانية والأربعين:

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾

ولنلاحظ أنّ حرف الجرّ (في) الواردُ في الفقرةِ الأُولى وهي قولـه تعالى ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ قد فهمَ منهُ العلامة الرازي رحمهُ الله أنّ السفينة كانت تجري داخل ماءِ الطوفان. فهو كتبَ يقولُ في تفسيرِ هذه الفقرة: (فهذا يدلُّ على أنّهُ حصلَ في ذلكَ الوقت رياحٌ عاصفةٌ شديدةٌ، والمقصودُ منهُ بيانُ

شدَّة الهول والفزع.. وهو أن تجري السفينةُ داخل المَوج وذلكَ يوجبُ الغ رق. فالمرادُ أنَّ الأمواجَ لما أحاطتْ بالسفينة من الجوانب، شُبِّهتْ تلكَ السفينةُ بـ ـا إذا جرت في داخلِ الأمواج).

أما الحقيقةُ فهي أنَّها توجدُ إشارةُ وقفٍ على آخرِ هذه الفق ـرة. ولا ت ـأتي إشارةُ الوقفِ إلا لتدفعَ القارئَ للتمهُّلِ ولإطالةِ التفكيرِ فيما قرأه. فلا يستعجلُ في إصدارِ الأحكام. وعليه فما دامت المنطقة الّتي حدث فيها الطوفانُ منطقةً جبليَّـ ـةً فهذه قرينةٌ على أنَّ حرف الجر (في) قد استعملَ هنا بمعنى المُـ ـصاحبة. ليُفيـ ـدَ أنَّ السفينةَ جرتْ مع جريانِ السيل. فأنتَ تقول: جاءَ الملكُ في موكبِه بمعنى أنَّ الملكَ جاء مع حاشيته. ثمَّ إنَّ كلمة (الموج) قد استُعملَت في هذه الآية بمعناها الحقيقـ ـيِّ. وهو سطحُ البحرِ الّذي تراهُ الأعيُن. وأما الكاف من كلمةِ (كالجبال) فهي اسميَّـ ـةٌ جارَّةٌ لكلمةِ (الجبال) ومرادفةٌ لكلمةِ (مثل) وفي موضعِ رفع. كقولكَ فلانٌ كالليث (محيط المحيط).

واستناداً إلى هذه المعاني يُلاحظُ أنَّ الله تعالى، وبعدَ أن علَّمَ نبيَّهُ نوحاً عليـ ـه السلام الدُّعاء الّذي كانَ ينبغي أن يدعو به وهو في السفينةِ الّتي تعلو سطحَ سـ ـيلِ الماء. فقد راح تعالى يُعطي القارئَ فكرةً واضحةً عما أفادُه تضرُّعُ نوحٍ ومن معـ ـهُ وهم في تلكَ اللَّحظاتِ العصيبة. ولنلاحظ كيفَ أنَّ اللهَ تعالى قد صـ ـاغَ ذلـ ـك بصياغةٍ بلاغيَّةٍ يتبادرُ منها غير ما انطوت عليهِ من معنى وراحَ يقول: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾. وقد أنهى جلَّ شأنُهُ هذه الفقرةَ بإشارةِ وقفٍ، إشعاراً لنا ألاَّ نتعجلَ في فهمِها، ولنتدبَّرها تدبُّراً أصوليّاً.

فإنْ قمنا بعمليَّةِ التَّدبرُ المُشارِ إليها نصلُ إلى أنَّ القصدَ من قولهِ تعالى ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ الإشارةَ إلى جريانِ السفينةِ بمن فيها بصحبةِ مـ ـاء الطوفانِ الّذي ارتفعَ بها عن اليابسةِ. وهذا المعنى يدفعُنا لنفهمَ كلمةَ (الجبـ ـال) أنَّ

القصدَ منها دلالتها على العزّة والمنعة (محيط المحيط)، وليس على معانيها الأُخرى. فهذا ما يقتضيه سباقُ الكلام. فسيلُ الماء مهما عظُمَ لا يتماوجُ كالجبال. والمنطقةُ جبليَّةٌ على حسبِ ما توصلنا إليه من قبل. أي أن الله تعالى شاء أن يقولَ بألفاظ أُخرى بأنَّ مياهَ السيلِ حرَّرَت السفينةَ من مَربَضها بعنايةٍ فائقة فلم يُصَبْ رُكابُها بأيِّ إزعاجٍ أو أذىً. وإنَّ هذا المعنى الّذي توصلنا إليهِ يتنافى والمعنى الّذي تبادرَ من هذه الفقرةِ إلى أذهانِ المفسرينَ القدماء.

إنَّ الّذي تسبَّبَ بهذا الاختلاف، هو أنَّ الرازي رحمهُ الله اعتبرَ الحرف (في) ظرف مكان. وهذا ما دعاهُ ليظُنَّ بأنَّ السفينةَ أحاطتْ بها الأمواجُ من كلِّ جانب وكأنَّها عادت وسطَ المياه. وهذا الفهمُ دفعهُ بالتالي ليأخذَ كلمةَ (مَوج) على أنَّها صيغةُ جمع. على حينِ أنَّها استُعملت هنا بصيغةِ المفرد ومصدر وتعني طبقة الماء المنظورة السطحيَّة (محيط المحيط). وقد أورد صاحبُ معجم (مقاييسُ اللُّغة) يقول: (موج الميم والواو والجيم أصلٌ واحدٌ يدلُّ على اضطرابٍ في الشيء. والموجُ هو موجُ البحرِ سُمّيَ لاضطرابه). أي أنَّ هذا نبَّهَ أذهاننا إلى أنَّهُ لولا اضطرابُ ماءِ البحرِ لظلَّ الماءُ مُستويا.

والّذي يؤكدُ مصداقيَّةَ المعنى الّذي اخترتُهُ للحرف (في) في هذه المقام. هو ما ورد في الفقرةِ الثانيةِ من هذه الآيةِ الكريمةِ وهو قولهُ تعالى بحقِّ ابن نوحٍ عليه السلام: (وكانَ في معزل). وإنَّ كلمة (معزل) مشتقَّةٌ من قولكَ عزلهُ بمعنى نحّاهُ جانباً. وهذا المعنى يبيِّنُ لنا بأنَّ ابنَ نوحٍ كانَ يقفُ بجانبِ سفينةِ نوحٍ عندما ناداهُ أبوهُ وقال لهُ: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾. أي أنَّ ابنَ نوحٍ لم يستشعر خطرَ الطوفانِ في تلك اللحظات. لكونهِ قد اعتادَ على تلك الظاهرةِ الّتي كانت تحدثُ من حوله. فالمنطقةُ كانت منطقةً غزيرةَ الهطولِ وغزيرةَ الينابيعِ وشديدةَ الخصب. فهي منطقةٌ جبليةٌ، وليست بمنطقةٍ سهليَّة. والدليلُ على أنَّها كانت منطقةً جبليةً هو جوابُ ابنَ

نوحٍ على نداء أبيه. فهو أجابَ وقال: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾. فلو كانت المنطقةُ سهليَّةً فلا يُعقلُ أن يُجيبَ على أبيه بهذا الجواب. فهذه قرينةٌ واضحةٌ تؤكدُ كونَ منطقة (طوفانِ نوحٍ) كونَها منطقةً جبليةً اعتاد أهلُها على رؤيةِ سيولِ الماءِ الغزيرة تجتاحُ أراضيهم.

ثمَّ إنَّ ابنَ نوحٍ عليه السلام قد استعملَ حرف (السين) ومُدخلاً إياه على فعلِ المضارع وقال: (سآوي). وهذه الصيغةُ تؤكدُ أنَّهُ اعتاد على رؤيةِ مثلِ ذاكَ الهطولِ من الأمطار، وعلى رؤيةِ مثلِ ذاكَ السيلِ الَّذي تسبَّبَ به ذاك الهطول. فالأمرُ كانَ طبيعيّاً جداً بالنسبةِ له. ولذلكَ بإمكاننا أن نحملَ إجابتهُ على أنَّها كانت تتضمَّنُ معنى السُّخرية من فعلِ أبيه أيضاً.

وإضافةً إلى ذلكَ كلِّه أقول: فليتصوَّرِ القارئ أنَّ سفينةَ نوحٍ كانت تتلاطمُ بها الأمواجُ العاتيةُ يُمنةً ويسرةً وإلى أعلى وإلى أسفل، فماذا كانَ سيحدُثُ لركابها من كلا الجنسينِ ومن معهم من أنعامٍ إضافةً إلى أمتعتهم؟ فهل يصحُّ، والحالُ هذه، القول ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾؟ معاذَ الله أن يصحَّ هذا الوصفُ. بل لكانَ قد اختلطَ الحابلُ بالنابلِ، ولكانت قد هاجت حمولةُ المواشي ولكانت قد تبعثرت الأمتعةُ أيضاً بينَ أرجُلها.

فمن المؤسفُ أن يفسِّرَ المفسرونَ القدماءُ هذه القصَّةَ بما تبادرَ منها لأذهانهم ومن دون أن يتدبَّروها ويحاكموا هذه الأمور بمنهاجٍ مَنطقيٍّ وعقلانيٍّ. هذا وإنَّ هذه السقطاتِ وغيرها الّتي وقعوا فيها، يثبتُ منها عظمةُ الصياغةِ البلاغيَّةِ المُعجزة الّتي صيغت بها هذه القصَّةُ وهي مُتضمِّنةٌ هذه المعاني الّتي توصَّلنا إليها. فهي صياغةٌ أوهمت بمعانٍ تبادرتْ لأذهانِ القارئين بينما كانت تلك المعاني المُتبادرة غير مقصودة وتحتاج آياتها إلى عمليَّةِ تدبُّرها بمنهجيَّةِ القرآنِ وأصولِ تفسيره.

وأتناولُ بالتَّدبُّرِ الفقرةَ الثانية من هذه الآيةِ الكريمةِ والّتي قال تعالى فيها:

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾.

فالملاحظُ أنّ الله تعالى أتى بفعلِ النداء هنا وقـال: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾. والّذي يتبادرُ للذهنِ من فعلِ (اركب) معنى الأمر. لكنّ الحقيقةَ هي أنّ فعل (نادى) يتضمّنُ معنى الرّجاء. فإن قُلتَ: تَنـادى القـومُ، فـالمعنى أنّ بعضُهم رجا بعضُهُم الآخر ليجتمعوا في ناديهم لأمر من الأمور. (محيط المحـيط) فنوحٌ عليه السلام لم يأمر ابنهُ أن يركبَ معهم، بل ترجاهُ أن يرجع عـن موقـف اللامبالاةِ الّذي كانَ يقفهُ من أبيه. وقد جاءَ رجاءُ نوحٍ لابنه أن يركـبَ معهـم بداعي غلبةُ عاطفته الشخصيَّة على ابنه وليس بداعٍ من أمرِ ربِّه. فهو معَ علمه بأنّ ابنه لم يكن مؤمناً برسالته. فهو رجاهُ أن يركبَ معهُ لعلّ اللهَ تعالى يعفوَ عنهُ ويجعلهُ من الناجين. وبدافعِ هذه العاطفةِ قال لـهُ: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾ أي لا تقعد ولا تبقى في صفوفِ الكافرينَ خلالَ فترةٍ ما هو حادث الآن.

لكنّ العلامة الرازي رحمهُ الله فسَّرَ (ولا تكن مع الكافرين) فسَّرهُ وقال (لا تكُن تابعهم في الكُفر) لكنّ الحقيقةَ هي أنّ اللهَ تعالى حذف هنا مُـضافَ كلمـةِ (الكافرين) ليوسِّعَ دلالتها، ولتشمل أكثرَ من معنى ولتُفيدَ تذكيرَ ابنه بإنذاراتِ نوحٍ المتكررةِ لقومه من أنّ سيلاً من الماءِ سيحدثُ في يومٍ من الأيّامِ وينقلبُ إلى طوفان يُغرقهُم جميعَهُم. فنوحٌ عليه السلام ومن خلالِ ندائه هذا أرادَ تذكيرَ ابنه بالتحذير المُشار إليه. وليُفيدَ حذفُ المضاف أيضاً إيقاظَ ابنه من غفلته وليتـذكّر أنّ هـذا السيلَ هو المقصود من إنذاراته السابقةِ والّذي سيزدادُ ليصبحَ طوفاناً عاتياً. وليذكّرَ اللهُ تعالى أهلَ الكتابِ المُنذرينَ في الوقتِ نفسه أنّهُ سيأتي عليهم مثلُ هذا الطوفـان لإهلاكهم أيضاً.

ولنُلاحظ كيفَ أنَّ اللهَ تعالى ما إنْ نبَّهَ إلى جميعِ هذه المعاني الّتي أتيتُ علـى ذكرها من خلالِ هذا الحذفِ البلاغيِّ والّتي تضمَّنَتْهُ هذه الفقرةُ الثانيةُ، إلا وقـد لاحظناهُ قد أتى بآيةٍ مُستقلّةٍ جديدةٍ ومستقلّةٍ تضمَّنت ما حدثَ بعد النداءِ المذكورِ وراحَ تعالى يقول فيها على لِسان ابن نوح، وذلك في الآية الثالثة والأربعين:

﴿قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾

فابنُ نوحٍ لم يستجب لرَجاء أبيه وقال: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ فَفعلُ (يعصمني) اشتُقَّ من قولكَ: عصمتُ الشيءَ بمعنى حميتـهُ ومنعتـه (محـيط المحيط). فقولهُ هذا دلَّ على أنّهُ اعتاد رؤيةَ مثلِ هذه الأحوال الجويّة، وأنَّ مَوقعهُم كانَ قريباً من (جبلٍ). وبما أنّهُ أتى بكلمةِ (جبل) مفردةً، و لم يقُل (جبال). فهـذا يدلُّ على أنّهُ قصدَ أكمةً قريبةً منهُم مرتفعةً عن مستوى السَّيل (محيط المحيط). وأنّهُ ما كانَ يتصوَّرُ أنَّ مياهَ السيلِ مهما ازدادت أنّها ستصلَ إلى ارتفاعِ قُمَّـةِ تلـكَ الأكمة.

فبماذا أجابَ عليه أبوه نوحٌ عليه السلام؟ أجابهُ بكلماتٍ ملؤهـا اليقينُ بمضمونها وقال له: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ أي أنّهُ قد آنَ وقتُ نفاذِ أمرِ الله تعالى الّذي حذَّرتُ القوم منهُ، وهو الأمرُ الّذي لا تقوى أيّةُ قوّةٍ على الأرض على حمايتهم منه. ومن ثمَّ أتى بأداةِ الاستثناءِ (إلا) وبمعنى الاستثناءِ المُنقطع، وليستثنيَ المؤمنين الّذين حملتهُمُ سفينةُ نوحٍ، وقال: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ وبذلكَ يكونُ نوحٌ قد نبَّهَ ابنهُ بهذا الأسلوبِ إلى أنَّ اللهَ تعالى قد قدَّرَ أيضاً أن تغمرَ مياهُ السَّيلِ تلك الأكمةَ الّتي سماها ابنُهُ (جبلا). لعلّهُ يعـودُ إلى رُشـدهِ في نهايـةِ المَطاف.

فماذا حدثَ بعدَ هذا الحوارِ الّذي جرى ما بين نوحٍ وما بين ابنه؟ أجـ ـاب تعالى على هذا السؤالِ بصياغةٍ بلاغيّةٍ وبتصويرٍ فني رائـ ـعٍ وقـ ـال: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ أي أنّ ابن نوحٍ لم يستجب لرجاء أبيه وأخذت نسبة طبقةِ الميـ ـاه تـ ـزدادُ ارتفاعاً الأمرُ الّذي اضطرَّ ابن نوحٍ للهربِ بعيداً عن السّفينةِ وباتجاهِ الجبلِ الـ ـصغيرِ الّذي ذكرهُ والّذي هو

بمثابةِ أكمةٍ مُرتفعةٍ من التُّراب لحمايةِ نفسهِ من ماءِ السيل. فحـ ـالَ مَـ ـوجُ السيل ما بين الأبِ وابنه وفرَّقَ ما بينهما وحالَ دونَ لقائهما وكانَ ما كان.

فماذا كانت النتيجة؟ لنُلاحظ كيفَ أنّ الله تعالى أتى بعـ ـد ذلـ ـك بفـ ـاء الاستئناف وراحَ يجيبُ على السؤالِ المذكور وبتصوير فنّيٍّ رائعٍ أيـ ـضاً وأضـ ـافَ يقول: ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ أي أنّهُ تعالى استعمل فعل (كان) بمعنى (صـ ـار). كما أتى بحرف (من) التفسيريّة. كذلك أتى بكلمةِ (المُغـ ـرَقين) معرَّفـ ـةً بـ ـالألف واللام.

وليصبحَ المعنى: أنّ مياهَ مَوجِ السيل الّتي كانت تزدادُ ارتفاعـ ـاً، اسـ ـتمرّت بالارتفاعِ وإلى درجةٍ انقلبت معها مياهُ السيلِ إلى طوفانٍ غمرَ الأكمة الّتي لجأ إليها ابنُ نوحٍ أيضاً. ولذلكَ كانَ ابنُ نوحٍ من جُملةِ المغرقين بماء الطوفان. وحلّتْ بـ ـهِ نفس المأساة الّتي حلّتْ بقومِ نوحٍ عليه السلام.

فلما فرغَ تعالى من تصويرِ جميع ما جرى خلالَ طوفانِ نوح. راحَ يـ ـصوّرُ للقارئ وبتصوير فنيٍّ وعلميٍّ أيضاً ما جرى بعد ذلك وأضاف يقول في الآية الرابعة والأربعين:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

وأوّلُ ملاحظة نُلاحظُها هو أنّ اللهَ تعالى كان من قبلُ يأتي بفعلِ القولِ بصيغة المعلوم. لكنّهُ أتى هنا بالفعلِ بصيغةِ المجهول. فما هي حكمةُ ذلك؟

الملاحظُ هو أنّ اللهَ تعالى كانَ يُطلعُنا في الآياتِ السابقةِ عما كانَ يُصدرهُ من أوامرَ إلى ملائكته. فكانت ملائكةُ الله تعالى تتلقى أمرَ ربها وتنفّذهُ حسبَ مشيئة ربِّها عزَّ وجلّ. فلما فرغَ تعالى من ذلكَ ونفذت أوامرهُ عمدَ إلى صيغةِ المجهولِ (قيل) وليشيرَ من خلاله إلى ما راحَ يحدثُ بعد ذلك من أمورٍ وبصورةٍ طبيعيّة.

لذلكَ نتناولُ الفقرةَ الأولى من هذه الآية الكريمة نتدبّرُها وهي قولهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ فقد أوردَ تعالى فيها فعلَ الأمرِ موجّهاً إلى الأرضِ وقال: (ابلعي). وليتضمّنَ فعلُ ابلعي حقيقةً علميةً. ففعلُ (ابلعي) اشتقَّ من بلعَ الإنسانُ اللُّقمةَ بمعنى جذبها إلى معدته. (محيط المحيط) أي أنّ الله تعالى أتى هنا بتشبيهٍ بليغ. فشبّهَ ما يحدثُ للأرضِ مع الماءِ الّذي هو فوقها. فهو شبيهٌ إلى حدٍّ كبيرٍ بما يحدثُ للإنسانِ بعدَ مضغه للُقمة الطعام. فالأرضُ تجذب الماءَ إلى داخلها بفعلِ الجاذبيّة الأرضيّة. وإلى أينَ تصيرُ تلكَ المياه؟ تصيرُ إلى جيوبٍ كبيرةٍ داخلَ الأرضِ هي بمثابةِ خزاناتٍ تُشبهُ معدةَ الإنسان، حيثُ تتجمّعُ المياهُ داخلها. والمعلومُ أنّ معدةَ الإنسانِ تفرزُ عُصاراتٍ على ما يدخلُ إلى جوفها من طعام. وهذا شبيهٌ بما ينحلُّ في المياه الجوفيّةِ من موادَّ كلسيَّةٍ أو معدنيَّةٍ تمرُّ المياهُ مما فيها من مسام. وبذلكَ توفَّرُ عناصرُ التّشبيه الثّلاثة في هذا التشبيه البليغ. وعليه تكونُ هذه الفقرة مُصاغةً صياغةً بلاغيّةً ومتضمّنةً أيضاً حقيقةً علمية.

ولنلاحظ أنّ اللهَ تعالى قالَ: (ابلعي ماءك) ولم يقل (ابلعي ماءَ السماء). ليشيرَ من خلالِ ذلكَ إلى أنّ ما وصلَ إلى الأرضِ من ماءِ السماء فقد أمسى من حقها بغضِّ الطّرفِ عن مصدره. أمّا في الفقرةِ الثّانية فقد قالَ تعالى: ﴿وَيَا سَمَاءُ

أَقْلِعِي﴾ فأتى بفعل (أقلعي) المشتقُّ من أقلعَ عن الأمرِ بمعنى كفَّ عنهُ (محيط المحيط). شيرَ من خلال (أقلعي) إلى أنَّ جميع الظواهرَ الطبيعيَّة مرتبطةٌ بالمشيئة الإلهيَّة، فلا يحدثُ شيءٌ منها بدونِ إذنه تعالى. وإن بَدَت في الظاهر أنَّها تحدُثُ نتيجةً لتضافرِ عواملَ عديدة.

ومن ثمَّ أتى تعالى بواوِ العطف وليفيدَ معنى الحال وليبيِّنَ ما جرى بعد كلِّ ما ذكرهُ وقال: ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ ومُشتقّاً فعلَ (غيضَ) من قولكَ: غاضَ الماءُ وتعني أنَّهُ قلَّ ونقصَ ونضبَ وذهبَ في الأرض (محيط المحيط). وليصبحَ المعنى أنَّ السماءَ والأرضَ قد استجابتا لما طُلِبَ منهما. فابتلعت الأرضُ مياه الطوفان. وأقلعت السُّحبُ عن الإمطار. فبدأت مياهُ الطوفانِ تقلُّ رويداً رويداً إلى أن نضبت وملأت الأحواضَ المائيَّةَ الّتي هي في باطنِ الأرض. وإنَّهُ لوصفٌ فنيٌّ دقيقُ التعبيرِ والمناظرِ والصُّور وقد عبَّرَ تعالى عنه بكلمتينِ اثنتينِ فقط.

وقد راحَ تعالى يُنبِّهُ عقلَ القارئِ إلى أنَّ جميعَ ما جرى في تلكَ الفترةِ من الزمان إنَّما جرى وفقَ ما أنبأ عنهُ نوحٌ عليه السلام وبأمرٍ من ربِّهِ عزَّ وجلَّ. فأتى بواو العطفِ للمرةِ الرابعةِ وقال: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وبمعنى أنَّ جميعَ مُجرياتِ أمورِ أحداثِ الطوفانِ قد جرتْ وفقَ القوانينِ الطبيعيَّةِ المسنونةِ وبتدخُّلٍ من ملائكةِ الله تعالى ولتنفيذ أوامره.

ومن ثمَّ أتى تعالى بواوِ العطفِ للمرَّةِ الخامسةِ ليُصوِّرَ ما آلَ إليهِ حالُ سفينةِ نوحٍ وحمولتُها في نهايةِ المطاف. فأضاف قائلا: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾.

وقبلَ أنْ أوضِّحَ رأيي، أنقُلُ للقارئِ ما تبادرَ لذهنِ العلامة الرازي فهو كتبَ في تفسيرِه الكبيرِ يقول: (فالمعنى واستوت السفينةُ على جبلٍ بالجزيرةِ يُقالُ لهُ — الجودي — وكانَ ذلك الجبلُ جبلاً مُنخفضاً. فكانَ استواءُ السفينةِ عليه دليلاً على انقطاعِ مادَّةِ ذلك الماء. وكان ذلكَ الاستواءُ يوم عاشوراء).

فالملاحظُ أنَّ الرازي رحمهُ اللهُ لم يربط فيما بينَ ما كتبه وما بينَ سباقِ الكلامِ الإلهيِّ الّذي تضمَّنَ دُعاءَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾. ولا راجعَ دلالةَ كلمةَ الجوديّ. وفي رأيي أنَّ اللهَ تعالى قد أتى هنا بكلمةِ (الجودي) بدلالتِها واشتقاقها اللُّغويّ. فقد اشتُقَّتْ من قولكَ: جادَ الشيءُ بمعنى أنه صارَ جيِّداً. هذا وإنَّ الياء في كلمة (الجودي) هي ياءُ النسبةِ كما تقولبُ فلانٌ عربيٌّ وفلانٌ أعجمي. (محيط المحيط).

وقد جيءَ بياء النسبةِ للإشارةِ إلى المكانِ الّذي قدَّرت عنايةُ الله تعالى إيّاهُ لترسوَ عليه سفينةُ نوحٍ براحةٍ وهدوء، وليبدوَ من خلالِ ذلكَ أنَّ الله تعالى استجابَ دُعاءَ نبيِّهِ نوح: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. وبكلمةٍ مُختصرةٍ فإنَّ الله تعالى وضَّحَ من خلالِ قولهِ تعالى ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أنَّ رِعايةَ الله تعالى قد شملت السفينةَ بمن فيها برعايتهِ تعالى حينَ إقلاعها وحينَ جريانها وحينَ رسوِّها من جديدٍ فوقَ سطحِ الأرض.

ونلاحظُ أنَّ اللهَ تعالى أتى بالفقرةِ الأخيرةِ من هذه الآية الكريمةِ وهو يقولُ فيها: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وعلى اعتبارِ أنَّ كلمةَ (بُعداً) تعني موتاً وهلاكاً ولعنةً (محيط المحيط). كذلكَ أتى تعالى بلامِ الاستحقاقِ الّتي يؤتى بها بينَ معنى وذاتٍ فجرَّ بها كلمةَ (القوم) معرَّفةً وليشيرَ من خلالِ ذلكَ إلى قومِ نوحٍ عليهِ السلام. القومُ الّذينَ كانوا قد تجاوزوا حدودَ إرادةِ ربِّهم عزَّ وجل. من خلالِ عُتوِّهم وإفسادهم في الأرضِ وتكذيبهم نبيَّ اللهِ المرسلِ لإصلاحِ ما أفسدوه.

فقولهُ تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يعني أنَّ قومَ نوحٍ ما ظُلموا من جراءِ غرقهم بالطوفان، بل كانوا قد استحقوا هذا النوعَ من العقابِ ولِتحلَّ عليهم لعنةُ ربِّهم أيضاً، ولِتُصبحَ عاقبتهم درساً وموعظةً لمن سيأتي بعدهُم وينتهجُ نفسَ النَّهجِ

الّذي سلكوهُ في حياتهمُ الدُّنيا. ويكونُ تعالى بهذا المعنى قد لَمحَ أيضاً من خلالهِ إلى المصيرِ الّذي سيحلُّ بالمكذّبينَ من أهلِ الكتاب.

فإن تدبَّرَ الباحثُ فيما أوردهُ اللهُ تعالى من قصّةِ نوحٍ المذكورةِ يتـ ـبينُ لـ ـهُ النُّقاطَ التالية:

أولاً: أنَّ القصَّةَ قد صيغت صياغةً بلاغيَّةً يتبادرُ منها غيرَ معانيها الحقيقيَّة.

ثانياً: وأنَّ القصَّةَ معقولةً ومنطقيَّةً ومتسلسلةِ المعاني وأنّها حدثت في منطقةٍ معيَّنةٍ، ولم تعمَّ العالمَ كلَّه.

ثالثاً: وأنَّ ما كتبهُ كاتبُ سفرِ التّكوين قد شوَّهَ هذه الحقيقةَ فجعلها أقربُ إلى الأسطورة. حيثُ أنّهُ صوَّرَ الإله للقارئ بأنّهُ لا يعلمُ الغيبَ، ويندمُ علـ ـى مـ ـا يفعلُ، وأنّهُ قرَّرَ القضاءَ على البشرِ جميعاً والكائناتِ الحيَّةِ لمجرَّدِ انزعاجهِ من أعمالِ الإنسانِ الشريرة. وأنّهُ عادَ فتراجعَ عن قرارهِ المذكورُ وسعى لإنقاذِ نـ ـوحٍ البـ ـارِّ وأولاده، إلى جانب عددٍ من كلِّ نوعٍ من أنواعِ الحيوانات. كما صوَّرَ أنَّ طوفانَ نوحٍ قد عمَّ الكرةَ الأرضيَّةَ كلَّها دونَ تقديمِ أيِّ دليلٍ كان. كذلكَ أعطى سـ ـفينةَ نوحٍ أبعاداً يستحيلُ توفُّرَ الأدواتِ والموادِ اللازمةَ لبنائها في تلكَ الفترةِ الغابرةِ مـ ـن الزّمان. ثمَّ إنَّ تلكَ القصَّةَ المنسوجةَ من خيالٍ خصبٍ صوَّرَتْ للقارئِ بأنَّ سـ ـكّانَ الكرةِ الأرضيَّةِ الحاليّينَ هم من نسلِ أولادِ نوحٍ الثلاثة: سام، وحام، ويافث (سفر التّكوين- البابُ السابع). وإلى جانبِ تفاهةِ المعلوماتِ ككشفِ الابنُ عورةَ أبيـ ـهِ وعهدِ قوسِ قزحٍ وما شابهها من تفاهات.

والمؤسفُ هو أنَّ مفسري أمّتنا القدماء رحمهمُ الله قد أخذوا بهذه المعطياتِ الإسرائيليَّةِ، ففسَّروا قصَّةَ نوحٍ القرآنيَّة على ضوءِ تلكَ المُعطيات، ولـ ـيسَ وفـ ـقَ منهجيَّةِ القرآنِ الكريمِ وأصولهِ التفسيريَّة. والسببُ في ذلكَ جهلهُم بتلكَ المنهجيَّـ ـةِ وبتلكَ الأصول.

فماذا حدثَ لنوحٍ عليهِ السلام ومن معهُ بعدَ أن رست بهم السَّفينةُ في المكان

المُناسبِ لرسُوّها، وهي محفوفةٌ بعنايةِ اللهِ تعالى، وفي وقتٍ أغرقَ الطوفانُ فيه قـ ـومَ نوحٍ؟

وبدلاً من أن يُجيبُ اللهُ جلَّ شأنُهُ على هذا السؤال. فقد شـ ـاءَ أن يُعطـ ـي المؤمنينَ

قبل ذلك مَوعظةً ودرساً يزيد من معرفته الدّينيَّةِ. فخصَّصَ تعـ ـالى آيـ ـتينِ تضمَّنتا الحوارَ الّذي جرى بينَ اللهِ جلَّ شأنهُ وبين نبيِّهِ نوحٍ بشأنِ موقفهِ من ابنـ ـه عندما ناداهُ وهو يقفُ بمعزلٍ عن السفينة.

ففي الآيةِ الأولى من هاتينِ الآيتينِ الكريمتينِ، أخبرنا تعالى عن حوارٍ جـ ـرى بين نوحٍ وربِّه، ووضحته الآية الخامسة والأربعين:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾

ففعلُ (نادى) يحملُ معنى النداءَ برجاء، وعلى حسبِ ما وضَّحتُ ذلك من قبل.

وهذا المعنى ينبِّهُ أذهاننا إلى أنَّ نوحاً لم يعترض على غرقِ ابنه. لكنَّـ ـهُ راحَ يستزيدُ من ربِّهِ علماً في هذا الموضوع. لذلكَ نتساءلُ عمّا أراد نـ ـوحٌ الاسـ ـتزادةَ بشأنه علماً؟

فقد أجابَ اللهُ تعالى على هذا السؤالِ، فأتى بفاءِ الاستئنافِ وراحَ ينقُلُ لنا ما ترجّى نوحٌ من ربِّهِ أن يُوضِّحَ لهُ حقيقته، وأضاف في الفقرةِ الثانيةِ يقول: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي أنَّ نوحاً أكّدَ لربِّهِ اعتقادهُ بأنَّ ابنه يشملهُ وعدُ ربِّه الّذي كانَ قد وعدهُ به وهو أن يُنقذهُ وأهله معه من الغرق. وأضافَ يقول أيضاً: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ فأكّدَ ثانيةً من خلال حرف (إنَّ) اعتقادَهُ بأنَّ ربَّهُ صادقُ الوعـ ـدِ.

لذلكَ يرجوهُ تفسيرَ ما حدث، بل وأضافَ يقول: ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾. وإنّ صيغةَ (أحكم) صيغةُ تفضيل من حاكم. والحاكم هو الوالي والقاضي ومنفّذُ الحُكم (محيط المحيط) وإنّ نوحاً عليه السلام، ومن خلال قوله هذا يكونُ قد أبدى بين يدي ربّه مُنتهى التأدُّب وأقرَّ بأنّهُ لا يعلمُ بوجودِ قاضٍ أحذقَ من ربّه في مجالِ تنفيذه لأحكامه الصادرةِ عنه. نطقَ نوحٌ بألفاظه المذكورةِ تلك ليدلّلَ لربّه عزَّ وجلَّ من خلالِها أنّهُ بأشدِّ الشوقِ للإطلاعِ على سرِّ إغراقِ الله تعالى ابنهُ في ماءِ الطوفانِ مع جملةِ من أغرقهم فيه.

فاستجابَ اللهُ تعالى رجاءَ نبيِّه نوح، وراحَ يُطلعهُ على معلومةٍ ما كانَ قد اطّلعَ عليها أحدٌ من قبله، وتوضّحُ الفارقَ ما بينَ النّسلِ الجسمانيِّ وما بينَ النّسلِ الروحانيِّ، وقالَ له في الآيةِ السادسة والأربعين:

﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾

فالّذي نُلاحظهُ هو أنّه في الوقتِ الّذي كانَ نوحٌ قد أكّدَ من خلالِ استعماله أداةَ التّأكيد (إنّ) على أنّهُ يعتبرُ أنّ ابنهُ من أهله. فاللهُ جلَّ شأنهُ قد استعملَ هو بدوره أداةَ التأكيد (إنّ) وقال له:

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾. فهذا التّأكيدُ الإيجابيُّ من قبلِ نوحٍ عليه السلام، وذاكَ النّفيُ السلبيُّ من جانبِ الله تعالى قد أوقعَ كثيراً من المفسرينَ في إشكالٍ كبير. حتى أنّ بعضَهُم ذهبَ ذهنُهُ إلى أنّ ابنَ نوحٍ كانَ (ولد زنا) وهو اتهامٌ لم يقدّموا الدَليلَ على مصداقيّته.

لكنّ العلاّمة الرازي أحسنَ الظنّ وكتبَ يقول: (هذه الآية تدلُّ على أنّ العبرةَ بقرابةِ الدين، لا بقرابةِ النّسَب. فإنّ في هذه الصورةِ كانت قرابةُ النسبِ

حاصلةٌ من أقوى الوُجوه. ولكن لما انتفت قرابةُ الدينِ، لا جرمَ نفاهُ اللهُ تعالى بأبلغ الألفاظ، وهو قولهُ (**إنّهُ ليسَ من أهلك**).

فقولُ الرازي رحمهُ اللهُ هو في نظري أقربُ إلى الحقيقةِ. وقد أخطأ مَن خالفهُ الرّأيَ. والأصحُّ هو ما وضّحتُهُ من قبلُ من أنّ فعل (نادى) الواردُ على لسانِ نوحٍ عليه السلام يفيدُ الرَّجاء.

وهو معنى يدفعُ للاعتقادِ بصحّةِ نسبِ ابن نوحٍ أنّهُ من أهلهِ. وأنّ نوحـ ـاً لا يعترضُ في هذه الآية الكريمةِ على وعدِ ربّه، بل يرجو من اللهِ تعالى أن يشرح لهُ ما السرُّ في أنّ ابنه ليسَ من أهله.

فهذا هو السببُ في أنّ اللهَ تعالى لم ينهر نبيَّهُ نوحاً بسببِ رجائهِ المـ ـذكور. فلو كانَ في نداءِ نوحٍ رائحةَ اعتراضٍ على وعدِ الله تعالى، لكانَ سبحانهُ وتعالى قد أنّبهُ على اعتراضهِ يقيناً. أما وأنّهُ قد قامَ بمجرّدِ الاستفسارِ مع التأدُّبِ بين يدي ربّه. فقد أظهر بذلك عظمةَ مواقفِ النّبيّينَ في مثل تلك الحالات. إلى جانبِ أنّ المعلومة الّتي تلقّاها من جانبِ ربّه الّذي قال لهُ ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾ ما كانت حقيقتُها قد اطّلعَ عليها أوّلُ نبيٍّ كانَ قد بعثهُ اللهُ تعالى من قبلهِ وهو آدمُ عليه السلام.

وإنّ ما يؤكّدُ مصداقيّةَ ما ذهبتُ إليه من معنى هو أنّ اللهَ تعـ ـالى وبعـ ـدَ أن اطلعَ نوحاً على المعلومةِ سالفةِ الذكرِ، أتى بحرف التأكيدِ من جديدٍ وقـ ـال: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾. فلنتدبّر معنى هذه الفقرةَ المُضافة.

فقد لاحظنا من قبلُ أنّهُ تعالى أتى بفعل (ليس) الّذي ينفي الحال، وينفـ ـي غيرهُ بالقرينة (محيط المحيط). وليصبحَ المعنى أنّهُ وإن يكن ابنُكَ يا نوحُ من أهلـ ـكَ وبينكما صلةُ نسبٍ في الدّمِ وعلى حسبِ ما تقول، لكنّهُ لا يعدُّ في نظرِ ربّكَ من أبنائك الروحيّين المؤمنين برسالتك السماويّة. فكلمةُ (أهل) الّتي وردتْ على لسان نوح قد أوردها للدلالة على صلةِ الدمّ بينهما. أما كلمةُ (الأهلِ) الّتي أوردها بمعنى

الصلة الروحيَّة العقائديَّة. هذا وإنَّ العلامة الرازي رحمهُ الله قد انتبه إلى هذا الفرق في الدَّلالتين. وصحَّ قولهُ أيضاً من أنَّ اللهَ تعالى لا ينظرُ في مجال رسالات أنبيائه الكرام إلى علاقة النَّسبِ في الدَّم. بل ينظرُ على الرابطة الروحيَّة العقائديَّة. فالعبرةُ بقرابة الدين على حدِّ قوله رحمهُ اللهُ تعالى.

وبناءً على ما ذكرناهُ نُحاولُ فهمَ قولهِ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾. فهو تعالى أتى بحرفِ التأكيدِ الحقيقية الدينيَّة الّتي تضمَّنها قولهُ: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾. كما أتى بضميرِ الغائب – الهاء – تأكيداً من جانبه تعالى على أنَّهُ مايزالُ متكلماً عن ابنِ نوح موضوعَ حوارِ هاتين الفقرتين. ومن ثمَّ أتى تعالى بكلمة (عملٌ) مُنوَّنةً على آخرها تفخيماً لدلالتها وإبداءً لأهمِّيَّة العملِ في مجالِ العقيدة. أما ما معنى كلمة عمل في اللُّغة العربيَّة. فقد أوردَ صاحبُ الكليات قوله: (العملُ يعمُّ أفعالَ القلوبِ والجوارحِ إضافةً إلى معنى الصُّنعِ، وبخلافِ كلمة فعل، ذلكَ أنَّ العملَ لا يقالُ إلا عن فكرٍ ورويَّة).

فمن هذا ندركُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد لفتَ نظرَ نبيِّه نوحٍ عليه السلام إلى نوعيَّة العملِ الّذي كانَ ابنهُ يعملُهُ قبلَ الطوفان. وإلى أنَّهُ كانَ يعملُ عملاً غير صالحٍ وعن فكرٍ ورَويَّةٍ وخلافاً لأوامرِ ربِّه المنصوصِ عليها في شريعة نوحٍ نفسه. وليصبحَ معنى قوله تعالى (إنَّهُ عملٌ غيرُ صالح) أي أنَّ عملَ ابنكَ يا نوحُ والّذي كانَ يعمله قبلَ هذه اللحظاتِ هو عملٌ غيرُ صالحٍ. وبهذا الأسلوب من الصِّياغة البلاغيَّة المعجزة الّتي تاه في فهمها بعضُ المفسرينَ القدماء، يكونُ اللهُ تعالى قد ألقى على نبيِّه نوحٍ عليه السلام موعظةً معلومةً هامَّةً. وتتلخَّصُ هذه المعلومةُ في أنَّ المؤمنَ برسالةٍ سماويَّةٍ ينقلبُ حالهُ من إنسانٍ يعملُ بفكرٍ تقليديٍّ. إلى إنسانٍ يعملُ عن وعيٍ وقناعةٍ فيما يُقدمُ عليه ويعتقدُه. والقصدُ من ذلكَ أن يتوفَّرَ في عمله عُنصرُ صلاحيَّةِ ما يعملهُ في نظرِ ربِّه جلَّ شأنُه.

وكأنَّ اللهَ تعالى قد أجابَ هنا على نبيِّهِ نوحٍ عليهِ السلام وبألفاظٍ أُخرى: لَو أنَّكَ يا نوحُ كُنتَ مُدركاً هذه الحقيقة من قبلِ الطوفان، لكنتَ قد أحجمتَ عن سؤالكَ المذكورِ. وهكذا نكونُ قد توصَّلنا إلى المعنى سالفِ الذكرِ بعدَ أن تدبَّرنا الفقرةَ الّتي تضمَّنت هذا الجوابَ الإلهيَّ، وعلى أنَّهُ وردَ متضمِّناً حذفاً بلاغيّاً لا يدركهُ ولا يفهمهُ إلا من كانَ لهُ إلمامٌ بعلمِ البلاغةِ العربيَّة.

ويلاحظُ القارئُ أنَّ اللهَ جلَّ شأنُهُ لم يكتفِ بإجابتهِ سالفةِ الذكر، بل أتى بعدهُ بفاءِ الاستئنافِ ونَهى نوحاً أن يسألَهُ بعده عمّا ليسَ لهُ به علم. وقال: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾. فنسألُ أنفسنا عن معنى وحكمةِ هذا النَّهيِ المذكور؟

وقد عسُرَ على كثيرٍ من العلماءِ القدماءِ معرفَةُ معنى وحكمةَ هذا النَّهيِ المذكورِ. الأمرُ الّذي دفعَ بعضَهُم إلى الطَّعنِ في عصمةِ أنبياءِ اللهِ الكرام. زاعمينَ أنَّ هذا النَّهيَ الإلهيَّ جاء في غايةِ التقريعِ لنوحٍ من جانبِ اللهِ الّذي أرسله.

لكنَّ الإمام الرازي رحمه الله، وإن عسُرَ عليه الإحاطة بدلالة هذا النهي المذكورِ. إلا أنَّهُ لم يطعن في عصمةِ الأنبياء، وكتبَ في تفسيرِهِ يقول: (واعلمْ أنَّهُ لمّا دلَّت الدّلائلُ الكثيرةُ على وجوبِ تنزيهِ اللهِ تعالى الأنبياءَ عليهمُ السلام من المعاصي، وجبَ حملُ هذه الوجوه المذكورةِ على تركِ الأفضلَ والأكمل. وحسناتُ الأبرارِ سيئاتُ المُقربين. فلهذا السببِ حصلَ هذا العتابُ والأمر بالاستغفار. ولا يدلُّ على سابقةِ الذنبِ كما قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾. ومعلومٌ أنَّ مجيءَ نصرِ اللهِ والفتحِ ودخولُ الناسِ في دينِ اللهِ أفواجاً ليست بذنبٍ يوجبُ الاستغفار. وقال تعالى: ﴿واستغفر لذنبكَ وللمؤمنينَ والمؤمنات﴾ وليسَ جميعُهم مذنبين. فدلَّ ذلكَ على أنَّ الاستغفارَ قد يكونُ بسببِ تركِ الأفضل.

أقول: إنَّ فعلَ (لا تسألنِ) الواردُ في هذه الفقرة لا يحملُ معنىً واحداً بل

معنيين. فإما أن يدلُّ على طلبِ شيء، وإمّا أن يعني الاستفسارَ عن شيء. وقد استُعمل هنا بالمعنى الثاني المذكور. وبدليلِ أنّه تعدّى إلى مفعولين: تعدى بنفسه كما تعدّى بالحرف (عن) المقدَّر معنىً. والتّقدير: لا تستفسر مني عن حالِ ابنكَ وعن ارتباطهِ بالوعدِ الّذي سبقَ لي أن قطعتُهُ لك. لتعلُّق هذه الاستفهام بما ليسَ لكَ به علم.

وعليه فإنّ اللهَ تعالى يكونُ قد نهى نوحاً عن الاستفسار بشأن ابنه وعلاقته بالوعدِ الإلهيّ المقطوعِ له. الأمرُ الّذي يعني بأنّ اللهَ تعالى لا يُقرِّعُ نبيَّهُ في هذه الفقرة ولا يؤنبه. وما دامَ قد وضّحَ تعالى لنوحٍ فلسفةَ ما جرى من خلالِ قوله قبلَ هذا ﴿لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾. فإنّ هذا الأمرُ يدفعنا إلى محاولةِ معرفةِ حكمةِ هذا النّهي عن الاستفسار في هذا الموضوع.

وفي رأيي إنّ موضوعَ التوحيدِ الكاملِ البعيد عن الشّركِ الخفيِّ لم يكشف اللهُ تعالى معرفةَ حقيقته إلا على إبراهيمَ عليه السلام. وأنّ اللهَ تعالى كشف الغطاءَ عن هذه الحقيقةِ بالتّدريجِ مراعاةً للظروفِ والمتغيِّراتِ الّتي مرَّ من خلالها آدمُ فنوحٌ ومن جاء بعدهما من الأنبياءِ قبلَ أن يبعثَ اللهُ تعالى إبراهيمَ عليه السلام. وهي معلومةٌ قد شرحتُها في مؤلَّف: (الله جلَّ جلالُه). وهذا هو السببُ الّذي دفعَ اللهَ جلَّ شأنهُ ليطلُبَ من نبيِّه نوحٍ عليه السلام ألاّ يستفسر منهُ حولَ تلكَ القضيّةِ أكثرَ مما استفسر منه. فالوقتُ والضرورةُ اللازمينِ لتعليمِ نوحٍ وغيره ممن سيأتي بعدهُ من الأنبياءِ هذا الموضوعِ لم يكن قد حانَ بعد. ذلكَ أنّ تعاليمَ الأديانِ قد نزلت بما يُناسبُ أزمنتها. إلى أن جاءَ القرآنُ الكريمُ بأكملِ التّعاليمِ والّتي تناسب كل زمانٍ ومكانٍ.

وإنّ ما يؤكدُ مصداقيّةَ ما ذهبتُ إليه، هو أنّ اللهَ تعالى أنهى هذه الآيةَ الكريمةَ بقولهِ مخاطباً نبيّهُ نوحاً: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾. فهو تعالى

آتي بفعلِ (أعظُكَ) المشتقُّ من قولكَ: وعظَ فلاناً بمعنى ذكّرهُ ونصحهُ بما يُليِّنُ به قلهُ ويسوقهُ إلى التَّوبة وإصلاحِ السيرةِ والتَّوصيةِ بالطاعة (محيط المحيط). وليصبح المعنى: أنَّ اللهَ تعالى بعدَ أن أصغى إلى استفسارِ نبيِّهِ نوحٍ والّذي أوردهُ مُتّصفاً بغايةِ اليقينِ باللهِ وبالتأدُّبِ بين يديه. فقد دفعهُ هذا إلى تذكيرهِ ونُصحهِ ألاّ يستزيدَ علماً أكثر حولَ هذا الموضوع. فما على الرّسولِ إلا أن يتلقّى تعليمَ ربِّهِ ومن ثمَّ يقومُ بتبليغِ ما تلّقاهُ إلى الناس. وهذه الحقيقةُ دلّت عليها كلمةُ (الجاهلين) والمعرَّفةُ بالألفِ واللام. والمشتقّةُ من قولكَ: جهلَ فلانٌ. بمعنى أنّهُ أرى من نفسه الجهل (محيط المحيط). وليصبحَ المعنى: آنّي أعظُكَ يا نوحُ أن يبدرَ عنك ما يدلُّ على جهلكَ بحدودِ رسالتك. من بابِ أنَّ الجاهلَ ضدّ العارف.

إنَّ هذه الحقيقةَ الّتي توصلنا إليها تنبِّهنا إلى نقطةِ التَّشابهِ ما بين شخصيَّةِ آدمَ الّذي نسي ولم نجد لهُ عزماً، وما بينَ شخصيَّةِ نوحٍ الّذي استفسرَ عما ليسَ لهُ بهِ علمٌ ولم ينتظر أن يعلمهُ ربُّهُ إياهُ في الوقتِ المناسب لتعليمه إياه. أي أنّهُ صدرتْ عن هذين النَّبيّين مخالفاتُ اجتهاد. ولم تصدرُ عنهما معصيةٌ لربِّ العالمين تستدعي القدحَ في عصمتهما معاً. وإنَّ هذه الحقائقُ الّتي كشفتُ عنها. هي الّتي دعتْ لحذفِ مُضافِ كلمةِ (الجاهلين). وليساعدُ الحذفُ المذكورُ القارئَ ليذهبَ ذهنهُ إلى جميعِ هذهِ الاتجاهاتِ من المعاني الّتي وضّحناها.

ولنُلاحظ كيفَ أنَّ نوحاً عليه السلام قد استجابَ لموعظةِ ربِّهِ وأوردَ تعالى على لسانِ نبيِّهِ نوحٍ قوله في الآيةِ السابعة والأربعين:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

فهذه الألفاظُ تكشفُ لك يا عزيزي عن تأدُّبِ النَّبيِّ نوح بين يدي ربِّهِ، وعن تراجعهُ عمّا اجتهدَ أن يستفسرَ عما ليسَ لهُ بهِ علم. وقامَ بنفسِ الخطوةِ الّتي

كانَ قد أقدمَ عليها النّبيُّ آدم من قبله. فهذا هو المعنى الّذي أفادتهُ الفقرة الأُولى من هذه الآية الكريمة وهو ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾.

وإنّ أدبَ نوحٍ عليه السلام الكبيرِ مع ربّه، دعاهُ ليتضرّعَ بينَ يدي ربّه طالباً السّتر والرّحمة على ما بدرَ من جانبه من استفسارٍ عما ليسَ لهُ به علم. فهذا هـ ـو المعنى الّذي أرادهُ وعبّرَ عنهُ في الفقرةِ الأخيرة من الآيـ ـة وقـ ـال: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾. فطلبُ المغفرةِ معناهُ طلـ ـبُ الـ ـسّتر. وكلمـ ـةُ (الخاسرين) تعني الضّالينَ عن الطّريق. (محيط المحيط)

وليلاحظ القارئ خلوَّ الفقرة الأخيرة من كلمة (التّوبة) الّتي يُشار بها عـ ـادةً إلى صدورِ ذنبٍ عن التائب. وهذا يؤكدُ أنّ الأمرَ المصرّحَ عنهُ هو أمرٌ اجتـ ـهاديٌّ، ولا يدخلُ في مفهومِ الذّنب. فسؤالُ نوحٍ وردَ بدافعِ حبِّ الإطّلاع وحسب.

فلمّا فرغَ اللهُ تعالى من إطلاعنا على هذا الحوارِ الّذي دارَ بينهُ تعالى وبـ ـينَ نبيّه

نوحٍ عليه السلام حولَ موضوعِ غرقِ ابن نوح. فقد راحَ اللهُ جـ ـلَّ شـ ـأنهُ يقول في الآية الثامنة والأربعين:

﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

وقد أوقعتْ هذه الآية الكريمةُ المُصاغةُ صياغةً بلاغيّةً معجزةً أيضاً المفسرينَ القدماء في إشكالٍ كبيرٍ فذهبوا في فهمِ مضمونها مذاهبَ شتى واحتمـ ـالاتٍ كثيرةٍ أتجنّبُ استعراضها ومناقشتها والرّدَّ عليها كيلا أُطيلُ على القارئ الكـ ـريم في هذه المقام.

والحقيقةُ هي أنّ اللهَ تعالى حينَ كانَ قد أتى بالفقرةِ الأخيرةِ الّتي قالَ تعـ ـالى

فيها: ﴿ثُمَّ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. فقد كان قد أتى بواسطتها قصّةَ طوفانِ نوح. وإنَّ الحوار السالفَ الذِّكر الّذي دارَ بينَ الله تعالى وبينَ نبيِّهِ نوحٍ ما كانَ إلاّ من قبيلِ الأمرِ الهامشيِّ المقصود به تنبيهنا إلى ما تضمَّنهُ من حقيقة تفتحُ أعيُننا على الجانبِ الرّوحيِّ للإيمان.

ثمَّ إنَّهُ قد نشأ عن قصّة نوحٍ هذه سؤالٌ يراودُ أذهاننا بما يتعلّقُ بالمكانِ الّذي رستْ عليهِ سفينةُ نوحٍ وبالأحداثِ الّتي أعقبت ذاكَ الطّوفان. وقد شاءَ اللهُ تعالى أن يُجيبَ على هذا السؤالِ وبأُسلوبه الخاصِّ به في هذا المقام. والّذي يؤكّدُ مصداقيّةَ ما ذكرتُهُ هو هذه الفقرةُ الأُولى الّتي استهلَّ اللهُ تعالى بها هذه الآية الكريمة والّتي قال فيها: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾.

فهو تعالى أتى أوّلاً بفعلِ القولِ بصيغةِ المبني للمجهول (قيل). وعلى شاكلة ما فعلهُ من قبلُ حين قال: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ..﴾. ومن ثمَّ أتى بياءِ النداءِ وقال: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا..﴾ فهو تعالى قد جمعَ هنا بينَ كلمةِ (اهبط) وكلمة (بسلام منّا). فالكلمةُ الثانيةُ تشكلُ قرينة لنأخذ لكلمةِ (اهبط) معنى النُّزولُ من السّفينة، وليسَ معنى الانتقالِ من مكانٍ إلى آخر. خصوصاً وأنَّ الباء في (بسلام) تعني المصاحبة. و (سلام) تعني الأمان والحفظ من الآفات والاعتداءات وبعيداً عن الجدالِ والخصام (محيط المحيط). وليصبحَ معنى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا﴾ أن يا نوحُ انزل من سفينتكَ في المكانِ الّذي رَستْ فيهِ السّفينة. فأنتَ ستجدُ في هذا المكانِ الأمانَ والحفظَ من الآفات والاعتداءاتِ وبعيداً عن جوِّ الجدالِ والخصامِ الّذي كنت تعيشُ فيه. ثمَّ إنَّ الجار والمجرور (منّا) يشيرُ إلى أنَّ هذا الواقعَ الجديدَ كانَ قد قدَّرهُ لكَ ربُّك يا نوحُ وقبلَ زمنِ الطوفان. علماً بأنَّ حرف (من) استُعملَ هنا لابتداءِ الغاية (محيط المحيط).

فإن نحنُ أخذنا بهذه الدلالات. نستنتجُ منها بأنَّ مياهَ الطوفان جرَّت معه ا سفينةَ نوحٍ بعيداً جداً عن المنطقةِ الّتي كانَ يقطنُها قومُ نوحٍ الغارقين. تلكَ المنطقةُ الّتي أمست مهجورةً ومرتعاً للوحوشِ الكاسرةِ والطيورِ الجارحةِ الّتي وجدت وليمةً لها غيرِ مُنتظرة. ونستنتجُ من دلالاتِ هذه الفقرةِ سالفة الذكر بأنَّ المنطق ـةَ الّ ـتي رست فيها سفينةُ نوحٍ كانت خاليةً من السكانِ ولا يملكُها أحدٌ من النّاس ل ـذلكَ كانَ نوحٌ ومن معهُ سيعيشونَ فيها بأمنٍ وسلام. وهذه الحقيقةُ تفسِّرُ لنا حكمةَ ما أمر به اللهُ تعالى نبيَّهُ نوحاً أن يحملَ في سفينتِه من كلِّ زوجين اثنينِ من المواشي الّتي كانت لديه. ليساعدَهُ ذلكَ على الاستفادةِ منها ومن تكاثُرِها في الأرضِ الجدي ـدةِ الّتي سيحلُّ فيها.

أما الفقرة الثانية الّتي قالَ تعالى فيها: ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّن مَعَكَ﴾. فقد تضمَّنت هذه الفقرةُ في الأصلِ نبوءةً تتعلّق بمستقبلِ دعوةِ نوحٍ وجماعتهِ المؤمنة. ذلك أنَّ كلمةَ (بركات) مفردُها (بركة) ويعني النَّماءَ والزِّ ـادة الح ـسيَّة والمعنويَّةَ والسعادة وثبوتَ الخيرِ الإلهيّ في الشيء ودوامه (محيط المحيط). وب ـذلكَ يكونُ اللهُ تعالى قد أنبأ عن أنَّ نوحاً وجماعتهُ المؤمنةُ س ـينمون ويتك ـاثرُون بع ـد الطوفانِ ويزدادُون زيادةً حسّيَةً غير عاديَّة ويكونُ لهم بالتالي بين من يجاورهُم من القبائلِ منزلةً عظيمةً أيضاً. وأنَّ هذا الحال سيدومُ طويلاً. ويطولُ معهُ العملُ عل ـى تعاليمِ شريعةِ نوحٍ عليه السلام وفقَ ما أخبرَتنا عن ـه الآيـ ـة (١٤) م ـن س ـورة العنكبوت، والّتي قال تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْ ـفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾.

وهكذا يكونُ قولهُ تعالى (وبركاتٍ عليكَ) قد أنبأ عن مستقبلِ هذه الجماعة المؤمنةِ في المنطقةِ الجديدةِ الّتي سيتكاثرُ أفرادها فيها ويشكّلونَ أُمماً أيضاً. فح ـرفُ الجر (على) أفادَ هنا معنى المصاحبة على شاكلةِ معنى الباء في (بسلام). وليفي ـدَ أنَّ

بركاتِ الله تعالى ستصاحبهم جميعهم وعلى مدى الأيّام المقبلة.

أمّا قولهُ تعالى في الفقرةِ الثالثة: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فقد أخبرَ تعالى فيه في الوقتِ نفسه بأنّها ستتولّدُ من نسلِ هؤلاء النـ ـاجينَ معَ نوحٍ عليه السلام في يومٍ من الأيامِ أممٌ ينحرفونَ عن عقيدةِ توحيدِ الله عزَّ وجلَّ الّتي جاء بها نوحٌ عليه السلام. ويستحقونَ بالتالي مـ ـن جانـ ـب ربِّهـ ـم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وقد أشارَ من خلالِ ذلكَ ومن طرفٍ خفيٍّ إلى أهلِ الكتابِ المعاصـ ـرينَ خاصة. فالواو من (وأممٌ) وردت تفيدَ معنى الابتداء، لدخولها على جملـ ـة اسميّـ ـة. (محيط المحيط)

وعلى هذه الصورةِ يكونُ مضمونُ هذه الآية الكريمة قد لخّصَ للقارئ تاريخَ مُجرياتِ الأمورِ ما بعدَ الطوفان وإلى مدّة قرابة (٩٥٠) عاماً بعـ ـدهُ، وبـ ـصياغة بلاغيّة مُعجزة. وقد حدثَ ذلكَ كلّه لتُكملَ مضامينهُ ما وردَ من معلوماتٍ عـ ـن نوحٍ وطوفانِ نوحٍ في بقيّةِ سورِ القرآنِ العظيم. وخاصّةً ما وردَ منـ ـها في سـ ـورة الحديدِ الآية (٢٦) حيثُ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَـ ـا فِـ ـي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

وبهذه المناسبةِ أنقلُ للقارئ ما كتبهُ العلاّمة الرازي بشأنِ مدّةِ استمرارِ العمل بشريعةِ نوحٍ عليه السلام والّتي دامت (٩٥٠) عاماً. فقد كتبَ رحمهُ اللهُ يقـ ـول: (قالَ بعضُ الأطباء: العمرُ الإنسانيُّ لا يزيدُ عن مائة وعشرينَ سنة. والآية تدلُّ على خلافِ قولهم. والعقلُ يُوافقها. فإنّ البقاءَ على التّركيبِ الّذي في الإنسانِ مُمكنٌ في ذاته وإلى لَما بقي. ودوامُ تأثيرِ المؤثّرِ فيه ممكنٌ لأنّ المؤثّرَ فيـ ـه إن كـ ـانَ واجـ ـبُ الوجود فظاهرُ الدوام. وإن كانَ غيرهُ فلهُ مؤثّر. وينتهي إلى الواجبِ وهو دائـ ـم. فتأثيرهُ يجوزُ أن يكونَ دائماً. فإذن البقاءُ ممكنٌ في ذاته. فإن لم يكن فلعارض. لكنَّ العارضَ ممكنُ العدم وإلا لَما بقيَ هذا المقدار لوجوبِ وجودِ العارضِ المانع. فظهرَ

أنّ كلامهُم على خلاف العقلِ والنَّقل. ثمّ نقول: لا نزاعَ بيننا وبينهُم، لأنَّهُم يقولون: العمرُ الطَّبيعيُّ لا يكونُ أكثر من مائة وعشرين سنة. ونحنُ نقولُ: هذا العمرُ ليس طبيعياً، بل هو عطاء إلهي. وأما العمرُ الطَّبيعيُّ فلا يدومُ عندنا ولا لحظة. فضلاً عن مائة أو أكثر).

فهذا هو رأي هذا المفسر رحمه الله. ورأيهُ يتَّفقُ مع ما أوردهُ كاتبُ سفرِ التكوين في التَّوراةِ المعاصرة. فهل صحَّ رأيُهما؟ وهل يتَّفقُ مع مُعطياتِ القرآنِ العظيم؟

وأعلّقُ أولاً على رأي الرازي فأقول: لقد صرَّحَ رحمه الله بأنَّ بعض أطباءِ عصرهِ خالفوا رأيهُ واعترضوا على الزعمِ بأن يعيش إنسانٌ هذه المدة الطويلة. وما دام قد خالفُهُم الرّأيَ. نستدلُّ من ذلكَ أنَّ أطباءَ عصرِ الرازي كانوا يفكّرونَ بأسلوبٍ علميٍّ، وبخلاف الرازي نفسه.

أما حجّتُهُ العقليَّةُ فهي تُخالفُ العلمَ والواقع. فهو قالَ بمعقوليَّة بقاء الإنسان على تركيبه الذاتيّ. وهو زعمٌ أقربُ إلى الخيالِ وبجرّدُ الواقعَ من مضمونه. من باب أنَّ حياة الإنسانِ تابعةٌ لبقاء مضخة دمه العضليَّة تعملُ. وهي المسماةُ قلبُ الإنسان. فحالما يتوقّفُ هذا القلبُ عن ضخّ دمِ هذا الإنسان، تتوقّفُ بقيَّةُ الأعضاء عن العملِ ويموتُ صاحبه. فإذا علمنا أنَّ للنَّسيج العضليِّ المكوَّن منه عضلةُ القلبِ طاقةٌ على العملِ وعمرٌ لا تتجاوزه. فقد قرَّرنا حقيقةً علميَّةً لا يجوزُ إنكارها. على اعتبارِ أنَّها جزءٌ من حقائقِ هذا الكونِ الّذي سيفنى في يومٍ من الأيام ولا يبقَ إلا وجهُ ربِّكَ ذو الجلالِ والإكرام. أضف إلى ذلك أنَّ للعقلِ عاملٌ مُساعدٌ وهو ضرورة مراجعةِ المختصينَ في الموضوع. لقولهِ تعالى (فاسأل به خبيراً). والخُبراء في موضوعِ مدَّة بقاء جسم الإنسان هم الأطباءُ المختصون يقيناً.

ثمّ إنَّ معقوليَّةَ الرازي رحمهُ الله وفرضيَّتهُ بشأنِ اعتقاده ببقاءِ نوحٍ عليه السلام حياً طوالَ هذه المدَّةِ الطويلة. يستوجبُ أن تردَ آيةٌ قرآنيةٌ مُقابلةٌ يُمنُّ الله

تعالى فيها على نبيّه بهذه المدّة المُتميّزة. وهو أمرٌ لا نعثرُ على أثر لهُ في كتـاب الله العزيز. الأمرُ الّذي يعني أنّ رأيَ أطباء عصرِ الرازي هو المعقولُ والصّحيح.

وأعلقُ على رأيه رحمهُ اللهُ من جهةٍ ثالثة. ومن زاويةِ منهجية وأصولِ تفسيرِ آياتِ هذا القران العظيم البلاغيّ والمعجز في صياغته. فإن راجعَ القـارئُ مؤلّـف (منهجيّةُ وأُصولُ تفسيرِ القران) يتبيّنُ له أنّ من تلك الأصول. الأصلُ الّذي قالتْ به الآية (٥٩) من سورة الفرقان. وهي قولهُ تعالى (فاسأل به خبيراً). أي أنّـهُ لا يجوزُ تفسيرُ مضمونٍ ما يمتُّ إلى العلمِ بصلةٍ من الصلاتِ إلا بعـد مراجعـة رأي علماء العلم المختصّ بذاك المضمون. والأطباءُ هم علماءُ هذا الاختـصاص الّـذي يتعلّقُ بالكلامِ عن أعمارِ الكائنِ الحيّ الإنسان.

أقول: إن نحنُ أخذنا بهذا الأُصل المشار إليه في تفسيرِ قوله تعالى بحقّ نـوحٍ عليه السلام: ﴿فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما﴾ فإنّ رأيَ الأطباء المختـصّين يعدُّ قرينةً في حدّ ذاته تنبّهُ أذهاننا إلى أنّ المقصودَ من هذه المدة الطويلة، هو بقـاءُ العملِ على شريعة نوحٍ طوالَ هذه المدّة، ولا تعني بقاء جسد نوحٍ ينبضُ بالحيـاة طوالَ المدّةِ المذكورة. فبقاءُ العملِ على شريعةٍ من الشرائعِ يمثل بقاءَ نبيّها معنويّاً لا حقيقياً. ومن بابِ أنّ في بقاء العملِ على شريعةٍ ما بقاءُ صاحبها. وبهـذا المعـنى نكونُ قد حسمنا التّضادَّ الممكنَ وقوعهُ ما بين العلمِ والدين. وجازَ لنا بعدَ ذلكَ أن نقولَ بأنّ نبيّنا محمّدٌ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليهِ وسلّم ما يزالُ حيّـاً منـذُ ألـفٍ وأربعمائة وعشرين عاماً.

ونلاحظُ أخيراً أنّ اللهَ تعالى ما إن فرغَ من الكلامِ عن قصّةِ نـوحٍ إلا وراح يقول في الآية التاسعة والأربعين:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾

فاستهلَّ تعالى هذه الآيةَ الكريمةَ باسم الإشارةِ للبعيد (تلك) و لم يقل **(هذه من أنباء الغيب)**.

والقصدُ من هذا التّبديلِ هو لإظهارَ عظمةِ هذه الأنباء الغيبيَّةِ الّتي وضحت حقيقةَ طوفان نوح وهو الطوفانُ الّذي شوَّه كاتبُ سفرِ التكوينِ حقيقتهُ وصـ ـوَّرهُ للقارئ وكأنَّهُ أسطورةٌ من الأساطير. وإنَّ اللهَ تعالى نبَّهَ أذهاننا في الوقتِ نفسه إلى أنَّ هذه المعلوماتِ الّتي حملتها قصَّةُ طوفان نوحٍ القرآنيَّةُ هي من قبيل المعلوماتِ الّتي ما تزال حقيقتها غائبةً عن أذهان الباحثين. وقد كشفَ الوحيُ القرآنيُّ عنها غطاءَ الخفاء. فهذا ما أفادت به الفقرةُ الأولى من هذه الآيةِ الكريمة.

أما في الفقرةِ الثانيةِ منها فقد صرَّحَ اللهُ تعالى فيها وقال: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا﴾. تأكيداً من جانبه تعالى على أنَّ أحداً من الأمَّةِ العربيَّةِ ما كان يدري شيئاً عن حقيقةِ طوفان نوحٍ وعن مُجرياتِ الأمورِ في تلكَ الفتـ ـرةِ من الزمانِ شيئاً إلا ما نشرهُ كاتبُ سفر التكوين بهذا الخصوصِ من أمورٍ تتنـ ـافى والحقيقة الّتي وضَّحها هذا القرانُ العظيم. فلماذا وردَ هذا النّفيُ هنا في هذا المقـ ـامِ بالذات؟ لقد أوردَ الله تعالى هذا النفيَ ليُنّبهَ الّذينَ سيتصدَّونَ لتفسيرِ هذه القـ ـصَّةِ بالذات إلى أنَّ من واجبهم أن يتدبروا ألفاظَ هذه القصَّةِ بعنايةٍ شديدةٍ ليخلـ ـصوا العالمَ من سيِّئاتِ ما نشرهُ كاتبُ سفرِ التّكوينِ من أغلاطٍ على هذا الصَّعيد.

وقد راحَ اللهُ جلَّ شأنهُ يواسي رسولهُ الكريم مما سيصدرُ عن علمـ ـاء أمتـ ـه ومفسّريها من أخطاء في هذا المجالِ بسبب عدم التزامهمْ بهذهِ الموعظة آنفةُ الـ ـذكر وقال في الفقرةِ الأخيرةِ من هذه الآيةِ الكريمة: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

فاللهُ تعالى قد استهلَ قولهُ هذا بفاء الاستئنافِ وبفعل الأمر **(فاصبر)** ومحذوفاً منهُ مفعوله. فما هي حكمة ذلك؟ الحكمةُ من ذلكَ ليصرِّفَ معنى (اصبر) إلى عدَّةِ اتجاهات. وليصبحَ المعنى أن اصبر على عدمِ التزامِ علماء أمتكَ بهذه الموعظةِ الآنفة

الذكر. واصبر على عداوة أهلِ الكتابِ من أصحاب هذه التأثيراتِ السيئة في أفكار أمّتك. واصبر على جميع ما سينجم عن ذلك من تأثيراتٍ سلبيةٍ. فهذه المعاني كلها اقتضاها حذفُ مُضاف الأمر **(فاصبر)**.

ومن ثمّ أتى تعالى بحرف التأكيد (إنّ) وبشّرَ رسـ ـولهُ وقـ ـال: ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بمعنى أننا نبشّرُكَ بأنّ حقيقةَ قصّةِ طوفانِ نوحٍ سـ ـتنجلي علـ ـى أيـ ـدي (الشاهد) الّذي سيأتي من طرف ربّكَ والّذي ستُكتشفُ هذه الحقيقةُ وتتبيّنُ على يديهِ هذه الحقائقُ التاريخيّةُ وتكونُ العاقبةُ للمتقين.

وما أن فرغَ اللهُ تعالى من تقديمِ هذا الدّليل التاريخيّ الأوّل الّذي تمثّلهُ قـ ـصّةُ نوحٍ مع قومه الّذين كذّبوهُ وأهلكهُمُ الطوفان وليعتبر به الّذين يكذّبونَ محمّ ـداً و (الشاهدَ منه). فقد شاء سبحانهُ أن يقدّمَ لهؤلاء دليلاً تاريخياً ثانياً استقاهُ سـ ـبحانهُ من قصّةِ النبيّ هودٍ مع قومهِ (عاد). وليثبتَ لهم أنّ كلّ من ينحرفُ عنِ المقصدِ من حياته، يبعثُ اللهُ جلّ شأنه رسولاً لإيقاظهِ من غفلته، فإن لم يُعد إلى رُشدهِ يؤولُ أمرهُ في نهاية عمره إلى البوارِ والهلاك.

فهذا الدليلُ التاريخيُّ الثاني ابتدأ اللهُ تعالى يُقدّمه من خلالِ قوله تعالى في الآية الخمسين:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾

فالّذي نُلاحظهُ هو أنّ الله تعالى على حينِ استهلّ قصّةَ نوحٍ بحرفِ الابتداء (لقد). فقد حذفهُ في هذا الاستهلال، مستعيضاً عنه بواوِ العطف. وفي رأيي أنّ علّةَ هذا التّبديل يرجعُ إلى سببٍ مباشرٍ، يتلخّصُ في أنّ قبيلةَ عادٍ تعدُّ من نـ ـسلِ مـ ـن تكاثروا ممّن حملتْهم سفينةُ نوحٍ عليه السلامُ معهُ في سفينتهِ ونجوا مـ ـن الطوفـ ـان. وبدليلِ أنّ الواو قد استعملت هنا بمعنى عطف بيان. كما يرجعُ هذا إلى سببٍ غير

مباشرٍ وهو التَّدليلُ على أنَّ اللهَ تعالى يقدِّمُ قصَّةَ هودٍ مع قومِهِ على شاكلةِ ما فعلَهُ عند تقديمِه قصَّةَ نوحٍ والطوفانِ الَّذي جره تكذيبُ قومِه إياه.

أما استعمالُهُ تعالى لكلمةِ (أخاهم)، فالسَّببُ في ذلكَ هو أنَّ العربَ يستعملونَ للشخصِ المنتسبِ إلى قبيلةٍ من القبائلِ كلمة (أخاهم)، فيقولون فلانٌ أخو قبيلة كذا بمعنى أنَّهُ منهم. وأرى أيضاً أنَّ اللهَ جلَّ شأنُهُ راحَ يستعمل أسماءً وصفيَّةً للأنبياءِ الَّذينَ لا يوجدُ بينَ أيدي الناسِ مستمسكاً مقبولاً ومرجعاً حقيقياً يؤكدُ أسماء أولئك الأنبياء. وهذه خصوصيَّةٌ امتازَ بها القرآنُ المجيد. فهو جلَّ شأنه قد وضعَ لآدم ولنوحٍ ولهودٍ ولصالحٍ من الأنبياءِ ممَّن لم تُكتشفُ لهُم آثارٌ كاملةٌ دالَّةٌ على تاريخهم وضع لهم أسماءً وصفيَّةً دالةً عليهم. واللهُ أعلمُ بالصواب.

والملاحظُ أيضاً هو أنَّ اللهَ تعالى أنهى هذه الآيةِ الكريمةِ وحسب قولِ نبيِّهِ هودٍ عليه السلام: **(إنْ أنتُم إلا مُفترون)**. فكلمةَ (مفترون) اشتُقَّت من قولِكَ: فرى فلانٌ على فلان الكذبَ: معناهَ أن يكون قد اختلقهُ من دونِ أن يكونَ لما فراهُ عليه من أصل (محيط المحيط). كذلكَ نلاحظُ أنَّ اللهَ تعالى قد حذفَ مُضاف (مفترون). وليوسِّعَ دلالتَهُ وليصبحَ معنى هذه الفقرة الأخيرة: أن يا قومِ إنَّكم تزعمونَ أنَّكم على دينِ نوحٍ عليه السلام الَّذي كان يعتقدُ بوجودِ إلهٍ واحدٍ لا شريكَ له. فاختلقتُم هذه الأصنامَ من دونِه وأنتُم تزعمونَ أنَّها آلهة من دون الله، وأصبحتُم بذلكَ من المشركين بالله تعالى ومن غيرِ الموحِّدين، وإن أنتُم إلا مفترون.

وبمناسبةِ ذكرِ قومِ (عاد)، فمن المناسبِ الإشارة إلى أنَّ المستشرقينَ الغربيينَ أنكروا وجودَ هذا القوم. وحجَّتُهُم تنحصرُ في أنَّه لا وجودَ لاسمِ (عاد) بينَ أسماء بطونِ العشائرِ العربيَّةِ المهاجرةِ من شبهِ جزيرةِ العرب، والى انتشرت على شكلِ موجاتٍ متلاحقةٍ فيما جاورها من الأقطار.

فالحقيقةُ هي أنَّ اسم (عاد) لم يُطلقهُ القرآنُ الكريمُ على قبيلةٍ بعينها. لكنَّهُ أطلقهُ على جملة قبائلَ كانت قد تشكَّلت من ذرِّيَّةِ من حملتهُم سفينةُ نوحٍ عليه

السلام. والمعلومُ أنَّ مُستشرقيّ الغربِ يجهلونَ هذه الحقيقة، ونعذُرُهم لهذا السببِ المذكور. أمّا ما هو دليلي الّذي يثبتُ مصداقيَّةَ ما وصُحتهُ من هذه الحقيقة؟

فأقول: بإمكاني إثباتَ ذلك من عدَّةِ جهات: فمن الجهةِ التّاريخيَّ ةِ، ف بينَ أيدينا ما تركهُ اليونانيونَ من مخططاتٍ جغرافيَّةٍ وأوراقِ تاريخ. فإن راجعها الباحثُ فسيعثرُ هناك على اسمينِ مُختلفينِ ومُتقاربينِ في آنٍ واحد. الأوَّلُ منهما هو كلم ةُ ADRAMITIA والاسمُ الثاني منهما هو كلمة ADRAMOTITAI وإنَّ من واجبنا أنْ نضعَ في حُسباننا عندَ محاولةِ فهمِ دلالةِ كلِّ كلمة منهما أنَّ من الصَّعبِ عل ى الرجلِ اليوناني أن يلفُظَ حرفَي العينِ والحاء كما يتلفَّظُ بهما الرجلُ العربيُّ، ويضطرُّ بالتالي إلى كتابةِ هذينِ الحرفينِ بلهجةِ لسانه القومي. كذلكَ فإنَّ م ن واجبن ا أن نضعَ في حسابنا أنَّ اليونانيَّ يُلحقُ بالاسمِ الواحدِ ما يميِّزُهُ بعلامة، كما هو حادثٌ في الكلمتينِ آنفتي الذكر. فالجغرافيّونَ والمؤرِّخونَ اليونانيّون أضافوا الأحرُف -TIA TAI على أصلِ هاتينِ الكلمتين.

فإن نحنُ عُدنا لنحاولَ تهجي الكلمةِ الأُولى على ضوءِ م ا ذكرن اهُ م ن معلومات.

يتّضحُ لنا أنَّ كلمة ADRAMOTITAI تعني قُطراً عربيّاً معروفاً في زمانن ا يق عُ جنوبي شبه جزيرة العرب وهو المسمى (حضرموت). وأنَّ كلمة ADRAMITIA قُصدَ بها التَّعبير عن كلمةِ (عاد إرم) الواردة في الآية من سورةِ الفجر: ﴿أَلَ مْ تَ رَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾. علماً بأنَّ كلمة (عاد إرم) تعني (أرومة عاد) والمقصودُ بها الذريَّة الّتي تناسلت ع ن ج دِّها (عاد). فكلمةُ (إرم) استعيرتْ من أرومةِ الرأسِ وأصلهِ (محيط المحيط)- وللاستزادةِ من هذه المعرفةِ راجعوا كتاب (العرب قبل الإسلام).

هذا من الوجهة الجغرافيَّة. أمّا من وجهةِ المعطياتِ القرآنيَّة، فأقول: إنَّ الّذين جهلوا منهجيَّةَ وأصولَ تفسيرِ آياتِ القران المجيد، كانوا كلَّما مرَّ عليهم اس مٌ في

كتابِ الله العزيز، وعسُرَ عليهم معرفة اشتقاقه يزعمونَ أنّهُ لربّما يكونُ معرّباً أو أن يكون، اسماً أعجمياً. ولا يذهبُ ذهنُهم إلى أنّهُ لربما كان اسماً وصفياً وجديداً، أو لربّما يكون اسماً مركباً. فكلمةُ (عاد) في رأيي هي اسم وصفيٌّ وما هو باسم حقيقيٌّ. وعلى شاكلة اسم آدم ونوح. ويعني الرَّجلَ الّذي ارتدَّ عمّا كانَ يعبدُ أبوه، وعادَ إلى دينِ التّوحيد الّذي كانَ عليه نوحٌ عليه السلام. حيثُ ورد في معجم (محيط المحيط): عادَ إلى كذا بمعنى ارتدَّ إليه بعدما كانَ أعرضَ عنه. وقد خلّدَ القرآنُ الكريمُ ذكرى هذا الرّجُل، من بابِ أنَّ اللهَ تعالى باركَ في ذريته وتشكّلتْ منها أكثرُ من قبيلة. ووردتْ آياتٌ قرآنيّةٌ كثيرةٌ أعطت القارئَ المتدبِّرَ فكرةً واضحةً عن تلكَ القبائل. وأحاولُ التذكيرَ بها:

ففي سورةِ الفجرِ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾. وقد تضمنت هذه الآيةُ الكريمةُ معلومات هامّة وهي أنَّ القبائلَ الّتي كانت من ذرّيّة (عاد) أقامت حضارةً راقيةً اتّسمت بالأبنية العالية الّتي كانت تبدو لعينِ الّذي ينظرُ إليها من بعيدٍ كالعماد. وأنَّ حضارتها كانت من الازدهارِ إلى درجة ما كانَ يُضاهيها في وقتها حضارة مجاورةٌ لها في تلكَ البلاد الّتي كانت تقطنها. والثابتُ تاريخيّاً أن حكومةَ تلكَ القبائل امتدَ زمنُها إلى ما قبل القرن الخامس قبلَ بعثة المسيح الناصريِّ عليه السلام. وقد سمى المؤرخون لغةَ تلكَ القبائل باللُّغة الآرامية، نسبةً إلى كلمة (إرم). وامتدَّ نفوذُ تلكَ القبائل إلى فلسطين وسوريّة والعراق وبلاد الكلدانيّين. وبذلكَ يكونُ القرآنُ الكريمُ قد أمدَّنا بعلامة بارزة من علاماتِ قومِ (عاد إرم). وهي علامةٌ تُميِّزُ آثارهم عن آثارِ غيرهم من الأقوامِ البائدة.

ثمَّ إنَّ اللهَ تعالى أخبرنا بصريح العبارة بأنَّ قومَ عادٍ هم من ذرية القبائلِ الّتي تناسلت من الّذينَ نجاهُم الله تعالى مع نوحٍ عليه السلام من الطوفان. فقد وردَ فيها: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ

لبنذركم، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾.

فإن نحنُ راجعنا الآيات (١٢٣- ١٤٠) من سورة الشعراء، نُلاحظُ أنَّ الله تعالى زوَّدنا من خلالها بعلامة أخرى دالة على القوم المذكور. فقد قالَ تعالى هناك:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ، إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ، وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ، أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ، وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ، قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ، إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ، وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ، فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

فقد وردت في هذه الآياتِ الكريمة كلمةُ (رِيْع) وتعني التَّلَّ المرتفع. وكلَّ مكانٍ مرتفع. كذلك فإنَّ الباء استعملتْ فيها للإلصاق. وكلمةُ تعبثونَ اشتقّت من عبثَ. فالعبثُ هو اللَّعبُ والهزلُ وارتكابُ أمرٍ غير معلومِ الفائدة منه، أو ليس فيه غرضٌ صحيحٌ لفاعله. (محيط المحيط) والمهمُّ في الأمرِ هو أنَّ هذه الآيات من سورة الشُّعراء قد أخبرنا الله تعالى فيها عن علامة كبرى من علامات قوم عاد المذكورين. وهو أنّهم كانوا قد اعتادوا أن يشيدوا مُنشأةً على رأسِ كلِّ هضبةٍ أو مكانٍ مرتفعٍ مطلٍّ على الوديانِ من حوله. ولا يكونُ غرضهم من تلكَ المُنشآتِ إلا التنبيه إلى أنَّ تلكَ المنطقة تابعةٌ لهم. وإنَّ من تلكَ المُنشآتِ ما تزال قائمةً إلى يومنا هذا، وشاهدةً على ذلك الفنِّ المعماريِّ الّذي أبرزوهُ إلى الوجود. وبإمكانِ الّذي يزورُ اليمن وخاصة منها مدينة (عدن) أن يرى إحدى تلكَ المنشات على بعدِ أربعة كيلو

مترات منها. وتشهدُ تلك الآثار على مصداقيَّةِ ما أخبرنا به القرآن العظ يم مذ نذ أربعة قرن من الزمان.

ولم يُهمل كتابُ الله تعالى تنبيهنا إلى المنطقة الّتي عاشَ فيها قومُ عاد، بـ ل لفتَ نظرنا إلى ذلكَ في سورةِ الأحقافِ حيثُ قال تعالى: ﴿واذكر أخا عادٍ إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾. علماً بأنَّ كلمة (أحقاف) مفردُها (حقفٌ) ويعني الأرض المغطاة بتلالٍ من الرمال، أو رمالٌ مستطيلةٌ بناحية منطقة مشجَّرة. (محيط المحـ يط) والمعلومُ جغرافيّاً أنَّ العرب أطلقوا اسمَ (أحقاف) على منطقتين متميـ زتين، تقـ ع المنطقةُ الأولى جنوبَ اليمن، وتمتدُّ حتى شرقي عدن، وهي المنطقةُ الّتي تُرى فيهـ ا تلك الآثارُ الّتي تكلمنا عنها. وأما المنطقةُ الثانيةُ فتمتدُّ جنوب مديـ نة (بـ صرى)، وتمتدُّ مع قفرِ العراقِ جنوباً. ففي هذه المنطقة الثانية ترى تلالُ الرمالِ وكأنَّها أمواج بحرٍ تتماوج بحذاء أراضي خضراءَ مشجَّرة. ولربما كانت تلكَ الأرضُ الرمليَّةُ صالحةً للزراعة، وكانت مشجَّرةً في الزمن الغابر. فهجرها أهلوها وغطَّتها الرمالُ مع مرورِ الزمن. ولربَّما يأتي يومٌ تقومُ فيه هيئاتُ تنقيب، فتنقِّبُ في المنطقةِ المذكورةِ وتعثـ ر فيها على آثار قومِ عاد إرم. خصوصاً إذا أخذنا بعينِ اعتبارنا قـ ولَ الله تعـ الى في سورةِ الحاقّة: ﴿أمّا عادٌ فأهلكوا بريحٍ صرصرٍ عاتيةٍ سخّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حُسوماً، فترى القومَ بها صَرعى كأنّهم أعجازُ نخلٍ خاوية﴾. فهـ ذه الآية الكريمة قد صوَّرت لنا مشهدَ تلك المأساة تصويراً فنياً رائعاً، لنتصوَّرَ مـ شهدَ أفرادِ قومِ عادٍ صرعى جميعهُم، وتحتَ تلك التلالِ الرمليَّةِ في منطقـ ةِ الأحقـ اف. وعلى هذه الصورة أكونُ قد وضَّحتُ للقارئ من الوجهةِ القرآنيَّة أحوالَ الحضارة الّتي أسَّسها هذا القومُ الّذي يرجعُ إلى جدٍّ أعلى هو (عادٌ) الإنسانُ الّذي كان آمنَ برسالةِ نوحٍ وحملهُ نوحٌ معهُ في سفينته عندَ بدايةِ الطوفانِ المعروفِ باسم طوفـ ان نوح. وعليهِ أعودُ إلى تفسيرِ هذه الآية الأُولى من قصَّةِ قومِ عادٍ الّتي جرَّنا الكـ لامُ

عنهم إلى جميع ما ذكرناه.

فقد كنتُ ذكرت رأيي من قبل بأنَّ كلمة (هود) أوردها اللهُ جلَّ شأنهُ كاسمٍ وصفيٍّ، وأنّها ليست باسمٍ حقيقيٍّ للنبيِّ الّذي بعثهُ تعالى لإصلاحِ قوم عاد. ومن باب أنَّ هذه الكلمةَ تعني رجلاً تابَ ورجعَ إلى الحقِّ (محيط المحيط). وقد شاعَ هذا الوصفُ كاسمٍ للنبيِّ المذكور، وعلى أنَّهُ ارتدَّ عما كان عليه دين آبائه وأجداده. وعلى شاكلةِ ما أشاعهُ المشركون عن محمَّدٍ رسول الله فوصفوهُ بالصّابئ.

وكأنَّ اللهَ تعالى قد قالَ لنا من خلالِ هذه التّسمية ها أنّي أقدِّمُ للمكذبينَ دليلاً ثانياً لأُثبتَ من خلاله مصداقيَّةَ وُجودِ ربِّكم الّذي خلقكم والّذي جعلَ لخلقِ الإنسانِ مقصداً. وهو الموضوعُ الأساسي الّذي تمحورَ موضوعُ هذه السورة حوله. فاذكروا كيف أنّي انقذتُ نوحاً ومن آمن معهُ من الطوفان. وكيفَ مَننتُ عليهم بماشيةٍ وذريّةٍ كثيرةٍ وجناتٍ وعيونٍ. ومع ذلكَ أتى على بعضِ ذرّيتهم زمنٌ غابَ عن أذهانهم معالُم توحيدِ الله تعالى. فانحرفوا عن صراطِ التّوحيد، وغاصوا في مستنقعِ الشركِ والتقاليدِ والأعرافِ المزيَّفة. لذلكَ بعثتُ فيهم أخاهُم (هوداً) لينذرهم ولأُلقي حُجَّتي عليهم، ولأعيدَهم إلى صراطِ توحيدِ الله تعالى خالقهم. فهذا ما أشارَ إليه النبيُّ (هود) بقولهِ: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾. وعلى هذه الصورةِ يكونُ اللهُ عزَّ وجلَّ قد ربطَ قصَّةَ هودٍ هذه معَ قومهِ بموضوعِ السورةِ الأصليِّ بأسلوبٍ هو في غايةٍ من البلاغةِ والإعجازِ البيانيِّ. وعلى هذه الصورةِ يكون الله تعالى قد ابتدأ من خلالِ هذه الآية الكريمة يُقدِّمُ دليلاً تاريخياً ثانياً لإلقاءِ حُجَّتهِ على أهلِ الكتابِ الّذين كذّبوا محمَّداً والشاهدَ منه. فقالَ في الآية الثانية من هذه القصَّة، والي تنقلُ لنا قولَ هودٍ عليهِ السلام وهو يخاطبُ قومه وذلكَ في الآية الإحدى والخمسين:

﴿يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾

وإنَّ الّذي تبادرَ لذهنِ العلامة الرازي رحمهُ الله من هذه الآية الكريمة قد أورده في تفسيره الكبير وكتبَ هناك يقول: ﴿هو عين ما ذكره نوح عليه السلام وذلك لأنّ الدعوة إلى الله تعالى إذا كانت مطهرة عن دنس الطمع قوي تأثيرها في القلب﴾. ولم يفهم الرازي رحمهُ الله أكثرَ من هاتين النقطتين المذكورتين فيما نقلناهُ عنه. فلم ينتبه رحمهُ اللهُ إلى أنَّ نوحاً قالَ لا أسألكم عليه (مالا)، على حين أنَّ هودَ عليه السلام قال لا أسألكم عليه (أجراً). ومعلومٌ أنَّ المالَ يُقصدُ به كلُّ ما ملكهُ الإنسان. على حين أنَّ الأجرَ يعني الكراءَ والجزاءَ على العمل والذكر الحسن. وما بينَ الدلالتين فرقٌ واضح وكبير.

ثمَّ إنَّ نوحاً طمأنَ قومهُ من خلال ذكره اسمَ الجلالة (الله)، وأنَّهُ لا يسعى للحصول على مكاسبَ سياسيَّة. على حين أنَّ هوداً أتى بصفة الله الفاطر وقال (الّذي فطرني) ووضَّحَ بذلكَ حقيقةً علميةً نفى من خلالها عقيدةَ الشرك المبتلى بها قومه. ولذلك قال ﴿يَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾. أي أنَّ ثواب ما اعمله مرتبطٌ بوجود الله الفاطر. من باب أنَّ حرفَ (إلا) يفيدُ هنا الحصرَ والاستثناء.

ولنلاحظ كيفَ أنَّ الآيةَ الّتي أتت بعدَ ذلك ومستهلّةً بواو العطف كيف أنّها اشتملت على معالجة أمراض الشرك المبتلى به قومُ هود عليه السلام والّتي وردَ فيها قولُ هود عليه السلام وذلك في الآية الثانية والخمسين:

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾

فقدَّمَ هودٌ عليه السلام نفسَ الوسائلَ العلاجيَّةَ الَّتي كان قد قدَّمها نوحٌ من قبلِه لمعالجةِ مرضِ الشرك. وبذلك ارتبط هذا المضمونُ مع مضمونِ الآياتِ الأُوائلِ من هذه السورةِ أيضاً. وهو أنَّ اللهَ تعالى لا يحاسبُ أحداً من دونِ أن يوضّحَ لـ ـهُ نوعيَّةَ مرضِه ومدى انحرافِه في عمله. ويفتحُ بابَ التَّوبةِ أيضاً أمام المنحرفين. فهذا ما أفادتهُ الفقرةُ الأولى من هذه الآيةِ وهي قولهُ تعالى على لسانِ نبيِّه هود: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا﴾.

أمّا في الفقرةِ الثانيةِ منها وهي قول ـهُ ﴿يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾.

فكلمةُ (السماء) الواردة فيها تعني المطرةَ الجيِّدة المفيدة للزّرع والّتي تق ـوّي الأشجار والينابيع (محيط المحيط). كذلك فإنَّ كلمةَ (مدراراً) اشتقّت من قولك: درَّ اللّبنُ إذا كثُرَ نزولهُ من ضرعِ البهيمة (محيط المحيط) وبذلك يكونُ هودٌ قد وضَّ ـحَ لقومِه في هذه الفقرةِ ما يترتَّبُ على تصحيحِ عقائدهم وسلوكهُم اليومي من نتائج تجذبُ بركاتِ السماء.

أما قول هودٍ في الفقرةِ الّتي بعدها: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ فالقوة هنا تعني الطاقةَ الطبيعيَّةَ والنفسيّةَ والعقليَّةَ معاً (محيط المحيط) وهي الق ـوى الّ ـتي تؤهّلهُمْ للقيامِ بنهضةٍ جديدة.

أمّا الفقرةَ الّتي قالَ هودٌ فيها ﴿وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ فقد حذَّرَ هودٌ قومهُ من خلالها من مغبَّةِ إعراضهم عن سماعِ الحق والنتائجَ المترتبة عليه. فقولهُ (ولا تتولّوا) أي لا تبتعدوا عمّا أُرسلتُ به إليكم هاربين. كيلا يعودُ ينظرُ ربُّكم إليكم عل ـى أنّكم مذنبينَ وكافرينَ ومستحقينَ لعذابٍ أليم. وإنَّ في هذه الألفاظِ موعظةً أي ـضاً للمكذبينَ من أهلِ الكتابِ المعاصرين.

وبعدَ ذلكَ راحَ تعالى يصوِّرُ حالَ قومِ هودٍ وما آلوا إليهِ من تخلُّفٍ عقليٍّ وتقليدٍ أعمى لما توارثوهُ. وقد صاغَ ذلك بلسانِ قومِ هودٍ أنفسهم. الَّذينَ لم يفهموا ما خاطبهم به نبيُّهم هودٌ. وقد راحوا يُطالبونهُ ببيِّنةٍ، وكأنَّهُ لم يأتِ بها وقالوا وذلك في الآيةِ الثالثة والخمسين:

﴿قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾

وقد كتبَ الإمام الرازي رحمهُ اللهُ يقولُ في تفسيرِهِ لهذه الآيةِ الكريمةِ (المعلومُ أنَّهُ عليهِ السلام كانَ قد أظهرَ المعجزات، إلا أنَّ القومَ بجهلهم أنكروها وزعموا أنَّهُ ما جاء بشيءٍ من المعجزات). أقول: لا أدري من أينَ استقى الرازي رحمهُ اللهُ كلمة (معجزات)؟ لا أدري.

فلقد وردَ في هذه الآيةِ كلمة (بيِّنة) الَّتي تعني الحجَّةَ والدليلَ. وحرف الجرِّ (عن قولكَ) ليفيدَ معنى الاستعلاءِ واستكبار قوم هود عما جاء بهِ نبيُّهم هودٌ من أفكارٍ وانتقاصاً لشأنهِ الشخصيِّ.

فالنبيُّ هودٌ عليه السلام قالَ (الَّذي فطرني) كحجَّةٍ وبرهانٍ على أنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي خلقهم جميعهم و لم تخلقهم هذه الأصنامُ الَّتي كانوا يعبدونها والمنحوت ـةُ بأيديهم. وفي مقابلِ ذلك أجابوهُ وقالوا ﴿قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ وكشفوا بذلك عن مدى قصورِ عقولهم عن محاكمةِ الأمورِ المطروحةِ على مسامعهم.

كذلك كشفوا في الفقرةِ الثانيةِ عن مدى استكبارهم واحتقارهم نبيَّ اللهِ هود من خلال قولهم فيها ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾. فلماذا هذا الانتقاصُ من شأنه؟ إنَّهم نظروا إليهِ هذه النظرةَ لكونِ هودٍ عليه السلام قد كانَ من عامةِ شعبهم بلا وجاهةٍ اكتسبها ولا كانَ يحتلُّ منصباً سياسياً. وإنَّهم من خلال مُطالبتهم هوداً عليه السلام ببيِّنة وباستعلائهم عليه ظنوا أنَّهم رفعوا عن أنفسهم مسؤوليَّةَ الاستجابةِ لرسالتهِ السماويَّةِ. لذلك نُلاحظهم وقد أنهوا كلامهم

بقولهم ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ومن خلال هذه المعاني الّتي توصلنا إليها تتهافتُ ما تضمَّنتهُ أقوالُ الـ رازي رحمهُ الله سالفة الذكر. فإنَّ ما تبادر لذهنه ما قصده الله تعالى في هذه الآية الكريمة وهو الأمرُ الّذي يدُّل على أنّها قد صيغت صياغةً بلاغيَّةً يتبادر مد ـها غـ ـير مـ ـا تضمنته.

ولم يكتفِ الله تعالى بإخبارنا عما كانَ عليه قومُ هودٍ من عقـ ـل تقليـ ـديٍّ وجمودٍ فكريٍّ وغرورٍ بأنفسهم، بل وراحَ يصوّرُهم في أعيننا على أنّهـ ـم كـ ـانوا خرافيينَ ويؤمنونَ بالأساطير ونقلَ لنا قولهم وذلك في الآية الرابعة والخمسين:

﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

والّذي تبادرَ لذهنِ الرازي رحمه اللهُ من هذه الآية أيضاً عبَّرَ عنهُ قائلاً (يُقالُ اعتراهُ كذا، إذا غشيهُ وأصابه. والمعنى أنّكَ شتمتَ آلهتنا فجعلتْكَ آلهتنـ ـا مجنونـ ـاً وأفسدت عقلك. ثمَّ إنَّهُ تعالى ذكرَ أنّهم لما قالوا ذلكَ قالَ هودٌ عليه السلام ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ من دونه﴾ وهو ظـ ـاهر) أي أنَّ هـ ـذا الكلام لا يحتاجُ منه رحمهُ الله إلى تفسير.

فهل أصابَ الرازي رحمهُ اللهُ فيما تبادرَ لذهنه من هذا الكلامِ الإلهيّ؟

أقول: كانَ من الممكنِ أن يكونَ قد أصابَ الرازي لو كانَ فعْل (اعتـ ـراكَ) واوياً من عراهُ يعروه. أما وقد قيَّدَ هؤلاءِ قولهم بكلمةِ (سوء) فقد أثبتـ ـوا أنّهُـ ـم استعملوا فعلَ (اعتراك) يائياً من عرى يعريه، وأنَّ الباء من (بسوء) وردت بمعـ ـنى التّبعيض. وليصبحَ معنى هذه الفقرة: أنّهم قصدوا أنَّ آلهتهم أصابوا هوداً بـ ـبعضِ السوءِ وليس بالجنون. ومما يدلُّ على اعتقادهم هذا أنَّ بعضَ آلهتهم من الأصـ ـنامِ

كانت مهمتها الإضرارُ بمن يُعادي القومَ المذكور.

ولْنلاحظ أنَّ الله تعالى قد أتى بعدَ ذلكَ بتقابلٍ معنويٍّ وقال على لسانِ نبيِّه هود ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وليدفعنا من خلاله دفعاً للموازنة ما بينِ معقوليَّةِ جوابِ نبيِّه هود عليه السلام وما بينَ العقليَّةِ الخرافيَّةِ الَّتي احتجَّ بها قومهُ عليه.

وهنا ينبغي علينا أن نفهمَ من قول هود ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ﴾ أنَّهُ يحملُ نفسَ الدليلِ الَّذي قدَّمهُ نوحٌ لقومهِ للتدليلِ على مصداقيَّةِ رسالتهِ والَّذي كانَ عبَّرَ عنه بقولهِ لهم ﴿قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ ذلكَ أنَّ الَّذي يفتري على اللهِ كذباً يصبحُ منتحلاً صفةً كاذبةً ومجرماً يستحقُّ القصاص والعقاب. وهذه الحقيقةُ هي الَّتي عبَّرَ عنها هودٌ بقوله (إني أُشهدُ الله) وحاذفا مفعولَ الفعلِ لنُقدِّرهُ من أنفسنا من أنَّ هوداً قصد أن يُشهدَ ربَّهُ على صدقه في رسالته. وعلى هذه الصورةِ يتبيَّنُ خطأ رأي الرازي رحمهُ الله فيما ذهبَ إليه من معنى.

وإنَّ ما يؤكِّدُ المعنى الَّذي فهمناهُ من قولِ هودٍ عليه السلام ﴿إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ﴾، هو هذه الخاتمةَ الَّتي أنهى تعالى بها هذه الآية الكريمة. وهي قيامُ هودٍ عليه السلام بتحدي قومهُ وقولهُ لهم وبصريحِ العبارة. وذلك في الآية الخامسة والخمسين:

﴿مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ﴾

أي أنَّهُ عليه السلام قد أتى من أجلِ أن يبدأ بتحديه المذكور بفاء الاستئناف. كما أتى بفعل (كيدوني) المشتقُّ من كادهُ إذا مكرَ به وخدعه. وبكلمةِ (جميعاً) أي بدونِ استثناء. (محيط المحيط) وكأنَّ هوداً قالَ متحدياً قومهُ بألفاظ أخرى: يا من اشتُهرتُم بالمكرِ والخداعِ، حاولوا أن تجرِّبوا مكركم وخداعكم للقضاءِ عليَّ، وفي وقتٍ ترونَ فيهِ أنّي وحيدٌ لا أملكُ فيه مالاً ولا جاهاً، ولتُثبتوا

من خلالِ ذلكَ كذبَ ما دعوتكم إليه.

وبعد هذا التحدي المذكور راحَ هودٌ يرسمُ لأعيُنِ قومِه صورةً واضحةً عما يملكهُ ربُّهُ من قُدراتٍ مدهشةٍ، و كيفَ أنّهُ عليهِ السلام متوكّلٌ عليه. فقال في الآية السادسة والخمسين:

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

والمعنى أنكم إن حاولْتم المكرَ بي وخداعي، فإنني فوضتُ أمري إلى الله الّذي هو ربي وربُّكم والّذي يطوِّرنا إلى حياةٍ أفضل، و لم أُفوِّض أمري إلى هذه الأصنامِ المنحوتة بأيديكم. فهذا هو معنى ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾.

وأما قولهُ في الفقرةِ الثانية ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ فإنَّ كلمةَ (الناصية) فإنّها تدلُّ على خصلةِ الشعرِ الّتي منبتها من مقدّمةِ الرأس ومؤخرته وأما (الدابةُ) فتعني كلَّ ما يدبُّ على الأرضَ (محيط المحيط).

فهودٌ عليه السلام قد استعارَ هذا التعبيرَ المُتداولَ، تذكيراً منهُ إياهم بالله الّذي كانَ قد أخذَ قومَ نوحٍ من قبلهم أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ بعد أن كذّبهُ قومهُ وحاولوا القضاءَ عليه. وعلى هذه الصورةِ من البيانِ والتّذكيرِ استطاعَ هودٌ عليه السلام أن يصوِّرَ لقومِه القوّةَ الّتي سيواجهونها إذا ما أصرّوا على مواجهته وتكذيبهم إياه.

وقد أنهى هودٌ عليه السلام قولهُ في هذه الفقرةِ الأُخيرةِ من هذه الآيةِ الكريمة وقال ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. فهو أتى بحرفِ التأكيدِ (إنَّ). وقد حذفَ في الوقتِ نفسهِ فعلَ جملة ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ليوسِّعَ من دلالاتها، ولتعني أنَّ ربّهُ قادمٌ لنصرته، وأنَّ ربّهُ عادلٌ أيضاً فهو على صراطٍ مستقيمٍ لا يظلمُ

أحداً من عباده أيضاً.

لكنَّ المفسرينَ القدماء الّذينَ لم يتنبهوا إلى وُجود هذا الحذفِ البلاغيّ قد ذهبوا في تفسيرِ هذه الفقرةِ مذاهبَ شتّى. فقد نقلَ لنا الرازي رحمهُ الله قولَ المُعتزلةِ فقال (قالتِ المعتزلة قولهُ ﴿مَا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ يدلُّ على التوحيد. وقولهُ ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يدلُّ على العدل. فثبتَ أنَّ الدينَ إنّما يتمُّ بالتوحيدِ والعدل). ومن ثمَّ ذكرَ الرازي رحمه الله وجهاً آخر للآية فكتبَ يقول: (الثاني أنّهُ تعالى لما ذكرَ لأنَّ سلطانهُ قهرَ جميعَ الخلقِ، أتبعهُ بقوله ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ﴾ يعني أنّهُ لا يخفى عليه مُستتر، ولا يفوتهُ هارب. فذكرَ الصراطَ المُستقيمَ وهو يعني به الطريق الّذي لا يكونُ لأحد مسلكٌ إلا عليه. كما قال ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالۡمِرۡصَادِ﴾. وذكرَ رحمهُ اللهُ وجهاً ثالثاً وقال (أن يكونُ المراد (إنَّ ربي) يدلُّ على الصراطِ المستقيم. أي يحثُّ أو يحملكم بالدعاءِ إليه).

ومن ثمَّ أتى اللهُ تعالى بفاءِ الاستئنافِ وقال في آيةٍ جديدةٍ وهي الآية السابعة والخمسين:

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾

فالملاحظُ هو أنَّ الله تعالى أدخلَ فاء الاستئنافِ على حرفِ الجزاء (إنْ) الّتي توقعُ الثاني من أجلِ وُقوعِ الأوّلِ وتجزمُ فعلين. كما أتى بفعل (تولّوا) بمعنى أدبروا و لم يستجيبوا، وليصبحَ معنى قولهُ تعالى (فإن تولّوا) فاعلم يا هودُ بأنَّ قومكَ إذا لم يستجيبوا لك فقد أدّيتَ ما عليكَ لذلكَ قل هم ﴿وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ﴾. أي أنَّ ربي يُهلككُم كما كانَ قد أهلكَ قومَ نوحٍ من قبلكم.

وإنّهُ تعالى يستخلفني والمؤمنين بي كما كانَ استخلفَ نوحاً والّذين آمنوا معه مـ ـن قبلي. والنتيجة الّتي ستصيرُ إليها الأمور عبَّرَ تعالى عنها بقوله ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾.

وأستنبطُ مما قالهُ هودٌ لقومه بأنّ النبيّ هود لم يكن نبياً مشرّعاً. بل كانَ قد بعثهُ ربُّهُ على دينِ نوحٍ عليهما السلام. والملاحظُ هو أنّ اللهَ تعالى سلّحَ هوداً. مما يثبتُ مصداقيّةَ ما ادعاهُ. لذلكَ عبَّرَ عن ذلكَ بالقولِ في الفقرةِ الأخيرة من هـ ـذه الآيةِ الكريمة ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

فهو تعالى أتى بكلمةِ (حفيظ) من حفظَ الشيءَ إذا حرسهُ ومنعهُ من الضياع (محيط المحيط).

وليصبحَ المعنى أنّ اللهَ تعالى إذا حاولَ إهلاككُم، فيهلككم على صـ ـورةٍ لا يختلُّ معها شيءٌ في هذا الوجود. وقد أخذ العلامة الرازي رحمهُ الله بوجودِ حذف. لذلك كتبَ يفسّرُ هذه الفقرةَ الأخيرةَ ويقول: (إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ، وفيه ثلاثة أوجه: الأوّل حفيظ الأعمال العباد حتى يُجازيهم عليها. الثاني يحفظـ ـني من شرّكم ومكركم. الثّالثُ حفيظٌ على كلِّ شيءٍ يحفظهُ من الهـ ـلاكِ إذا شـ ـاء ويُهلكُهُ إذا شاء). لكنّه رحمهُ اللهُ لم ينتبه إلى أنّ مضمونَ هذه الفقرةِ جيء به مـ ـن أجلِ التدليلِ على مصداقيّةِ ما سبقهُ من ادّعاءٍ جاءَ به هودٌ عليه السلام.

وقد راحَ اللهُ تعالى بعدَ ذلكَ يوردُ ما جرى بعد هذا التحدي وما حملهُ مـ ـن دليلٍ وقال وذلك في الآيةِ الثامنة والخمسين:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

فاللهُ جلَّ شأنهُ أتى هنا بنفس الكلمةِ الّتي كانَ قد أتى بها عندما حدَّثنا عما جرى لنوحٍ وقومه وهي كلمةُ (أمرُنا) ولتعني أنّه لما حلَّ ميقاتُ نفاذِ ما كُـ ـا قـ ـد قدرناهُ من عذابٍ لإهلاكِ قومِ هودٍ الّذين كذّبوه وتولّوا و لم يستجيبوا لهُ، فقـ ـد

أضافَ تعالى يقول ﴿نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ﴾ بمعنى أننا حفظناهم من شـ ـرّ ذاكَ العذاب وأثبتنا بصورة عمليَّة صدقَ الدَّليل الَّذي قدَّمهُ هودٌ لقومه في هذا المجال.

وإنَّهُ جلَّ شأنهُ عندما قال (**برحمة منا**) فالباء هنا اسـ ـتُعملتْ لتفيـ ـدَ معـ ـنى السَّببيَّة. واستعملَ كلمةَ (الرَّحمةُ) بمعنى العطفُ والرِّقَّة. وأشارَ تعـ ـالى بـ ـذلك إلى قانونٍ قدريٍّ مُقدَّرٍ لصالحِ المؤمنين، وهذا القانونُ يعملُ كُلَّ زمانٍ يبعثُ اللهُ تعـ ـالى فيه نبياً رسولاً.

وأما قولهُ جلَّ شأنهُ ﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ فلتأكيدِ تدخُّلِ رحمةِ اللهِ تعالى بشكلٍ واضحِ المعالمِ. فكلمةُ (غليظ) صفة للعذاب. وتفيدُ معنى الزوجة الَّتي يعسُرُ تخلُّصُ الإنسان منها إذا أحاطت به (محيط المحيط). وإنَّ كلمةَ (غليظ) هـ ـذه قد فسَّرها ما ورد في سورةِ الحاقَّة بما يتعلَّقُ بالعذابِ الَّذي حلَّ بقومِ هـ ـودٍ عليـ ـه السلام. فقد ورد هناك قولـ ـهُ تعـ ـالى: ﴿أَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً، فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾. فكلمةُ (غليظ) صوَّرت هـ ـذا العذاب بتصويرٍ فنيٍّ لا يعـ ـودُ يأملُ الناظرُ إليه أن ينجوَ منه أحدٌ من الناسِ الَّذي أتى عليهم لطولِ مُدَّته. باستثناء إذا تسبَّبت رحمةٌ سماويَّةٌ بنجاة هذا الإنسان.

فبهذه الفقرة أنهى اللهُ جلَّ شأنهُ قصَّةَ نبيِّه هودٍ مع قومه كما وضَّحَ تعـ ـالى المصيرَ الَّذي آلَ إليه جميعُ الَّذينَ كذَّبوا هوداً عليه السلام من قومه. وليـ ـصبحَ مـ ـا ذكرهُ تعالى من قصَّتهم دليلاً تاريخياً يُذكِّرُ بهِ أهل الكتابِ الَّذينَ يكذِّبونَ (الشاهدَ منه) بالمصيرِ الَّذي ينتظرُ المكذبين منهم.

فلما فرغَ اللهُ تعالى من بيانِ قصَّةِ هودٍ مع قومه راحَ اللهُ تعالى يقول في الآية التاسعة والخمسين:

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾

وليلاحظ القارئ وجودَ إشارة الوقف بعد كلمة (عاد). حيثُ أنَّ لإشارات مصحف عثمانَ دلالاتها. وإنَّ إشارةَ الوقفِ هنا قد وُضعت لتدعو القارئ ليتمهَّلَ وليتأمَّلَ فيما كانَ عليه حالُ قومِ عادٍ وفي المصيرِ الّذي صاروا إليه. وبما أنَّ قـ صَّةَ قومِ عادٍ يقدِّمُها ربُّنا هنا كدليلٍ تاريخيٍّ ليعتبرَ به أهلُ الكتابِ في بلادِ الغربِ خاصَّةً الّذين يتباهونَ بحضارتهم المعاصرة. فكأنَّ اللهَ تعالى، ومن خلالِ إشارةِ الوقفِ هذه، قد لفتَ نظرَ هؤلاءِ إلى أنَّ قوم عادٍ كانوا قد بلغوا مستوىً عالياً مـ ـن الحـ ـضارةِ أيضاً، وعلى حسبِ ما أخبرتنا به سورةُ الفجرِ الّتي قالَ تعالى فيها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ فبينَ الحضارتينِ وجهُ شبهٍ نسبي.

وقد أضافَ تعالى على وجهِ الشَّبهِ المُشار إليه، وجهَ شـ ـبهٍ آخـ ـر، وقـ ـال ﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بمعنى أنّها لم تنفعهمُ الآيات والمعجزات الّتي تحقّقت على أيدي رسلي. لذلكَ تلاحظون أنّهم ﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ أي أنَّ هذا جعلهم مجـ ـرمينَ في نظرِ ربِّهم. علماً بأنَّ الواو هنا تفيد معنى الحال لدخولها على جملةٍ فعليَّةٍ.

وأتى تعالى بوجهِ شبهٍ ثالثٍ بين أولئكَ وهؤلاء، وقال في الفقرةِ الأخـ ـيرة: ﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾. والجبارُ من الناسِ هو الّذي يُجبرُ الناس على ما يكرهونه وفي وقتٍ يخلو فؤادهُ من الرحمة.

فإذا غضبَ يقتلُ من يقعُ غضبُهُ عليه ومن غيرِ حقّ. وأما كلمةُ (عنيد) فهي صفةٌ يتّصفُ بها الإنسانُ المخالفُ للحقِّ ويعرفُ الحقَّ ويردُّه (محيط المحيط) فنبَّهَ اللهُ تعالى أذهاننا إلى هذا الوجهِ الثالثِ من المشابهة وهو ظهورُ زعماء جبارينَ من بينِ قومِ عادٍ الّذين كانتَ رعيَّتهم لا تُجابهُهم ولا تسعى لـ ـردِّهم عمـ ـا كـ ـانوا بـ ـه

يتجبّرون. فجميعُ أوجهِ الشّبهِ هذه، وُضعت إشارةُ الوقفِ سالفةِ الذكرِ للإحاطةِ بها ونبيِّها. والقصد من ذلك ليمهِّدَ اللهُ تعالى لإنزالِ لعنتِه عليهم على وجهِ حقّ.

أما العلامة الرازي رحمهُ اللهُ فلم يفهم من هذه الآيةِ ما فهمناهُ. بل كتب يقول: (**واعلم أنّهُ تعالى لما ذكر قصّةَ عاد خاطبَ قومَ محمَّد فقال– وتلكَ عاد– فهو إشارةٌ إلى قبورهم وآثارهم. كأنّهُ تعالى قال: سيروا في الأرضِ فانظروا إليها واعتبروا. ثمّ إنّهُ تعالى جمعَ صفاتهم ثمّ ذكرَ عاقبة أحوالهم في الدنيا والآخرة**).

فاختلافُ رأيي معهُ رحمه الله كان بداعي التّسلسُلِ الموضوعيّ الدالِ على أنّ الغرضَ من إيرادِ هذه القصصِ هو لفتُ نظرِ المكذبينَ من أهلِ الكتابِ الغربيّينَ المُعاصرين إلى مصائرِ تكذيبِ رسلِ اللهِ عزّ وجلّ. فقومُ محمَّدٍ (ص) قد كذّبوهُ قبلَ الفتحِ بتحريضٍ من اليهود. لكنَّهُم آمنوا به بعد ذلكَ وأيّدوه ونصروه.

والملاحظُ أنّ اللهَ تعالى ما إن فرغَ من بيانِ استحقاقِ قومِ عادٍ للّعنةِ السماويّةِ، إلا ولاحظناهُ جلّ شأنُهُ يأتي بآيةٍ جديدةٍ يصبُّ فيها جامَ غضبِه على قومِ عادٍ ويلعنهُم ويقول في الآية الستين:

﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾

فالدَّليلُ على خطلِ رأيِ الرازي رحمهُ الله هو عدمُ ملاحظته أنّ اللهَ جلّ شأنهُ أتى في هذه الآيةِ الكريمةِ بفعل (أُتبعوا) المشتقُّ بن قولكَ: تبعهُ إذا مشى خلفهُ أو مرَّ فمضى معه (محيط المحيط). ومن المعلوم أنّ قومَ محمَّدٍ (ص) لم يُلعنوا في كتاب الله العزيز بل إنّهم آمنوا بمحمَّدٍ رسول الله (ص) بعدَ فتح مكّةَ المُكرّمةِ إلا بعضَ زعمائهم. علماً بأنّ معنى (اللّعنة) هو إبعادُ الملعونِ عن جنابِ اللهِ تعالى وحرمانهُ من الفوزِ بمحبّةِ ربِّه وقُربه منه.

وعليهِ فإنّ معنى قوله تعالى بحقّ قومِ عادٍ ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ

﴿الْقِيَامَةِ﴾ يعني أنّ اللهُ تعالى كانَ قد حرمهم من قُربه ومحبّته وأبعدهُم عنهُ في الـ ـدنيا وفي الآخرة. ومن ثمّ أتى تعالى بحرفِ التّنبيـ ـهِ (ألا) وقـ ـال ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي أنّ قومَ عادٍ خالفوا مشيئة خالقهم وحاولوا تقريرَ مصيرهم بأنفُسهم، وهو الأمرُ الّذي يستحيلُ على مخلوقٍ تحقيقه. ومن ثمّ أتى تعالى بحرفِ التّنبيهِ للمرّةِ الثانيةِ وقال ﴿أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾. فلمَ كرّرَ تعالى حرفَ (ألا) على الصورةِ الّتي رأيناها؟

لقد حاولَ الرازي رحمهُ اللهُ تعليلَ ذلك فكتبَ يقول: (قولهُ تعالى – ألا بُعداً لعادٍ قومِ هود– فيه سؤالان: السؤالُ الأوّلُ: اللعنُ هو البعد. فلما قال ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فما الفائدة في قوله– ألا بُعداً لعاد–؟ والجواب التكرارُ بعبارتين مُختلفتينِ يدلُّ على غاية التأكيد. والسؤالُ الثاني: ما الفائدة في قوله– لعادٍ قومِ هود–.؟ الجواب: كانَ عادٌ عادَين. فالأولى القديمةُ هم قومُ هود. والثانية هـ ـم إرم ذاتِ العماد. فذكر ذلكَ لإزالةِ الاشتباه. والثاني أنّ المبالغة في التّنصيصِ تـ ـدلُّ على مزيدِ التأكيد).

والّذي أراهُ هو أنّهُ لا داعي للتأكيدِ مرّتينِ ولا التّفريق ما بينَ وجودِ عـ ـادٍ الأولى والثانية في هذا المقام. بل إنّ التّسلسُلَ الموضوعيَّ ونفي إمكانِ أن تعصي أمّةٌ رسولها وتتمكّنُ بالتالي من تقريرِ مصيرها وفقَ رغباتها وخلافاً لمشيئةِ ربّها، كانت هي الدواعي الحقيقيّة وراء هذا التكرار لحرف التّنبيه (ألا). فاللهُ تعـ ـالى نبّـ ـه أوّلاً وقال: ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾. أي أنّ عاداً سعوا للتّستُّرِ على مشيئة ربّهم ولتقرير مصيرهم بأنفسهم. ونبّه للمرّةِ الثانية إلى فشلِ قومِ هودٍ في ذلكَ، وانتـ ـهاء مصرهم إلى ما ينتهي إليهِ كلُّ إنسان يكفرُ باللهِ ويعصي رُسله، وقال ثانيـ ـاً: ﴿أَلَا

﴿بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾. وكانت الغايةُ من ذلكَ تبليغَ هذه الحقيقة أذهان المكذبين من أهلِ الكتابِ خاصَّة.

فلمّا أنهى اللهُ جلَّ شأنهُ هذا الدليلَ التاريخيَّ الثاني، راحَ يقدِّمُ للمكذبينَ دليلاً تاريخياً ثالثاً يوضِّحُ لهم من خلالهِ مصيرَ القومِ الّذي يتناسى الغايةَ من وُجودهِ على سطحِ هذا الكوكبِ لأرضيِّ، ولا يلتفتُ إلى صوتِ رُسُلِ اللهِ الكرام. فاستقى تعالى هذا الدليلَ الثالثَ من حالِ قبيلةٍ عربيَّةٍ أُخرى أتتْ بعد قـومِ عـادٍ و لم تـتّعظ بمصيرهمُ الّذي صاروا إليه. وهيَ قومُ (ثمود) الّذينَ أفسدوا في الأرضِ وتناسَوا مـا جاءتْ بهِ شريعةُ نوحٍ عليه السلام. وقالَ جلَّ شأنهُ وهو يستهلُّ قصتهم وذلك في الآية الإحدى والستين:

﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾

و لم يستهلّ اللهُ جلَّ شأنهُ هذه الآية الكريمة بحرف (لقد) وهو الحرفُ الّذي استهلَّ به قصَّةَ نوحٍ عليه السلام. بسببِ أنَّ قومي (عاد وثمود) كانوا على شـريعةِ نوح. وليحقّقَ تعالى بين هذه القصص الثلاثة ربطاً موضوعياً. وليدلَّ على أنَّ بينهُم وبين موضوعِ السورة الأصليِّ علاقةٌ موضوعيَّةٌ أيضاً. وأبقى جلَّ شأنهُ علـى واو العطف ابتداءً من جهةٍ ثالثةٍ ولكن بمعنى عطف بيان. وليوضِّحَ من خلالِ هذه الواو أنَّ قومَ ثمودٍ هم بدورهم من سلالاتِ الّذينَ نجاهم ربُّهم مع نوحٍ من الطُّوفـان. لكنَّهُم انحرفوا عما جاءَ به نوحٌ عليه السلام من عقيدةٍ وحدانيَّةِ الله، وتعثَّروا بعبادةِ الأوثان.

ونتناولُ الفقرةَ الأُولى الّتي قالَ تعالى فيها: (وإلى ثمود أخاهم صالحاً) فهـو تعالى قد استعملَ كلمةَ (أخاهُم) بنفسِ المفهومِ الّذي أوردهُ من قبلُ وموضِّحاً من

خلالِ ذلكَ أن النَّبيَّ (صالح) كانَ أحد أفراد قوم ثمود. وكان يُمتُّ إل يهم ب صلة الرحمِ والنَّسب أيضاً.

فمن هم قومُ ثمود؟ أجابت على هذا السؤال الآية (٧٤) من سورةِ الأعرافِ الَّتي قال تعالى فيها وهو يُخاطبهُم: ﴿واذكروا إذ جعلكم خُلفاءَ من بعد عاد، وبوَّأكم في الأرض، تتخذونَ من سهولها قصوراً، وتنحتونَ الجبالَ بيوتاً، فاذكروا آلاءَ الله، ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾. فأشارَ من خلالِ قوله تعالى ﴿وتنحتونَ الجبالَ بيوتاً﴾ إلى آثارهم الّتي تركوها في البتراء داخلَ أراض ي القط ر الأردنيّ. والدالة على عظمة ما بلغوهُ من تقدُّمٍ عمرانيٍّ واضح المعالم.

وقد نقلَ لنا اللهُ عزَّ وجلَّ من خلالِ الفقرةِ الثانية الأمرَ الّذي دعا إليه نبيُّ هُ صالحٌ قومه والّذي قال: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾، وقد شابهَ خطابهُ عليه السلام خطابَ النبيّ هود الّذي بعثهُ الله تعالى من قبله. بمعنى أنَّ صالحاً عليه السلام قد واجهَ نفسَ الانحرافاتِ الّتي كانَ قد واجهها هودٌ من قبله. وه و عودةُ قومه إلى عبادةِ الأصنام.

وقد راحَ اللهُ جلَّ شأنهُ ينقلُ لنا في الفقرةِ الثالثة الدليلَ الّذي قدَّم هُ ص الحٌ عليهِ السلام إثباتاً من جانبهِ مصداقيَّةَ ما دعاهم إليه. فصالحٌ عليه السلام قال: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾. وهذا الدليلُ قد صيغَ صيغةً بلاغيَّةً يتبادرُ منها لذهنِ قارئها غير ما تضمنتهُ من معنى.

ذلكَ أنَّ العلامة الرازي رحمهُ اللهُ تبادرَ لذهنهِ من هذه الفقرة م ا أوردهُ في تفسيرهِ الكبير، قال: (قولهُ- هو أنشأكم من الأرض- فيه وجهان: الوجه الأوَّلُ أنَّ الكُلَّ مخلوقونَ من صلب آدم، وهو كانَ مخلوقاً من الأرض. وأقول: هذا ص حيحٌ لكن فيه وجهٌ آخرَ وهو أقربُ منه. وذلكَ لأنَّ الإنسانَ مخلوقٌ من المني وم ن دمِ

الطَّمث. والمَني إنما تولَّدُ من الدَّم. فالإنسانُ مخلوقٌ من الدَّم. والدّمُ إنّما تولّدَ مـ ـن الأغذية. وهذه الأغذية إما حيوانيَّة وإما نباتيَّة. والحيواناتُ حالُها كحال للإنسان. فوجبَ انتهاءُ الكُلّ إلى النَّبات. وظاهرٌ أنّ تولُّدَ النبات من الأرض. فثبتَ أنَّهُ تعالى أنشأنا من الأرض). والّذي يبدو لي مما كتبه آنفاً رحمهُ اللهُ أنّهُ لم يبلُغ فهمهُ العمقَ المقصودَ من هذا الدليل.

أقولُ: إنَّ النبيَّ صالح عليه السلام قد استمدَّ دليلَ كونِ الله واحداً لا شريكَ له في ملكه. قد استمدَّ هذا الدليلَ من تاريخِ قومِهِ أنفسهم. فكيفَ توصَّلنا إلى هذا المعنى؟ لقد نظرتُ إلى ضمير (هو) على أنَّهُ يعود إلى لفظ الجلالة (الله)، خـ ـصوصاً وأنَّ هذا الضَّميرَ لم يسبقهُ حرفُ عطف. ثمَّ إنّنا لو راجعنا معنى فعل (أنشأكم) في المعجم، لتبيَّنَ لنا أنَّهُ قصدَ به أنَّ اللهَ تعالى رباكم يا قومِ وكثَّرَ نسلكم منذُ نجاةِ نوحٍ ومن معهُ من الطوفان، إلى أن أوصلكم إلى ما أنتُم عليه من العزَّةِ والمنعة. كما تبيَّنَ لي أنَّ اللهَ تعالى لم يستعمل في هذا الدّليل كلمةَ (الأرض) إشارةً إلى تُربـ ـة الأرض. بل استعملها دلالةً على كلِّ ما انحطَّ وسفَلَ (محيط المحيط). فأنتَ تقولُ للإنـ ـسانِ الغريبِ هو ابنُ الأرض. دلالةً على كونهِ فقيراً مُعدماً. بالإضافةِ إلى أنَّ الله تعـ ـالى أتى بفعل (استعمركم فيها) بمعنى أنَّهُ تعالى أسكنكُم في هذه المنطقةِ بعد زوالِ ماء طوفان نوحٍ عليه السلام. هذا الوطنُ الّذي تحكمونهُ الآنَ وتتمتَّعونَ فيـ ـه (محـ ـيط المحيط). وخلاصةُ هذا الدّليل هو أنَّ صالحاً عليه السلام قد نبَّهَ أذهانَ أفرادِ قومهِ إلى تاريخِ نشأتهم. فلولا عنايةُ الله تعالى بنوحٍ ومن كانَ معهُ في السَّفينة، ولولا أنَّهُ تعالى كانَ قد باركَ بنسلِ أولئك الأجدادُ الأبرار الموحدين، فما كانَ لقومه أن يستعمروا هذا الوطنَ الّذي هم فيه، وما كانَ لهم أن يبلغوا فيه ما بلغوهُ من عزَّةٍ ومنعة. وإنَّ جميعَ ما حدثَ كانَ قد تحقَّقَ استجابةً لقولِ الله تعالى وهو يخاطبُ نبيَّهُ نوح (قيلَ يا نوحُ اهبط بسلامٍ منا وبركاتٍ عليك وعلى أممٍ ممَّن معك، وأممٌ سـ ـنمتّعُهم، ثمَّ يمسُّهم منا عذابٌ أليم). وكأنَّ صالحاً قد قال لقومهِ بألفاظٍ أُخرى تذكَّروا يا قـ ـوم

أنّكم حصيلةُ ما هيّأهُ ربُّكم من أسبابٍ بعد الطوفان الّذي أغرقَ قومَ نوحٍ عليه السلام. فاللهُ جلَّ شأنهُ هو الّذي أنشأكم من الأرضِ واستعمركم فيها. ولا دخلَ في ذلك كُلّه لهذه الأصنامِ الّتي أنتُم عليها عاكفون. فهذه هي خلاصة هذا الدليل التاريخي الّذي قدّمهُ صالحٌ لقومهِ ووردَ مُصاغاً بصياغةٍ بلاغيّةٍ مُعجزةٍ تبادرَ منها لذهنِ الرازي رحمه الله غير ما انطوت عليه من حقيقة.

ولنلاحظ كيف أنَّ صالحاً عليه السلام ما إن فرغَ من تقديمِ دليله التاريخيِّ المذكورِ لإثباتِ وحدانيَّةِ اللهِ عزّ وجلّ، إلا وأتى بفاءِ الاستئنافِ ليطرَحَ على قومهِ علاجَ ما وقعوا فيه من الخرافاتِ وأمراضٍ روحيَّةٍ ولذلك قال في الفقرةِ الرابعة: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ﴾ بمعنى أنَّ ربَّكم يتلهّفُ إلى سعيكم إليه لتتعرّفوا عليه، فالعلاجُ هو أن تستغفروهُ وتتوبوا إليه متوسّلينَ منهُ أن يسترَ ضعفكم ومعاهدينَ إيّاهُ على ألاّ تعودوا لتُشركوا به أحداً بعدَ الآن.

ولم يكتفِ صالحٌ بوصفِ هذا العلاجَ الرّوحيَّ لقومهِ ليتخلّصوا مما انحرفوا إليه.

بل وقال بعدها (إنَّ ربي قريبٌ مجيب). وبذلكَ يكونُ قد أجرى في هذه الفقرةِ حذفاً بيانياً ليوسعَ دلالاتها. فصالحٌ عليه السلام لم يوضّح من خلالِ قوله (ربي قريب) أهو قريبٌ من صالحَ نفسه أم قريبٌ من قومه أو أنّهُ قريبٌ منهم جميعهم. وصالحُ عليه السلام، ومن خلالِ حكايتهِ عن لسانِ ربّه أنّه (مُجيب) فلم يوضح أهو مُجيبٌ دعوةَ صالحٍ نفسه إذا دعا عليهم، أم أنّهُ مُجيبٌ تضرُّعَ قومهِ إذا استغفروهُ وتابوا إليه. أو أنّهُ مُجيبٌ دعوة الداعي إذا دعاه. فالفقرة أفادت جميعَ هذه المعاني الّتي أوردناها بسببِ هذا الحذف البلاغيِّ لمضاف كلمتي (قريبٌ، مجيب). وهي حقيقةٌ لم ينتبه إليها العلامة الرازي رحمهُ الله الّذي فسَّرَ هذه الفقرةَ بقوله: **(أي أنَّ اللهَ قريبٌ بالعلم والسّمع. ومجيبٌ دُعاءَ المحتاجينَ بفضله)**. فهو لم ينتبه إلى أنَّ هذهِ الفقرةَ لم يستهلّها اللهُ تعالى بحرفِ الواو العاطفة. وأنّهُ لم يقل

الحُكم. ولا انتبهَ إلى الحذفِ البلاغيِّ الّذي وضّحناه.

ففي هذه الفقرةِ الأخيرةِ يوجدُ إنذارٌ مُبطّنٌ وجّههُ النبيُّ صالح إلى قومهِ مغزاهُ أنّهم إذا لم يستجيبوا لدعوته وسعوا إلى القضاءِ عليه فإنّ الله تعالى قريبٌ من نبيِّهِ صالحاً ويمسّهم بعذابٍ أليم. أي أنّ صالحاً عليه السلام قد قالَ لقومهِ قولاً ليّناً. ومن ثمّ انتقلَ اللهُ تعالى ليبيّنَ لنا ما دارَ من حوارٍ بينَ نبيِّه صالح وما بينَ قومهِ وذلك في آيةٍ جديدةٍ قال تعالى فيها وذلك في الآية الثانية والستين:

﴿قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾

فقولُ قومِ صالحٍ في الفقرةِ الأُولى **(قد كُنتَ فينا مرجوّاً قبلَ هذا)** يعني أنّنا كُنّا نتوسّمُ فيكَ أن تزيدنا قوّةً واقتداراً بسببِ ما تتحلى به من مزايا عقليّةٍ وخلُقيّةٍ، لكنّكَ تدعونا لتركِ ما يعبُدُ آباؤنا وهذا قد أحبطَ ما كُنّا قد عقدناهُ عليكَ من آمال. هذا المعنى من منطلقِ أنّ كلمةَ الرجاء تعني توقُّعَ الخيرِ ممن عندهُ الخير. (محيط المحيط). هذا والملاحظُ من قولهم في الفقرةِ الثانيةِ **(أتنهانا أن نعبُدَ ما يعبُدُ آباؤنا)** أنّهم برّروا بذلك خيبةَ أملهم سالفة الذكر. وهذا التبريرُ يكشفُ في حقيقته عن عقولِ قومِ صالحٍ التقليديّةِ الّتي تقلّدُ ما توارثتهُ عن الآباءِ وكأنّهُ من المسلمات الّتي لا تقبلُ المراجعةَ ولا المُناقشة. فهم كانوا يأملونَ من صالحٍ أن يحثّهم على عبادةِ الأصنامِ وليسَ أن ينهاهم عن عبادتها. وقد عبّروا عن ردّةِ فعلهم في الفقرةِ الأخيرةِ الّتي قالوا فيها ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي أنّهم انطلقوا في ردّةِ فعلهم من نقطةِ خلافهم معهُ، وليسَ من مُنطلقِ حوارٍ معيّنٍ معه. فهم استعملوا كلمةَ (شكّ) وتعني الارتياب الّذي هو تردُّدٌ بين نقيضينِ بلا ترجيحٍ لأحدهما على الآخر (تعريفات). فبماذا أجابَ النّبيُّ صالحٌ على قومه؟ لنلاحظ كيفَ أنّ اللهَ تعالى قد صاغَ جوابهُ صياغةً بلاغيّةً وقال في الآية الثالثة والستين:

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

وليلاحظ القارئ صيغة (أ رأيتُم) الهمزةُ فيها للاستفهام. أمّا فعل (رأيتم) ما قُصدَ به هنا رؤيةَ العين، بل الفرض والرؤيةُ القلبيَّة (محيط المحيط) وليصبح معنى (أ رأيتم) أن سلّموا معي على سبيلِ الفرَض وبحيثُ لا تكونون مسؤولين عمّا افترضتموه وارتأيتموه. وقد صرَّحَ بما طلبَ منهم افتراضهُ وقال: (إن كُنتُ على بيِّنةٍ من ربّي وآتاني منهُ رحمة). وقد صاغَ ذلكَ صياغةً بلاغيَّةً. فهو أدخلَ حرف (إن) على فعل (كان) واستغنى بذلك عن خبرها. كما أتى بكلمةِ (البينة) لتفيدَ معنى الحجَّةَ والبرهان. وليصبحَ معنى قوله هذا أن سلّموا معي على سبيلِ الفرض بوجودِ صلةٍ لي بربّي وأملكُ لإثباتها حُجَّةً وبرهاناً أيضاً. وأنَّ ما آتاني ربي قد آتاني إيّاهُ برحمةٍ منهُ وتعطُّفٍ وفضلٍ خاصٍّ من جانبه عزَّ وجلَّ. فلما فرغَ من هذه الفقرةِ الأولى أتى بفاءِ الاستئناف وقال ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ أي أراكم تُطمّعونني بمركزٍ قياديٍّ أو سياسيٍّ وهو ما رَجَوتموهُ مني. ومعنى هذا أنّكم تطلبونَ مني أن أعصي اللهَ تعالى الّذي افترضتم أنَّ لي صلةً به. فإن استجبتُ لكم وعصيتهُ فمن ينصرُني إذا حاولَ تأديبي ومُعاقبتي؟ فهذه المعاني استدعتها إشارةُ الوقف الواقعة بعد كلمة (عصيته) وهي الإشارة الّتي تطلب من القارئ التوقُّف والتأمُّل والاستنتاج. ومن ثمَّ أتىّ النبي صالح عليه السلام بفاء الاستئناف ثانيةً وقالَ في الفقرة الأخيرة (فما تزيدونني غيرَ تخسير). فهو أتى بفعل (تزيدونني) وهو فعلٌ مُطاوعٌ لا يحتاجُ إلى مفعولٍ ثانٍ (الكلّيّات) كما أتى بكلمةِ (غير) منصوبةً بالفتحة على آخرها، ولم يأتِ بالمرفوعة بالضّمّة (غيرُ). فعلَ ذلكَ لتفيدَ كلمةُ (غيرَ) هذه معنى الحصر. كذلك أتى بكلمة (تخسير) بمعنى الإيقاع في الخسارة. وليصبحَ معنى قولهِ (فما تزيدونني غيرَ تخسير) أنَّ محاولتكم إغرائي لا تزيدني مالاً ولا جاهاً، بل

توقعُ بي خسارةً تُضلُّني في نهاية المطاف.

والملاحظُ هو أنّ اللهَ عزّ وجلّ قد أفادَ المؤمنينَ من خلالِ هذه الآياتِ الثلاثةِ الكريمةِ الآنفةِ الذكرِ بمواعظَ وعبرٍ: الأُولى منها ضرورةَ أن يعمدَ إلى التّوبةِ والاستغفارِ كلما صدرَ عنهُ خطأٌ غيرُ متعمَّدٍ. والثانيةُ منها أن يبتعدَ عن العقلِ التّقليديِّ عندَ تناولِه لكلِّ ما هو جديدٌ عليه وأن يتناولهُ بموضوعيّةٍ ومحاكمةٍ عقليّةٍ سليمةٍ بعيدةٍ عن الظنونِ. والموعظةُ الثالثةُ أن يفكّرَ دوماً بالسبيلِ الّذي يوصلُهُ إلى التعرُّفِ على خالقِه وللتشرُّفِ بأنوارِه. والموعظةُ الرابعةُ أن يأخذَ بعينِ اعتبارِه عند مواجهةِ أنبياءِ اللهِ ومجدّدي دينه افتراضَ أن يكونوا أسوةً للناسِ فيما يدعونَه إليه. والموعظةُ الهامةُ الخامسةُ أن يعزمَ أمرهُ على انتهاجِ الفهمِ والطريقِ الّذي أصبحَ واضحاً أمامَ عينيه ومتوكلاً على ربِّه عزّ وجلّ فلا يفكّرُ في النكوصِ عن ذلكَ بعدهُ أبداً، معتقداً أنّهُ إن فعلَ ذلك يصبحُ مستحقاً للعقابِ السماوي والهلاكِ في نهايةِ المطاف. وليعلم بأنّ هذا الإنسانَ المخالفَ لهذه المواعظِ والعبرِ سيتعرّضُ حينئذٍ إلى ابتلاءٍ شديدٍ من قبلِ ربِّه قبلَ إنزالِ عقابِه به. ذلكَ أنّ اللهَ تعالى لا يعاقبُ المسيءَ قبلَ إلقاءِ حجّتِه عليه. وهذه الحقيقةُ تجلّت فيما ابتلى به اللهُ تعالى قومَ صالحٍ على يديه بعد أن وقفوا وقفتهمُ الّتي سلفَ ذكرها. فلنصغِ إلى مضمونِ الآيةِ التاليةِ الّتي أطلعتنا على الحقيقةِ سالفةِ الذكرِ والواردةِ في الآيةِ الرابعةِ والستين: الآية المكتوبة ضمن الكتاب غير المطلوبة

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (هذه هي الآية المطلوبة)

ملاحظة: (أما هذه فهي المكتوبة ضمن الكتاب)

﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾

وعلى هذه الصورة، وبعدَ أقوال صالح اللّيِّنة مع قومه، وبعد وقوفهم الموقفَ الّذي لا ينمُّ عن محاكمات عقليّة ولا أنّهم كانوا يقدّرونَ ما يسمعونهُ من نبيِّهم صالح عليه السلام، راح اللهُ جلَّ شأنهُ يمتحنهم بابتلاء يستدرجهم من خلاله لمعاقبتهم. فامتحنهم بناقة صالح أن يذروها تأكلُ في أرض الله الواسعة، ومحذراً إياهم أن يمسوها بسوء. أي أنّهُ جعلَ إقدامهُم على قتلِ ناقة صالح عليه السلام تأكيداً من جانبهم أنّهم يكذّبونهُ ولا يحسبونَ لله الّذي أرسلهُ أيَّ حساب. وهذا هو السببُ في أنّ صالحاً عليه السلام سمى ناقتهُ (آية) في الآية سالفة الذكر. وبمعنى علامةً على رفضهم دعوتهُ إياهم وتكذيبهم إياه. وإلا فلا صحّةَ لما ذهبت إليه أذهانُ المفسرينَ القدماء.

فالعلامة الرازي على سبيلِ المثال فسَّرَ هذه الآيةَ الكريمةَ وقال: (**اعلم أنّ العادةَ فيمن يدعي النبوّةَ عندَ قومٍ يعبدونَ الأصنام أن يبتدئ بالدعوةِ إلى عبادةِ الله ثمَّ يُتبعهُ بدعوى النبوّة. لابدَّ وأن يطلبوا منه المعجزة. وأمرُ صالح عليه السلام هكذا كان**). قال هذا، مع أنَّ نصَّ الآيةِ الكريمة خلوٌّ من طلبِ معجزة. ولربما تساءلَ الرازي رحمه اللهُ في حديثِ نفسه عن كيفيَّة ظهور هذه المعجزة المطلوبة الّتي ذكرها. وهذا التساؤلُ دفعهُ بصورة غير شعوريَّة للبحثِ عن رواية تتعلّقُ بما شاءَ إثباته فأضافَ يقول (**يُروى أنّ قومهُ خرجوا في عيدٍ لهم، فسألوهُ أن يأتيهم بآيةٍ وأن يُخرجَ لهم من صخرةٍ معيَّنةٍ أشاروا إليها، ناقةً. فدعا صالحٌ ربّهُ. فخرجت الناقةُ كما سألوا. واعلم أنَّ تلكَ الناقةَ كانت مُعجزةً من وجوه. الأوّل: أنّهُ تعالى خلقها من الصخرة.**

وثانيها أنّهُ تعالى خلقها في جوفِ الجبلِ ثمَّ شقَّ عنها الجبل. وثالثها أنّهُ تعالى خلقها حاملاً من غيرِ ذكر. ورابعها أنّهُ خلقها على تلكَ الصورة دفعةً واحدةً من غيرِ ولادة. وخامسها ما رُويَ أنّهُ كانَ لها شُربُ يوم) ولكلِّ القوم شُربُ يومٍ آخر. وسادسها أنّهُ كانَ يحصلُ منها لَبنٌ كثيرٌ يكفي الخلقَ العظيم. وكلٌّ من

هذه الوجوهِ مُعجزٌ قويٌّ، وليسَ في القرانِ ذكرُه- إلا أنَّ تلك الناقة كانت آيةً ومعجزة. فأما بيانُ أنّها كانت مُعجزةً من أيِّ الوجوهِ فليسَ فيـ ـه أي لـ يسَ في القرانِ بيانُه). وعلى هذه الصورةِ غرسَ رحمهُ الله في أذهانِ الأجيالِ المسلمةِ الّـ تي تحترمُ تفسيرَهُ وتقدِّرُهُ شبهَ أسطورةٍ لا أساسَ لها فيما أوردهُ القرآنُ العظيمُ من أخبارٍ عن صالحَ وناقته.

فالملاحظُ من قولِ صالحٍ عله السلام أنّهُ قال **(هذه ناقةُ الله)**. وظاهرٌ أنّهُ قد قصدَ من قولهِ هذا الإشارةَ إلى ناقته بالذات ومقدِّماً إياها على أنّها من ط ـرفِ الله تعالى آيةً لهم على صدقِ وجودِ ربّهِ الّذي أرسلَ نبيَّهُ صالحاً إليهم. وقد طلبَ منهم طلباً بسيطاً هو في متناولِ أيديهم وهو أن يذروها تأكلُ في أرضِ الله المُشاعةِ لجميعِ خلقِ الله وليسَ في أراضيهم. وحذّرهم أنّهم إن مسوها بسوءٍ، يكونُ اللهُ تعالى قـ ـد ألقى عليهم حجّتَهُ. لذلكَ نلاحظُ أنَّ صالحاً أتى بفاءِ الاستئنافِ وقالَ في الفقـ ـرةِ الأخيرةِ من الآيةِ (فيأخذَكُم عذابٌ قريب.). وهو بهذا الأسلوبِ راحَ يثبتُ لقومهِ أنَّ ربَّهُ قريبٌ مجيبٌ أيضاً. وعليه فإنَّ الناقةَ لم تكن في حدِّ ذاتها مُعجزةً. بل كـ ـانَ مسُّها بسوءٍ هو سببُ ظهورِ معجزةِ العذابِ الّذي أخذَ قومَ صـ ـالحٍ مـ ـن قريـ ـب فأهلكَهُم. فهذا ما دلَّ عليه قولُ ربِّنا (لكم آية) ومقدِّماً الجار والمجرور على كلمة (آية) وبمعنى علامةٌ ظاهرة (محيط المحيط). وكأنَّ صالحاً قد تحدى قومهُ، وبألفـ ـاظ أخرى أن يمسوا ناقتهُ بسوءٍ، ليلاقوا ما يتوعّدهُم بهِ من عذابٍ سماوي. خـ ـصوصاً وأنّهُ قد استعملَ فعلَ المس وقال **(ولا تمسّوها بسوء)**. ففعلُ المسِّ يفيدُ لمسَ النّاقـ ـة بقصدِ الاختبار (محيط المحيط). والباء من كلمة (بسوء) اسـ ـتعملت هنـ ـا بمعـ ـنى الاستعانة. وكلمةُ (السوء) بعني كُرهَ الطّرف المساءُ إليه والقتل (محيط المحـ ـيط) أي أنَّ صالحاً عليه السلام نهى قومه عن قتلِ ناقته. وعلى اعتبارِ أنَّ في قتلها تحـ ـدياً لله تعالى وإساءةً معنويَّةً موجّهةً إلى ذاته عزَّ وجلّ. وتشكّلُ معصيةً وإثماً كبيراً. وعلى أساسٍ من هذا المعنى سالفِ الذكرِ أتى بفاءِ الاستئنافِ وقال **(فيأخذكم عـ ـذابٌ**

قريب). وهكذا أخطأ العلامة الرازي في فهمه لهذه الآية لعدم تدبُّره صياغتها تدبُّراً صحيحاً ولاعتماده على الروايات الظنيَّة. وفي وقت جاءت فيه هذه الآيةُ الكريمةُ مُصاغةً صياغةً بلاغيَّةً معجزةً لا يُفهمُ مضمونها إلاّ بعد تدبُّرها أُصوليّاً. وبعد أن نحيطُ علماً بهذه الدلالات الّتي أفادتنا بها هذه الآيةُ الكريمةُ، نعودُ نتساءلُ بالبداهة عما جرى بعدَ هذه التّحذير المذكور. ونلاحظُ بالتالي أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد راحَ يجيبنا على تساؤلنا هذا من خلال آيةٍ مستقلّةٍ قال فيها وذلك في الآية الخامسة والستين:

﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾

فهو تعالى أتى في جوابه المذكورِ بفعل (عقروها) المشتقُّ من قولكَ عقرَ النّاقة إذا قطعَ قوائمها جزّاً بالسيف (محيط المحيط). أي أنّهُ تعالى حينَ أتى بفاء الاستئناف وقال (فعقروها) يكونُ قد اختصرَ مُجرياتِ الأمور بهذه الكلمة وحدها الدالة على مدى استهتار قوم صالح بما حذّرهم منه من عاقبةٍ مُترتبةٍ على إقدامهم على تلك الخطوة الّتي أقدموا عليها وهم غير مُبالين. وقد أتى تعالى بفاء الاستئناف مرّةً أخرى وقال في الفقرةِ الأخيرة ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ أي أنّهُ تعالى حذفَ فاعل فعل القول. والقصدُ من ذلكَ إرجاعَ المضمون وتصريفهُ إلى عدة جهات. وليصبحَ المعنى أنّهُ تعالى دفعَ نبيَّهُ صالحاً ليقولَ مقولتهُ هذه. وأنَّ صالحاً عليه السلام قد نفّذَ أمرَ ربِّه وقالَ ما قال. وقد جاءت مقولتُهُ في منتهى الليونة، ومبطّنةً بتهديدٍ خطيرٍ. فقد أفسحت مقولتهُ هذه لقومه فرصة التّفكيرِ للاستغفارِ والتّوبة. فإن هم لم يستفيدوا من فرصةِ الأيّام الثلاثة يستحقونَ العذابَ في اليومِ الرابعِ، ويثبتُ من خلال ذلكَ أنَّ ربَّ صالحٍ (قريبٌ مُجيب). وإنّه حينَ أتى بكلمة (في داركم) قصد به موطنهمُ الّذي يستوطنونه (محيط المحيط).

وهذه الدلالات الّتي أوردتها، استنبطتها بأسلوب تدبُّرِ هذه الفقرةِ من هذه

الآيةِ الكريمة. ولم أحتاجْ في ذلكَ إلى رواياتٍ لا أساسَ لها وكما لاحظتم. لكنَّ العلامةَ الرازي رحمه اللهُ استعاضَ عن عمليَّةِ التَّدبُّرِ هذه بالرُّجوعِ إلى الرواياتِ الظنيةِ المنافيةِ للمعقولِ وكتبَ يقول: **(قالَ ابنُ عباس رضي اللهُ عنه أنَّهُ تعالى لمّا أمهلهُم تلكَ الأيامُ الثلاثةُ فقد رغَّبهُم في الإيمان. وذلك لأنَّهم لما عقروا الناقةَ أنذرهم صالحٌ عليه السلام بنزول العذاب. فقالوا: وما علامةُ ذلك؟ فقالَ: تصيرُ وجوهكم في اليومِ الأوَّل مُصفرَّةً. وفي اليوم مُحمرَّةً. وفي الثالثِ مُسودَّة. ثمَّ الرابع. فلما رأوا وجوههُم قد اسودَّت أيقنوا بالعذاب فاحتاطوا واستعدّوا للعذاب. فصبَّحهم اليومُ الرابعُ، وهي الصيحةُ والصاعقةُ والعذاب. فإن قيلَ: كيف يُعقلُ أن تظهرَ فيهم هذه العلاماتُ مطابقةً لقولِ صالحٍ عليه السلام، ثمَّ يبقونَ مُصرينَ على الكُفر وإذا صارت يقينيَّةً قطعيَّةً، فقد انتهى الأمرُ إلى حدِّ الإلجاء. والإيمانُ في ذلكَ الوقتِ غيرُ مقبول).**

أقول: إنَّ رواية ابنِ عباس رضي اللهُ عنهُ، ودفاعُ الرازي رحمه الله عنها، حُشرَ في هذا المقامِ، وعلى حسبِ رأيي، بلا مبرِّرٍ من أيِّ نوعٍ كان. خصوصاً وأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ كانَ قد أنهى هذه الآيةِ الكريمة بالقولِ ﴿ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ﴾ وقد حذفَ منه واوَ العطفِ من أوَّلهِ ليُعطي مضمونهُ استقلاليَّتهُ. واستبدلَ (هذا) باسم الإشارة للبعيد (ذلك) فلم يقل (هذا وعدٌ) تنبيهاً إلى هولِ العذاب الموعودُ به. بالإضافة إلى أنَّهُ تعالى نوَّنَ كلمةَ (وعد) ليزيدَ من هيبةِ العذابِ القادم. وقالَ عنه (غيرُ مكذوب) فأتى بالمصدر على وزن (مفعول) كمعقول ومجلود ومفتون. وبمعنى أنَّ هذا الّذي أعدكم به من العذابِ ليس هو من قبيلِ الكذب. والأهمُّ من ذلك كُلّه أنَّ اللهَ جلَّ شأنهُ قد أبهمَ على قومِ صالحٍ نوعيَّةَ العذابِ الّذي سينزلُهُ بهم. والحكمةُ من ذلكَ أن يتركهُم في ضياعٍ من أمرِ نوعيَّةِ العذاب، فلا يستعدّونَ لاتقاءِ ما سينزلُ بهم من عذاب. فلمّا فرغَ تعالى من إخبارنا عن نوعيَّةِ الحوارِ الّذي جرى ما بينَ نبيِّه صالحٍ عليه السلام وما بينَ قومه. هذا الحوارُ الّذي انتهى بنزولِ العذابِ

فيهم من جراءِ فقدانهم روحَ الحوار وأداته، فقد راحَ تعالى يقصُّ علينا سلوكه الّذي سلكهُ مع نبيِّهِ ومع الّذين آمنوا معه، وكيفَ أنّهُ نجاهم مما أنزلهُ من عذاب، وقال في الآية السادسة والستين:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾

وقد أعادَ اللهُ تعالى إلى ذاكرتنا من خلالِ ما استهلَّ به هذه الآيـة الكريمـة (فلمّا جاءَ أمرُنا) أعاد قولهُ تعالى في قصَّةِ نوحٍ عليه السلام ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ وفي نفس المناسبةِ تقريباً. وإنّ قولهُ تعالى في قصَّةِ هودٍ عليه السلام ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾. الأمرُ الّذي يُستدلُّ منهُ أنَّ كلمتي (جاءَ أمرُنا) قد شاء اللهُ تعالى اصطلاحها للدلالة على مجيء وقت العذابِ المقدَّرِ في السماء. وقالَ أيضاً ﴿نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ دلالةً على تدخُّلِ رحمةِ الله تعالى وقتَ نزولِ العذابِ لينجي جلَّ شأنهُ النبيَّ والّذينَ آمنوا معهُ من شرورهِ إيفاءً من جانبه بالوعدِ الّذي قطعهُ لهم من قبله. وأتى تعالى بواوِ العطفِ وقال: (ومن خزيِ يومئذ) أي وينجّيهم من وصمةِ الذّلِّ والهوانِ الّتي تلحقُ عادةً بالمكذّبين. ولما كانَ جلَّ شأنهُ قد فعلُ ذلكَ في تلك الأحوالِ الرّهيبة وعلى سورةٍ هي من قبيلِ المستحيلاتِ في نظرِ العقل. فقد أجابَ اللهُ جلَّ شأنهُ على هذه الخاطرةِ في الفقرةِ الّتي أنهى بها الآية وقال فيها (إنَّ ربَّكَ هو القويُّ العزيز) فهو قد أتى بحرفِ التأكيدِ (إنْ) وربطهُ بربوبيّته تعالى الّتي هي محلُّ إصدار أوامرهِ وتعليماته. كما أتى بضميرِ الشأن (هو) معظّماً به شأنَ هذه الرّبوبيّة. ومن ثمَّ وصفها بصفة (القويّ) مُعرّفاً بالألفِ واللامِ دلالةً على ما هي معهودةٌ به من القوّةِ والجبروت. كذلكَ وصفَ هذه الرّبوبيّة بصفة (العزيز) ومعرّفةً أيضاً دلالة

على أنّها لا يقدرُ أحدٌ على مغالبتها ولا يُعجزها فعلُ شيء. فلا مثيلَ لها (محـ يط المحيط).

ومن ثمّ أتى تعالى بواوِ العطفِ الّتي تفيدُ معنى الحال لدخولها علـ ى فعـ لِ (أخذَ) وراحَ يوضّحُ المصيرَ الّذي صارَ إليهِ قومُ صالحٍ عليه السلام، وقال في الآيـ ة السابعة والستين:

﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾

فهو جلَّ شأنهُ قالَ في الفقرةِ الأولى ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ أي أنّ اللهُ تعالى قد أنزلَ بقومِ صالحٍ عليه السلام العقابَ الّذي استحقوهُ بسببِ ظلمهم الّذي ارتكبوهُ وتجاوزوا من خلاله حدودَهم بين يدي ربِّهم. وعبَّرَ عن نوعيَّة العـ ذاب بكلمة (الصيْحة) معرَّفةً والمشتقّةُ من قولكَ فلانٌ صاحَ من الألمِ وغيرهِ أي صـ احَ من شدَّةِ العذاب (محيط المحيط) فاللهُ جلَّ شأنهُ قد حملَ فعل (أخذَ) علـ ى معـ نى الصياح وليسَ على كلمةِ (الصَّيحة) الّتي هي صيغةُ تأنيث. وإنَّ لهذا الاسـ تعمال نظائرهُ في كتاب الله العزيز.

ومن ثمّ أتى اللهُ تعالى بفاءِ الاستئناف ليوضِّحَ حالَ ما فعلتهُ الصَّيحةُ في قومِ صالحٍ عليه السلام وقال في الفقرة الأخيرة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾. فمن المؤسفُ أنّ العلامة الرازي رحمهُ اللهُ لم يفسِّر القرآنَ بالقرآنِ في هذا الموضع. بـ ل أخذَ بالرواياتِ الظنيّة أيضاً. وروى (عن ابنِ عباس أنّهُ قال: المراد- من الصيحة- الصاعقة. وذكر وجهاً آخرَ يُغايره ومرويّاً أيضاً وهو قوله: الصيحةُ صيحةٌ عظيمةٌ هائلةٌ سمعوها فماتوا أجمعُ منها فأصبحوا وهم موتى جاثمينَ في دورهم ومساكنهم. وجثومهم سقوطهم على وجوههم. يقالُ إنّهُ تعالى أمرَ جبريلَ عليـ ه الـ سلام أن يصيحَ بهم تلكَ الصيحة الّتي ماتوا بها ويجوزُ أن يكونَ اللهُ تعالى خلقها. والصياحُ لا يكونُ إلا الصوتُ الحادثُ في حلقٍ وفمٍ. فإن قيلَ: فما السببُ في كونِ الـ صَّيحةُ

موجبةً للموت؟ قلنا فيه وُجوه، أحدها: أنّ الصَّيحةَ العظيمةَ إنّما تحدثُ عندَ سببٍ قويٍّ يوجبُ تموُّجَ الهواء. وذلك التموُّجُ الشديدُ ربّما يتعدّى إلى صماخِ الإنسان فيمزّقُ غشاء الدماغ، فيورثُ الموت). فليسأل القارئ المثقّف نفسهُ عن صحّةِ هذه الرواية وعن تعليلِ مضمونها.

أما أنا فأحاولُ فهمَ مضمونِ كلمة (الصَّيحة) معرَّفةً على ضوء مُعطيات الآياتِ الّتي بحثت في مصيرِ قومِ ثمود. فقد وردَ في الآياتِ من سورةِ القمر: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾. أي أنّهم صاروا كالشّجرِ اليابسِ المتكسّر (محيط المحيط). كما وردَ في الآياتِ من سورةِ الحاقّة قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ أي أنّهم أُهلِكوا بصيحةِ العذاب (محيط المحيط). كذلكَ ورد في سورةِ الأعراف الآية ٧٩ قولهُ تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾. أي أنّ زلزالاً شديداً أهلكَ قومَ ثمود. (محيط المحيط). فإن نحنُ وفقنا بينَ جميع معاني هذه الآياتِ الكريمةِ الّتي أوردتها آنفاً، يُصبحُ معنى قولهِ تعالى ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ أنّ زلزالاً شديداً هزَّ ديارَ ثمود. ونتجَ عنهُ أنّهم صاحوا مُتألّمين تحتَ أنقاضِ دورهم ومُلقَونَ على بُطونهم وقد حطّمتهم الأحجارُ المُتساقطةُ فوقَ رؤوسهم. حتى عادوا كأغصانِ الأشجارِ المتكسرة. وأصيبوا بهذه المصيبةِ القاتلة لتجاوزهم حدودَهم ولاستهانتهم برسالة نبيِّ الله صالح عليه السلام ولنُسيانهم نعمَ ربِّهم الّتي كانَ قد أنعمها عليهم. ولمعالجتهم ما آتاهم به نبيُّ الله بعقلٍ تقليديٍّ. وليسَ بالحوار الهادئ المعقول. خصوصاً وأنّهم لم يستفيدوا من علاجِ الاستغفارِ والتّوبةِ الّذي وصفهُ لهم نبيُّهم صالحُ لعلاجِ ما بلغوهُ من انحرافٍ وبُعدٍ عن تعاليمِ شريعةِ نوحٍ عليه السلام.

فلما فرغ الله تعالى من بيانِ مصيرِ قوم ثمود، راحَ الله تعالى يُنزلُ لعنتهُ عليهم وذلك في الآية الثامنة والسّتين:

﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾

فقد أتى الله تعالى بكافِ التّشبيهِ ليُشبِّهَ ما صارَ إليه حالُ قوم ثمودِ بعدَ الزلزالِ الشّديدِ الّذي دمّرَ دورهم فوقَ رؤوسهم. وقالَ في الفقرةِ الأُولى ﴿كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآ﴾. أي أنّ الزلزالَ المُشارُ إليهِ كانَ من الشّدةِ بمكانٍ وإلى درجةٍ قضى على كلّ أثرٍ للحياةِ في موطنِ قومِ ثمود. وبحيثُ إذا مدرَّ الإنسانُ بعد حدوثه، لا يشعرُ هذا الإنسانُ بأنّ قوماً كانوا يقطنونَ في تلكَ الدّيارِ وأنّهم كانوا يحيَونَ هناكَ حياةَ رغدٍ ورفاهٍ وغنىً.

ومن ثمّ أتى الله جلّ شأنهُ بحرفِ التنبيه (ألا) ليوقظَ القارئَ من هولِ المشهدِ الّذي صوّرهُ لهُ آنفاً، وقالَ في الفقرةِ الثّانية ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾ وذُكرَ بذلكَ المكذّبين من أهلِ الكتابِ المعاصرينَ الّذين كذّبوا (الشاهدَ منهُ) إلى الحـ ـالِ الّذي قد ينتظرهم إن هم ثابروا على تكذيبهم إيّاه. والملاحظُ في هذه الفقرةِ الثّانيةِ حذفَ الجار والمجرور لناحيةِ الكفرِ الّتي قامَ بها قومُ ثمود. والحكمةُ من ذلكَ توسيعَ الدّلالة لتشملَ موضوعَ أنّهُم تناسوا ربّهم الّذي أنشأهم من الأرضِ واسـ ـتعمرهم فيها ويكونونَ بذلكَ كافرينَ بتاريخ نشأتهم. وأنّهم كفروا بوحدانيّة الذّاتِ الإلهيّة أيضاً. كذلك كفروا بنعمةِ العقلِ الّتي متّعَ الله تعالى الإنسانَ بها ليُحاكمَ كلّ مـ ـا استجدّ عليه. وأخيراً فقد كفروا ربّهم في موضوعِ ما لله تعالى مـ ـن قـ ـدراتٍ لا تُضاهى، فعصَوهُ عن سابقِ إصرارٍ وتصميم. ولم يبالوا بما فتحهُ الله تعالى لهم مـ ـن فرصةٍ للتّوبةِ بينَ يديه واستغفارهُ على ما فعلوه. فالحذفُ المذكورُ جـ ـرَّ إلى هـ ـذه المعاني كلّها لقوله تعالى ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡ﴾.

ولنلاحظ كيف أتى تعالى بحرف التّنبيه (ألا) للمرّة الثّانية وقال في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة ﴿أَلَا بُعْداً لِّثَمُودَ﴾. ومعلومٌ أنّ البعدَ عن الله تعالى يُقصدُ به اللّعنةَ والحرمانَ من محبّة الله تعالى ومن نيلِ قُربه ورضوانه.

أقولُ: من المؤسف أنّ العلاّمة الرّازي رحمهُ الله تعالى تلهّى عن استنباط المعاني الآنفة الذّكر، من جرّاء تلهيّه بالرّوايات الظّنّية المدسوسة ممّا لا أجدُ من حاجة بنا لإيراده في هذه المقام. وعلى هذه الصّورة أنهى الله جلّ شأنهُ قصّة نبيّه هود عليه السلام مع قومه. وبذلك يكونُ الله تعالى قد أنهى تقديمَ دليله التّاريخيَّ الثالثَ في مُواجهة المكذّبين. ومن ثمّ تحوّلَ ليقدّمَ لهم دليلاً تاريخيّاً رابعاً لعلّهُم يتّعظونَ به ويعتبرونَ ويرجعونَ عن تكذيبهم (الشاهد منه).

وأرى وقبل الانتقال إلى بيان هذا الدّليل الرّابع أُعطي القارئ شواهدَ تاريخيّة تؤيّد وجود قوم ثمود تاريخيّاً. إنّ القوم المذكور قد باد وهلك أفرادهُ قبل مجيء الإسلام بقرون. فالله تعالى كان قد غضب على قوم ثمود كما رأينا وأنهى وجودهم ولم يبق إلاّ على آثارهم ليتّعظَ بها من أرادَ أن يكون من المتّعظين. والتاريخ يُنبئنا بأنّ الملك سرجون الرّوميّ الّذي حكم ما بين عام (٧٠٥) وعام (٧٢٢) قبل الميلاد كان قد اجتاح ديار قوم ثمود وترك هناك نصباً تذكاريّاً خلّدَ بواسطته انتصاراته المذكورة. وقد أوردَ على النّصب اسم قوم ثمود. كذلك اشتهر من مؤرّخي اليونان (دايدوروس ٨٠ قبل الميلاد) و(بيني ٧٩ قبل الميلاد) و(بطليموس ١٤٠ قبل الميلاد) وقد أوردَ المؤرّخونَ أنّهُ وُجدَ ثلاثمائة فارس ثمودي في جيش الملك قسطنطين زمن مهاجمته بلادَ العرب ولربّما كانوا من بقايا قوم ثمود.

والآن أعودُ إلى أصلِ التّفسير فأقول: إنّ الله تعالى أتى بحرفِ الابتداء (لقد) وابتدأ هذا الدّليل التّاريخيَّ الرّابعَ وقال الآية التاسعة والستّين:

﴿وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن

﴿جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾

فلنحاول تدبُّر ألفاظِ الفقرةِ الأولى الّتي وردَ فيها ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا﴾. فالباء من قوله تعالى (بالبشرى) تفيدُ معنى المصاحبة وإنّ كلمةَ (البشرى) تعني في العربيّة الخبرَ الصّادق، ولتأثيرِ خبرها على بشرة وجه الإنسان الّتي تتغيّرُ لمجرَّد سماعه. أمّا كلمةُ (سلاماً) فمعناها نسلّمُ سلاماً. فجملةُ (نسلّمُ) المحذوفةُ هي جملةٌ فعليّةٌ. علماً بأنّ الجملةَ الفعليّةَ في اللّغة العربيّة تكونُ دوماً ذات دلالةٍ واسعة. ثمّ إنّ كلمةَ (سلاماً) يستعملها العربُ كدعاءٍ لمن يسلّمونَ عليه ليحفظهُ الله تعالى من الآفات في دينهِ وعقلهِ ونفسهِ وعرضهِ وجسمهِ ومالهِ وجاههِ وأولادهِ وأهله. (محيط المحيط).

ولنذكّرِ القارئَ بأنّ المفسّرينَ اختلفوا في شخصيّاتِ اللّذينَ أتوا إبراهيمَ بالبشرى. فغلبَ عليهم الاعتقادُ بأنّهم كانوا ملائكة. لكنّي أرى أنّهم كانوا بشراً بدليل أنّ الله تعالى ما قال فتمثّلَ رُسُلُنا لإبراهيمَ. فملائكةُ الله تعالى تتمثّلُ على هيئةٍ مُعيَّنةٍ يتجلّونَ بها. وإلاّ فإنّهم لا يبرحونَ أمكنتهم في السّماء. وسنعثرُ على أدلّةِ كونِ رسلِ إبراهيمَ من البشرِ وغيرُ ملائكة كلما تقدّمنا في تفسيرِ قصّتهم أيضاً. وعليهِ فقد أصبحَ معنى هذه الفقرةِ الأولى أنّ إبراهيمَ عليه السلام فوجئَ بضيوفٍ قدموا عليه ويحملونَ لهُ خبراً صادقاً. فألقوا عليهِ السّلامَ إشعاراً من جانبهم إيّاهُ أنّهم غيرُ أعداء. وبما أنّ إبراهيم عليه السلام كانَ يقطنُ في منطقةٍ هي أقربَ منها إلى الغابةِ من غيرها وقد ربّى فيها مواشيَ كثيرةً. واعتادَ أن يكونَ كريماً مع من يترلُ عندهُ ضيفاً. فلم يحاول الاستفسارَ عن الدّافعِ الّذي دفعَ هؤلاء إلى زيارته. بل أسرعَ لتهيئةِ ضيافتهم. فهذا ما أفادت به الفقرةُ الثّانيةُ الّتي يقولُ تعالى فيها بعد أن أتى بفاءِ الاستئناف ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾. فالعجلُ هو ولدُ الثّور. وكلمةُ

(حنيذ) من حنذَ الشّاةَ أي شواها في حُفرةٍ من الأرضِ وجعلَ فوقها حجارةً لتُنضجها ولتُصبحَ حنيذاً. (محيط المحيط). أي أنَّ إبراهيمَ عليه السلام أسرعَ فذبحَ عجلاً وشواهُ ليُطعمَ ضيوفه. فماذا جرى بعدَ ذلك؟ قالَ الله تعالى يُخبرنا عمّا جرى بعد ذلك، وذلكَ في الآية السبعين:

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾

فالسّؤالُ هنا أنّهُ ما دام رسُلُ الله تعالى قد أُرسلوا إلى قومِ لوطٍ، فما معنى أن يمرُّوا على إبراهيم عليه السلام أوّلاً؟ والحقيقة فإنَّ لوطاً عليه السلام كانَ من أقرباء إبراهيمَ وقدمَ معهُ من مدينةِ (أور) العراقيَّة كما يُستدلُّ على ذلك من تاريخهِ المعروف. حتّى وأنّ لوطاً كانت نبوَّتُهُ تابعةً لنبوّةِ إبراهيمَ عليه السلام أيضاً. وعلى شاكلةِ هارونَ فقد كانت نبوَّتُهُ تابعةً لنبوّةِ موسى عليهما السلام. وقد كانَ من المنطقيِّ جدّاً والحالُ هذه أن يُطلعَ الله تعالى إبراهيمَ قبلَ إطلاعِ لوطٍ على نبأ حلولِ أجلِ إهلاكِ قومه، وتخفيفاً لوقعِ هذا النّبأ على ذهنِ نبيِّه إبراهيم. وقد شاءَ جلَّ شأنهُ أن يُطلعنا بهذه المناسبة كيفَ كانَ نبيُّهُ إبراهيمَ متّصفاً نبيّه إبراهيم. وقد شاءَ جلَّ شأنهُ أن يُطلعنا بهذه المناسبة كيفَ كانَ نبيُّهُ إبراهيمَ متّصفاً بصفةِ الكرمِ أيضاً. وهي الصّفةُ الّتي دلَّ عليه قولُ ربِّنا بحقّه ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾.

وبهذه المناسبة أقول: من مُراجعتنا للإصحاح من سفر التّكوين من التّوراة المعاصرة تبيّن لي أنَّ كاتب هذا السِّفر راح يُصوِّرُ للقارئ أنَّ رُسُلَ إبراهيمَ كانوا بشراً في مكانٍ. وكانَ يصوِّرهم ملائكةً تارةً أُخرى في مكانٍ آخر. كذلك تبيَّنَ لي أنّه كان يذكرُ بأنَّ عددهم كان ثلاثة. وكان تارةً أُخرى يذكرُ أنَّ عددهُم كان اثنان فقط. وهي تناقضاتٌ موجودةٌ في هذه التّوراة المعاصرة من جملة ما هو

موجودٌ فيها.

وأتناولُ الفقرةَ الأُولى من هذه الآيةِ الكريمةِ المتعلّقة بما حملهُ رُسُلُ الله تعـالى إلى إبراهيم عليه السلام من بُشرى، والّتي قال فيها ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾. فيقولُ فيها (نكرهُم) تقديرهُ نكـرَ علـيهم فعلهم. ثمّ إنّ الواو من (وأوجس) تفيدُ معنى الحال تبييناً للحال الّذي صـارَ إليـه إبراهيمُ عليه السلام نتيجةً لعدم مدِّ أيديهم لتناول الطّعام. وإنّ كلمةَ (خيفة) صيغةُ مصدر نبَّهتنا إلى أنّ عدَّةَ أفكارٍ راودت ذهنَ إبراهيم عليه السلام نتيجـةً لـذلك أيضاً. والحقيقةُ هي أنّ إبراهيم بدرَ عنهُ ما ذُكر بسبب أنّهُ كانَ كريماً وقد ظنّ أنّهُ قد قصَّرَ في ناحيةٍ معيَّنةٍ من نواحي ضيافته ضيوفهُ الّذين لم يسارعوا لالتهام ما قدَّمهُ إليهم من طعام. فكانَ موقفهُ والحال هذه طبيعيّ جداً.

وعليه فليس بحقيقيٍّ ما ذهب إليه ذهنُ المفسرينَ القدماء. وهنا نعثرُ على دليلٍ جديدٍ يثبتُ منهُ أنّ ضيوفَ إبراهيم كانوا رجالاً ولم يكونوا ملائكةً. فلو أنّهم كانوا ملائكةً لبادروا إبراهيمَ بإطلاعهِ على ذلك وما كانوا ليتركوهُ عُرضةً لتشتُّتِ أفكاره.

وفي الفقرةِ الثّانيةِ من هذه الآيةِ الكريمةِ نقلَ لنا ربُّنا عزَّ وجلَّ ما حملهُ هؤلاء الرّسل من مضمونِ البشرى الّتي أُرسلوا بها إلى إبراهيمَ عليه السلام: ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾. والّذي نفهمهُ من هذه الفقرةِ أنّ رسلَ الله لاحظوا حال إبراهيمَ فسارعوا إلى إخبارهِ بأنّهم ليسوا ضيوفاً عاديّينَ ليُسارعوا إلى التهامِ طعـامِ الضّيافة. بل أتوهُ بمهمَّةٍ من ربّهم وهي أن يُطلعوهُ على خبرٍ صادقٍ يتعلّقُ بمصيرِ قومِ لوطٍ النّبيّ التابعُ له. فهذه هي المعاني الّتي توصّلت إليها من خلالِ مُعطياتِ هـذه الآيةِ الكريمةِ وبما يتناسبُ ومُعطياتِ ألفاظها.

أمّا العلاّمة الرّازي رحمه الله فقد كتبَ يقول **(نكرهم أي أنكرهُم. يُقالُ**

نكرهُ وأنكرهُ واستنكرهُ. وأعلم أنّ الأضيافَ إنّما امتنعوا من الطّعامِ لأنّهم ملائكةٌ لا يأكلون الطّعامَ ولا يشربون. وإنّما أتوهُ في صورةِ الأضيافِ ليكونوا على صفةٍ يُحبُّها وهو كانَ شغوفاً بالضّيافة. وأمّا إبراهيمُ عليه السلام فنقولُ: إمّا أن يُقال أنّهُ عليه السلام ما كان يعلمُ أنّهم ملائكة. بل كان يعتقد فيهم أنّهم من البشر. أو يُقال إنّهُ كان عالماً بأنّهم من الملائكة. أمّا على الاحتمال الأوّل فسببُ خوفِهِ أمران: خافَ أن يُريدوا به مكروهاً. وثانيها: أنّ من لا يعرفُ إذا حضر وقُدِّمَ إليه طعامٌ فإن أكلَ حصلَ الأمنُ وإن لم يأكل حصلَ الخوف. وأمّا الاحتمالُ الثّاني وهو أنّهُ عرفَ أنّهم ملائكةُ الله تعالى، فسببُ خوفِهِ في هذا التّقديرِ أمران: أحدهما أنّه خافَ أن يكونَ نزولهم لأمرٍ أنكرهُ الله تعالى عليه. والثّاني أنّهُ خافَ أن يكونَ نزولهم لتعذيبِ قومه). ولا أراه فيما ذكرهُ قد أصاب.

وقد أضاف الله جلَّ شأنهُ على المعلومةِ الذّكرِ يقول في الآية الإحدى والسبعين:

﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾

نتساءلُ عن سببِ ضحكِ زوجة إبراهيم عليه السلام: فما الّذي أضحكها؟ وما معنى قولهُ تعالى هنا (فضحكتْ)؟ خصوصاً وأنّ المفسّرين القدماء قد ذهبوا في ذلك مذاهبَ شتّى. اختلفوا في الضّحك على قولين: (منهم من حملهُ على نفسِ الضّحك. ومنهم من حملَ هذا اللّفظ على معنى آخر سوى الضّحك. أمّا الّذين حملوهُ على نفسِ الضّحك، فاختلفوا في أنّها لمَ ضحكت؟ وذكروا وُجوهاً، الأوّل: قالَ القاضي إنّ ذلك السّبب لا بدَّ وأن يكون سبباً جرى ذكرهُ في هذه الآية. وما ذاك إلاّ أنّها فرحت بزوالِ ذلك الخوف عن إبراهيم عليه السلام. حيث قالت للملائكة "لا تخف إنّا أُرسلنا إلى قومِ لوط) وعظُمَ سرورها بسبب سروره بزوالِ خوفه. وفي مثل هذه الحالة قد يضحكُ الإنسان. وبالجملة فقد كانَ

ضحكها بسبب قولِ الملائكة لإبراهيم عليه السلام (لا تخف) فكان كالبشارة. فقيل لها: نجعلُ هذه البشارة بشارتين. فكما حصلت البشارة بزوالِ الخوف فقد حصلتِ البشارة أيضاً بحصولِ الولد الّذي كنتم تطلبونهُ من أوَّلِ العمر إلى هذا الوقت. وهذا تأويلٌ في غايةِ الحسن. الوجهُ الثّاني: يحتملُ أنّها كانت عظيمةُ الإنكار على قومِ لوط لما كانوا عليه من الكفرِ والعملِ الخبيث. فلمّا أظهروا أنّهم جاءوا لإهلاكهم لحقها السرور فضحكت. الوجهُ الثّالث: قال السدي قال إبراهيم عليه السلام لهم (ألا تأكلون) قالوا لا نأكل طعاماً إلاّ بالثّمن. فقال: ثمنهُ أن تذكروا اسم الله تعالى على أوّلهِ وتحمدونَ على آخره. فقال جبريل لميكائيل عليها السلام "حقٌّ لمثل هذا الرّجل أن يتّخذهُ ربُّهُ خليلاً، فضحكت امرأتهُ فرحاً منها بهذا الكلام..) فهذه الوجوهُ وغيرها ممّا تركتُ ذكرهُ أوردها الرّازي رحمهُ الله في تفسيره. والّتي إن دلّت على شيءٍ فإنّما تدُلُّ على مستوى قائليها الفكريّ.

أقول: ما دامَ الله عزَّ وجلَّ قد قال (وامرأتهُ قائمة). فيعني هذا أنّها لاحظت جميعَ ما جرى من قبل. فهي لاحظت حالَ زوجها الّذي ظنَّ أنّهُ مُقصِّرٌ في جانبٍ من جوانبِ واجبِ الضّيافة. وهذا يعني أنّها اضطربت أكثر منهُ بسبب أنّها المسؤولةُ أصلاً عن ضيافة الضُّيوف. فلمّا خفّفَ الضيوفُ من وجَسِ زوجها إبراهيم عليه السلام وتبيَّنَ لها أنّها لم تُقصِّر في واجبِ ضيافتهم. هنا أتى تعالى بفاء الاستئناف وقال: (فضحكت). والمُتبادرُ لذهنِ القارئِ من هذه الكلمة معناها الشّائعُ في زماننا. لكنّنا إذا راجعنا معجم (محيط المحيط) يتبيَّنُ لنا أنَّ من معاني الضَّحك العجبُ والفزع. وهو المعنى الّذي يتناسبُ وهذا المقام. فالله جلَّ شأنهُ شاءَ أن يُخبرنا بأنَّ نبيَّهُ وحدهُ لم يوجس خيفةً من ضيوفهِ بل وقد فزعت وتعجَّبت زوجتهُ هي أيضاً ممّا كان من ضيوفهم إحساساً منها أيضاً بمسؤوليَّةِ ضيافتهم. وعبرَّ تعالى عن فزعها هذا وإحساسها بالمسؤوليَّةِ بقوله (فضحكتْ) فقط وقد حذفَ تعالى داعي الضَّحك.

وكما أن الله تعالى أطلعَ نوحاً عليه السلامُ من قبلُ على نبأ الطّوفان الّذي أهلك قومه من قبلُ. وبشّرهُ في الوقتِ نفسه أنّهُ سينجيّه والّذين كانوا معهُ منه وأنّه سيباركُ في ذرّيته وذرّيّتهم ويجعلُ منهم أُمماً. فهذا الأمرُ هو الّذي راحَ تعالى يفعلهُ هنا. فقد أتى بفاءِ الاستئنافِ ثانيةً وقال ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾. تبشيراً لها ولزوجها إبراهيم بنسلٍ ما كانا يتوقّعانه لبلوغهما سنَ الشّيخوخة. والحقيقة هي أنّهُ لمّا كان الله تعالى قد قدّرَ إهلاكَ قومِ لوط فقد قدّرَ في الوقتِ نفسه استبدالَهم بنسلِ إسحاقَ ويعقوب. لذلك بشّرها بإسحاقَ ومن ورائه يعقوب. لكنّهُ كما أنّ الله تعالى كان قد أنبأ من قبلُ عن ظهورِ أممٍ من نسلِ الّذين حملتهم سفينةُ نوح وأنّهم ينحرفونَ عن الصّراط المستقيم ينحرفون ويستحقّونَ الهلاكَ أيضاً وتحقّق ذلك في عادٍ وثمود. فإنّ في هذه المقابلة المعنويّة هنا توجدُ إشارةٌ إلى هلاكِ المكذّبين المعاصرينَ من أهلِ الكتابِ الّذين يزعمونَ في عصرنا أنّهم من نسلِ إسحاقَ ويعقوبَ وأنّ جدّهم هو إبراهيمُ عليه السلام. وأنا إذ قلتُ إنّ زوجةَ إبراهيمَ كانت شيخةً كبيرةً. فيؤيّدُ قوليَ هذا، قولهُ تعالى بعدهُ وهو يصوّرُ حالَ زوجةَ إبراهيمَ عند تلقّيها هذه البشارة وذلك في الآية الثانية والسبعين:

﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾

فزوجةُ إبراهيم عليه السلام قالت في الفقرة الأولى ﴿يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ فقولها (يا ويلتا) يعني يا لمصيبتي ويا لفضيحتي. ثمّ إنّ قولها (وأنا عجوز) فالعجوزُ هي المرأةُ المسنّة وتُسمّى كذلك لعجزها عن أداء أُمورِ منزلها. فهو وصفٌ خاصٌ بها (جميعُ المعاجم). فتعني هذه الفقرةُ الأولى أنّها، وبعد أن تلقّت بشارةَ ربّها بشأن ولادتها، صدّقت بكلامِ ربّها لكنّها تصوّرت نفسها حُبلى في سنّ العجز وهو أمرٌ ما اعتادَ عليه النّاس من حولها. لذلك تصوّرت أيضاً أنّها ستكونُ على ألسنةِ النّسوةِ

في كلِّ مكان. لذا اعتبرت هذا الأمرَ مصيبةً لها وفضيحة. فبماذا ستجيبُ عليهنَّ حين يسألنها عن حَبلها؟

وأمّا في الفقرةِ الثّانيةِ فقد أتى تعالى بواو العطفِ وأضافَ يقولُ على لسانها (وهذا بعلي شيخاً) فكلمةُ (بعلي) تعني ربُّ أمري ومالكي. حيثُ يُقال: من بعلُ هذه النّاقة؟ أي من صاحبُ أمرها ومالكها؟ والبعلُ يعني الزّوج أيضاً. وتُستعملُ كلمةُ (بعل) للمرأة إمّا مجرّدةً أو مضافاً إليها تاء التّأنيث لتصبح (بعلة). أمّا كلمةُ (شيخاً) فالشيخُ كلُّ رجلٍ انتهى شبابهُ وكَبُر وشابَ من بعد الإحدى والخمسينَ وإلى آخر العمر (جميعُ المعاجم). أي أنَّ زوجة إبراهيم أقرّت في الوقتِ نفسه أنَّ زوجها ما عاد صالحاً لإنجابِ الأولاد لكبرِ سنّه.

وأمّا في الفقرةِ الأخيرة فقولها (إنَّ هذا لشيءٌ عجيب) فإنَّ كلمةُ (عجيب) تعني كلَّ ما يتعجّبُ الإنسانُ منه (محيط المحيط). أي أنّها تعجّبت من مضمونِ بشارةِ ربّها وبذلك تداعت على ذهنها الأفكارُ السوداءُ من كلِّ جانب.

وبهذه المناسبة أنقلُ للقارئ ما أوردهُ كاتبُ سفرِ التّكوين في الإصحاح السّابع منه، فهو كتبَ يقول: (**وقال الله لإبراهيم: ساراي امرأتك لا تُسمّها ساراي، بل سمّها سارة. وأنا أباركُها وأرزقكَ منها ابناً وأباركُها فتصيرُ أُمماً وملوكُ شعوبٍ منها يخرجون**). أما بما يتعلّقُ بضيوفِ إبراهيمَ عليه السلام، فقد كتبَ في الإصحاح الثّامن عشر يقول: (ثمّ قالوا لهُ: أينَ سارة امرأتك؟ قالَ هي في الخيمة. قالَ سأعودُ إليك في مثلِ هذا الوقت ويكونُ لسارة امرأتكَ ابنٌ. وكانت سارة تتسمّعُ عند بابِ الخيمة الّتي وراءه. وكانَ إبراهيمُ وسارة شيخينِ طاعنينِ في السّن. وقد انقطعَ عن سارة ما يجري للنّساء. فضحكت سارة في نفسها قائلةً أبعدَ هَرَمي أعرفُ اللّذة وسيّدي قد شاخ؟ فقالَ الرّبّ لإبراهيم: ما بالُ سارة قد ضحكت قائلةً: أحقّاً ألدُ وقد شخت. هل من أمرٍ يُعجزُ الرّبّ؟ في مثلِ هذا الوقتِ أعودُ إليكَ ويكونُ لسارة ابن. فأنكرت سارة قائلةً: لم أضحك. ذلك بأنّها

خافت. فقال: لا، بل ضحكت). أقول: بالرّغم من الاختلافات الواقعة فيما نقلتُهُ للقارئ من هذه الأقوال. فإنّ مضمونها يتقاربُ كثيراً مع مُعطياتِ الآيةِ سالفة الذّكر.

أعودُ إلى التّفسير. فالله جلّ شأنُهُ راحَ يُخبرنا في الآية الّتي بعدها عن الموقفِ الّذي وقفهُ ضيوفُ إبراهيم عليه السلام منهُ وممّا لاحظوهُ من ردودِ فعلٍ على بشارتهم بدت على وجهه وقال على لسانهم وذلك في الآية الثالثة والسبعين:

﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾

ففي الفقرةِ الأولى قالوا ﴿قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ وقد قصدوا من قولهم (من أمرِ الله) أي من تقديره تعالى المتعلّقُ بشأنِ نسلِ إبراهيم عليه السلام. والمعنى أتدهشُكَ هذه البشارةُ الّتي يشملُها أمرُ الله الّذي لا يُردّ؟ أمّا قولهم في الفقرةِ الثّانية ﴿رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ فهو قولٌ تضمّنَ ما قصدوهُ من قولهم (من أمرِ الله) آنفاً. وقولهم (رحمةُ الله) فرحمةُ خبرٌ ومبتدؤها محذوفٌ تقديرهُ لا تنسوا رحمةَ الله ورأفتهُ بكم وما جرّ عليكم من بركاتٍ حتى الآن. أنتم يا من تعيشونَ تحت سقفِ هذه الدّار أي (أهلَ البيت). ولإنّ من واجبكم أن تتيقّنوا أيضاً أنّ هذه البشارة ستتحقّقُ يقيناً فهي واحدةٌ من تلك الرّحماتِ وتلك البركات.

أمّا في الفقرةِ الأخيرة من هذه الآيةِ الكريمةِ الّتي وردَ فيها قولهم: (إنّه حميدٌ مجيد) فقد أكدّوا من خلالِ حرفِ التأكيد (إنّ) أنّ ما أخبرناكم به اقتضتهُ صفتا الله وهو كونهُ (حميدٌ مجيدٌ). فكلمةُ (حميد) هي صيغةُ مبالغة من حامد ومحمود في آنٍ واحد. فالحامدُ هو الشاكرُ لحمدِ عبدهِ إيّاه. وإنّ الله تعالى لا يشكرُ عبدهُ التّقيُّ المُخلصُ ويبدي رضاهُ عنهُ وحسب. بل إنّ الله تعالى يتّصفُ بصفةِ (مجيد) أيضاً.

وهو صيغةُ مبالغة أيضاً ويعني الإلهُ ذو المجد وكثيرُ العطاء والرّفيعُ العالي والكريمُ الشّريفُ الّذي لا ينقطعُ عن الإحسان والتّفضُّلُ بالخيراتِ على عبادهِ المحبوبين (محيط المحيط). وعلى هذه الصّورة يكونُ قولُ ضيوفِ إبراهيمَ قد تضمّنَ جميعَ هذه المعاني سالفة الذّكر. فلمّا استفاق إبراهيمُ وزوجتهُ مّما فوجئنا به وسمعناهُ من ضيوفهما راحَ الله جلَّ شأنهُ يصوِّرُ لنا ما صارَ إليهِ حالهما وقال في الآية الرابعة والسبعين:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾

فالملاحظ أنَّ الله تعالى اختزلَ ما أصاب نبيَّهُ إبراهيم بكلمةِ (الرّوع) وعلى حسبِ ما وردَ في الفقرةِ الأولى من هذه الآيةِ الكريمة. ومعنى (الرّوع) فزعٌ طبيعيٌّ جدّاً (محيط المحيط). أي أنَّ جميعَ ما أخبرنا الله تعالى به في الآياتِ الماضية بشأن حالِ إبراهيم إنما كان من قبيلِ الرّوعِ والفزعِ الطّبيعيِّ جداً ليس إلاّ. لذلك فهو لا يحملُ معاني سيّئة بحالٍ من الأحوال في هذا المقام. وأضافَ تعالى يقول ﴿وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى﴾. فالواو تفيدُ معنى الحال هنا لدخولها على فعل (جاءتهُ). ومعنى أنَّ البشرى الّتي تلقّاها إبراهيمُ قد أزالت عن نفسهِ الرّوعَ والفزعَ الّذي كان أصابه. فماذا فعل إبراهيمُ عليه السلام بعد أن زالَ عن نفسهِ الرُّوع؟ أجاب الله تعالى على هذا السؤالِ وقال ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾. ففعلُ (يُجادلنا) يصوِّرُ للقارئ كيف أنَّ إبراهيمَ عليه السلام ما أن ذهب عنه الرّوع إلاّ وعادَ طبيعيّاً، متمالكاً لجأشهِ ورَصانته وحُسنَ ظنّه بربِّهِ ومعرفةً بأسمائه الحسنى لذلك راحَ يُجادلُ ربَّهُ فيما أخبرهُ ضيوفهُ من خبرٍ يتعلّقُ بإهلاكِ قومِ لوط. راحَ يتضرَّعُ بين يدي ربِّهِ أنْ ينظُرَ في مكرمةٍ واحدةٍ لهم تعفيهم من الهلاك. وإنَّ ربَّنا عزَّ وجلَّ شاءَ أن يُعطينا فكرةً عمّا اتّصفَ بهِ إبراهيمُ من صفاتٍ نبيلةٍ استلهمها من أسماء الله الحسنى نفسها في

موضوع السّتر والصّفح خاصّة.

فهذا هو التّصويرُ الحقيقيُّ الّذي صوّرهُ لنا القرآن المجيدُ لحالِ إبراهيمَ عليه السلام والّذي كانَ عليه في تلك اللّحظاتِ العصيبة. ومن واجبنا العودةُ هنا إلى التّوراةِ المعاصرة لنطّلعَ على ما كتبهُ كاتبُ سفر التّكوين فيها في (٢٢/١٨) الّذي أوردَ يقول: **(وانصرف الرّجلانِ من هناك ومضيا نحو سدوم– وهي موطنُ قومِ لوط– وبقي إبراهيمُ واقفاً أمام الرّبّ. فتقدّمَ إبراهيمُ وقال: أحقّاً تُهلك البارَّ مع الشرّير؟ لعلّهُ يوجدُ خمسونَ بارّاً في المدينة. أحقّاً تُهلكها ولا تصفحُ عنها من أجلِ الخمسينَ بارّاً الّذين فيها؟ حاشا لك أن تصنعَ مثلَ هذا أن تُميتَ البارَّ مع الشرّير. فيكونُ البارُّ كالشرّير حاش لك. أديّانُ الأرضِ كُلّها لا يدينُ بالعدل؟ فقالَ الرّبّ: إن وجدتُ في سدومِ خمسينَ باراً في المدينةِ فإنّي أصفحُ عن المكان كُلّه من أجلهم. فأجابَ إبراهيمُ وقال: قد أقدمتُ على الكلامِ مع سيّدي وأنا تُرابٌ ورماد. لربّما نقص الخمسونَ بارّاً خمسة أفتهلكُ المدينةَ كلّها بسببِ الخمسة؟ فقال: لا أُهلكها إن وُجدتْ هناك خمسةٌ وأربعين. ثمّ عادَ أيضاً وكلّمهُ فقال: لربّما وُجدَ هناك أربعون. فقال: لا أفعلُ من أجلِ الأربعين. قال إبراهيم: لا يغضبُ سيّدي أن أتكلّم لربّما وُجدَ هناك ثلاثون. فقال: لا أفعلُ إن وَجَدْتُ هناك ثلاثون. قال: قد أقدمتُ على الكلامِ مع سيّدي: لربّما وُجدَ هناك عشرون. قال لا أُهلكُ من أجلِ العشرين. فقال: لا يغضب سيّدي أن أتكلّمَ أيضاً هذه المرّةَ الأخيرة، لربّما وُجدَ هناك عشرة. قال: لا أُهلكُ من أجلِ العشرة. ومضى الرّبّ عندما انتهى من الكلامِ مع إبراهيم، ورجعَ إلى مكانه).** فبهذه الألفاظ وصفَ كاتبُ السفر المذكور الواقعة الآنفةُ الذّكر.

وقد يعجبُ القارئُ إذا أخبرتهُ أنّ العلاّمة الرّازي رحمهُ الله ذكرَ في تفسيره نفسَ هذا المضمون الّذي نقلتهُ لهُ آنفاً وبتفاصيله أيضاً. إنّما رواهُ بألفاظه الشخصيّة. الأمرُ الّذي يُستدلُّ منه أنّ هذه الرّواية اشتُهرت على نطاقٍ تاريخيٍّ

كبير. ذلك لاتّفاقه أيضاً مع مضمون الفقرة الأخيرة من هذه الآية ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي أنّهُ يُجادلنا أملاً من جانبه أن نصفحَ عن القومِ الذكورِ بواسعِ رحمتنا والّتي كانَ نبيُّنا إبراهيم من العارفين بها.

ولم يكتفِ الله جلّ شأنهُ بتذكيرنا بهذا الموقف الإبراهيميّ التّاريخيّ. بل وأضافَ يُطلعنا على صفاتٍ أخرى مّما كان نبيُّهُ إبراهيم عليه السلام يتّصفُ بها. فأتى بها في آيةٍ مُستقلةٍ وقال مؤكّداً ذلك، وذلك في الآية الخامسة والسبعين:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾

وبالرّجوع إلى معجم (محيط المحيط) لمعرفة معاني هذه الصّفات النّبيلة الّتي ذكرتها الآيةُ تنسبُها إلى النّبيّ إبراهيم عليه السلام، فهو يُبيّنَ أنّ صفةَ (حليم) تُطلقُ على الإنسان الّذي يمتازُ بكثرةِ صفحه عن سيّئاتِ من أساءَ إليه، وكثرة ستره لنقائصهم وعيوبهم. وأنّ صفة (أوّاه) تُطلقُ على من كان رقيقَ الفؤاد، كثيرَ التّأوُّه والدّعاء والتّضرُّع بين يدي ربّه عزّ وجلّ. أمّا صفةُ (مُنيب) فيوصفُ بها الإنسانُ الّذي يُسارعُ إلى التّوبة والعودة عن أخطائه. ويَلزَمُ في الوقتِ نفسه طاعةَ ربّه عزّ وجلّ. ويُنيبُ ويرجعُ إليه مرّةً بعد أخرى بلا مَللٍ ولا استهتار. وعليه يكونُ الله جلّ شأنهُ عن أنّ نبيَّهُ إبراهيم كان مُتّصفاً بجميع ما أفادتهُ معاني هذه الصّفات الّتي اشتملت عليها هذه الآيةُ الكريمةُ أنفةُ الذّكر.

وقد راحَ تعالى يُخبرنا بالموقفِ الأخيرِ الّذي وقفهُ الله جلّ شأنهُ من إبراهيمَ عليه السلام وبشأنِ قومِ لوطٍ. فقد قال الله عزّ وجلّ في الآية السادسة والسبعين:

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾

ومعنى (أعرض) أي صُدَّ وتوقَّفْ يا إبراهيمُ عن شفاعتك بشأنِ رفعِ العذابِ عن قومِ لوط. فالملاحظُ هو أنّ الله جلّ شأنهُ لم ينهرْ نبيَّهُ، ولم يستخفّ بجداله وترجّيه إيّاه. بل إنّهُ تعالى اكتفى بأن أمرهُ بالتّوقّفِ عن الدّعاء بين يديه وحسب. فهذا هو ما أفادتهُ الفقرةُ الأولى من هذه الآيةِ الكريمةِ الّتي قال تعالى فيها ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾. أمّا قولهُ تعالى في الفقرةِ الثّانيةِ من هذه الآيةِ الكريمة ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ فقد استهلّهُ تعالى بحرفِ التّأكيد (إنّ) لإفهامِ نبيّه إبراهيم أنّ القرارَ المُتّخذ بحقّ قومِ لوطٍ هو الآن في طريقه إلى التّنفيذ.

وأنهى جلّ شأنهُ الآية بقوله ﴿وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ وبمعنى أنّ أمرَ ربّكَ القاضي بإهلاكِ قومِ لوطٍ، هو أمرٌ إلهيٌّ مُبرمٌ وقطعيٌّ، ولا يُجدي معهُ شفاعتكَ ووساطتُك من أجلِ خلاصِ القومِ المذكور من العذاب. فمن خلال هذه الآياتِ الّتي أتت على ذكرِ إبراهيم عليه السلام وما جرى لهُ مع ضيوفه، يكون الله عزّ وجلّ قد مهّدَ من خلالها للكلامِ عن قصّة النّبيّ لوطٍ عليه السلام مع قومه. هذه القصّة الّتي ستُقدَّمُ في مُواجهةِ الّذين كذّبوا محمّداً (ص) و(الشاهد منه) كدليلٍ تاريخيٍّ رابعٍ يثبتُ من خلاله المصيرَ الحتميّ الّذي سيؤولُ إليه هؤلاء في نهايةِ المطاف. علماً بأنّ كلمة لوط اشتُقّت في الأصلِ من قولكَ لاطَ الشّيءُ بقلبِ فلانٍ معناهُ أنّهُ حُبّبَ إليه فأُلصقَ به ولم يعُد يُفارقه. كذلكَ تقول: التاطَ فلانٌ بقلبي وتعني أنّهُ حُبّبَ إلى قلبي وكأنّهُ أُلصقَ به.

وبعد أن فرغَ الله جلّ شأنهُ من هذا التّمهيدِ ابتدأ يقصُّ علينا قصّة هلاكِ قومِ لوطٍ فقال في الآية السابعة والسبعين:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ

عَصِيبٌ﴾

فقولهُ في الفقرةِ الأُولى (سيءَ بهم) معناهُ أحزنه ما سمعهُ منهم من نبأ يتعلّقُ بمصيرِ قومه. تقول: ساءني فعلُ فلان بمعنى كرهتُهُ وأحزنني (محيط المحيط). وعليه يصبحُ معنى الفقرةِ الأولى ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ﴾ أنَّ ضيوفَ إبراهيم انصرفوا من عنه ووصلوا بيتَ لوطٍ ودخلوا عندهُ وأخبروه بالخبرِ المشؤومِ فكرهَ أن يصيروا إلى هذه المصيرَ وأحزنهُ ذلك الخبرُ أيضاً. وأثبت بذلك مدى حُبّه لعباد الله تعالى واشتياقه إلى هدايتهم. ومن بابِ أنَّ صيغةَ (سيءَ بهم) صيغةُ بيانِ حال.

ومن ثمَّ أتى تعالى بواوِ العطفِ الّتي تفيدُ معنى الحالِ هنا وأضافَ يقول (وضاق بهم ذرعاً). ففعلُ (ضاق) لهُ معنيان: الشكُّ في القلبِ وما ضاقَ عنهُ صدرُك. (محيط المحيط). وبالإضافة إلى ذلك فإنَّ قولهُ ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ هي جملةُ مُحاورةٍ تردُ على لسانِ العربيِّ (أقرب الموارد) وتعني أنَّ همّةَ لوطٍ عليه السلام قد ضَعُفت من جرّاءِ سماعه هذا النبأ إلى درجة لم يجد بعد ذلك خلاصاً من هذا المكروهِ ولا نجاةً. ومن بابِ أنَّ كلمةَ (ذرعاً) أتت من مدِّ يدِ الإنسانِ إلى شيءٍ وعدم تمكّنه من الإمساكِ بهذا الشّيء. وبذلكَ يُستدلُّ من قولهِ تعالى ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً﴾ أنَّ لوطاً عليه السلام قلّبَ الأمورَ على جميع أوجُهها واحتمالاتها لإيجادِ مخرجٍ لقومه للخلاصِ من هذا العذابِ فلم يعثر على حلّ. وهذا الحالُ يوضّحُ مدى تأدُّبه مع ربّه.

ولا بأسَ أن أنقُلَ للقارئ ما فهمه الرّازي رحمهُ الله من قولهِ تعالى (سيءَ بهم وضاقَ بهم ذرعاً) ليقارنَ بين ما فهمتهُ منهُ وما فهمهُ منه. فقد كتبَ يفسّرُ ويقول: (قال ابنُ عبّاسٍ (رضي): انطلقوا من عندِ إبراهيمَ إلى لوط، وبين القريتينِ أربعُ فراسخ. ودخلوا عليه على صورةِ شبابٍ مُرْدٍ من بني آدم وكانوا في غايةِ الحُسن،

ولم يعرف لوطٌ أنّهم ملائكةُ الله. وذكروا فيه ستَّةَ أوجُه. الوجهُ الأوَّلُ أنّهُ ظنَّ أنّهم من الإنسِ فخافَ عليهم خُبثَ قومهِ وأن يعجزوا عن مُقاومتهم. والوجهُ الثّاني: ساءهُ مجيئهم لأنّهُ ما كان يجدُ ما يُنفقهُ عليهم وما كان قادراً على القيامِ بحقِّ ضيافتهم. والوجهُ الثّالثُ: ساءهُ ذلك لأنَّ قومهُ منعوهُ من إدخالِ الضّيفِ داره. والوجهُ الرّابعُ: ساءهُ مجيئُهم لأنّهُ عرفَ بالحذرِ أنّهم ملائكة وأنّهم إنّما جاءوا لإهلاكِ قومه. والوجهُ الأوَّلُ هو الأصحُّ لدلالةِ قوله تعالى ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾.

فلماذا أخذ رحمهُ الله بالوجهِ الأوَّل؟ أخذَ به لترجيحهِ أنّهم كانوا ملائكةً، ولاعتقادهِ بأنَّ قومَ لوطٍ كانوا يُباشرونَ الذّكورَ كما يباشرونَ نساءهم.

وأنقلُ الآن للقارئِ ما أوردهُ كاتبُ سفر التّكوين في التّوراةِ المعاصرةِ الإصحاح التّاسع عشر.

فقد كتب يقول: (**فجاء الملاكانِ إلى سدومَ مساءً، وكان لوطٌ جالساً عند بابِ سدوم. فلمّا رآهما لوطٌ قامَ للقائهما وسجدَ بوجههِ إلى الأرضِ وقال: سيّدي ميلا إلى بيتِ عبدِكما، وبيتا، واغسلا أرجلكما، ثمّ تُبكّرانِ وتمضيانِ في سبيلكما. فقالا: لا، بل في الساحة نبيت. فألحَّ عليهما كثيراً. فمالا إليه ودخلا منزله. فصنعَ لهما مأدبةً وخبزاً وفطيراً، فأكلا**).

فالملاحظُ مّما اقتبستهُ من أقوالِ كاتبِ سفرِ التّكوينِ الآن ومن قبل أنَّ هذا الكاتبَ كان يقولُ بشأنِ عددِ ضيوفِ إبراهيم تارةً أنّهم اثنان. وتارةً ثلاثة. واعتبرهم تارةً ملائكةً وتارةً رجالاً بشراً. وبدرَ عنهُ تناقضٌ جديدٌ في هذا النّصِ. فمن جهةٍ يقولُ أنّهم ملائكة. ومن جهةٍ أخرى يقولُ أنّهم أكلوا خُبزاً وفطيراً من مأدبةِ لوطٍ مع أنَّ من المعلومِ أنَّ الملائكةَ ليسوا من مادَّةٍ حتى يأكلوا ويشربوا لكنَّ الّذي يهمُّني من هذا النّصِّ هو قولُ كاتبه (**فمالا إليه ودخلا منزلهُ.. وأخيراً أكلا**)

إذ يعني هذا أنَّ ضيوفَ لوطٍ قد أخبروهُ بما حملوهُ من نبأ هلاكِ قومه بعد أن دخلوا منزله. وهذه المعلومةُ تُعيننا على فهمِ مضمونِ ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾. وهو المضمونُ الّذي توصّلنا إليه من هذا النّصِّ القرآنيِّ من قبل. وما دُمنا قد سلّمنا بمصداقيّةِ ذلك، يسهلُ علينا فهم الفقرةِ الأُخيرة من هذه الآية الكريمة وهي قولُ لوطٍ عليه السلام فيها: ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾. فكلمةُ (عصيب) اشتقّت من قولك: عصبَ الشيءَ وتعني أنّهُ طواهُ وشدّهُ ولواه. فعصيب تعني شديد (محيط المحيط).

وأستنتجُ أخيراً من الدّلالاتِ الّتي حصلنا عليها من الآياتِ السّابقةِ أنَّ ضيوفَ إبراهيمَ ولوطٍ عليهما السلام كانوا بشراً من جهةٍ وكانوا أكثر من اثنين من جهةٍ أخرى لورودِ صيغةِ الجمعِ نسبةً إليهم. وأنَّ الضّيوفَ المذكورين كانوا من الصّالحينَ من أمّةِ إبراهيم ومن المقرّبينَ إلى الله عزَّ وجلَّ. وقد كلّفهُم ربُّهم بهذه المهمّةِ لمعرفتهم بطرقاتِ المنطقةِ وكانوا من أهلها العرب، على حينِ أنَّ هذينِ النّبيّين قد جاءوا من مدينة (أور) جنوبيّ العراق، ولذلك ما كان يعرفان بعدُ مداخلَ ومخارجَ هذه المنطقةِ بعدُ لكونهم غرباء عنها. وقد سخّرَ تعالى هؤلاء الصّالحينَ لتأمينِ المكانِ الآمنِ للنّبيّ لوط ومن معهُ من النّاجين. وإنَّ الرّازي رحمه الله قد أخطأ عندما اعتمدَ على الرّواياتِ لفهم هذه النّصوصِ القرآنيّة. وإنَّ ما كتبهُ كاتبُ سفر التّكوين من التّوراة المعاصرة مليءٌ بالمغالطات والتّناقضات.

وأنتقلُ إلى تدبُّرِ الآيةِ الّتي بعدها، والّتي ستصوّرُ لنا مُجرياتِ الأمورِ الّتي حدثت بعد وصولِ الضّيوف إلى دار لوطٍ عليه السلام ولإبلاغه النّبأ المشؤوم. فقد قال تعالى بعد ذلك في الآية الثامنة والسبعين:

﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ

﴿بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾

وقد جاءت هذه الآيةُ الكريمةُ مُصاغةً صياغةً بلاغيَّةً يتبادرُ لذهنِ قارئها غير ما تضمَّنتهُ من دلالات، لذلك تاهت آراءُ المفسِّرينَ القدماء في فهمِ مضمونها خصوصاً وإنَّهم تهافتوا على الرِّواياتِ المدسوسةِ ولم يتدبَّروها على أساسٍ من منهجيَّة القرآنِ الكريمِ وأُصولِ تفسيره.

فها أنَّ العلاَّمة الرَّازي كتب يفسِّرُها ويقول: (وفيه مسائل: المسألةُ الأولى أنَّهُ لمَّا دخلتِ الملائكةُ دارَ لوطٍ عليه السلام، مضتْ امرأةٌ عجوزٌ السّوء فقالت لقومه: دخلَ دارنا قومٌ ما رأيتُ أحسنَ وُ جوهاً ولا أنظفُ ثياباً ولا أطيبُ رائحةً منهم. ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي يُسرعون. وبيَّنَ تعالى أنَّ إسراعهم ربُّما كان لطلبِ العملِ الخبيث بقوله ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ نُقلَ أنَّ القومَ دخلوا دارَ لوطٍ وأرادوا أن يدخلوا البيتَ الَّذي كان فيه جبريلُ عليه السلام، فوضعَ جبريلُ عليه السلام يدهُ على ا لباب، فلم يُطيقوا فتحهُ، حتَّى كسروه، فمسحَ أعينُهم بيده، فعموا، فقالوا: يا لوطُ قد أدخلتَ علينا السَّحرةَ وأظهرتَ الفتنة.. أمَّا قولهُ تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ ففيه قولان: قال قَتادة المرادُ بناتهُ لصُلبه. وقال مُجاهد وسعيد بن جُبير المراد نساءُ أمَّته لأنَّهنَّ في أنفسهنَّ بناتٌ، ولهنَّ إضافةٌ إليه بالمُتابعة وقبولِ الدّعوة. قال أهلُ النَّحوِ يكفي في حُسنِ الإضافة أدنى سبب، لأنَّهُ كان نبيَّاً لهم فكانَ كالأبِ لهم. قال تعالى ﴿وأزواجهُ أُمَّهاتهم﴾ وهو أبٌ لهم. وهذا القولُ عندي هو المُختار). فهذا هو ما اقتطفتهُ واقتبستهُ مما فسَّرَ به الرَّازي رحمهُ الله هذه الآيةَ الكريمة.

فإن نحنُ دقّقنا فيما كتبهُ الرَّازي رحمهُ الله يتبيَّنُ لنا:

أولاً- أنّه رحمه الله لم يُكلّف نفسهُ عناءَ تدبُّر الآيةِ بعناية، بل اعتمد في تفسيرها على الرّوايات.

ثانياً- كذلك أنّهم زوجةَ لوط بتحريضِ قومها على فعلِ المُنكر.

ثالثاً- وصدَّق الرّواةَ بأنّ قومَ لوطٍ أسرعوا إليه طلباً لفعلِ العملِ الخبيث.

رابعاً- وصدَّقهم أيضاً من أنّ جبريلَ أصابَ عُيونَ قومِ لوطٍ بالعمى، وبدون وجودِ أساسٍ لهذا الإدّعاء في نصّ هذه الآيةِ الكريمة. وعليه فلا يصحُّ اعتمادُ هذا التّفسير المذكور.

وأحاولُ الآن تدبُّرَ هذه الآيةِ الكريمة. فأتناولُ الفقرةَ الأولى الّتي قالَ تعالى فيها ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾. ففعل هرعَ يعني مشى باضطراب. فلو صحّ أنّ قومَ لوطٍ قد أسرعوا بالقدومِ إلى دار لوطٍ لقضاء شهوةٍ مُحرَّمةٍ فلا يُعقلُ أن يأتوا إليه مسرعين مضطربين. بل يأتونه مسرعين نشطين وفرحين. ففي (محيط المحيط) تقول هرعَ إليَّ وتعني أنّه مشى نحوي مسرعاً وباضطراب. فمعنى (وباضّطراب) أي باختلالٍ وعلى غيرِ وجهٍ ونظام.

وإنّ هذا المعنى الّذي يفيدهُ قولهُ تعالى ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يدلُّ على أنّ إسراعهم ليس كما افترضهُ المفسّرون القدماء، بل بسببٍ آخر من واجبنا البحثُ عنه. ويُلفتُ نظرنا إلى هذا السّبب المطلوب قولُ قومِ لوطٍ وهم يستجوبونَ نبيَّهم لوطاً عليه السلام وذلك في الآية (٧٠) من سورة الحجر ﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. والمعنى أنّهم كانوا قد نَهَوا لوطاً أ، يستقبل أحداً من النّاس في داره. وما دام قد استضاف هؤلاء الضّيوف فيها فقد خالف بذلك أنظمة مدينتهم واستحقَّ العقاب من جانبهم. وبهذا المعنى تُحلُّ مشكلة معنى (يُهرعونَ) إليه. فلو أنّهم كانوا هرعوا إليه لفعل الفاحشة، لكان الأحرى بهم أن يشجّعوهُ على استقبالِ الضيوفِ وليس أن يمنعوهُ من ذلك الفعل.

والحقيقةُ تتجلّى في أنّ قول الله تعالى قبل الآية (٧٠) ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ، قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ يُفسّرُ قوله تعالى هنا (يُهرعونَ إليه) ففعل (تفضحون) اشتُقَّ من قولك: فضحهُ ومعناهُ أنّه كشف مساوئهُ وعيوبه (محيط المحيط). كذلك فإنّ فعل (ولا تُخزون) اشتُقَّ من قولك: خزاهُ بمعنى ساسهُ وقهرهُ (محيط المحيط). وليصبح معنى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ﴾ أنّ لوطاً طلب من قومه ألاّ يحاولوا كشف الغطاء عن مخالفته لما منعوهُ منه أمام ضيوفه. كي لا يقهروهُ أمامهم ليسوسوه. وهذه المعاني جميعها توضّحُ معنى ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ فمعناه أنّهم راحوا يبشّرُ بعضهم بعضاً بأنّهم عثروا على حُجّةٍ قانونيّةٍ تمكّنهم من طرد النّبيّ لوط من مدينتهم. وذلك من جرّاء استقبال لوط عليه السلام ضيوفهُ في داره، وكما دلَّ على ذلك قولهم ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. ويؤكّدُ مصداقيّةَ ما ذهبنا إليه من معاني قولُ لوطٍ في الآية (١٦٧) من سورةِ الشّعراء: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ أي تكونُ مُخرجاً من مدينتنا إن أنت خالفت أنظمتنا وأوامرنا. فالقرآنُ الكريمُ يفسّرُ بعضه بعضاً.

فإن شئنا معرفة سبب تقييد قومِ لوطٍ إيّاهُ بضرورةِ عدم استقباله ضيوفه في داره الشخصيّة. فمن الضّروريّ مراجعة ما كتبهُ كاتبُ سفرِ التّكوينِ بحقّهم، وذلك في الإصحاح (٢١/١٨) منه. فقد وضّحَ الكاتبُ المذكورُ هناك بأنّ قومَ لوطٍ كانوا يقطنون مدينة (سدوم) وأنّ سكانها كانوا أشراراً وقُطاع طرق. وكان بينهم وبين سكان المدن المُجاورة مُناوشاتٌ وعداءٌ مستمرّين. وهو السّبب الّذي دفعهم لمنع النّبيّ لوط من أن يستضيف عندهُ في داره ضيوفهُ خشيةً منهم أن يكون بين ضيوفه من هو عدوٌّ من أعدائهم دخل القرية عن طريق تلك الحيلة ليفعل في

قريتهم ما يشاء. لذلك طالبوا لوطاً عليه السلام أن يستضيف ضيوفهُ في ساحة البلدة ليظلَّ هؤلاء تحت أنظار مُراقبيهم. فلا يكون من ضيوفه أعداءٌ يغدرون بأهلِ سدوم. وبما أنَّ لوطاً عليه السلام كان نبيّاً صالحاً، ومضيافاً كقريبهِ إبراهيم عليه السلام، وينهى قومهُ عن فعل السّيئات. فقد كان من الصّعبِ عليه جدّاً التزامهُ بما كانوا ينهونهُ عنه.

فإن نحن استندنا إلى المعلومات الّتي حصلنا عليها آنفاً، يُساعدنا ذلك على فهم قول الله عزَّ وجلَّ ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾. ويعودُ يُفهمُ من هذه الفقرة أنَّ سكّان سدوم ما إن علموا بمبيت ضيوف لوطٍ في داره ومخالفته لأوامرهم إلاّ واستبشروا بذلك وأيقنوا أنّهم أمسكوا عليه ما يبرِّرُ طردهُم إيّاهُ من مدينتهم. لذلك جاءوا (يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ) أي جاءوا وهم مضطربين. وليس لفعل الفاحشة كما ذكر الرّازي وغيره من المفسّرين القدماء.

وإنَّ الحقيقةَ الّتي توصّلنا إليها تقومُ بتصحيح تناقُضاتِ كاتب سفر التّكوين أيضاً. ففي الإصحاح التّاسع عشر منه كتب يقول: **(فجاء الملاكان إلى سدوم مساءً وكان لوطٌ جالساً عند باب سدوم. فلمّا رآهما لوطٌ قام للقائهما وسجدَ بوجهه إلى الأرض وقال: سيّدي ميلا إلى بيت عبدكُما وبيتا واغسلا أرجلكما ثمّ تبكّران وتمضيان في سبيلكما. فقالا: لا، بل في الساحة نبيت. فألّح عليهما كثيراً فمالا إليه ودخلا منزله...)**.

وقد وقع كاتبُ هذا النّصِّ بتناقضٍ فاضح. فلوطٌ عليه السلام نبيٌّ يحترمُ أنظمة وقوانين البلد الّذي يقطُنُ فيه. فلو ظنَّ عليه السلام أنَّ الرّجلين هما عابرا سبيلٍ، فلا يُعقلُ أن يلحَّ عليهما ليبيتا عندهُ في داره وفي وقتٍ هو ممنوعٌ فيه من استضافة الغرباء عن بلدة سدوم. وبذلك يُعرّض نفسه بالتالي للطردِ من داره ومن مدينةِ سدوم. ولا تكونُ الحقيقةُ إلاّ فيما ذكرهُ لنا القرآنُ الكريمُ بهذا الخصوص.

والّذي تضمنّهُ قولهُ تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ فالضيوفُ هم الّذين عرّفوا لوطاً على أنفسهم وعلى ما حملوهُ من رسالةٍ سماويّةٍ لهُ بشأن هلاك قومه الأشرار. وليس هو الّذي ألّح عليهم بالمبيت عنده. فقد كان من الطّبيعيّ جدّاً أن يطلبوا هم أنفسهم المبيت عنده ليتبادلوا الحديث وليتشاوروا في الأمر الّذي جاءوا من أجل تنفيذه.

وكان لله جلّ شأنهُ من إدخال رسُله إلى دار نبيّه لوطٍ حكمةً جلْيلةُ القدر أخرى. فقد شاء تعالى أن يُلقي حُجّتهُ الأخيرة على قومِ سدوم. وليثبتوا من خلال ما سيفعلونه مع نبيّه لوطٍ بسبب استضافته رُسل الله والّذين أصبحوا ضيوفاً عنده، أنّ قومه هؤلاء سيئون جدّاً. ولذلك لاحظنا أنّه تعالى أضاف في الفقرة الثّانية من الآية يقول ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾. فهو تعالى أتى بفعل (يعملون) و لم يقل (يفعلون)، فلماذا؟ ورد في معجم (محيط المحيط) أنّ فعل (يعمل) يعمُّ أفعال الجوارح والقلوب. وأنّه يفيدُ في الوقت نفسه معنى امتداد زمان هذا العمل مع المُثابرة عليه. على حين أنّ فعل (يفعل) يُفيدُ إحداث شيءٍ من العمل وحسب. ومثالهُ قوله تعالى في سورة الفيل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾. ونستنتجُ من خلال دلالة فعل (يعملون) الواردُ هنا على أنّ قومَ لوطٍ كانوا يرتكبون دوماً مختلف أنواع السيّئات بجوارحهم وأفئدتهم أيضاً وفي جميع أحوالهم.

كما نتساءلُ عن الدّاعي لاستعماله تعالى كلمة (السّيئات) بدلاً عن كلمة آثام أو سواها. وقد أورد (محيط المحيط) يقول: كلمةُ السوء تعني الفجور والمُنكر والشدّة والذّنب والضُّر والقتل ومقدّمات الفاحشة. وعليه فإنّ في قوله تعالى ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ يكونُ الله تعالى قد نبّه أذهاننا إلى أنّ قوم لوط الّذين هرعوا لإدانة نبيّه لوط تناسوا في تلك اللحظات أنفسهم وما كانوا يرتكبونهُ من

أنواع الفجور والمنكرات ومختلف أنواع الذّنوب والإضرار بالنّاس وقتل الأنفُسِ بغيرِ حقٍّ واللّجوء إلى أساليب العُنف. فهم قومٌ كانوا يأمرون الناس بإطاعة القانون وينسون أنفسهم أنّهم مُجرمون ويستحقّون العذاب والإهلاك.

ومن ثمّ راح الله تعالى يوضّح للقارئ موقف نبيّه لوطٍ وكيف أنّه راح يعتذرُ منهم ويقدّمُ للذين هرعوا إليه ضمانةً تؤكّدُ حُسن نيّته فقال ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾. وقد وردت هذه الحقيقةُ مُصاغةً صياغةً بلاغيّةً مُعجزةً زاغت في فهمها أذهانُ المفسّرين القدماء، بسبب أنّهُ يتبادرُ منها خلاف معناها الحقيقيّ.

فالعلاّمة الرّازي رحمهُ الله كتب ما فهمهُ من هذه الفقرة آنفة الذّكر يقول: (اختلفوا هل المقصود بناتهُ من صُلبه أو أنّهم بناتُ قومه لأنّهُ كان نبيّاً، فكان كالأب لهم. قال تعالى ﴿وأزواجهُ أُمّهاتهم﴾ وهو أبٌ لهم. وهذا القولُ عندي هو المُختار. ويدلُّ عليه وجوه: الأوّل أنّ إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفجّار أمرٌ مُستبعدٌ لا يليقُ بأهل المروءة فكيف بأكابر الأنبياء؟ الوجهُ الثّاني وهو أنّهُ قال ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فبناتهُ اللواتي من صُلبه لا تكفي للجمع العظيم أمّا نساءُ أُمّته ففيهنّ كفاية. الوجهُ الثّالثُ أنّهُ صحّت الرّواية أنّهُ كان له بنتان وهما (زنتا وزعورا) وإطلاقُ لفظ البنات على البنتين لا يجوز، لما ثبت أنّ أقلّ الجمع ثلاثة. فأمّا القائلون بالقولِ الأوّلِ فقد اتّفقوا على أنّهُ عليه السلام ما دعا القوم إلى الزّنا بالنّسوان، بل المراد أنّهُ دعاهم إلى التّزوُّج بهنّ، وفيه قولان: أحدهما أنّهُ دعاهم إلى التزوّج بهنّ بشرط أن يقدّموا الإيمان. والثّاني أنّهُ كان يجوزُ تزويجُ المؤمنة من الكافرِ في شريعته، وهكذا في بداية الإسلام، بدليلِ أنّهُ عليه السلام زوّج ابنتهُ زينب من أبي العاص بن الرّبيع وكان مُشركاً، وزوّج ابنتهُ من عتبة بن أبي لهب، ثمّ نسخ ذلك بقوله ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ وبقوله ﴿وَلَا

﴿تَنكِحُواْ الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُواْ﴾. واختلفوا أيضاً فقال غالبهم كان له بنتان. وعلى هذا التّقدير ذكر الاثنتين بلفظ الجمع. كما في قوله ﴿فإن كان لهُ أخوةٌ فقد صَغَت قُلوبكما﴾. وقيل إنَّهنّ كُنّ أكثر من اثنتين. فهل صحّ ما تبادر لأذهان هؤلاء القدماء؟ وهل أنّ هو المقصودُ من قوله تعالى ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾)؟

أقولُ: إنّ التسلسُل الموضوعيّ لدلالات الفقرات السّابقة تبيّن منهُ أنّ قوم لوط كانوا منعوهُ أن يستقبل ضيوفاً في داره خصوصاً إذا كانوا غرباء عن مدينتهم، خشية أن يكون أحدهم عدوّاً يريدُ الكيد بهم عن غفلة منهم لكونهم يعملون السّيئات وقد عادوا جميعَ من حولَهم من النّاس. وقد جاء ضيوفُ لوط عندهُ بمهمّة إبلاغه أمرَ ربّه بحقّ قومه ولإخراجه خارج مدينته لينجوَ ومن معهُ من العذاب. وهذه المهمّة دفعت ضيوف لوط لطلب الكلام معهُ في داره يقيناً. وبما أنّ أهل بلدته كانوا أشراراً ويريدون طرد لوط من مدينتهم، وعثروا بهذه المناسبة على حُجّة ضدّه هاجوا وهرعوا إلى داره ليسكوه بالجُرم المشهود إن صحّ القول. وبما أنّهُ لم يتفهّم بعد أبعاد ما قدم ضيوفه للقيام به. فقد فكّر لوطٌ عليه السلام أن يقدّم لهؤلاء الغوغاء ضمانةً تُهدّئ من روعهم. فلم يجد ضمانةً تُرضيهم على حدّ تصوُّره إلا هذه الضمانة الّتي عبّرَ عنها وقال (قَالَ يَا قَوْمِ هَـؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) فما هو مضمونُ قوله هذا المذكور؟

فأنا أرى أنّهُ يوجدُ في هذا الكلام البلاغيّ حذفٌ وتقديرهُ: هنّ أطهرُ لسمعتكم. وليصبح معناه أنّ لوطاً ذكّر هؤلاء الغوغاء أنّ بناتهُ مُتزوجات من أبنائهم أي أنّ القوم باتوا ينتسبون إليه. فكيف يخشونَ أن يغدُرَ بهم ويعاديهم؟ وإنّ ما يؤكّد ما ذهبتُ إليه من رأيٍ هو قوله (هؤلاء بناتي) ولم يقل: هذه بناتي. فهو عليه السلام أشار من خلال ضمانته هذه إلى جميع بناته المُتزوجات في بلدة هؤلاء

ومن أبنائهم. ويتبيّنُ من خلال هذا المعنى الّذي ذكرتهُ خطأُ أقوال السّابقين من المفسّرين الّذين كانوا متأثرين بالرّوايات الإسرائيليّة.

وسأنقلُ للقارئ ما هو مكتوبٌ في هذه التّوراة المعاصرة الّتي باتت مطبوعةً وفي متناول كلّ إنسان يريدُ الرّجوع إلى محتوياتها المتناقضة والمحرّفة. وسيرى هذا القارئ كيف أنّ هذا المعنى الّذي ذهبت إليه أذهانُ المفسّرين القدماء حدث بتأثير مُحتوياتها المغلوطة الّتي أنزلَ الله تعالى القرآنَ الكريمَ لتصحيحها ومهيمناً عليها.

فقد أورد كاتبُ سفر التّكوين (١٩/٤) يقول: **(وقبل أن يضطجعا إذ بأهل المدينة أهلِ سدوم قد أحاطوا بالمترل من الصّبيّ إلى الشيخ جميعُ القومِ إلى آخرهم- يصدّقهُ قولُ الله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾**. فنادوا لوطاً وقالوا لهُ: أين الرّجلان اللذان قدما إليك في هذه الليلة؟ أخرجهما لكي نعرفهما. فخرج إليهم لوطٌ إلى المدخل وأغلق الباب وراءه وقال: أسألُكم ألاّ تفعلوا شرّاً يا إخوتي. ها أنذا لي ابنتان ما عرفتا رجلاً أُخرجهما إليكم فاصنعوا بهما ما حسُنَ في أعيُنكم. وأمّا هذان الرّجلانِ فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنّهما دخلا تحت ظلّ سقفي- أي أنّ لوطاً قدّم ابنتيه ضمانةً على حسب قوله. وهذا صحّحه قولُ الله تعالى (هؤلاء بناتي) أي أنّ لوطاً لم يقدّم ابنتيه اللتين في داره ضمانةً. بل قدّم بناتهُ الثّلاث المتزوّجات من أبناء قومه ضمانةً لهم تُثبتُ حُسن نيّته. وهو الطّرح الأكثرُ معقوليّةً ومنطقيّةً- فقالوا: تنحَّ من هنا. ثمّ قالوا هذا رجلٌ يترلُ بنا فيقيمُ نفسهُ حاكماً. الآن نفعلُ بك أسوأ ممّا نفعلُ بهما). وهذه الأقوال يثبتُ منها أنّهم لم يقبلوا الضّمانة الّتي قدّمها إليهم لوطاً عليه السلام ليتسامحوا معهُ في موضوع مخالفته لما كانوا قد أمروهُ به. والمهمُّ في أمر ما نقلتهُ آنفاً هو أنّ مضمونه يُثبتُ مصداقيّة قول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. فهذا هو ما يتبيّنُ من قول لوط له آنفاً ﴿أخرجهما لكي نعرفهما﴾ فقد خشوا أن يكون ضيوف لوطٍ عليه السلام من

أعدائهم. وليس ليفعلوا بضيوفه الفاحشة كما ذهبَ إليه ذهنُ المفسّرين القدماء إليه وبتأثير رواية سفرِ التكوين.

ولنلاحظ كيف أنّ الله تعالى أتى بقاء الاستئناف في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة وقال: ﴿فَاتَّقُواْ اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾. فقولُ لوط عليه السلام بعد الّذي حدث: (فاتقوا الله) يذكّرُ لوطٌ هؤلاء من خلاله بوجودِ يوم الحسابِ من جهة وأنّ الله تعالى غفورٌ أيضاً يغفرُ هذه الهفوة الاضطراريّة الّتي صدرت عنه. لذلك وكأنّه عليه السلام قد قال لهم من خلال ذلك: فاحسبوا لوجوده عزّ وجلّ حساباً واغفروا ما صدر عنّي من مخالفة لأوامركم. وإنّ قوله تعالى ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ أي لا تسوسوني وتقهروني حسب أهوائكم كيلا يستهينُ بي ضيوفي (محيط المحيط). وعليه فإنّ في هذه الفقرة استدعاءً من جانب لوطٍ بطلب العفو من قومه على ما صدر عنه كما هو واضحٌ من دلالاتِ ألفاظها. إضافةً إلى الضّمانة الّتي قدّمها من قبل. وبما أنّ الأشخاص الّذين تجمّعوا حول دار لوطٍ عليه السلام كانوا من غوغاء النّاس، وليس من الأشخاص الإداريّين المسؤولين في مدينتهم. فقد لاحظ لوطٌ عليه السلام ذلك، وهو الأمرُ الّذي دفعه ليطلب حضور أحدِ وُجهاء مدينتهم لتقديم ضمانته واستدعائه لديه. وهذا هو السّببُ في أنّهُ عليه السلام أنهى هذه الفقرة بقوله ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾.

لقد قال العلاّمة الرّازي في تفسيرِ هذا الشّطرِ من الآية: (أنّ فيه قولان: الأوّل- رشيد- بمعنى مُرشد، أي يقولُ الحقّ ويردُّ هؤلاء الأوباش عن ضيوفي. والقولُ الثّاني: رشيد، بمعنى مُرشد. والمعنى أليس فيكم رجلٌ أرشدهُ الله تعالى إلى الصّلاح وأسعدهُ بالسداد والرّشاد حتى يمنعَ عن ضيوفي هذا العمل القبيح. والوجهُ

الأوَّلُ أولى). فهل أخطأ الرّازي رحمه الله فيم ذهب ذهنهُ إليه أم أنّهُ أصاب؟

أقول: لنلاحظ كيف أنّ الله تعالى لم يقل (أليس فيكم) ليصحَّ رأيُ الرّازي رحمهُ الله، بل قال تعالى ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ﴾ أي أنّ لوطاً عليه السلام طالب أن يُحضروا رجلاً مسؤولاً من بينهم ليقدّم له ضمانتهُ المُشارُ إليها. ثمّ إنّ كلمة (رشيد) يؤكّدُ ذلك. فالمُرشدُ هو الّذي يُرشدُ أهل مدينة سدوم ويشرّع لهم قوانينهم ويشرفُ أيضاً على تنفيذ تلك القوانين (محيط المحيط). وعليه فإنّ معنى قول لوط عليه السلام ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ أنّه طلب من الواقفين حول داره أن يبعثوا إليه بمسؤولٍ في مدينتهم. ولا يعني قوله المذكور توبيخاً لهم.

والآن وبعد هذا الّذي علمناهُ من مُعطيات هذه الآية الكريمة. فقد شاء الله تعالى إخبارنا أنّ قوم لوطٍ كانوا من الغوغاء الّذين لا يقيمون للنّظام والقانون قيمةً ولا قدراً. وأنّهم عوضاً عن أن يبعثوا وراء مسؤولٍ في مدينتهم ليمثّلهم أمام النّبيّ لوط عليه السلام. ردّوا عليه ردّاً كشف عن معدنهم الحقيقيّ وقالوا له وذلك في الآية التاسعة والسبعين:

﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾

وقد وردت هذه الآيةُ الكريمةُ مُصاغةً أيضاً صياغةً بلاغيّةً أزاغت أذهان المفسّرين القدماء الّذين ما كانوا على إطّلاعٍ على منهجيّةِ القرآنِ العظيمِ وأصولِ تفسيره. وأنقلُ أولاً ما تبادر لذهن الرّازي رحمه الله من هذه الآيةِ الكريمة، فهو كتب يقول: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ (أنّهُ دعاهم للزّواج من بناته أو من بنات قومه فرفضوا طلبه.. وفيه وجوه الأوّل ما لنا في بناتك من حاجةٍ ولا شهوة. والتّقدير أنّ من احتاج إلى شيءٍ فكأنّه حصل فيه نوعُ حقّ. فلهذا السّبب جعل نفي الحقّ كنايةً عن نفي الحاجة. الثّاني أن نُجري

اللّفظ على ظاهره فنقول: معناه إنّهُنّ لسن لنا بأزواجٍ ولا حقّ لنا فيهنّ البتّة ولا يميلُ أيضاً طبعنا إليهنّ، فكيف قيامهنّ مقام العمل الّذي نُريده. وهو إشارةٌ إلى العمل الخبيث. الوجهُ الثّالثُ ﴿مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ لأنّك دعوتنا إلى نكاحهنّ بشرط الإيمان. ونحنُ لا نُجيبُك إلى ذلك فلا يكون لنا فيهنّ حقّ). أي أنّ الرّازي رحمه الله لم يستقرُّ له رأيٌ هنا للأسباب الّتي أتى على ذكرها هو نفسه.

فإن قيمنا الآن بتدبُّر هذه الآيةِ الكريمةِ بشكلٍ أصوليٍّ، نلاحظُ بأنّ الله تعالى استهلّ الآية بحرف (لقد) ليفيد ابتداء موضوعٍ جديدٍ. وهو ليصوّر لنا ردود فعل جماهير الغوغاء على ما قدّمه لهم لوطٌ من ضمانةٍ واستدعاء. كما أتى بفعل (علمت) الدّالُّ على حقيقة حصول العلم في نفس صاحبه واستغناء الفعل عن مفعوله وأكثر من مفعول. ثمّ إنّهُ تعالى أدخل حرف (ما) على جملةٍ اسميّةٍ لنفي الحال عند الإطلاق ولتشبه في معناها معنى (ليس). وعلى شاكلة القول (ما هذا بشراً) (محيط المحيط). فعل الله تعالى هذا كلّه من خلال قوله تعالى (ما لنا في بناتك من حقّ). وليفيدنا قولهم أنّهم رفضوا الضّمانة المقدّمة من قبل لوطٍ عليه السلام. وأنّهم لم يُبالوا باستدعائه أيضاً ولم ينادوا على مسؤولٍ رشيدٍ للحوار. وبذلك يكونون قد أصرّوا على طردِ نبيِّ الله من مدينتهم سدوم. وكذلك يكونون قد أحرجوه بإجابتهم تجاه ضيوفه. وقد كشف عن هذه الأُمور جميعها الفقرةُ الأخيرةُ قولهم فيها ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ المؤكّدُ بحرف التّأكيد (إنّ). وعلى هذه الصّورة يتبيّنُ لنا من خلال المعاني الّتي توصّلنا إليها خطأ رأي الرّازي وغيرهُ من المفسّرين القدماء، رحمهم الله.

فلمّا سمع لوطٌ جوابهم المعبّرُ عن موقفهم المتصلّبُ تجاهه. عرض على الواقفين حول داره عرضاً جديداً أو أنّهُ سيلتجئ إلى حماية ربّه منهم وقد عبّر الله تعالى عن هذه الحقيقة بصياغةٍ بلاغيّةٍ يتبادرُ منها غير ما تضمّنته. وراح يقول في

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾

ونلاحظُ أنّ الله تعالى أتى بحرف (لو) ضمن جملةٍ اسميَّة وقارناً إيَّاها باللّام من (لي) لتصبح في محلّ رفع على الابتداء كما رأى ذلك سيبويه. وبالتالي فلم تعُد (لو) هنا بحاجة إلى خبرٍ (محيط المحيط). وبذلك أصبح معناها يفيدُ التّرجيّ وعلى شاكلة (لعلّ). أي أنّهُ راح يُطلعنا على خُطوةٍ ثالثةٍ قام بها النّبيّ لوط وهي أنّهُ عرض بعد عرضيه السّابقين عرضاً ثالثاً فما هو هذا العرضُ الثّالث؟

فإنّ النّبيّ لوط عليه السلام عرض عليهم أن يقوم من بينهم رجلٌ يحميه بحمايته مؤقّتاً. فهذا هو معنى قوله (لو أنّ لي بكم قوّة) فهو استعمل كلمة (قوّة) بمعنى الحماية والطّاقة. كما استعمل الباء في (بكُم) بمعنى الاستعانة.

ومن ثمّ أتى بالحرف (أو) يفيدُ هنا التّخيير وأضاف يقول: ﴿أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ كذلك أتى بكلمة (ركن) أي الجانب الأقوى من كلّ شيءٍ من الأشياء وهو ما يُقوّى به (محيط المحيط). وليصبح معنى هذه الفقرة الأخيرة أنْ يا قوم ما دمتم قد رفضتم جميع الضّمانات الّتي قدّمتها لكم لتحفظوا لي سمعتي تجاه ضيوفي، فلم يعد أمامي إلاّ أن آوي إلى (ركنٍ شديد) وهو أن أطلُبَ من إلهي أن يحميني منكم في هذه اللّحظات الحاسمة. وفي هذه الحالة تتحمّلون أنتم عاقبة ما أنتم فاعلون. ومن خلال هذه الصّياغة البلاغيّة المُعجزة يكون تعالى قد نبّه أذهاننا أيضاً إلى أنّ جميع أزواج بناته وقفوا منهُ موقفاً سلبيّاً فلم ينهض أحدٌ منهم لحماية لوطٍ عليه السلام. ولربّما اتّخذوا هذا الموقف منهُ طمعاً في أن يضعوا أيديهم على داره بعد إخراجه من مدينة سدوم. وبذلك استحقّوا وزوجاتهم وأمّض زوجاتهم أن يشملهم عذابُ الله تعالى أيضاً النّازلُ لإهلاكِ قومِ لوط.

وعلى هذه الصّورة يكونُ الله تعالى قد لقّننا درساً لمعالجة ما نُواجههُ من مُشكلات. وهو ضرورةُ الأخذِ بالأسبابِ الماديَّة لمعالجتها وعلى قدر الإمكان فإن لم تُجدِ هذه الأسبابُ نفعاً نعمدُ بعدها إلى أعتابِ ربِّنا نتضرَّعُ إليه أن يخلق لنا من الأسبابِ ما يساعدُ على حلِّها. وليس أن يقف المؤمنُ تجاه المشكلاتِ موقفاً مُتواكلاً من بداية الطّريق.

ونتساءلُ هنا عمّا فهمهُ العلاّمة الرّازي رحمه الله من هذه الفقرة الأخيرة؟ فنلاحظ أنّهُ كتب يقول: (كيف تُعطفُ الجملةُ الفعليَّةُ على الجملة الاسميَّة؟) فذهب لتعليل ذلك مذهب صاحب الكشّاف الّذي لم يأخذ بمعنى التّخيير بل علّلَ وقال (أو آوي) بالنّصب بإضمارِ (أن). ومن ثمّ حمل الرّازي رحمه الله كلَّ شطرٍ من هذه الفقرة على معنىً مُستقلّ. وقال: (الوجهُ الأوّلُ بقوله (لو أنَّ لي بكم قوّة) كونه بنفسه قادراً على الدّفع وكونه متمكّناً إمّا بنفسه وإمّا بمعاونه غيره على قهرهم وتأديبهم. والمرادُ بقوله ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ هو ألاّ يكون له قدرةٌ على الدّفع لكنّه يقدرُ على التحصُّنِ بحصنٍ ليأمن من شرِّهم بواسطته).

فالملاحظ أنّهُ رحمهُ الله بالرّغم من أنّه جزّأ الفقرة إلى جزأين فلم يُفلح في إبراز معاني هذه الفقرة الأخيرة على حقيقتها. والسّببُ في رأيي هو عدم أخذهِ سبب الكلام بعين اعتباره. وقد راح رحمه الله يوضّحُ الوجهَ الثّاني لمعنى الآية الكريمة فقال: (إنّ لوطاً استدرك على نفسه وقال بل الأولى أن آوي إلى رُكنٍ شديدٍ وهو الاعتصامُ بعنايةِ الله تعالى. وعلى هذا التّقدير فقولهُ ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ كلامٌ منفصلٌ عمّا قبله ولا تعلّقَ لهُ به. وبهذا الطّريق لا يلزم عطفُ الفعلِ على الاسم). وهكذا يبدو لنا أنّ الأخطاء تجرُّ الأخطاء كما يجرُّ العنفُ العُنف. فهو رحمه الله أخطأ من قبلُ وجرَّ خطوهُ ذاك خطأهُ هذا المذكور.

وبهذا المعنى الّذي سبق لي أن توصّلت إليه من مُعطيات هذه الآية الكريمة،

تكونُ هذه المعطيات قد أمدَّتنا بما يُصحِّحُ قول كاتبِ سفر التكوين (١٩/١٤) الّذي كتب يقول: (**فخرج لوطٌ وكلّم أصهارهُ الّذين سيتّخذون بناته، وقال لهم: قوموا واخرجوا من هذا المكان، لأنّ الرّبّ مُهلكٌ المدينة. فكان كمازحٍ في أعيُنِ أصهاره**). فقد لاحظنا كيف أنّ هذه الآية الكريمة قد نبّهت أذهاننا إلى أنّ عواطف أصهارِ لوطٍ عليه السلام لم تكن إلى جانبه وبذلك تكون هذه الآيةُ الكريمةُ قد صحّحت أيضاً هذا الّذي نقلتهُ عن كاتب سفر التّكوين المذكور.

كذلك فإنّ مُعطياتُ هذه الآية الكريمة قد صحّحت معلومةً أُخرى أوردها الكاتبُ المذكور الّذي كتب يقول: (فلمّا طلع الفجرُ ألحَّ الملاكان على لوط قائلين: قم فخُذ امرأتك وابنتيك الموجودتين هنا، لئلاّ تُهلكَ بعقاب المدينة. فتردَّدَ لوطٌ. فأمسك الرّجلان بيده وبيد امرأته وابنتيه لشفقة الرّبِّ عليه، وأخرجاهُ ووضعاهُ خارج المدينة).

وقد وردَ هذا التّصحيحُ أيضاً من خلال الآية العاشرة من سورة التّحريم الّتي قال تعالى فيها هناك: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾. فالخائنُ هو من يؤتمنُ ولا ينصح (محيط المحيط). أي أنّ زوجتي هذين الرّسولين ائتُمنتا على أسرارِ وتعاليمِ نبوّتيهما فلم تنصحا أولادهما بنصيحة الإيمان والعمل على تلك التّعاليم، وبذلك فقد خانتا حقوقَ الزّوجيّة. فما أغنى عنهما كونُ زوجيهما نبيّين يوم نزول العذاب. فهذه حقيقةٌ كشفت عنها هذه الآيةُ الكريمةُ. وكان كاتبُ سفر التّكوين يجهلها. لذلك كتب على لسان ضيوف لوط أنّهم قالوا: (قم فخذ امرأتك وابنتيك الموجودتين هنا، لئلاّ تُهلكَ بعقاب المدينة). وهذا التّصريحُ من جانبه يُخالفُ ما أطلعنا الله تعالى عليه في الآيةِ الّتي ذكرناها.

كذلك فإنَّ كاتب سفر التّكوين أوهم القارئ أنَّ أهل سدوم جاءوا لفعل المُنكر بضيوف لوط كما سبق أن نقلناه. وهذه القريةُ الّتي ابتدعها هي الّتي تأثَّرَ بها المفسّرون القدماء، ودفعتهم ليفسّروا الآية من سورةِ القمر بهذا المعنى. والتي قال تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾. فسّروها بهذا المعنى الباطلِ من دونِ أنَّ يعلموا أنّهم بذلك يضربونَ الآيات القرآنيّة بعضها ببعضٍ أيضاً.

والحقيقةُ هي أنَّ كلمة (راودوه) الواردةُ في الآيةِ سالفةِ الذّكر، اشتقّت من قولك: راودَ عن ضيفه معناه خادعهُ فيه. ولا يعني أنّهُ طلب منهُ فعل الخبيث معه. قال البيضاوي: الخَدعُ أن توهم غيرك خلافَ ما تُخفيه من المكروهِ لتزلّهُ عمّا هو فيه (محيط المحيط). وعليه فالمعنى أنَّ قومَ لوطٍ طلبوا منه ليَرَوا ضيوفهُ، مكراً من جانبهم، وليستدرجوهم وليطردوا لوطاً وضيوفهُ من مدينتهم في آنٍ واحد. فالطّلبُ الّذي ذكرهُ كاتب سفر التّكوين كان من طرفهم من قبيل المراودةِ والمخادعة. فهذا هو معنى قوله تعالى (ولقد راودوهُ عن ضيفه) في الآيةِ سالفة الذّكر.

وقد أخطأ المفسّرونَ القدماء أيضاً حين فسّروا ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ بتفسيرٍ يتّفقُ وقول كاتب سفر التّكوين القائل فيه: (فمدَّ الرّجلان أيديهما- ويقصدُ ضيوفه- وأدخلا لوطاً إليهما إلى البيت وأغلقا الباب. وأمّا القومُ الّذينَ عندَ بابِ البيتِ فضربناهم بالعمى من صغيرهم إلى كبيرهم فلم يقدروا أن يجدوا الباب).

وحقيقةُ المعنى تتجلّى في أنَّ فعل (طمسنا) مُشتقٌّ من طمسَ الشيءَ أي قدّرهُ فانمحى واندرسَ يُقالُ رجلٌ طامسُ القلبِ أي ميّته (محيط المحيط). وعليه فإنَّ معنى ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أنّنا أزغنا رأيهم فلم ندعهم يُعالجوا الموقفَ معالجةً صائبةً. ولم يقصد هنا من كلمة (أعينهم) أعينهمُ الظّاهريّة بل نظرتهم الثّاقبة. فالكلامُ مُصاغٌ صياغةً بلاغيّةً مُعجزةً ولا يفيدُ ما يتبادر منه للذّهن. بل يحملُ دوماً معنىً هو أعمقُ

من المعنى المُتبادر لذهنِ القارئ.

ثمّ إنّهُ ورد في الآية (٥٩) من سورةِ الحجرِ قول الله تعالى ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على حين أنّ الآية من سورةِ هودٍ تستثني امرأة لوط (إلاّ امرأتك). فلا تناقُض يوجدُ ما بين القولين. لأنّ كلمة (أهل) تشملُ الّذين يعيشونَ تحت سقفٍ واحدٍ. على حين أنّ كلمة (آل) تشملُ المؤمنين الّذين آلوا إلى عقيدةِ النّبيّ من داخل الدّار ومن خارجه. وهذا هو السّببُ في أنّ الآيةَ استثنت امرأةَ لوطٍ لورود كلمة ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ فيها. وعليه فشكّلَ لفظُ (الأهلِ) سبب استثناء.

فلمّا فرغ الله جلّ شأنهُ من ذلك كلّه، شاءَ أن يُطلعنا عمّا أسرّ به رسُلهُ الّذين استضافهم نبيُّهُ لوطٌ عليه السلام إليه وليشدّوا من همّته. وقد خصّ الله تعالى ذلك بآيةٍ مُستقلّة، وهي الآية الإحدى والثمانين والتي قال تعالى فيها:

﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾

وقد أورد الله تعالى هذه الآيةَ الكريمةَ مُرتّبةً على ترتيبِ إخبارٍ يساعدُ على الإجابةِ على أكثر من سؤالٍ واجه المفسّرين المُتدبّرين. ففي الفقرة الأولى قال ﴿قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ ففعل (يصلوا) اشتقّ من قولك: وصلَ إليه أي بلغهُ ومسّه (محيط المحيط). وبذلك يكون تعالى ومن خلال هذه الفقرة قد أخبرنا أنّ غوغاء قومِ لوطٍ الّذين اجتمعوا حول داره كانوا يتصايحونَ بصوتٍ عالٍ وإلى درجةٍ استيقظ معها ضيوفه وليوقنوا باستحقاقِ هؤلاء الغوغاء للعذاب. وليسرعوا في دَفعِ

النّبيّ لوط عليه السلام للإسراعِ في مغادرةِ داره. وإلى هذا أشار قولهم في هذه الفقرة ﴿لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ أي لا تخشَ أن يؤذوكَ في ظُلمةِ هذه اللّيلةِ لأنّ الله تعالى يبشّركَ بالسّلامةِ من أذاهم.

وأمّا قولُ رسلِ الله تعالى في الفقرةِ الثّانيةِ ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ فقد استأنفَ الله عزّ وجلّ في هذه الفقرة الثّانية ما شاء أن يُخبرنا عنهُ وبالتّرتيب الزّمنيّ ما طلب ضيوفُ لوطٍ منهُ أن يفعلهُ بعد أن أخبروهُ عن مُهمّتهم. وقد أورد تعالى فعل(فأسر) المشتقُّ من قولك: سرى ومعناهُ سارَ ليلاً. كذلك أتى بكلمةِ (قطع) الّتي تعني جزءً من اللّيل. وبالباء من (بأهلك) بمعنى المصاحبة. كذلك أتى تعالى بالباء من (بقطع) بمعنى الظّرفيّة أي بجزءٍ من اللّيل، والجزء الأخير منه. أمّا قولهم ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾ فهي جملةٌ محذوفٌ الجار والمجرور من آخرها لتوسيعِ دلالاتها والتّقدير: ولا يلتفت أحدٌ منكم إلى حَملِ شيءٍ من متاعهِ لتظلّوا خفافاً وأنتم مُسرعين حين قطعكم جزءً من اللّيل. ولا أن يتأسّى أحدٌ منكم على فراقِ هذه المدينة المغضوبِ عليها وعلى سكّانها كيلا تُحسبون متأسّين على مكانٍ كريه ومغضوبٍ عليه (محيط المحيط).

واستناداً إلى جميعِ المعاني الّتي أوردتُها لألفاظِ هذه الفقرةِ الثّانيةِ يصبحُ معناها أنّ رسلَ الله الضّيوف عند لوطٍ عليه السلام. ما إن لاحظوا ما جرى له من قبلِ قومهِ الأشرار، إلاّ ومنعوهُ من الاستمرارِ في محاورته معهم وأن لا ضرورةَ للجلوسِ للدّعاء عليهم في تلك اللحظات. بسببِ أنّ هلاكهم هو أمرٌ مُبرمٌ في السّماء. وأنّ سلامتهُ من شرورهم هو أمرٌ مُبرمٌ أيضاً في السّماء. وقد دفعوهُ ليترُكَ داره، بالرّغمِ أنّ الوقتَ ما يزالُ ليلاً. وليرافقهم بعيداً عن مدينة سدوم. ليس وحدهُ، بل وليرافقهُ جميعُ من كان نائماً معهُ تحت سقفِ بيته.

ومن ثمّ أتى تعالى بحرف الاستثناء المنقطع وقال ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ﴾ ونبّه بذلك إلى أنّ زوجةَ لوطٍ سترفضُ مُرافقةَ زوجها والآخرين الّذين معه بدافعِ عاطفتها نحو بناتها الباقينَ عند أصهارها. وأنّها ستفعلُ ذلك لخيانتها أمانة أسرارِ النّبوّة كما سلفَ ذكرهُ. وقد أكّدوا عليه من خلالِ الإتيانِ بحرف (إنّهُ) أنّ الله تعالى مُقدّرٌ أن يصيبها ما أصابَ قوم لوطٍ من غضبٍ إلهيّ.

أمّا الفقرة الّتي أنهى الله تعالى بها هذه الآية الكريمة وهي قوله فيها ﴿إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ فقد أشارَ تعالى من خلال قولهِ ﴿أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ﴾ إلى أنّ قطعَ اللّيل المطلوبِ أن يخرجوا فيه من دار لوطٍ كان القطعَ الأخيرَ من اللّيل والقريبَ من وقت الصّبح.

فهذه هي معانٍ ولدلالات فقرات هذه الآية الكريمة والمرتّبة بترتيب يفيدُ ترتيب الأحداثِ أيضاً والمُصاغة صياغةً بلاغيّةً مُعجزةً تاه في بحرها المفسّرون القدماء الّذين فسّروها على ضوءِ معطياتِ سفرِ التّكوين الّذي كتبَ كاتبهُ فيه في الإصحاح (١٩/١٧) يقول: (**فلمّا أخرجاهم إلى خارجٍ قالا أنجُ بنفسك، لا تلتفتْ إلى ورائكَ ولا تقف في السهلِ كُلّه، وانجُ إلى الجبلِ لئلاّ تهلك.. فالتفتتْ امرأةُ لوطٍ وراءها، فصارَت نُصْبَ ملح**).

وبإمكاننا الآن القيام بتوضيحٍ وتلخيصٍ وحصرِ النُّقاط الّتي خالفت دلالاتُ هذه الآياتُ الكريمةُ مُعطياتِ ما كتبهُ كاتبُ سفر التّكوين في النُّقاط التالية:

أولاً: فقد نبّهت هذه الآياتُ أذهاننا إلى أنّ ضيوف إبراهيمَ ولوطٍ لم يكونوا ملائكةً، بل كانوا بشراً ومن الأتقياء الصّالحين أيضاً وكانوا عارفين بخفايا شعاب المنطقة الّتي كان يعيشُ فيها هذان النّبيّان الغريبان عن المنطقة لذلك أوحى الله تعالى إليهما وأمرهما أن يقوما بتبليغ إبراهيم بالنّبأ وبمعاونة لوطٍ على الابتعاد عن مدينة

سدوم مع أهله إلاّ امرأته.

ثانياً: كما أنّ هذه الآيات نبّهت أذهاننا إلى أنّ هؤلاء هم الّذين طلبوا من لوطٍ عليه السلام أن يستضيفهم في داره، وليس هو الّذي ألحّ عليهم بذلك. وتكونُ قد صحّحت خطأ الكاتب التوراتيّ.

ثالثاً: كذلك فإنّ هذه الآيات الكريمة قامت بإعطائنا فكرةً واضحةً عن مُجرياتِ الأحداثِ الّتي جرت بعد وصولِ خبر مبيت ضيوف لوطٍ عنده إلى أهل مدينته. ومخالفاً بذلك منعهُم إيّاهُ من استضافةِ أحدٍ غريبٍ عنده. وقد صحّحت في الوقت نفسه الأخطاء الّتي وقع فيها الكاتب المذكورُ في هذا المجال.

رابعاً: وقد نبّهنا الله جلّ شأنهُ من خلال هذه الآيات أيضاً إلى أنّه تعالى هو الّذي توّهَ آراء الغوغاء الّذين حاصروا دار نبيِّه لوط عليه السلام، حين تسبّبَ في عدمِ استجابتهم للعُروض الّتي عرضها عليهم لوط. والسببُ في إزاغةِ عقولهم أنّهم كانوا فاسقين يستحقّونَ العذابَ المقدّر لإهلاكهم.

خامساً: وبالإضافة إلى هذا وذاك كلّه فقد صحّحت لنا هذه الآياتُ المعلومة الخطأ الّتي أوردها كاتبُ سفر التّكوين والمتعلّقة بمصيرِ زوجة لوط عليه السلام. وأنّه قد أصابها ما أصاب قومِ لوطٍ من هلاكٍ وعذابٍ، وليس بصحيحٍ أنّها سارت معه وتلفّتت وراءها وأصبحت نُصُباً من الملح.

سادساً: كما لقّنتنا هذه الآياتُ درساً علينا ألاّ ننساهُ وهو أنّ كلّ إنسانٍ مسؤولٌ بنفسه أمامَ ربّهِ. ولا يُغنيه أن يكون ابن نبيٍّ أو وليٍّ أو أحدٍ من الصّالحين.

سابعاً: كذلك أخبرتنا هذه الآيات أنّ لوطاً وأهلهُ غادروا مدينة سدوم مع ضيوفهم في الهزيعِ الأخيرِ من اللّيلة الّتي وقعت فيها تلك الأحداث وإلى خارج المدينة أيضاً.

وقبل أن أنتقل إلى تفسيرِ الآيةِ الّتي بعد هذه الآيةِ الكريمة أرى أن أُطلعَ القارئ على ما فسّرها به العلاّمة الرّازي رحمه الله. ليقارنَ ما بين فهمنا لها على

أساسٍ من منهجيّةٍ وأُصولِ تفسيرِ القرآنِ الكريمِ، وما بين فهمه لها بدون ذلك وبتأثيرٍ من الرّوايات الإسرائيليّة. فقد كتب رحمه الله يقول: (ورُويَ أنّ جبريل عليه السلام قال له إنّ قومك لن يصلوا إليك فافتح الباب. فدخلوا، فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههُم، فطمسَ أعينُهم، فأعماهم. فصاروا لا يعرفون الطّريق ولا يهتدون إلى بيوتهم. وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿لن يصلوا إليكَ بسوء﴾ أي بسوءٍ ومكروهٍ فإنّا نحولُ بينهم وبين ذلك..).

وقد كتب الرّازي رحمه الله بشأنِ امرأةِ لوطٍ عليه السلام وقال: (رُوي عن قتادة أنّهُ قال إنّها كانت مع لوطٍ حين خرج من القرية. فلمّا سمعت هذا العذاب التفتت وقالت: يا قوماه. فأصابها حجرٌ فأهلكها. واعلم أنّ القراءةَ بالرّفع أقوى، لأنّ القراءةَ بالنّصب تمنعُ من خروجها مع أهله. لكن على هذا التّقدير الاستثناء يكونُ من الأهلِ. كأنّه أمرَ لوطاً بأن يخرج بأهلِه ويترُك هذه المرأة. فإنّها هالكةٌ مع الهالكين..). فالّذي يبدو واضحاً أنّهُ رحمه الله اعتمد على الرّوايات الإسرائيليّة ولم ينضبط بمنهجيّةٍ ولا بأصول.

فلمّا فرغ الله جلّ شأنهُ من القيام بجميع ما أتينا على ذكرِه. شاءَ تعالى أن يصوِّرَ لنا بتصويرٍ فنّيٍّ رائعٍ المصير الّذي آلتْ إليه مدينةُ سدوم ومن بقي فيها من أهلها الأشرار الفاسقين فقال الله جلّ شأنه يصوِّرُ ذلك ويقولُ في الآية الثانية والثمانين:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾

فإن نحن تناولنا الفقرةَ الأُولى من هذه الآيةِ الكريمةِ نتدبّرُها وهي قوله تعالى

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ لاحظنا أنّها استُهلّت بفاء الاستئناف دلالةً على استئناف شيءٍ جديد. فإذا لاحظنا أنّ هذه الفاء داخلةً على حرف (لمّا) المختصّ بالزّمن الماضي لدخولها على فعل (جاءَ) فهي بالتالي حرفُ وجوبٍ لوجوبٍ بمعنى أنّها تتطلّبُ جملتينِ بعدها، وُجدت ثانيتهما لِوجودِ الأولى. كقولك لمّا جاءني أكرمتهُ (محيط المحيط).

ثمّ إنّ قوله تعالى (جاء أمرُنا)، فمعلومٌ أنّهُ لا يوجدُ للأمر قدمان ليسير عليهما وهذا الأمر يعدُّ قرينةً تنقلُ معناهُ الحقيقيّ المتبادرُ للذّهن إلى معناه المجازيّ الّذي يعني أنّه جاء وقتُ ظهورِ آثار أمرنا السّماوي المتعلّقُ بموضوع إهلاك قوم لوط عليه السلام الّذين يعملون السّيئات. وعليه فالمقصودُ من (جاء أمرنا) هنا هو نفسُ ما قُصد به في القصصِ السالفةِ الذّكر. بدليلِ تكرار كلمة (أمرنا) في كلّ واحدةٍ منها: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ و﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ وفلمّا جاء أمرنا نجّينا صالحاً). فهذه ظاهرةُ تواترٍ في استعمال الله تعالى لهذه الكلمة. وقد ذهب العلاّمة الرّازي رحمه الله مذهبنا في هذا الفهم. فقد كتب يقول: (فكان قوله– فلمّا جاء أمرنا– إشارةً إلى ذلك التّكليف. أي إلى الملائكة بأن يُخربوا تلك المدائن في وقتٍ معيّنٍ. فإن قيل: لو كان الأمرُ كذلك لوجبَ أن يُقال: فلمّا جاءَ أمرُنا جعلوا عاليها سافلها، لأنّ الفعل صدرَ عن ذلك المأمور. قلنا: هذا لا يلزم على مذهبنا لأنّ فعلَ العبد، فعلُ الله تعالى عندنا. وأيضاً إنّ الّذين وقعَ منهم، وقعَ بأمرِ الله تعالى وبقدرته. فلم يبعُد إضافتهُ إلى الله عزّ وجلّ لأنّ الفعلَ كما تحسنُ إضافتهُ إلى المُباشر فقد تحسنُ أيضاً إضافتهُ إلى السّبب..) وقد أحسنَ رحمه الله فيما وضّحهُ من رأيٍ في هذا المقام.

وقد أتى جلّ شأنهُ بالفقرةِ الثّانيةِ الّتي قال فيها: ﴿جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾. ففعل (جعلنا) معناهُ صيّرنا (محيط المحيط). والمعنى أنّ الله تعالى صيّر ما كان ظاهراً

من الأشياء في مدينة سدوم، جعلهُ مُغيباً في باطنِ أرضها. وإنّها لكلماتٌ بليغةُ الدّلالات وتصوِّرُ ما حدث تصويراً فنيّاً ورهيباً.

وقد شاء تعالى أن يُطلعنا في الفقرةِ الثّالثةِ على الوسيلةِ الّتي أدّت هذه النّتائج. فأتى بالواو الّتي تفيدُ وصف الحالِ وأدخلها على فعل (أمطرنا) وقال: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾. علماً بأنّ فعل (أمطرنا) استعملهُ تعالى في سورةِ الشّعراءِ بمعنى الشرّ والعذاب. ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾. على حين أنّ فعل (مطَرَ) يُستعملُ في الخيرِ والرّحمة (محيط المحيط).

ثمّ إنّ الّذي يتبادرُ من قوله تعالى (عليهم) أنّهُ أتى بجارٍّ ومجرور. أمّا الحقيقةُ في نظري فهي أنّهُ تعالى أتى بكلمة (على) هنا كاسمٍ وليس كحرفِ جرّ. وبمعنى (فوق) لدخولِ (على) على ضميرٍ مُبهم، وليصبح معنى (عليهم) (فوقهُم).

فإن تساءل المرءُ عمّا أمطر تعالى فوق رؤوسِ أهلِ سدوم؟ فالجوابُ أنّهُ أمطرَ فوقهم (حجارةً من سجّيلٍ منضود). فالحجارةُ جمع حجر وهو ما تجمّدَ من طينِ الأرضِ وأصبح صُلباً مُمتنعاً لصلابته. وصغارُ الحجرِ تسمّى حصىً. والعظيمُ الحجمِ منه يُعرفُ باسم صخرة (محيط المحيط). وقد أورد تعالى بعد كلمة (حجارة) بحرف الجر (من) لبيانِ جنسِ الحجارة. والإخبارِ عن أنّها كانت من (سجّيل). وهي كلمةٌ اشتُقّت من قولك: سجلَ به أي رمى به من فوق. أمّا كلمةُ (منضود) فقد اشتُقّت من قولك: نضدَ المَتاعَ، ومعناهُ أنّه جعل بعضهُ فوق بعضٍ فهو منضود. وفي هذا القول إشارةٌ إلى أنّه قد حدثت زلزلةٌ في مدينة سدوم. وكانت من الشّدّةِ إلى درجةٍ تطايرت معها حجارتها في الهواء قطعاً مُتناثرةً وإلى علوٍّ شاهقٍ، ومن ثمّ أخذت تتساقطُ فوق رؤوسِ أهلها بعضها فوق بعضها الآخر. فعادَ عالي سدوم سافلها. فهذا هو معنى قوله تعالى في هذه الفقرةِ الأخيرةِ ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ

مَنضُودٍ﴾. وقد صيغت هذه الفقرةُ بما يتبادرُ للذّهنِ منها غير ما تضمّنته.

أمّا كاتبُ سفر التّكوين فقد تعرّض لذكر هلاكِ قومِ لوط وكتب يقول في الإصحاح (١٩/٢٧): (**فبكّرَ إبراهيم إلى المكان الّذي وقف فيه أمام الرّبّ. وتطلّعَ إلى جهة سدوم وعمّورةَ وأرضِ السّهلِ كلّها ونظرَ فإذا دُخانُ الأرضِ صاعدٌ كدُخانِ الأتون. ولمّا أهلك الله مُدُنَ السّهلِ، ذكر الله إبراهيم، فانتشل لوطاً من وسطِ الكارثة حين قلبَ المُدنَ الّتي كان لوطٌ مقيمٌ فيها**). ويبدو من ذلك أنّه لم يكن إبراهيم عليه السلام على علمٍ كاملٍ بالحدث المذكور. وقد تناقضَ الكاتبُ فيما قالهُ بشأنِ مصيرِ لوط عليه السلام مع ما سبقَ له أن ذكر من أنّ لوطاً قد لجأ إلى قريةِ صوغر قبل أن يحلّ صُبحُ اليوم الّذي دمّر تعالى فيه مدينة سدوم.

ومن المسلّي أن يطلّعَ القارئ على ما كتبهُ الرّازي رحمه الله عند تفسيره لهذه الفقرةِ الأخيرةِ من هذه الآية الكريمة. فقد كتب يقول: (فالأوّلُ قولهُ- جعلنا عاليها سافلها- رُوي أنّ جبريل عليه السلام أدخل جناحيه الواحدُ تحت مدائنِ قومِ لوط، وقلعها وصعدَ بها إلى السّماء حتى سمع أهلُ السّماء نهيق الحمارِ ونباحَ الكلاب وصياحَ الدّيوك. و لم تنكفئ لهم جرّةٌ ولم ينكبُّ لهم إناء. ثمّ قلبها دفعةً واحدةً وضربها على الأرض. واعلم أنّ هذا العمل كان مُعجزةً قاهرةً من وجهين: أحدهما أنّ قلعَ الأرضِ ورفعها إلى قريبٍ من السّماء، فعلٌ خارقٌ للعادات. والثّاني: أنّ ضربها من ذلك البُعد البعيدِ على الأرض بحيثُ لم تتحرّك سائرُ القرى المحيطة بها البتّة ولم تصل الآفةُ إلى لوطٍ عليه السلام وأهلهِ مع قُرب مكانهم من ذلك الموضع معجزةً قاهرةً أيضاً). والحقّ هو أنّ هذه الرّوايات مسلّية. فهي تحكي أساطير ولا تحكي وقائع أفادها مضمونُ الآية سالفة الذّكر.

وقد أتى الله جلّ شأنهُ بآيةٍ جديدةٍ، وهي الآية الثالثة والثمانين الّتي قال تعالى فيها:

﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾

وقد استند الرّازي رحمه الله في تفسير هذه الآية الكريمة على الرّوايات و لم يستند إلى مُعطيات ألفاظها. فاعتبرَ كلمة (مسوَّمةٌ) صفةً للأحجار وتعني المُعلَّمة. ونقل عن الحسن والسدي قولهم أنّه كان على تلك الأحجار أمثال الخواتيم. كما نقل عن ابن صالح أنّهُ شاهد عند أمّ هانئ شيئاً منها مخطّطةً بخطوطٍ حمراء على هيئة الجزع. كذلك نقل عن ابن جريج أنّ سيماء تلك الحجارة ما كانت تشابه سيماء حجارة الأرض، الأمرُ الّذي يدلُّ على أنّها خُلقت للعذاب. وعن الرّبيع أنّهُ مكتوبٌ على كلّ حجرٍ منها اسم من رماهُ الله تعالى به. كما أنّهُ رحمه الله فسَّرَ قوله تعالى (عندَ ربّكَ) أي في خزائنه الّتي لا يتصرف فيها أحدٌ إلا هو جلَّ شأنهُ. وفسَّر قوله تعالى ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ قد قصد به كُفّار مكّة. وأنّه سيرميهم بها. ونقل عن أنس أنّه قال: إنّ جبريل سأل رسول الله (ص) عن هذا فقال: يعني ظالميّ أُمّتكَ. ما من ظالمٍ منهم إلاّ وهو بمعرضِ حجرٍ يسقطُ عليه من ساعةٍ إلى ساعة. وقيلَ الضميرُ في قوله (وما هي) يعودُ للقرى. والتّقدير وما تلك القرى الّتي وقعت فيها هذه الواقعة من كُفّارِ مكّة ببعيد. ذلك لأنّ القرى كانت في الشام، وهي قريبةٌ من مكّة..). فهذا ما تبادر لذهنه رحمه الله فهل أصاب الرّازي رحمه الله كبدَ الحقيقة؟

أقول: الملاحظُ هو أنّه وردَ في معجم (محيط المحيط) بما يتعلق بكلمة (مسوَّمةً) أنّها اشتُقّت من قولك: سوَّمَ القائدُ جنودهُ بأمرٍ ما. معناه أنّهُ كلّفهم بالقيام بتنفيذه. وأنّ أصلَ (السّوم) هو الذّهابُ في طلبِ الشيء. وعليه يكونُ معنى (مسوَّمةً) أي مكلّفةً ومُرسلةً ومُعلَّمةً. أي أنّه مقدَّرٌ لها منذ الأزل أداءَ مهمَّةٍ معيَّنة.

لكنَّ الملاحظَ هو أنّ الله تعالى أتبعَ هذه الكلمة بقوله (عندَ ربّكَ). وإنّ (عندَ) هي اسم مكان الحضور. كأن تقول: جلَستُ عندَ زيدٍ حقيقةً ومجازاً.

وتُستعملُ أيضاً لابتداء الغاية، كقوله تعالى ﴿آتيناهُ رحمةً من عندنا وعلّمناهُ من لدُنّا علماً﴾. إشارةً إلى إنّ ابتداءَ صدورِ الأمرِ بإنزالِ رحمةِ الله تعالى عليه ابتدأ من لدُنه تعالى نفسه. وعليه فقد نبّه تعالى أذهاننا من خلالِ قولِه (مُسوَّمةً عندَ ربِّكَ) إلى أنّ أحجار الزلزالِ العنيفِ الّتي قضت على قومِ لوطٍ كان مخطّطاً لها منذ الأزل أن تؤدّي هذه المهمَّة الّتي أدّتها. واستناداً إلى هذا المعنى الّذي توصّلنا إليه أُصوليّاً، يتبيَّنُ خطأ رأي الرّازي رحمه الله.

فلا توجدُ هنا إضافةُ صفةٍ جديدةٍ إلى قوله تعالى ﴿مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾. ولنلاحظ أنّه تعالى قد حذفَ مضافَ كلمةِ (مسوَّمة) ليوسّعَ دلالتها ولتشملَ أهلَ الكتاب المعاصرين الّذين شابهوا عمليّاً القوم المذكور. لذا قال تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾. فأتى بحرف (ما) الحرفيَّة بمعنى (ليس) بسبب إدخاله إيّاها على جملةٍ اسميّة وزيادة الباء في خبرها. وعلى شاكلةِ قوله تعالى في مقامٍ آخر: ﴿وما ربُّكَ بظلّامٍ للعبيد﴾. ثم إنّ ضمير (هي) يعودُ إلى الحجارةِ المسوَّمة. أمّا حرفُ (من) بعدها فقد استُعملت لابتداء الغاية.

وقد عرّفَ الله تعالى كلمة (الظّالمين) بالألف واللام ليشيرَ به إلى هؤلاء الظّالمين المعاصرين الّذين كذّبوا محمّداً و(الشاهد منه). ثمّ إنّ الباء من (بَعيد) في محل زائد، للحال المنفي وهكذا تتجلّى هذه الصّياغة البلاغيَّةُ المعجزةُ الّتي صيغت بها آياتُ هذه السّورةِ الّتي قال محمّدٌ سيّدُ رسلِ الله تعالى بحقّها: «شيّبتني هودٌ وأخواتُها».

وقد شاءَ الله تعالى أن يُقدّمَ لهؤلاء (الظّالمين) دليلاً تاريخيّاً خامساً ليلقي من خلاله عليهم حُجّتَهُ. وهذا الدّليلُ الخامسُ انتقاهُ الله تعالى من أحوالِ النّبيّ شُعَيبٍ عليه السلام مع قومه الّذين كذّبوه وانتهوا إلى مصيرٍ شابه مصائرَ الأقوامِ السّابقةِ من المكذّبين. هذا الدّليلُ الّذي يثبتُ من خلالِه وجودُ الله الخالقِ لهذا الكونِ

والإنسان والّذي قد جعلَ لحياته في هذه الدّنيا مقصداً ويترَّتبُ على ذلك حساباً جزاءً أو عقاباً. علماً بأنّ الله تعالى قد قصد من هذه الأمثلة التّاريخيَّة إظهارَ العيوبِ والنّقائصِ الّتي اتّصفت بها كلُّ واحدةٍ من تلك الأقوام البائدة ليَّتعظَ بها هؤلاء المكذّبون المعاصرون. وقد تبيَّنَ من خلال عرضِ قصصهم العيوبُ التّالية:

أوّلاً- أمّا قومُ لوطٍ عليه السلام ﴿فَكَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾. والسَّيئة تعني الخطيئة وضدَ الحسنة. وهؤلاءِ أُهلكوا بزلزلةٍ شديدةٍ دفنتهم تحت الأحجارِ المُتطايرة.

ثانياً- وأمّا ثمودُ قومُ صالحٍ عليه السلام فقد تجرّءوا على الله وتحدّوه وذبحوا ناقةَ صالحٍ عليه السلام الّتي كانت تأكلُ في أرضٍ مُشاعة لا يملكها قوم صالح أنفسهم. فهذا هو معنى ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ، كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾.

ثالثاً- وأمّا عادٌ قومُ هودٍ عليه السلام فقد ﴿جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾. والجبّارُ من النّاس هو صاحبُ قلبٍ لا تدخلُهُ الرّحمة. والعنيد من النّاس المخالفُ للحقّ يعرفهُ ويردُّهُ ولا يقبله. لذلك قال تعالى ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

رابعاً- وأمّا قومُ نوحٍ عليه السلام فقد استهانوا بشخصِ نبيّهم وقالوا ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾.

فهذه حقائقُ مُذهلةٌ جلّتها هذه الشواهدُ التاريخيَّةُ سالفة الذّكر. ويتبيَّنُ من تصرُّفاتِ المكذّبين المعاصرين أنّ جميعَ العيوبِ الّتي كانت قد وُجدت منفردةً في

كلّ قومٍ من أولئك الأقوامُ قد ظهرت مُجتمعةً في تصرُّفاتِ هؤلاءِ المعاصرين.

والأعجبُ من ذلك كلّه هو أنّ جميعَ هذه القصص قد وردت مُصاغةً صياغةً بلاغيّةً مُعجزةً تبادرَ منها لأذهانِ المفسّرينَ القدماء غيرَ ما تضمّنه. وهي السورةُ الّتي وردَ بحقّها قولُ محمّدٍ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلّم (شيّبتني هودٌ وأخواتها).

ولننتقل الآن لتدبُّر الآية الأولى من قصّةِ قوم النّبيّ شعيبٍ عليه السلام والتي قال تعالى فيها، وهي الآية الرّابعة والثمانين:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾

وأوّلُ ما نلاحظه في هذه الآية الكريمة هو أنّ الله تعالى استهلّها باسمِ المدينةِ الّتي كان يقطنها قومُ شعيبٍ عليه السلام. على حين أنّهُ لم يفعل ذلكَ في القصصِ الأربع الماضية. فقد كانَ الله تعالى يستهلُّ القصّةَ باسم قومِ النّبيّ الّتي تعودُ إليه تلك القصّة. لذلك وجب علينا أن نتساءل أوّلُ ما نتساءلهُ: أين تقعُ مدينة (مدين) المستهلّ بها هذه الآية الكريمة؟؟

ونعلمُ من آياتِ هذا القرآن المجيدِ أنّ موسى عليه السلام كان قد فرَّ إلى مدين هذه بعد وكزه للرّجلِ المصريّ والقضاء عليه. وقد أكّدَ هذه الحقيقة كاتبُ سفرِ الخروج في الإصحاح الثّاني (١٤) من التّوراةِ المعاصرةِ حيث كتبَ يقولُ فيه: (فهربَ موسى من وجهِ فرعون، وانطلقَ إلى أرضِ مدين، وجلسَ عند البئر. وكانَ لكاهنِ مدينَ سبعُ بناتٍ فجاءت واستقت...) إلى آخرِ ما جرى. وقد حدّد الّذين طبعوا هذه التوراة (دار الشرق بيروت) وضمن حاشيةٍ تحت رقم (٣) عند هذا

الخبر قالوا فيها: (الآيات ١١-٢٢) يحدّدُ عموماً موقع مَدين في الجزيرة العربيّة جنوبيّ أدوم وشرقيّ خليج العقبة. ويذكر التراثُ العربيُّ إقامةَ موسى في هذه النّاحية. غير أنّ تحديد هذا الموقع جاء مُتأخّراً وهناكَ بعضُ النّصوص الّتي تتحدّثُ عن المدينين وكأنّهم بدوٌ يسلكونَ دروبَ فلسطين (تكوين ٣٧/٢٨و٣٦ أو شبه جزيرة سيناء (عدَد ١٠/٢٩-٣٢)... وفي سفر الملوك (١١/١٨) إشارةٌ أدقُّ إلى مكانِ إقامتهم. هربَ أحدُ رؤساء أدوم إلى مصر. فاجتازَ مدينَ ففاران- في جنوبِ النّقب بين قادش ومصر- فموقعُ (مَدين) هو إذاً في شبهِ جزيرةِ سيناء شرقيّ بريّة فاران، لا في الجزيرةِ العربيّة. وهناك حيثُ تجلّى الرّبُّ لموسى).

وعلى هذه الصّورة يكونُ قد تعيَّنَ لنا موقعُ مدينةِ (مَدين) الّتي كان يقطنها قومُ شُعيبٍ عليه السلام. لكنّ هذا لا يكفي للإجابة على السؤال المطروح آنفاً. لذلك راجعتُ ما كتبهُ كاتبُ سفر التّكوين عن إبراهيم عليه السلام وعن خصوصيّاته. فتبيَّن لي أنّه كتب عنه يقول في الإصحاح (٢٥) منه: (وعادَ إبراهيمُ فأخذَ زوجةً اسمها قَطورة. فولَدت لهُ زِمرانَ ويُقشان ومَدان ومِدين..). الأمرُ الّذي يوضّحُ لنا وُجودَ علاقةٍ بين ابنِ إبراهيمَ (مَدينَ) المذكور. وبينَ مدينةِ (مَدين) الّتي نحن بصددِ تعيينِ علاقةٍ بينها وبين هرب موسى إليها.

وهنا خطر لي مراجعةُ التّفسير الكبير للرّازي رحمه الله بشأن ما كتبهُ في هذا الموضوع. فتبيَّنَ لي أنّهُ كتب يقول: (واعلم أنّ مَدينَ اسم ابنِ إبراهيمَ عليه السلام، ثمّ صارَ اسماً للقبيلة. وكثيرٌ من المفسّرين يذهبُ إلى أنّ مَدين اسم مدينةٍ بناها مَدين ابنُ إبراهيمَ عليه السلام). وهذه الحوالةُ تدلُّ على أنّ المفسّرين القدماء ومن جملتهم الرّازي رحمهم الله قد أخذوا بروايةِ كاتب سفر التّكوين الّتي سبق لنا أن نقلناها على أنّها صحيحةٌ ومقبولةٌ وأنّها تقعُ على بُعدِ عدّةِ كيلو مترات من خليج العقبة الواقعُ على البحرِ الأحمر، وقريباً من فرعِ البحرِ الأحمر المُتّجهِ نحو شبه جزيرة العرب وجنوبيّ النّقب.

وعلى هذه الصّورة فمن الممكن أن يكون موسى وقتَ هربه على علمٍ بأنَّ له في مدينة (مَدين) أبناء عمومة الأمرُ الّذي دفعهُ للهربِ إلى هناك لعلّه يجدُ في (مَدين) من يلوذُ به ويحميه. وبما أنَّ موسى ما كان قد التقى بأحدٍ من سكّان (مَدين) من قبلُ فكيفَ سيتعرّفُ عليه أحدٌ منهم؟ وهذه المعضلةُ دفعتهُ ليجلسَ قريباً من نبعٍ أو بئرِ الماء الّذي يسقي منهُ الرّعاةُ وغيرهم ماشيتُه والنّساءُ قدورهم. فالقرآنُ الكريمُ ذكر في هذا المجال أنَّ موسى دعا ربّهُ أن يهديهُ سواءَ السّبيلِ وذلك قبلَ هربه من مصر. وبعد أن عزمَ أن يهربَ إلى مَدين. فلمّا وصل إلى هناك يروي لنا القرآنُ الكريمُ أنّه عليه السلام (وردَ ماءَ مَدين) الأمرُ الّذي يدلُّ على نُدرة مياه مَدينَ في ذاك التّاريخ. أي أنَّ أكثريّةَ أهلِ مَدين كانوا يستقونَ من هذا المكان. كذلك يروي لنا كتابُ الله العزيز أيضاً أنَّ موسى سقا للفتاتَين (ثمَّ تولّى إلى الظّلِّ). ورجلٌ هاربٌ من وجه فرعون مثله يسقي للفتاتَين ويجلسُ في الظّلِّ فماذا نتصوَّرُ أن يدورَ بخلَده في تلك اللحظات؟ فالمؤهّلُ للرّسالة السّماويّة يفكّرُ أصلاً بأسلوبِ تفكيرٍ روحيٍّ. وما دام قد دعا ربّهُ عند التوجّه إلى مدينَ أن يهديهُ ربُّهُ السّبيل. فلا بدَّ أنّه فسّرَ فُرصةَ تقديمِ العونِ للفتاتينِ أنّها تحريكٌ إيّاهُ من قبل ربّه عزَّ وجلَّ. وإنَّ ما يؤكّدُ مصداقيّةَ هذا التحليل النّفسيّ هو أنَّ موسى، وبعد أن (تولّى إلى الظّلِّ) شكر ربّه على هذه الفرصة وعلى التّحريك الإلهيّ ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾. فقد رأى موسى في هذه الخدمة الّتي حرّكته ملائكة الله للإقدام عليها وجهَ خيرٍ من ربّه استجابةً لدعائه السّابق. وإذ به يُفاجأ بعد ذلك أنّه ﴿فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾. ولم يقل لها موسى أنّه قام بواجبه أو أنّه قام بعملٍ لا يستحقُّ عليه أجراً. بل قام ومشى معها لاعتقاده أنَّ ما يجري إنّما يجري بتحريكٍ من ملائكة ربّه عزَّ وجلَّ. ومن ثم يتابع كلام الله روايته بهذا الشّأن، فيأتي بفاء الاستئناف ويقول

تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ﴾ ونلاحظ وجود إشارة وقفٍ على آخرِ الجملة الأخيرة. فلماذا توجدُ هذه الإشارة؟ الحكمة من إشاراتِ الوقفِ في القرآنِ دعوةُ القارئ ليتمهَّلَ ويمعن نظره فيما قرأهُ وليتدبّره أي أنّ الله تعالى قد نبّه أذهاننا من خلال إشارة الوقف هنا لنربط ما بين ما يحدث لموسى وبين ما دفعه للتوجُّه إلى مدين على أن فيها أبناء عمومته. وعلى هذه الصّورة يتلاقى مضمونُ روايةِ سفرِ التّكوينِ مع رأي المفسّرين القدماء مع ما توصّلنا إليه آنفاً من أنّ مدينة مدين على اسم أحد ابنا إبراهيم وأنّ موسى كان على علمٍ بهذا ولهذا السّبب توجّه نحو مَدين ولم يتوجّه إلى مكانٍ آخر غيرها في تلك الحال العسيرِ الّذي مرّ عليه. وإنّ ما يؤكّدُ لنا صحّةَ ما توصّلنا إليه. هو أن والد الفتاتينِ ما إن سمعَ من موسى ما مرّ به من قصصٍ حتى سارع وقال له ﴿قَالَ لَا تَخَفْ﴾ ولا يقول رجلٌ مثلُ هذا إلا لتهدئةِ رَوعِ الّذي جاءه مُضطرباً ولإشعارهِ أنّه في أحضان أهله وأقربائه. الأمرُ الّذي يمنحنا اليقين بأنّ موسى عليه السّلام أملَ من ربّه أن ينصره أبناءُ عمومته الّذين هم في مَدينَ لذلك هرب إلى هناك.

وإنّ الّذي يراجع الإصحاح (١٨) من سفر الخروج يعثرُ على دليلٍ جديدٍ يؤكّدُ علاقة أهل مدينَ ببني إسرائيل حيث كتب كاتبه يقول: (**وسمع يترو كاهن مَدين وحمو موسى بكلّ ما صنعَ الله إلى موسى وإلى إسرائيلَ شعبه كيف أنّ الرّبّ أخرج إسرائيل من مصر. فأخذ يترو حمو موسى صفوّرة امرأةَ موسى بعدما صرفها... وأتى حمو موسى وابناهُ وامرأتهُ إلى موسى في البريّة حيث كان مخيّماً عند جبل الله... فخرج موسى للقاء حميّه... فلمّا كان الغد جلَس موسى ليقضي للشعب. فوقف الشعبُ قربهُ من الصّباح حتى المساء.. فلمّا رأى حمو موسى كلّ ما يصنعُ للشّعب وأنّه يُنهكُ نفسه من الصّباح إلى المساء وحده. أشارَ عليه حموهُ وقالَ له: والآن اسمع منّي ما أنصحُك به فيكونُ الله معك.**).

وبعد أن قدَّمَ لهُ النّصحَ، يتابعُ كاتبُ سفر الخروج يقول: **(فسمعَ موسى لقولِ حميِّه وفعلَ كُلَّ ما قال له. فاختار موسى أناساً مهرةً من كلِّ إسرائيل، فأقامهم رؤساءَ على الشّعب. فكانوا يقضونَ للشعب في كلِّ وقت. وكلُّ قصَّةٍ عويصةٍ يرفعونها إلى موسى. وكلُّ قضيَّةٍ صغيرةٍ يقضونَ هم فيها. ثمّ صرفَ موسى حماه، فذهب إلى أرضه).**

فمن خلالِ جميع ما ذكرناه عادت حكمةُ فرارِ موسى إلى مَدينَ واضحة المعا لم. فهي مدينةٌ أقام في منطقتها مَدينُ ابنُ قتوره. ومضت الأيّامُ وانحرفَ أهلُها عن تعاليم إبراهيم عليه السلام. فبعث الله تعالى فيهم نبيَّهُ شُعيباً عليه السلام ليحدِّثَ ما ستقصُّهُ علينا الآياتُ القادمة. فالمعلومُ أنّ حميَّ موسى كان من بين الّذين نجوا من العذاب الّذي حلّ بقومِ شعيبٍ وكان موحِّداً وعلى دين إبراهيم عليه السلام. وإنّ الاقتراحَ الّذي اقترحهُ على موسى كانَ معمولاً به بين المؤمنين في مدين ومَوروثاً عن شعيبٍ عليه السلام أيضاً. لذلك تقبَّلهُ موسى برحابةِ صدر. والأنبياءُ عليهم السلام اشتهروا بإصغائهم لمشورةِ أتباعهم من المؤمنين.

ثمّ إنّي بحثتُ في هذه التّوراة المعاصرة عن كلمة (شعيب) الّتي هي اسمٌ للنّبيّ الّذي بعثه تعالى إلى أهل مدين، فلم أعثر لها على أثر. وراجعتُ معجم (محيط المحيط) من منطلقِ أنّ مؤلفهُ يدينُ بالعهد القديم. فلاحظت قوله إنّ شعيباً هو نبيٌّ أو كاهنٌ اسمه يثرون، وهو حمو موسى النّبيّ. ولا شكَّ أنّ ما كتبهُ لم يكتبهُ بناءً على مرجعٍ تاريخيٍّ بل كان اجتهاداً شخصيّاً منه. وما دام المفسّرون القدماء لم يحقّقوا أيضاً بشأن الاسم المذكور. وكان من عادة القرآن الكريم أنّه لا يطرح شيئاً لا يمكن إثباته. فقد راجعتُ (محيط المحيط) من جديد باحثاً عن معنى كلمة (شُعيب). فتبيَّن لي اشتقاقها من قولِ أحدنا: شعبتُ الشّيء شعباً فالمعنى جمعتهُ وأصلحتهُ وفرّقتهُ وأفسدتهُ. أي أنّها كلمةٌ من الأضداد. ثمّ إنّ الله تعالى نقل عن لسان شعيبٍ قوله: (إن أُريدُ إلاّ الإصلاح) أي أنّه ادّعى فيما ادّعاهُ أنّه يسعى للإصلاح في

شؤون قومه. وقد أجابوا عليه: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾. وهذا القولُ يعني بألفاظٍ أخرى أنَّ قومه اتّهموا شعيباً بالإفسادِ وليس بالإصلاح كما ادّعاه. وتتجلّى من خلال هذين القولين سمةُ التّضادّ. ويثبتُ بالتّالي بأنَّ الله تعالى استعمل الاسم (شعيب) ليسَ بالاسم المتداول بين أفرادِ قومه. ولكن بمعناهُ الوصفيّ. وعلى شاكلةِ اسم النّبيّ (آدم) فقد أورده جلَّ شأنه بمعناه الوصفيّ. وإنَّ ما يؤكّدُ ما ذهبتُ إليه هو أنَّ كلمة (شعيب) صيغةُ تصغير، وقد وردت على لسان قوم النّبيّ المذكور على سبيل السّخرية والاستهزاء به. لادّعائه وقوله (إن أُريدُ إلاّ الإصلاح). ويكفينا اعترافُ قومِ شعيب أنّه كان تقيّاً ومن المصلّين.

والآن نتناولُ بالتّدبّر الفقرة الأولى من أوّلِ آيةٍ كريمةٍ من قصّةِ شعيبٍ مع قومه من أهلِ مَدين والتي قال تعالى فيها: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾. فالمعلوم أنَّ العرب لا يبتدئون الجملة بحرفٍ إلاّ إذا سبقها حذفٌ وأوردوا الحرفَ للدّلالة على هذا المحذوف. وما دام تعالى قد استهلَّ جملة ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ بالحرف (إلى). نتساءلُ عن معنى حرف (إلى) في هذا الموضع وعن تقدير المحذوف في هذا المقام؟ والّذي أراه هو أنَّ الله تعالى استعمل حرف (إلى) هنا بمعنى (من) والتّقدير: وبعثنا من مدين أخاهم الّذي استهانوا به واتّهموهُ بالفساد. فهذا هو معنى الفقرة الأولى (وإلى مَدينَ أخاهم شعيباً).

ونتناولُ بالتّدبُّرِ الفقرةَ الثّانيةَ الّتي ورد فيها: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ فهو تعالى راحَ يبيّنُ من خلال (قال يا قوم اعبدوا الله) عظمةَ نبيّهِ وحقارةَ أهل مَدينَ الّذين استهانوا به واتّهموه بالفسادِ ووصفوهُ بكلمة (شعيب) بصيغةِ التّصغير. فبيّن أنَّ نبيَّهُ طالبهم بعبادة الله الواحد الأحد الّذي عبدهُ جدُّهم

إبراهيم عليه السلام ليس إلاّ. وقد نهاهم عن محبّة غير الله تعالى أيضاً من أصنامٍ ومالٍ وذلك من خلال قوله (ما لكم من إله غيرُه) أي أنّي لاحظتُ أنّكم قد غفلتُم عن وجودِ وعبادةِ ربّكم الحقيقيّ. وانغمستُم في محبّةِ محبوبٍ آخر سواه. فمن هو هذا المحبوبُ الآخر الّذي استهوى أهل مَدين؟ أجاب الله جلّ شأنه على هذا السؤال وأضاف يوضّحُ ما نهى نبيُّهُ الكريم إيّاهم عن محبّته وقال: ﴿وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾. ففعل (تنقُصوا) يتعدّى إلى مفعولين. فالمكيال مفعولهُ الأوّل و(الميزان) مفعولهُ الثّاني. ونقصَ ضدّ أتمّ. وإنّ كلمة (مكيال) آلةٌ مُعدّةٌ لكيلِ الطّعام على الأغلب. فالعرب تقولُ: هذا طعامٌ لا يكيلُني أي لا يكفيني كيلُه (محيط المحيط). وأمّا الميزان فهو آلةٌ ذات كفّتين يوزنُ بها الشيء ليُعرفَ مقدارهُ من الثّقل. ومن معانيه أيضاً العدلُ والمقدار (محيط المحيط).

وعليه فقد وعظَ هذا النّبيّ قومه ألاّ يُحبّوا المالَ إلى درجةٍ تُخرجهم عن جادّة العدل فيتلاعبوا بالمكيال والميزان وعلى صورةٍ لا يؤدّونَ النّاس فيها حقّهم من الطّعام وممّا يُوزنُ من الأشياء. وهل يصحُّ أن يُستهانَ بكرامةِ إنسانٍ يأمرُ بعبادةِ الله تعالى وينهى عن مجافاةِ العدلِ والإنقاصِ ممّا يكيلُ من الطّعامِ وممّا يزنُ من المقادير؟؟ فبهذه المعاني شرع تعالى يقصُّ علينا قصّة نبيّه الّذي بعثهُ لإصلاح أحوالِ أهلِ مَدين. والتي تضمّنتها الفقرتينِ سالفتي الذّكر.

وأمّا في الفقرةِ الثّالثة فقد نقل لنا الله تعالى حُجّةَ نبيّه القويّة الّتي احتجّ بها في مواجهةِ قومه. فهو قال: (إنّي أراكم بخير) فهو أتى بحرف التّأكيد إنّ وبكلمة (خير) الّتي تعني المال مُطلقاً (محيط المحيط) وليصبحَ معنى قوله (إنّي أراكم بخير) أنّهم كانوا أصحابَ تجارةٍ وأموالٍ كثيرةٍ ولا يحتاجون والحالُ كذلك للإنقاصِ من المكيالِ والميزان. وكأنّه عليه السلام قد وعظهم بتقوى الله تعالى الّذي يؤمنون بوجوده وبضرورةِ خشيته وعبادته. خصوصاً وأنّ قومهُ كانوا بخيرٍ وليسوا بفقراءَ

يدفعهم فقرهم إلى ما يفعلونه.

وقد راح عليه السلام يحذّرهم من مغبّة عملهم المذكور وقال في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾. أي أنّه عليه السلام أتى بواو العطف وبحرف التّأكيد (إنّ) وبفعل (أخافُ) من خافَ ومعناهُ فزِعَ وحذِرَ وضدّ أمنَ. وبكلمة (عذاب). بمعنى النّكال والعقوبة. وبكلمة (يوم) موصوفاً بصفة (محيط) الصّفةُ المُستعملةُ بمعناها المجازيّ (محيط المحيط).

وليصبح معنى ﴿وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾ أي شعيباً عليه السلام توقّع وحذّرَ من أن يأتي يومٌ يحيطُ بهم عقابُ الله تعالى من جرّاءِ تراكمِ ما يفعلونهُ ويأثمونَ عليه في شرع الله تعالى. وعلى اعتبار أنّهم يأكلونَ حقوقَ النّاس ويظلمونهم. وبهذا الأسلوب من الصّياغة البلاغيّة المُعجزة يكون الله تعالى ومن خلال هذه الآية الأُولى من هذه القصّة قد أعطى القارئ فكرةً عن الحال الّتي كان عليها أهل مدين من نسيانهم خشيةَ ربّهم في معاملاتهم التّجاريّة. وتضجرّهم من نبيّ الله الّذي بعثهُ ربّهُ ليعظهم ويذكّرهم بتعاليمِ ربّهم. وموضّحاً في الوقت نفسه:

أولاً- مبدأ العدالة السماويّة في مجالِ الاقتصاد.

ثانياً- ضرورة خشيةِ التّاجر ربّهُ في موضوعِ تعاملهِ مع النّاس.

ثالثاً- وضرورةَ ابتعادهِ عن كلّ ما يؤدّي بهم إلى ابتزاز أموال الناس.

رابعاً- وأنّ مخالفة التّجّار لهذه المحاذير يؤدّي إلى حدوثِ فسادٍ في الأرض يستوجبُ نزول عذاب الله عزّ وجلّ.

وقد راح شعيبٌ عليه السلام يُعيدُ إلى أذهان أهل مدين معالمَ المبدأ التّجاريّ الّذي كانت قد أمرت به شريعةُ نوحِ التّابعين لتعاليمها، وأضاف يقول في الآية الخامسة والثمانين:

﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا

فإن نحن تدبَّرنا الفقرة الأولى وهي ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ نلاحظُ أنَّ الله تعالى أتى بفعل (أوفوا) حيث تقولُ وفَّيتُ فلاناً حقَّه بمعنى أنّي أعطيتُهُ إيّاهُ وافياً تامّاً. كذلك أتى بكلمة (بالقسط) فالباء للاستعانة والقسطُ معناه العدل من قَسَطَ الوالي أي عَدل (محيط المحيط).

وعليه فإنَّ الله تعالى كان قد قال على لسان نبيِّه في الآية الأُولى ﴿وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ في معرضِ ما دعا إليه. وهي دعوةٌ خيِّرةٌ لا تدفعُ للاستهانةِ بمن يدعو بها ولا إلى استصغاره كما فعل به أهلُ مَدين. أمّا في هذه الفقرة الأولى فقد وضَّح معالمَ المبدأ العادل الّذي يجب أن ينتهجهُ الّذين يعملون في المجالات الاقتصاديَّة وبشكلٍ عام. ولا تشتملُ هذه الفقرةُ على أيِّ تكرار.

أمّا العلاّمة الرّازي رحمه الله الّذي لم يفهم مضمون الآيةِ السّابقة على حقيقتهِ ذهب إلى أنَّ في هذه الفقرة الأولى من هذه الآيةِ الكريمةِ تكرار. بل وراحَ يُدافعُ عن التّكرار ويقول: (الوجهُ الأوّلُ: إنَّ القوم كانوا مصرّينَ على ذلك العمل، فاحتجَّ شعيبٌ في المنعِ منه إلى المُبالغةِ والتّأكيد. والتّكرار يفيدُ التّأكيد وشدَّة العناية والاهتمام).

وقال في الفقرةِ الثّانية ﴿وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ﴾. ففعل (تبخسوا) اشتُقَّ من قولكَ بخسني حقّي بمعنى ظلمني وانتقص من حقّي. وكلمة (أشياءهم) جمع شيء وهو ما يصحُّ أن يُعلمَ ويُخبرَ عنه فيشملُ الموجودَ والمعدوم، ممكناً أو محالاً، قديماً أو حديثاً. فالشيء أعمُّ العام. كما أنَّ الله تعالى هو أخصّ الخاص (محيط المحيط).

وعليه يصبح معنى هذه الفقرةِ الثّانيةِ أنَّ نبيَّ الله قد وعظَ أيضاً وبشكلٍ عامٍّ

أهل مَدين علاوةً على ضرورة تمسّكهم بالمبدأ الاقتصادي سالف الذكر أن يتمسّكوا بمبدأ آخر وهو ألاّ يظلموا النّاس أشياءهم سواءَ أكانت موجودةً أو كانت معدومةً ممكنةً أو محالةً قديمةً كانت أو حديثةً. وبذلك يكون قد أمرهم بمبدأ عامٍّ ثانٍ غير الأوّل.

وأضاف النّبيّ شعيب يقول في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. فأتى بفعل (تعثوا) فاشتقّه من قولك عثا يعثو ومعناه أفسد وبالغ في إفساده أو بالغ في تكبُّره أو بالغ في كُفره (محيط المحيط).

وليصبح معنى هذه الفقرة الأخيرة ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أنّه عليه السلام قد وعظهم بضرورة اعتدالكم في تصرُّفاتكم مهما كان نوعها. ذلك من منطلق أنّ المبالغة والمغالاة في الأشياء تحرفُ المُبالِغَ عن طريقِ الاستقامةِ والعدالةِ وتدخله في زمرةِ المفسدين فينبغي أن تبتعدَ تصرُّفات هذا الإنسان عن طريق الإفراط والتفريط. وعلى هذه الصّورة يكون النّبيّ شعيب قد أتى بأصولٍ ثلاثةٍ إن عمل عليها أهلُ مَدين كانت قد استقامت أحوالهم وجنّبوا غضبَ ربِّهم عن أنفسهم وما عادوا في نظره تعالى من المفسدين. وإنّها لمبادئ تصلحُ لكلِّ زمانٍ ومكانٍ.

وقد راح عليه السلام يعظُ بعد ذلك ويقول في الآية السادسة والثمانين:

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾

ففي الفقرة الأولى قال ﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. فالبقيّةُ والبقوى أسماءٌ لما بقي. وإنّ بقيَّةَ بقيَّةُ الشيء يكون من جنسه. وإنّ قوله تعالى (بقيَّةُ الله) يعني به ما أبقاه الله لهم من الحلال بعد التنزُّه عمّا حُرِّم (محيط المحيط).

وعليه فما دام الكلام كان قد دار حول المكيال والميزان. وكانت كلمةُ البقيَّة تُطلقُ على من كان من جنسها. فيكونُ يوجدُ في هذه الفقرة حذفٌ تقديرهُ

إنّ بقيّةَ المال الّذي يبقى لكم من الحلال ومن طاعة الله نتيجةَ تقيّدكم بأوامرِ الله وبالأمورِ الّتي ذكرناها، إنّ بقيّةَ الله تلك خيرٌ لكم ممّا ستكسبونهُ بعد أن تخسروا المكيالَ والميزان. هذا إن كنتم مؤمنينَ بوجودِ الله تعالى الّذي أمرَ بالتّقيُّدِ بهذه القيود.

وعلى هذه الصّورة من الصّياغةِ البلاغيّةِ يكونُ الله جلّ شأنهُ قد وضّحَ لنا حقيقةً كونيّةً وهي أنّ ملكيّةَ كلّ شيءٍ في هذا الكون هي لله تعالى وأمّا نحن فأوصياء على هذه الأشياء المسموح لنا بالحصول عليها والانتفاع بها ليس إلاّ. وهي حقيقةٌ تفسّرُ في حقيقتها مفهوم الحلالِ والحرام. فلا يُسمحُ للإنسان استعمالَ إلاّ المال الناتج عن تطبيق أحكام الدّين. لذلك لاحظنا أنّ شعيباً عليه السلام قد ربط ما بين ما وعظَ به بموضوع الإيمان وقال ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وينتج عن هذه الحقيقةِ أمرٌ آخر وهو أنّ الإنسان الّذي يدّعي أنّه يؤمنُ بوجودِ الله تعالى خالقهُ ويُنقصُ المكيالَ والميزانَ ويقومُ بأداء الصّلاة أو غيرها من جهةٍ أخرى يكونُ كالإنسان الّذي قام بتجزئةِ تعاليمِ الدّين. على حين أنّ تعاليمَ الدّين هي كُلٌّ لا يتجزأ.

وقد أتى نبيُّ الله شعيب بواو العطفِ في الفقرةِ الثّانيةِ والأخيرة وقال ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي أنّه أتى بالباء زائدةً وللتّوكيد لدخولها على الخبر المَنفيّ. وبكلمة (حفيظ) وقد اشتقّها من قولكَ حفظهُ بمعنى حرسهُ ومنعهُ من الضّياع. أو من قولكَ حفظَ المالَ بمعنى رَعاه. فالحافظ هو الموكلُ بالشيء. ومعنى حافظَ على الأمرِ معناهُ راقبهُ ورعاهُ وواظبَ عليه (محيط المحيط).

وليصبح معنى هذه الفقرة الأخيرة ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ بأنّ نبيَّ الله شعيب عليه السلام قد لفتَ نظرَ قومه بعد جميع ما وعظَ به قومه إلى أنّ المراقبَ الحقيقيَّ نتيجةً لذلك كلّه لا يكون إلاّ الله وحده من منطلقِ أنّه المالكُ الحقيقيُّ لهذا

الكونِ من حولنا. وأنَّ صلاحيَّتهُ عليه السلام تقتصرُ على الوعظِ وتبليغ أوامرِ ربِّه عزَّ وجلَّ وحسب. فهذا معنى ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾.

نتساءل: وماذا تبادر لذهنِ العلاّمة الرَّازي رحمه الله من قول نبيِّ الله شعيب (وما أنا عليكم بحفيظ)؟ قال: (وفيه وجهان الأوّل: أن يكون المعنى أنّي نصحتكم وأرشدتكم إلى الخير ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي لا قدرةَ لي على مَنعكم عن هذا المعنى القبيح. والوجه الثّاني أنّه قد أشار فيما تقدّم إلى أنّ الاشتغال بالبخسِ والتّطفيف يوجبُ زوال نعمةَ الله تعالى، فقال ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ يعني لو لم تتركوا هذا العمل القبيح لزالت نعمُ الله عنكم. وأنا لا أقدرُ على حفظها عليكم في هذه الحالة). وهذا يعني أنّ ذهنَ الرَّازي رحمه الله قد ذهب إلى التّخصيصِ وليس إلى التّعميمِ في موضوعِ هذا الطَّرحِ والتّنظيرِ.

وقد شاء الله تعالى أن يُصوِّرَ لنا موقف أهل مَدين من الطَّرحِ الآنفِ الذِّكرِ. لذلك قال تعالى في الآية السابعة والثمانين:

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾

فنتناول الفقرة الأولى من هذه الآيةِ الأولى الّتي قال تعالى فيها ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فالمعلومُ أنّ الصّلاة لا لِسانَ لها لتأمرَ أحداً بشيء. وإنّ صلاةَ المؤمن هي عبارةٌ عن وسيلة تناغمٍ ومناجاةٍ بين المصلّي وخالقه. وهذه الحقيقةُ تشكّلُ قرينةً تُشيرُ إلى أنّ أهل مَدين أرادوا الاستهزاء بقولهم هذا نبيَّ الله شعيبِ عليه السلام. لكنّ صيغة هذا الاستهزاء الّتي نطق بها قومه من أهل مَدين قد تضمَّنت في الوقت نفسه اعترافاً من جانبهم باشتهارهِ عليه السلام بمواظبته على

صلواته الّتي هي أحد أركان الدّين. وقد فعلوا ذلك لظنّهم بأنّ صلاة المؤمن لا تُنفّرُ مّما يعبد الآباء، بل بالعكس فإنّها تدفعُ بالمصلّي ليسير حثيثاً على دربهم وخطاهم. وبخلافِ ما صدر عن نبيّهم شعيب عليه السلام. فكانت هذه الظّاهرة مدعاةً لتعجُّبهم ولسخريتهم منه. فهو عليه السلام نفّرهم من محبّةِ غيرِ الله مّمن يحبّونهم من الأصنام ومن الأموال. ودعاهم لعبادة الله وحده.

وهذا التّعجُّبُ وتلك السّخرية إن دلّت على شيءٍ فإنّما دلّت على أنّ أهل مَدين كانوا أصحاب عقولٍ تقليديّةٍ، وما كانوا مؤهّلينَ للحوارِ بحُجّةٍ وبرهان. وبدليلِ ورودِ حرف (أنْ) التّفسيريّة في هذه الفقرة آنفة الذّكر، وأنّها وقعت بين جُملَتين.

وفي الفقرة الثّانية قالوا ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ وقد استُهلّت هذه الفقرة الثّانية بحرف التّخيير (أو) والواقع بعد سؤال الطّلب (أصلاتُك تأمرك) وقيل ما يمتنعُ فيه الجمع وهو قولهم (أن نفعل) (محيط المحيط). كذلك أتى تعالى بحرف (أنْ) المصدريّة وليس التّفسيريّة والنّاصبة للفعل المضارع لوقوعها في الابتداء ولتكون مع صلتها في موضع رفع (محيط المحيط).

وليصبح معنى قولهم ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أنّهم ردّوا على شعيبٍ بعد استهزائهم به ونبّهوه إلى أنّ صلاتَهُ الّتي يواظبُ عليها هي الّتي أعطتهم حريّة التّصرُّف في أموالهم كيفما شاءوا. وبهذه الإجابة يكونون قد أدانوا أنفسهم بألسنتهم وليس بلسانِ أحدٍ آخر غيرهم. وأثبتوا انحرافهم عن تعاليمِ جدّهم إبراهيم عليه السلام.

ولنلاحظ قولهم في الفقرة الأخيرةَ المليئة بالسخرية بنبيّهم والتي قالوا فيها ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾. فهم استهلّوا هذه الفقرة الأخيرة بحرف التّأكيد (إنّ) وبلام التّعجُّب المجرّدِ عن القسم والمستعملة للنّداء في قولهم (لأنت). وأوردوا

صفة (حليم) المشتقّة من قولك: حلُمَ الرّجل إذا كان ذا حُلمٍ وصفحٍ وستْر كذلك أتوا بصفة (رشيد) بمعنى ذو الرّشد والمرشدُ إلى تعاليم الدّين الصحيحة. وقد أوردوا هاتين الصّفتين معرّفتين بالألف واللام اللتين تفيدان معنى المعهود. للإشارة إلى اشتهارِ شعيب عليه السلام بهاتين الصّفتين النّبيلتين.

وليصبح معنى هذه الفقرة الأخيرة ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أنّ أهلَ مَدينَ عادوا ليسخرونَ منه عليه السلام للمرّةِ الثّانية بأنْ الّذي يتّصف بالحلمِ يعمدُ إلى الصّفحِ والسّترِ خصوصاً إذا كان ذو رشد. لكنّك لم تصفح عنّا ولم تستر علينا ما تؤاخذنا به وإنّ موقفك هذا لا يتّصفُ بالرّشاد. وقد أدانوا أنفسهم للمرّةِ الثّانيةِ من خلال سخريتهم الجديدة. فهم اعترفوا صراحةً بأنّ النّبيّ شعيب لم يشتهر بالمحافظةِ على صلواته وحسب. بل واعترفوا كذلك أنّهُ اشتهر باتّصافه بصفتي الحليم الرّشيد أيضاً بالإضافة الى محافظته على صلواته.

وعلى هذه الصّورة فقد صمّ أهل مَدين آذانهم تجاه ما كان قد وعظهم به نبيُّهم شعيبٌ عليه السلام وحافظوا على نهج حياتهم الموروثُ عن الآباءِ والأجدادِ. ونظروا إليهِ عليه السلام نظرةَ استهزاءٍ بالرّغمِ من اعترافهم اللاّشعوري بمحافظته على صلاته وباتّصافهِ بصفتي الحليم الرّشيد. والسببِ في ذلك تهافتهم على حبّ المال وعلى جمعهِ بأيّ طريقٍ كان مشروعاً أو غير مشروع. وعلى شاكلة ما يتّصفُ به المكذّبونَ المُعاصرون.

وقد عمد الله جلّ شأنه وعلى عادته في القصصِ السّالفةِ الذّكرِ إلى إطلاعنا على موقف نبيِّه من سخريةِ قومه منهُ. وأورد ذلك مُصاغاً صيّاغةً بلاغيّةً مُعجزةً وقال على لسانهِ عليه السلام، وذلك في الآية الثامنة والثمانين:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا

﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

ففي الفقرة الأولى ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي أنّه سارَ على نهج النّبيّ صالح عليه السلام الّذي طلب من قومه أن يسلّموا على سبيل الافتراض وجودَ صلة لهُ بربّه عزّ وجلّ. فالنّبيّ شعيب طلبَ من قومه نفس الطّلب وهو أن يسلّموا بوجودِ صلة لهُ مع ربّه على سبيل الفرض من خلال قوله في هذه الفقرة الأولى ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾.

وقد أضاف فقرةً ثانيةً قال فيها ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ وواصفاً الرزق بالحسن وهو الرّزقُ الّذي يصلُ صاحبهُ بلا كدٍّ في طلبه. وقد أورد الجرجانيُّ في التّعريفاتِ قوله: الرّزقُ الحسن هو ما وُجدَ غيرُ مُرتقَبٍ ولا مُحتسبٍ ولا مُكتسب (محيط المحيط).

وليصبح معنى هذه الفقرةِ الثّانية أنّ شعيباً عليه السلام قد طلب التّسليم أيضاً أنّ اصطفاءَ الله إيّاهُ والمنَّ عليه بهذا الرّزقِ الحسنِ ما كان منهُ مُرتقباً، ولم يسعَ إليه من خلال مداومته على صلاته وعلى اتّصافه بالصّفاتِ الحميدة الّتي عرفها قومه عنه. أفلا يحقُّ لي والحالُ هذه أن أقوم بنصحكم ومحاولة إقناعكم بفسادِ ما أنتم عليه من أحوالٍ تُخالفُ تعاليمَ ربّكم عزّ وجلّ؟

ولنلاحظ أنّ الله تعالى أورد في الفقرة الأُولى من هذه الآية الكريمة حرف (إنْ) الجزائيّة الّتي توقعُ الثّاني من أجلِ وقوعِ الأوّلِ فتجزمُ فعلين شرطاً وجوابُه ويكون الله تعالى قد حذفَ فيها جوابَ الشّرط. وليصبح مرادُ شعيبٍ أيضاً بأنّكم يا قومِ تسخرونَ من صلاتي وتستغربونَ أن تدفعني لأنهاكم عما يعبدُ آباؤكم. على حين أنّ الصحيحَ هو العكسُ ممّا ذهبتم إليه. فالصّلاةُ أصلاً هي الّتي تأمرُ بما أنهاكم

عنه. وبهذا الأسلوبِ الرّاقي تمكّنَ شعيبٌ عليه السلام من الرّدّ على اعتراضات قومه عليه وعلى ظنّهم أنّه لربّما كان له من وعظه مقصداً شخصيّاً يخفيه.

وأمّا قوله في الفقرةِ الثّالثة ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ فقد قدَّمَ فيها دليلاً سلوكيّاً عمليّاً من حياته الخاصَّةِ وهو أنّه لا يفعل شخصيّاً بما يُخالفُ ما ينهاهم عنه من أمور. وكأنَّهُ عليه السلام قد دعاهم لمراقبة تصرُّفاته ليعرفوا كيف أنَّهُ يحاول بنفسه تجنُّب أكلِ المال الحرام.

وقد قال في الفقرةِ الرّابعةِ ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي أنّه أتى بحرف (إن) بمعنى (ما) وعلى شاكلةِ قوله تعالى في مقامٍ آخر ﴿إِنْ أدري أقريبٌ ما توعدون﴾ ولتعمل عملَ ليس. كما أتى بكلمة (الإصلاح) الّتي تفيدُ معنىً ضدَّ الفساد (محيط المحيط).

وليصبح معنى قول شعيب عليه السلام ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أنَّ النّبيّ شعيب قال ما دام ربّي قد اصطفاني لحملِ رسالةِ إصلاحِ أحوالكم. فأنا لا أسعى للفسادِ بل أسعى للإصلاح ما مكّنني ربّي منه.

وقد راح عليه السلام يؤكّدُ ذلك ويقول في الفقرةِ الأخيرةِ ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي أنَّهُ أتى بباء الاستعانة وربطَ بين ما يقومُ به من عمليَّةِ إصلاحٍ وبين توفيقه ونجاحهِ في مهمَّته، ربطهُ بالله وحدهُ وبمشيئته. فهذا ما قصدَ من قوله ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾.

وقد ألقى ضوءً باهراً على منهجيَّةِ سلوكهِ موضحاً بأنَّ الله تعالى الّذي أستعينُ به هو مالكُ الملك وهو مسبِّبُ الأسباب وعلاَّمُ الغيوب. فهذا ما قصدهُ من قوله ﴿عليه توكّلت﴾. وقد أتى بواو العطف وأضاف يقول ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ من نابَ إليه أي رجعَ إليه. وقصدَ بذلك أن ربّهُ يشكّلُ مصدرَ فهمه في كلِّ ما يعمله ويُقدمُ

عليه. وبذلك يكون الله جلّ شأنه، ومن خلال مُعطيات ما أجاب به نبيُّهُ شعيبٌ عليه السلام على قومه، يكونُ تعالى قد وعظَ المؤمنين بمواعظَ هامَّة جداً فمنها ضرورةُ ربطِ توفيقهم بتبليغ ما يقومون بتبليغه بمشيئة ربِّهم مهما اعترضتهم من مشاكل وعقبات. وأن يظلَّ اتّكالُهم على ربّهم في جميع أحوالهم ومعتقدينَ أنّهم يُسألون عن جميع ما يفعلونه. وبسببِ ما يحملهُ ربُّهم عزَّ وجلَّ من صفاتٍ وقُدرات.

ولنلاحظ كيفَ أنَّ النّبيّ شعيب عليه السلام ما إن فرغَ ممّا سلفَ من بيان منهجيَّة لحياته وسلوكه مع قومه. إلاّ وراحَ يحذِّرُهم من عواقبِ اللامبالاة الّتي يقفونها تجاههُ إن هم لم يحملوا كلامهُ على مَحملِ الجدّ. فالله تعالى أتى بواو العطفِ وأضافَ يقول في الآية التاسعة والثمانين:

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾

فإن نحن تناولنا بالتدبُّرِ الفقرةَ الأولى من هذه الآية الكريمة وهي قوله عليه السلام ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ﴾ ففعل (يجرمنّكم) اشتقَّهُ من قولكَ: فلانٌ جرمَ الشجرةَ بمعنى أنّهُ قطفَ جميعَ ما تحملهُ من ثمار. فإن قلت: جرمَ اللّحامُ العظمَ فمعناه أنّه فصلَ اللّحمَ عن العظم. أمّا كلمة (شقاقي) فالشقاقُ يعني الخلافَ والمخاصمة. وشقَ حُزمةَ القمح يعني صدعها وفرّقها. ويقولون بحقِّ الإنسان المتمرّد: شقَّ عصا الطّاعة بمعنى فارق الجماعة. هذا ويُكنّى بالعصا من الأُلفة والاجتماع. ثمّ إنّه أتى بحرف (أن) التفسيريّة المسبوقةُ بجملة (لا يجرمنّكم) والمتأخرُ عنها جملةً أيضاً. كذلك أتى بفعل (يُصيبكم) المشتقُّ من قولك: أصاب فلانٌ الشيءَ إذا وجدهُ وأدركهُ واستأصله. لهذا يقولون: أصابَ الدّهرُ فلاناً

بمعنى فجعه. و (مثل) أي شبيه (محيط المحيط).

وليصبح معنى قوله عليه السلام ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ﴾ أنّ شعيباً عليه السلام قد حذّرَ قومه من مَغبَّةِ مخاصمتهم إيّاه كي لا يصيبهم شبيهُ ما أصاب الأقوامَ من قبلهم. فمن هي تلك الأقوام الّتي ذكّرهم بهلاكها؟

أجاب على ذلك في الفقرةِ الثّانية وقال: ﴿مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ أي حذّرهم أن يحيقَ بهم ويستأصلهم ما حاقَ بقومِ نوحٍ فيأخذهم الطوفان. أو يحيقَ بهم ما حاقَ بقومِ هودٍ فتأخذهم الصّيحة. أو يحيق بهم ما حاقَ بقومِ صالحٍ فتأخذهم الصّيحةُ أيضاً.

وقد خصَّ ذكرَ قومِ لوطٍ بفقرةٍ أخيرةٍ قال فيها: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ والغايةُ من ذلك تنبيهُ أذهان قومه إلى أنَّ ما حدث لقومِ لوطٍ لم تنسهُ أذهانُهم بعد، فلِمَ يتناسونه؟ علماً بأنَّ كلمة (ببعيد) الباءُ فيها زائدةٌ وللتوكيد لسببِ الحالِ المنفيّ.

فلمّا فرغَ النّبيّ شعيب من ذلك كُلّه لم ينسَ أن يدلَّ أهل مدين على علاجِ ما ارتكبوهُ من آثامٍ وأخطاء. وقد سارَ في ذلك على نهجِ جميع من سبقهُ من أنبياءِ الله تعالى في هذا المجال، وقال في الآية التسعين:

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾

والمعنى أنّكم يا قوم إذا تراجعتم عمّا ترتكبونهُ من مخالفاتٍ لتعاليمِ إبراهيمَ عليه السلام ورجعتُم إلى طلبِ مرضاةِ ربّكم ومحبّته والتعرُّف عليه. فليكن الاستغفارُ والتّوبةُ بين يديه علاجَ ما كنتم عليه من قبل. فهذه هي الوسائلُ الّتي

استنّتها تعاليمُ الأديانِ السماويّة لإعادة اللُّحمة ما بين العبد وخالقه وهي نفس وسائل علاج ذلك الّتي أوردتها الآياتُ الأوائلُ من هذه السورة. فالعلاجُ واحدٌ مهما طالَ الزّمان. فهذا هو معنى الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾.

وقد راحَ عليه السلام يكشفُ عن المُنطلق الّذي دفعهُ ليصفَ لقومه العلاجَ الآنفَ الذّكر، وذلك في الفقرةِ الأخيرةِ الّتي قال فيها ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ﴾ فهو أتى بحرف التّأكيد (إنَّ) وبكلمة (ربّي) بمعنى الّذي طوَّرني وتعاملتُ معهُ وتعرَّفتُ عليه. فقد ثبتَ لي أنّهُ يتّصفُ بصفتينِ بارزتينِ كونه (رحيمٌ) وكونه (ودود). فالرّحيمُ هو من إذا استغفرهُ عبدهُ وتابَ إليه، يرقُّ قلبهُ لهذا المُستغفر التّائب، ويغفرُ له ويتعطّف عليه. والودودُ هو من كانت شيمتُهُ الودُّ والمحبّةُ فقد ثبتَ لي أنَّ ربّي هو منبعُ الودِّ والمحبّة. لأنّهُ يبادلُ الّذي يحبُّهُ: حبّاً بحبٍّ ووداً بودّ.

نتساءلُ عمّا إذا أثّرَ وعظُ النّبيِّ شعيب عليه السلام في أفئدة قومه؟ وهل أنّهُم اغتنموا هذه الفرصةَ السّانحةَ واستجابوا لصوتِ ربِّهم عزَّ وجلَّ؟ فلنسمع ما أجابَ به هؤلاء الّذين قست قلوبهم وتحجّرت عقولهم وفضّلوا حبَّ المال على محبّة الله جلَّ شأنه. فلقد نقلَ لنا الله جلَّ شأنه ما أجابوا به وذلك في الآية الإحدى والتّسعين:

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾

فما معنى قولُ قومِ شعيب ﴿مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾؟؟ فإن طالعنا ما فسّرَ قولهم المذكورُ العلاّمة الرّازي رحمه الله في تفسيرهِ الكبير، لاحظناهُ وقد كتبَ يقول: (المسألةُ الأولى لقائلٍ أن يقول أنّهُ عليه السلام كان يُخاطبهم بلسانهم. فلمَ

قالوا: (ما نفقه)؟ والعلماءُ ذكروا عنهُ أنواعاً من الإجابات. فالأوّلُ أنّ المرادَ ما نفهم كثيراً ممّا تقول، لأنّهم كانوا لا يُلقون إليهم أفهامهم لشدّةِ نفرتهم عن كلامه. وهو كقوله ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه﴾. الثّاني أنّهُم فهموهُ بقلوبهم ولكنّهم ما أقاموا له وزناً. فذكروا هذا الكلام على وجه الاستهانة. كما يقول الرّجلُ لصاحبه إذا لم يعبأ بحديثه: ما أدري ما تقول. الثّالثُ أنّ هذه الدّلائل الّتي ذكرها ما أقنعتهم في صحّةِ التّوحيدِ والنّبوّةِ والبعثِ وما يجبُ من تركِ الظّلمِ والسرقة. فقولهم (ما نفقه) أي لم نعرف صحّةَ الدّلائل الّتي ذكرتها على صحّةِ هذه المطالب. المسألةُ الثّانيةُ: من النّاسِ من قال الفقهُ اسمٌ لعلمٍ مخصوصٍ وهو معرفةُ غرضِ المتكلّم من كلامه. واحتجّوا بهذه الآية وهي قوله: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾ فأضاف الفقهَ إلى القول، ثمّ صارَ اسماً لنوعٍ مُعيَّنٍ من علوم الدّين. ومنهم من قال: إنّهُ اسمٌ لمُطلَقِ الفهم. يُقال: أوتيَ فلانٌ فقهاً في الدّين أي فهماً. وقال النّبيُّ (ص): (من يُردِ الله به خيراً يُفقّههُ في الدّين) أي يفهّمهُ تأويله).

ونستنتجُ ممّا نقلناه عن الرّازي رحمه الله أنّ جميع المفسّرين المعروفين قد تبادرَ لأذهانهم من (ممّا تقول) أنّ كلمة القول المذكورة تعني تحرُّك لسان شعيب بما قالهُ تاماً كان أو ناقصاً. فلم يخطُر لأحدٍ منهم أنّ الله جلّ شأنه قد استعمل كلمة القول في هذا المقام بمعنى الرأيَ والاعتقاد وعلى حسبِ ما هو واردٌ في معجم (محيط المحيط). ولا هم اعتبروا جملة ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ﴾ قرينةً في حدّ ذاتها تمنعُ من الأخذِ بالمعنى الّذي ذهب ذهنهم إليه. فهذا الكتابُ السماويُّ ما هو بكتابٍ عاديٍّ لكنّهُ كتابٌ تحدّى الله تعالى به الجنَّ والإنسَ ومن بابِ أنّهُ تعالى قد صاغهُ صياغةً بلاغيّةً مُعجزةً وأسّسهُ على منهجيّةٍ وأصول.

ثمّ إنّ كلمة (ما نفقه) المستعملة في هذه الجملة اشتُقّت من قولك: فقهَ الرّجلُ ما تقولُ بمعنى علمه. وقد كان قصدُ أهلِ مَدين حين قالوا لنبيّهم شعيبٍ

عليه السلام ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ قصدوا أن يقولوا أنّهم حين يُصغونَ لتعاليمه ومُعتقداته. فما كانوا يَرونها مُوافقةً لما توارثوهُ عن آبائهم من تعاليمَ ومعتقدات. الأمرُ الّذي يدفعهم للاعتقاد أنّ شعيباً منحرفاً عن دينِ قومه. ومن خلال قولهم المذكور يكونون قد فسّروا موقفهم منه واستهانتهم به وسخريتهم مّما أتى به من مواعظَ وتحذيرات. الأمرُ الّذي دفعهم للإصرار على العمل على ما وصلهم عن طريق آبائهم من تعاليمَ منحرفةً عن تعاليمِ إبراهيمَ عليه السلام. كما أبقى على نهجهم التقليديّ. فهذا ما أفادتهُ الفقرةُ الأولى من هذه الآيةِ الكريمةِ والتي ورد فيها ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾.

أمّا قولهم في الفقرةِ الثّانيةِ منها ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ فقد اختلفَ المفسّرونَ القدماءُ أيضاً فيما تبادر منها لأذهانهم. فذهبَ بعضهم إلى أنّ كلمة (ضعيفاً) بمعنى ضريراً وبلغةِ بني حمير. كما ذهب بعضهم الآخرُ إلى أنّ (ضعيفاً) تعني أنّ شعيباً كان يتعذّرُ عليه منعَ قومهِ عن نفسه. وأمّا العلاّمة الرّازي رحمه الله فقد قال: (وجبَ أن تكونَ القوّةَ الّتي نفوها عنهُ هي النُّصرة) وكأنّه قال بألفاظٍ أخرى إنّ معنى ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أنّكَ مُنفردٌ من بيننا في مُعتقداتكَ ولا نرى من بيننا أحداً يقومُ لِمناصرتكَ فيما تعتقده). فهل أصابَ أولئكَ المفسّرونَ فيما ذهبوا إليه؟؟

وهيّا نتدبّر ما وردَ في هذه الفقرةِ الثّانيةِ الّتي اشتملت على قولِ أهلِ مَدين ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾. ولكن بمنهجيّةِ القرآنِ الكريمِ وأصولِ تفسيره. فالواو الّتي استهلّوا بها قولهم المذكورُ أدخلها تعالى على جملةٍ فعليّةٍ وبقصد أن تفيدَ العطفَ ووصفَ حالِ أهلِ مَدينَ أنفسهم. كذلك أوردَ تعالى حرفَ التأكيد (إنّ) لتأكيد ذلك. أمّا فعل (لَنراكَ) فاللاّم فيه هي اللاّم المزحلقة لتزحلقها من حرف التأكيد

(إنّ) إلى خبرها. وذلك دفعاً لاجتماع مؤكّدان معاً (محيط المحيط). وهذه اللاّمُ غيرُ عاملةٍ وتردُ مفتوحةً أبداً. ثمّ إنّ فعل (نراك) ما أوردوهُ للدّلالةِ على رؤيةِ العينِ بل أوردوهُ للدّلالةِ على رؤيةِ القلبِ وليصبح مُرادهم من قولهم (وإنّا لَنراكَ) أنّنا بتنا نعتقدُ بشأنكَ وبدليلِ أنّهُم يتكلّمونَ عن عقائدِ النّبيّ شعيب عليه السلام ولا يصفونَ هيئةَ جسده. فإن نحنُ سلّمنا بما توصّلنا إليه من معنى يعودُ الجار والمجرور (فينا) يعني في مُعتقدنا وفي مُعتقدِ أهل الرّأي منّا. وليس معناهُ في وسطنا. وبالتّالي يصبحُ معنى كلمة (ضعيفاً) صفة لاعتقادِ شعيبٍ عليه السلام. أي أنّنا بتنا نرى اعتقادكَ في نظرِ أهلِ الرّأي منّا ضعيفاً. ولا يقصدُ بهذه الكلمة ضريراً ولا ضعفاً في التّأييد. وكأنّ أهل مدين قالوا لشعيبٍ عليه السلام بألفاظٍ أخرى إنّك أكثرت ممّا تطرحهُ علينا من أفكاركَ وعقائدكَ وعلى صورةٍ تختلفُ عمّا توارثناهُ من عقائد عن آبائنا وأجدادنا إلى درجةٍ قلّلتْ من قيمةِ ما تطرحه من عقائدَ علينا، وعادَ ما تعتقدهُ ضعيفاً في نظرنا الأمرُ الّذي يدفعنا للاعتقاد بأنّك تفسدُ، أنّك لست من مُصلحاً. بل أنت مُرتدٌّ وعقوبتك الرّجم. فهذا هو معنى قولهم في هذه الفقرة الثّانية ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾.

فإن نحن انتقلنا إلى تدبُّرِ الفقرةِ الثّالثةِ والتي قالوا فيها ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾. فالحرف (لولا) هو حرفُ امتناعٍ لامتناع. وكلمةُ (رهطك) اشتُقّت من قولك رهطَ فلانٌ اللُّقمةَ بمعنى أنّهُ تناولها كبيرةً. والرّهطُ هو قومُ الرّجل وقبيلته. ثم إنّ اللاّم في قولهم (لرجمناك) استعملت للتّعليل. فهي استعملت لتعليلِ إحجامِ أهل مَدين عن رجمِ شعيبٍ عليه السلام. أمّا كلمةُ (رجمناك) نفسها فقد اشتُقّت من قولك: رجمهُ بمعنى قتلهُ وقذفهُ ولعنهُ وشتمهُ وهجرهُ وطردهُ ورماهُ بالحجارة. والرّميُ بالحجارةِ هو المعنى الأصليّ لكلمة الرّجم (محيط المحيط).

فاستناداً إلى هذه المعاني يصبح معنى قول أهل مدين وهم يخاطبون شعيباً عليه

السلام ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ﴾. بأنّه ما دمتَ يا شعيبُ قد انحرفتَ وارتددتَ عن دين آبائنا، فالفتوى من جانب أهل الرّأي منّا أنّهُ حقٌ عليك عقوبةُ الرّجمِ بالحجارة. أمّا وأنّنا نراعي مكانة عشيرتك ونحترمهم لذلك ترانا نُحجمُ عن إنزالِ هذه العقوبةِ بشخصكَ لكنّنا نهجركَ لتعيشَ وحيداً.

وفي الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة قالوا: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾. أي أنّهُم أتوا بحرف الباء في (بعزيز) للتأكيد وزائداً للحال المنفي. وبكلمة (عزيز) الّتي اشتقّوها من عزَّ فلانٌ على فلان معناهُ أنّهُ غلبهُ في الاحتجاجِ والخطاب. وعزَّ على فلانٍ كَرُمَ (محيط المحيط).

وليصبح معنى قولهم ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أنّه نتيجةً لارتدادك عن ديننا فلم تعُد لك عندنا كرامة. خصوصاً وأنّنا غلبناكَ في الاحتجاجِ والخطاب. وهذا المعنى يدلُّ على أنَّ أهل مَدين قد اتّخذوا قرارهم هذا من دونِ رجعةٍ عنه. وما عاد يُجدي معهم الحوارُ والنّقاش.

ولننظر الآن في الموقفِ الّذي وقفهُ النّبيّ شعيب عليه السلام منهم بعد سماعهِ لقرارهم المُشارُ إليه. فشعيبٌ عليه السلام أجاب عليهم وقال، وذلك في الآية الثانية والتّسعين:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾

لنتذكّر في هذه المناسبة أنَّ الرّجلَ العاديَّ الّذي يحكم بعقوبةِ الرّجمِ ومن ثمَّ يقرّرون إلغاء تلك العقوبة ويتوقّفون عن إيقاعها به. فإنَّ ذاكَ الإنسانُ سيطيرُ فرحاً بذلك لنجاته من تلك العاقبة. لكنَّ أنبياء الله ليسوا كذلك. وها أنَّ شعيباً عليه

السلام قد حكم عليه قومه بالرّجم وعفوا عنه ومع ذلك تناسى نفسه ونجاته من تلك العقوبة، واندفع يقول لهم في الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾. وهو قد أتى بصيغة (أعزّ) وهي صيغة تفضيل، وبمعنى أكرم أيضاً. أي أنّ شعيباً عليه السلام احتدَّ بسبب إعطاء عشيرته كرامةً دفعت بهم لإلغاء عقوبة الرّجم عنه. ونسيانهم كرامة الله الّذي خلقهم والّذي بعثهُ لإصلاح أحوالهم. فهو قد استنكر على قومه وبأسلوب الاستفهامِ الاستنكاريّ موقفهم المذكور. وذلك من خلال قوله في هذه الفقرة الأولى ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ﴾.

أمّا في الفقرة الثّانية فقد قال: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾. فهو تعالى أتى بواو العطف الّتي تفيدُ معنى الحال في هذا المقام كما أتى بفعل (اتّخذتموهُ) المتّخذُ من قولكَ اتّخذَ أي صيَّرَ واستكان. أمّا كلمة (ظهريّاً) فهو الإنسان الّذي جعلتهُ وراءَ ظهركَ ونسيتهُ وما عُدتَ تحفلُ به (محيط المحيط).

وليصير معنى هذه الفقرة الثّانية من هذه الآية الكريمة أن يا قومِ لقد كان السّببُ في نسيانكم وجودَ الله تعالى هو أنّكم جعلتم ربّكم وراء ظهوركم وتناسيتموهُ وما عُدتم تحفلونَ به ولا أن تحسبوا لهُ حساباً وداومتم على هذا الحال. فهذا هو معنى ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾.

ومن ثمّ أتى تعالى بحرف التّأكيد (إنّ) وقال في الفقرة الأخيرة على لسانه عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾. فكلمة (محيط) اشتُقّت من أحاطَ بالشّيءِ إذا أحدقَ به وأحاطَ به علماً وبلَغ علمُهُ بالشيءِ أقصاه (محيط المحيط).

وليصبح معنى هذه الفقرة الأخيرة أنّ شعيباً عليه السلام راح يذكّرُ قومه بأنّ جميع ما يعملونهُ من انتقاصهم للمكيالِ والميزانِ إلى ما يتّخذونهُ من قرارات ليس

هو بغائبٍ عن علمِ ربِّه جلَّ شأنه بل إنَّ علمهُ بذلك كلّه محيطٌ وإلى أقصى الدّرجات. الأمرُ الّذي يعني أنَّ من واجبكم يا قوم أن تستيقظوا لحالكم الّذي أنتم عليه. وإلاّ فلا قيمةَ لرهطي في مقابل ذلك بشيء.

فلمّا فرغ شعيبٌ عليه السلام من إظهارِ حدَّته لشأن ربِّه عزَّ وجلَّ وغيرته عليه ونُسيانه ذاته في تلك اللّحظاتِ الحاسمة. انبرى يُنذرُ أهل مَدين بالعذابِ الّذي ينتظرهم إن هم لم يستغفروا ولم يتوبوا عمّا يعملونهُ وراح يقولُ تعالى على لسانه، وذلك في الآية الثالثة والتّسعين:

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾

إنَّ قولَ شعيب عليه السلام في الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة: ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ أورد فيه كلمة (مكانتكم) والمكانةُ تعني التؤدةَ والهينة والمنزلة. فيقولُ العرب: امشِ على مكانتكَ أي امشِ بتؤدة (محيط المحيط).

فهذه محاورةٌ كلاميّةٌ تنطوي على وعيدٍ من جانب شعيب لقومه من أنّهُم إن دأبوا على انتقاصِ المكيال والميزان والشّركِ بالله تعالى، وهو معنى قوله ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ فهو لن يتراجعَ عمّا يعظهم به ويخوّفهم منه، وهو معنى قوله (إنّي عاملٌ) وأنّهم سيحصدونَ عاقبةَ ما يعملونه.

وراح الله تعالى يقول في الفقرة الثّانية من هذه الآية الكريمة: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾. فهو تعالى أتى بحرف التّسويف (سوف)

مبنيّاً على الفتح ويفيدُ الاستقبال ومُرادفاً لحرف السّين، لكنّهُ أطولُ منهُ زماناً على حدِّ قول النّحويّين وأنّهُ أكثرَ ما يُستعملُ ففي الوعيد. كمثلِ قوله تعالى في مقامٍ آخر ﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾. وقد تستعمل (سوف) في الوعدِ كقوله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾. أمّا السّين فتستعملُ أكثر ما تستعمل فللوعدِ كقوله تعالى ﴿أولئكَ سنؤتيهم أجراً عظيماً﴾. وقد تُستعملُ في الوعيد نحو ﴿وسيعلمُ الّذينَ لموا لأيِّ مُنقلبٍ ينقلبون﴾. وقد أتى تعالى أيضاً بكلمة (تعلمون) بمعنى تعرفونَ وتتيقّنون، لاشتراكِ هذين المعنيين بكونهما مسبوقين بالجهل. كذلكَ أتى بفعل (يأتيه) من أتاهُ بمعنى حضره. وبفعل (يُخزيه) من خزيَ الرّجلُ بمعنى وقع في بليَّةٍ وشهرةٍ فذلَّ وهان. فالخزيُ هو الهوانُ والفضيحةُ والعقابُ والبُعدُ والنّدامةُ (محيط المحيط).

وليصبح معنى قوله ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أنّهُ ليس ببعيدٍ ذلك اليوم الّذي ستعرفونَ وتتيقّنونَ فيه من تحيقُ به بليَّةٌ لا يقدرُ أحدٌ على إلغائها وردِّها وتذلُّهُ وتخزيه. وتتبيّنونَ يومئذٍ من هو كاذبٌ من بيننا. وقد أثبت النّبيّ شعيب عليه السلام من خلال هذه الفقرة من قوله عدم مُبالاته بقراراتِ أهل مَدين ولا بمواقفهم منه. وأثبت في الوقت نفسه يقينهُ بوعودِ ربِّه وبإنذاراته المتعلّقةِ بهم. وبالنّتائج الّتي سوف تؤولُ إليها الأمورُ في نهاية المَطاف.

وقد راح جلّ شأنه يقول في هذه الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة: ﴿وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾. أي أنّهُ أتى بفعل (ارتقبوا) المشتقُّ من قولك: رقبَ فلاناً ومعناهُ أنّهُ انتظره. ووصفَ نفسهُ بكلمة (رقيب) بمعنى أنّهُ مُنتظرٌ أيضاً ولكن ينتظرُ أي شيء؟ فهو حذف مفعولَ رقيب ليوسّعَ من دلالاته.

وليصبح معنى هذه الفقرة الأخيرة أن يا قومِ ما دمتم قد أصرَرتُم على مواقفكم ممّا وعظتكم به فإنّ من واجبكم أن تنتظروا حدوثَ ما أنذرتكم وتوعدتُكم به من عذاب. وأنا بدوري فسأكونُ رقيباً على نفسي، ورقيباً على تحقُّق إنذاراتِ ربِّي. وأترقّبُ الساعةَ الّتي يفصلُ فيها ربُّنا بيني وبينكم أيضاً. وإنّ الله تعالى ومن خلال ألفاظ هذه الفقرة الأخيرة يكونُ الله تعالى قد وعظَ في الوقت نفسه من خلال مضمونها هؤلاءِ المكذّبين المُعاصرينَ من أهلِ الكتاب. من أنّهُم إذا ثابروا على روحِ اللاّمبالاة الّتي يواجهونَ بها دينَ محمّد والشاهد منه، فليترقّبوا نفس المصيرِ الّذي انتظرهُ شعيبٌ عليه السلام لأهلِ مَدينَ يقيناً.

وبعد أن فرغَ الله تعالى من بيانِ ذلك كلّه راح يتحدث عمّا جرى لأهلِ مَدينَ وأضافَ يقول تعالى في الآية الرّابعة والتّسعين:

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾

فالله تعالى قال في الفقرةِ الأولى من هذه الآيةِ الكريمة ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ فهو تعالى أدخلَ واو العطف على حرف (لمّا) المختصّ بالزّمنِ الماضي وهو حرفُ وجوبٍ لوجوب. أي أنّ إهلاكَ المجرمين اقتضى ضرورة إنقاذ المؤمنينَ من شرورِ العذاب الّذي سيُهلكُ المجرمين. فهذا هو معنى قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾. وقد راح تعالى يُطلعنا على الدّافع الّذي دفعَ الله عزّ وجلّ ليقومَ بإنقاذِ فئةِ المؤمنينَ لذلك قال بعد ذلك ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ فهو تعالى أتى بباءِ السّببيّة. كما أتى بكلمة (رحمة) المشتقّة من رحمتُ فلاناً بمعنى رقّ قلبي عليه فغفرتُ لهُ وتعطّفت. كذلك أتى بحرف الجرّ (من)

وليفيدَ التّعليلَ وأدخلهُ على ضمير المتكلّم (نا) وقالَ (منّا). وليصبح معنى قوله تعالى ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أنّ رحمته تعالى تُحيطُ عنايتها بالمؤمنينَ في الوقت الّذي يدنو العذابُ من الكافرين. فيرقُّ الله تعالى لحالِ المؤمنينَ في تلك الأحوال ويغفرُ لهم خطاياهم ويتعطّفُ عليهم تفضُّلاً من جانبه عزَّ وجلَّ لكونه بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيم. وبالتّالي ينجّيهم من العذابِ المقدَّر لإهلاكِ الكافرين. فهذا هو معنى قولهُ تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾.

ومن ثمّ أتى جلَّ شأنه بواو العطف ثانيةً، ولتفيد معنى الحال بسبب إدخاله إيّاها على جملةٍ فعليّةٍ وصوَّر لنا المصيرَ الّذي صارَ إليه الّذين ظلموا وذلك في الفقرةِ الثّانيةِ الّتي قال تعالى فيها: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ﴾ وبمعنى أنّ الصّيحة تناولت أولئك الظّالمين الّذين تجاوزوا حدودهم وقد اتّخذوا ربّهم وراءهم ظهريّاً. ومن ثمّ أتى جلَّ شأنه بالفقرةِ الأخيرةِ من الآيةِ ومستهلاً إيّاها بفاء الاستئناف وليخصّصها لتصوِّرَ لنا المصيرَ الّذي صارَ إليه أهلُ مَدين بعد حادثةِ الصّيحة، ولنتصوَّر من أنفسنا نوعيّتها وقال: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾. والمعنى أنّ أهل مَدين أصابهم زلزالٌ شديدٌ وعلى شاكلة ما أصابَ قومَ صالحٍ من قبلهم. وكان هذا الزّلزالُ من الشّدةِ إلى درجةٍ ما تركَ لأحدٍ منهم فرصةَ التّحرُّكِ من مكانه. فوقعوا نتيجةً لذلك على صدورهم وتلبّدوا بأرضهم بلا حراك. فهذا هو معنى قوله تعالى ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾.

ولم يدعنا جلَّ شأنه أن نكتفي بما صوَّره لنا من تلك الحادثة. بل شاءَ الله تعالى تضخيم مُعطيات تلك الصّورةِ المأساويّةِ. لذلك أتى تعالى بكاف التّشبيه وراح يقول في الآيةِ الخامسة والتّسعين:

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾

فهو تعالى أدخل كاف التّشبيه على حرف (أن) المخفّف من (أنّ). وصاغ خبرها على صيغة جملةٍ فعليّة مُنفصلة بحرف الجزم (لم) وبذلك ترك اسم (أنّ) مَنوياً غير مذكور. وليصبح معنى قوله تعالى ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ أنّ الزّلزالَ كان من الشدّةِ إلى درجةٍ قضى على كلّ أثرٍ للحياة في مدينة مَدين. حتى باتَ الإنسانُ المارُّ من هناك ليس بإمكانه أن يتصوَّر أنّ مدينة مَدين كانت تعجُّ بالحياة. وهو نفسُ التّشبيه الّذي شبّه به مصيرَ قومِ صالحٍ عليه السلام من قبلهم.

وقد شاء تعالى أن يؤكّد تشابه مصيرِ قومي صالح وقوم شعيبٍ عليهما السّلام. لذلك استهلّ جلّ شأنه الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة بحرف التّنبيه (ألا) وقال: ﴿أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾. بمعنى أنّ وحدةَ مصير هؤلاء المذكورين أتت من كونهما مطرودينَ جميعهم من رحمةِ ربّهم عزّ وجلّ. فهذا هو حالُ كلّ من يغضبُ عليه ربُّهُ فهو يصبح مطروداً عنه. وبهذا الأسلوب فقد غمزَ الله تعالى جانبَ المكذّبين من أهلِ الكتابِ أيضاً ومُلفتاً نظرهم إلى ما ينتظرهم من مصير. وذلك لاتّخاذهم ربّهم هم بدورهم أيضاً وراء ظهورهم ولعدم مُبالاتهم بما حمله هذا القرآنُ العظيمُ من وعيدٍ بشأن عاقبتهم.

ومن خلال قصّةِ مَدين هذه يكونُ الله جلّ شأنه قد قدّم للّذين كذّبوا محمّداً (ص) و (الشاهدَ منه) خمسةَ قصصٍ تاريخيّةٍ تشكّلُ خمسةَ أدلّةٍ تاريخيّةٍ يُثبتُ من خلالها أنّ الّذين يكذّبونَ المرسلينَ السماويّين لا بدّ وأن يصير حالهم في نهاية المطاف إلى حالِ هذه الأقوامِ الخمسةِ المذكورين. وعلى هذه الصّورة يتجلّى تسلسلٌ موضوعيٌّ واضحُ المعا لم بين الآياتِ من سورةِ هود وحتى الآن. كما يثبتُ أنّ جميع الأنبياء السّابقين كانوا يدعون أقوامهم إلى عبادةِ الله الواحدِ الأحدِ الّذي لا شريك لهُ وأنّهُ لم يلد و لم يولد.

والملاحظ هو أنّ الله جلّ شأنه تناول القصص سالفة الذّكر من أقدمِ قصّةٍ منها وانتهاءً بقصّةٍ هي أقرب ما يكون زماناً ومكاناً من قصّةِ موسى عليه السلامُ مع فرعون. والحكمة من ذلك أنّ الله تعالى قد قصدَ من جميعِ ما ذكرهُ التّوجُّهُ بحديثه وبأدلّته التاريخيّة نحو هؤلاء الّذين كذّبوا محمّداً والشاهد منه وهم الّذين ينتسبون أصلاً إلى أمّةِ موسى عليه السلام. وقد شاء تعالى أن يُثبتَ لهم أنّ موسى وقد دعا فرعون، فقد دعاهُ أيضاً إلى عبادة الله الواحد الأحد الّذي لم يلد و لم يولد أيضاً. وإشعاراً لهم أنّ ما يعتقدونهُ يخالفُ عقيدة موسى نفسه الّذي ينسبون أنفسهم إليه. وأنّ صفة الاستكبار لم تكن من صفات موسى عليه السلام، ولكنّها كانت من صفات فرعون. وقد استهلّ الله تعالى هذا الموضوع من خلال قوله جلّ شأنه في الآية السادسة والتّسعين:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

ولكنّ العلاّمة الرّازي رحمه الله اعتبر بأنّ الله تعالى راح يقصُّ علينا قصّةً جديدة. فقد كتب يقول: (واعلم أنّ هذه هي القصّةُ السابعة من القصصِ الّتي ذكرها الله تعالى في هذه السورة، وهي آخرُ القصص من هذه السورة..).

أقولُ: أنا أرى أنّ الله تعالى راح يمهّدُ بذكر موسى للكلام عن هؤلاء المكذّبين المعاصرينَ، ولم يبدأ قصّةً جديدةً على شاكلةِ القصصِ السابقة. بل راح تعالى يعيدُ إلى أذهان هؤلاء أنّ موسى الّذي ينتسبون إليه كانَ موحّداً وعلى شاكلةِ من سبقهُ من أنبياءِ الله الّذين سبقوه. فقد شاءَ الله تعالى تذكيرهم بما أوردهُ كاتب سفر الخروج (٣/٤) الّذي حكى فيه بشأن موسى عليه السلام: (قال لا تدْنُ إلى هنا. اخلع نعليكَ من رجليك، فإنّ المكانَ الّذي أنت قائمٌ فيه أرضٌ مقدّسة. وقال: ﴿أنا إلهُ أبيكَ إلهُ إبراهيمَ وإلهُ إسحاقَ وإلهُ يعقوب﴾. فالله تعالى أراد من ذكرِ نبيّهِ موسى في هذا المقام تذكير هؤلاء المكذّبين بأنّ عقيدة التّثليث الّتي يعتقدونها قد

ابتدعها من يسمّونه (بولس الرّسول). فكأنّهُ تعالى عاد يُخاطبُ هؤلاء الآن مباشرةً بعد تقديمه الأدلّةَ التاريخيّةَ الّتي أتى على ذكرها من قبل. وهذا هو السّببُ في أنّهُ تعالى استهلّ هذه الآية بحرف الابتداء (لقد). وقال ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي اذكروا كيف أنّنا كُنّا أرسلنا نبيّنا موسى (بآياتنا) أي بالدّلائل والبيّنات الّتي تُبتَ من خلالها وجودُ الله ووحدانيّته ووجودُ مقصدِ لحياة الإنسان المخلوق. (وسلطانٍ مبين) أي وأيدنا على يديه المعجزات الّتي وضّحت مصداقيَّةَ ما أعلنهُ وما ادّعاه. فلو أنّ الله تعالى راح يقصُّ قصّةً جديدةً لكان انتهج نفس هذا النّهج الّذي كان قد انتهجهُ في القصصِ السابقة والتي كان يتدرَّجُ في سردها وفقَ الخطوات التّالية:

أولاً- كان تعالى يُعطي القارئ فكرةً موجزةً وشاملةً عن مهمّةِ رسولِ كلّ أمّة من تلك الأمم.

ثانياً- ومن ثمّ كان يستعرضُ له أهم ما كان يعترضهُ قومُ كلّ رسولٍ عليه.

ثالثاً- ويوجزُ له الأجوبة المعقولة الّتي كان يجيبُ بها الرّسولُ على اعتراضاتِ قومه عليه.

رابعاً- ومن ثمّ كان تعالى يوجزُ للقارئ الموقف النّهائيّ الّذي ينامُ عليه القومُ والّذي كان يستوجبُ نزولَ عقاب الله بذاك القوم.

فلمّا فرغَ جلّ شأنه من هذا التّمهيد الّذي جعله وسيلة العودة ليخاطبُ طوائف هؤلاء الأحزاب مباشرةً، فراح يقولُ في الآية السابعة والتّسعين:

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾

أي أنّهُ تعالى أجرى حذفاً في هذه الجملة الفعليّة بدليل أنّهُ تعالى استهلّها بحرف الجرّ (إلى) والعرب لا يستهلّونَ الجمل بحروف إلاّ في حالةِ وجودِ حذفٍ

بلاغيّ. والحكمةُ من هذا الحذف في هذا المقام أنّهُ قصد الكلام عمّا اتّصف به فرعون ولم يبدأ قصّةً جديدة. وليوضّح لهؤلاء المكذّبين تشابه صفاتهم مع صفات فرعون وابتعادها عن صفات نبيّهم موسى عليه السلام.

ولنلاحظ أنّهُ جلَّ شأنه قرنَ اسم فرعون بذكر (ملئه). والقصدُ من ذلك على ما أرى أن يُجمل ذكر جميع المسؤولينَ التّابعينَ لهؤلاء المكذّبين. فكلمةُ (الملأ) تعني حاشية فرعون وأشراف قومه لأنّهم يملؤونَ الصّدورَ هيبةً بأبّهتهم (محيط المحيط).

وراح تعالى يصفُ ملأَ فرعون ويقول في الفقرةِ الثّانية ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾. فعلُ (اتّبعوا) اشتُقَّ من تبعهُ وبمعنى مشى خلفهُ وأصبح كالتّابع له. وقد ذكر جلَّ شأنه هذه الحقيقة القديمة ليوضّح بها هذه الحقيقة الجديدة الّتي تبدو في أوساط هؤلاء المكذّبين. فالواقع هو أنّهُم يسيرون في ركاب زعمائهم من دون أن يعترضوا على ما يدبّرونهُ للإسلام وأهله من مؤامراتٍ وما يرسمونهُ من مخطّطاتٍ في الخفاء. وكأنَّ الله عزَّ وجلَّ قد راح من خلال ألفاظ هذه الفقرات من الآية قد راح يرسمُ للقارئ صورةً تُصوِّرُ له ما يجري ضدَّ الإسلام في هذا الزّمان من قبل أهل الكتاب المعاصرين.

وفي الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾. فالحرف (ما) استُعملَ هنا بمعنى (ليس) لدخوله على جملةٍ اسميّةٍ وبشروطها السّتّة، ولزيادة الباء في خبرها كزيادته في خبر ليس. ويشبهُ في ذلك قوله تعالى (وما ربُّكَ بظلاّمٍ للعبيد). وإنَّ كلمة (أمر) وإن كان يستعملُ في الأفعال ويجمعُ على أمور. ويستعملُ بمعنى القول ويجمعُ على أوامر (كلّيات) فقد استُعملَ هنا بمعنى الشأن. أمّا كلمة (برشيد) فمشتقّةٌ من رَشدَ بمعنى اهتدى (محيط المحيط).

وليصبح معنى قوله تعالى ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أنّ شأن فرعون وحالهُ ما أسّسَ على هدىً ورشاد. وأشار تعالى بذلك إلى أنّ حال وشأن هؤلاء الّذين كذّبوا محمّداً والشاهد منه يُشبهُ حال فرعون المذكور وغيرُ مؤسّسٍ على هدىً ولا على رشاد. فلمّا فرغ الله جلّ شأنه مّما أشار إليه من خلال مضمون هذه الآية الكريمة. نلاحظ أنّهُ تعالى قد أتى بآيةٍ جديدة، وهي الآية الثامنة والتّسعين وقال فيها:

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾

وأرى أن أضع القارئ هنا بما واجه المفسّرين القدماء عند تفسيرهم لهذه الآية الكريمة، وعلى حسب ما نقلهُ لنا العلاّمة الرّازي رحمه الله في تفسيره الكبير. فقد تساءل بعضهم: (لِمَ لَمْ يقلْ تعالى بحقّ فرعون (يقدُمُ قومهُ فيوردهم النّار، كما أدخلهم في البحرِ وكان يتقدّمهم، فأغرقهم؟) وقد أجاب الرّازي رحمه الله على هذا التساؤل فقال: (قلنا لأنّ الماضي قد وقعَ ودخلَ في الوجود، فلا سبيلَ البتّةَ إلى دفعه. فإذا عبّرَ عن المستقبل بلفظِ الماضي دلّ على غايةِ المُبالغة). واعترض بعضهم وقال: (إنّ كلمة النّار مؤنّث، وكان ينبغي أن يُقال: وبئستِ الورد المورود) لكنّ الرّازي نقل قول الواحدي الّذي جوّزَ التّذكيرَ والتّأنيثَ في هذا المقام.

وأزيدُ على ما ذكرهُ هؤلاء المفسّرونَ ومُلفتاً نظر القارئ إلى مُعضلاتٍ لا بدّ من حلّها قبل الشروع في تدبُّرِ هذه الآية الكريمة. وهذه الملاحظاتُ تتلخّصُ بما يلي:

أوّلاً- فالّذي يتبادرُ لذهن القارئ عندما يُطالعُ الفقرة الأُولى من هذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أنّ ضمير (يقدُمُ) يعودُ إلى فرعون المذكور في سياق الكلام. وأرى أنّ التّسلسُلَ الموضوعيّ وإشارة النّصّ إلى من يتزعّمُ المكذّبين المُعاصرين من أهل الكتاب، يفرضُ علينا إعادةَ هذا الضّمير إلى

الاثنينِ معاً وليصبح قوله ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ الفاء للاستئناف وأوردهم فرعونُ النّار، وسيوردُ هذا قومهُ النّار أيضاً. فهو معهودٌ ذهنيّ.

ثانياً- ثمّ إنّ فعل (يقدُمُ) معناهُ وعلى حسب ما ورد في (محيط المحيط) يسبقُ قومه يوم القيامة. وأرى دلالةً على الفعل أيضاً على من شابه فرعون وتزعَّمَ المكذِّبين في عصرنا فهذا سيكونُ على رأسِ قومه عندما يتحقّقُ نبأ (إذا وقعتِ الواقعة).

ثالثاً- كذلك وإن يكن المقصودُ من (يومِ القيامة) البعثَ الأكبرَ الّذي يأتي بعد الموت. فقد أُشيرَ به في الوقت نفسه هنا إلى يوم القيامة بمفهومه الاصطلاحيّ الّذي اصطلحت عليه بعضُ آيات هذا الكتابِ العزيز. وهو أمرٌ بإمكان القارئ ملاحظتُه في مؤلّفي (فنُّ الاختزال في القرآن الكريم). ذلك أنّ سورة (القيامة) ثبتَ أنّ موضوعها يتبعُ مضمون سورة (ن) الّتي أدلت بالأدلّةِ القاطعةِ على سلامة عقل نبيِّ الله محمَّدٌ بن عبد الله (ص). وقد استهلَّ الله تعالى سورة القيامة بقسمين هما: ﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ وقد قُصدَ كما نعلم من هذين القسمين تقديم شهادتين تشهدانِ على مصداقيّةِ رسالةِ محمَّدٍ وعلى سلامة عقله. وقد يُظنُّ أنّ المقصود بهذين القسمين يوم القيامة أي يوم البعث الأكبر. على حين أنّ الله جلّ شأنه أتى بعد ذلك بفاء الاستئناف ليفسِّرَ المقصود من يوم القيامة في هذا المقام وقال: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ، وَخَسَفَ الْقَمَرُ، وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ، كَلَّا لَا وَزَرَ، إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ﴾. وهذه علاماتٌ حدّدت زمن بعثةِ مثيلِ المسيح النّاصريّ والّذي سُمِّيَ في سورةِ هودٍ هذه باسم (الشاهد منه). والدّليلُ على مصداقيّةِ ما ذكرته هو حديثُ (الدّار قطني) الّذي أوردتهُ في (فنّ الاختزال) والّذي يقول رسول الله فيه (إنّ لمهدينا آيتينِ لم تكونا لبشرٍ منذ أن خلق السماواتِ والأرض يُخسفُ القمرُ في أول شهرِ رمضان

وتُكسفُ الشّمسُ في مُنتصفه). وعليه فإنّ المقصود من يوم القيامة هنا في هذه الآية الكريمة هو اليومُ الّذي ستقعُ فيه الواقعةُ والتي ليس لها من الله دافعة. وتهلكُ بسببها أممُ المسيح الدّجّال.

واستناداً إلى هذه الملاحظات الثّلاثة الّتي أوردتُها أفهمُ من قول الله تعالى في الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ أنّ الله جلّ شأنه قد راح الآن وبعد أن قدّمَ لهؤلاء المكذّبين من أهلِ الكتابِ المعاصرينَ خمسةَ أدلّة تاريخيّة ثبتَ منها مصائر الأقوام الّتي كذّبت رُسُلها. أقولُ: قد راح تعالى يُنبِئُ عن عاقبة هؤلاء بأنّ نهاية أيّامهم ستفرضُها (الواقعةُ) المُنبأ عنها في سورة الواقعة. وسيكونُ مصيرهم إلى النّار. فهذا معنى قوله تعالى هنا ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾. ذلك أنّ كلمة (النّار) وردت مُعرّفةً هنا بالألف واللّام قد أُشيرَ بها إلى نارِ الواقعة المعهودة في سورة الواقعة. وإنّ فعل (أوردهم) قد اشتُقّ من قولكَ: وردَ النّار بمعنى بلغها وداناها بغضّ النّظرِ عن دخوله فيها أو عدمه (محيط المحيط).

وقد أتى تعالى بالفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة وقال: ﴿وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾. أي أنّه جلّ شأنه قد أتى بواو الإضافة الّتي تفيدُ معنى الحال. وأدخله على فعل الذّم (بئسَ) ليذمّ به الّذي شابهَ حالهُ حالَ فرعون وأوردَ قومهُ في نهاية المطاف النّار. وأتى كذلك بكلمة (الورد) الّتي تعني في الأصل نبعَ الماءِ الّذي تردُهُ الإبل من أجلِ أن تروي عطشها منه. وليفيدَ معنىً آخر يتلاءمُ مع هذا المقام وهو كونُ (الورد) اسماً من أسماء الحمّى (محيط المحيط). وليصبح معنى هذه الفقرة الأخيرة أن بئسَ نارِ حمّى حرب الواقعة المُنبأ عنها والتي ستحرقُ هؤلاء في نهاية المطاف. فهذا هو معنى (وبئسَ الورد المورود).

وقد أتى الله جلّ شأنه بعد هذه الآية الّتي أنبأ فيها هذا النّبأ، أقول أتى بآيةٍ

جديدةٍ ليضيف معلومةً أخرى وقال في الآية التّاسعة والتّسعين:

﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾

فهو جلَّ شأنه قال في الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ وقد قصد تعالى أنّ هؤلاء المكذّبين لن يؤولَ مصيرهم إلى ما ذُكِرَ وحسب. بل وأُتبعوا من جرّاء ما كانوا يفعلونه في هذه الدّنيا لعنةً أبديّةً مكتوبةً لكلِّ من فعل فعلهم من الأممِ السابقةِ الّتي أورد تعالى قصصها من قبل. وليس هذه وحسب، بل ويتعرّضونَ للعنةٍ أخرى (يوم القيامة) أي يوم البعث الأكبر. فهذا هو معنى ﴿وَأُتْبِعُواْ فِي هَٰذِهِۦ لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾. علماً بأنّ اللّعنةَ تعني إبعادَ هذا الإنسان المغضوب عليه عن الله تعالى وحرمانهِ من التّعرُّفِ على ربّه عزَّ وجلَّ والإلقاء به في جهنّم.

ومن ثمّ أتى جلَّ شأنه فعل الذّم (بئس) للمرّةِ الثّانيةِ وقال في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾. فكلمة (الرِّفد) اشتُقّت من قولك: رفدهُ بمعنى أنّهُ أعطاه. فالرِّفدُ هو العطاء. أمّا كلمة (المرفود) فهي اسم مفعول يعني العطاءَ الّذي يؤدّي إلى الإبعادِ عن ذاتِ الله جلَّ شأنه. ويصبحُ معنى قوله تعالى في هذه الفقرة الأخيرة ﴿بِئۡسَ ٱلرِّفۡدُ ٱلۡمَرۡفُودُ﴾ أي بئسَ هذا الإنسان الّذي تشبَّه بفرعونَ ولم يتشبَّهْ بنبيِّه موسى هو وملؤهُ وحُرموا جميعهم من نعمةِ التّعرُّف على ربّهم ومُبعدينَ عنه ومُلقَونَ في عقرِ جهنّم.

وبهذه الفقرة الأخيرة يكون الله جلَّ شأنه قد أنبأ النّبأ العظيم عن نهاية المسيح الدّجّال الّذي يظهرُ في آخر الزّمان. ولكن بألفاظٍ مُجملةٍ وبلاغيّة. فالسؤالُ هنا هل اكتفى الله تعالى بهذا الإجمال أم أنّهُ لا يتركُ القارئَ المتدبِّرَ عطشاناً إلى المزيد

من المعرفة؟؟ فهذا الأمرُ ستتبيَّنُ ملامحهُ مّما يأتي بعد هذا من آيات. ذلك أنَّ الله تعالى راحَ بعد ذلك يقول في الآية المائة:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾

وأرى أن أُطلعَ القارئ عمّا تبادر من هذه الآية الكريمة لذهن العلاّمة الرّازي رحمه الله. فهو كتب يفسّرُ ويقول: (قال صاحبُ الكشّاف (ذلك) مبتدأ. (من أنباء القرى) خبر. (نقُصُّهُ عليك) خبر بعد خبر. أي ذلك المذكور بعضُ أنباء القرى مقصوصٌ عليك. ثمّ قال (منها قائمٌ وحصيد) والضمير في قوله (منها) يعودُ إلى القرى. شبَّهَ ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزّرعِ القائمِ على ساقه، وما عفا عنها شبَّهُ بالحصيد. والمعنى أنَّ تلك القرى بعضها بقي منه شيء. وبعضها هلك وما بقي منه أثرٌ البتّة). أي أنَّ الرّازي رحمه الله قد تبنّى في تفسيره المذكور تفسير الكشّاف. القائل بدلالةُ هذه الآية الكريمة على ما هلكَ من آثارِ الأممِ الّتي سبق له تعالى أنْ روى لنا قِصصها وبما يتناسبُ والتّسلسُلَ الموضوعيّ لمضمون سورة هود. وعمّا بقيَ من آثارها قائماً وظاهراً للعيان.

ونتساءلُ بعد الّذي اطّلعنا عليه من تفسير الرّازي رحمه الله عن مدى صحّته وإصابته. وهذا التّساؤلُ يدفعنا لِنتدبّرَ ألفاظ هذه الآيةِ وصياغتها تدبُّراً أصوليّاً وفق منهجيّةِ القرآن وأصولِ تفسيره.

نتناول الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة الّتي قال تعالى فيها: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ﴾. فهو جلّ شأنه استهلّها باسم الإشارة للبعيد (ذلك). فما هو الدّافعُ إلى ذلك وما دلالةُ إشارتها؟؟ قال صاحبُ (محيط المحيط): ذلكَ اسمُ إشارةٍ للبعيد، ومُركّبةٌ من (ذا) للإشارة ومن (اللام) للدّلالةِ على البُعد. ومن الكافِ الحرفيّةِ للخطاب. ومؤنّثها (تلك). وقال أيضاً بشأن كلمة (نبأ) النّبأُ هو الخبرُ ذو

الشأن. حيث أورد صاحب الكلّيات يقول: النّبأُ والإنباءُ لم يَردا في القرآن إلاّ لَمّا له وقعٌ وشأنٌ عظيمٌ. ويُجمعُ على أنباء. أمّا كلمة (القرى) الواردة في هذه الآية الكريمة فجمعُ قريةٍ، وتُطلقُ على القريةِ أو الضّيعةِ وعلى المدينةِ الجامعةِ وعلى كلّ مكانٍ اتّصلتْ به الأبنيةُ واتُّخذَ قراراً وجُمعَ فيه النّاس. واشتُقّت كلمة (قرية) من قولكَ: قَرَيتُ الماءَ في الحَوضِ، إذا جمعتُهُ فيه وتقعُ على المُدنِ وغيرها. وأمّا فعل (نقصُّ) فقد اشتُقَّ من قصَّ علينا الخبرَ ومعناهُ أنّهُ أعلمنا وحدّثنا به على الوجهِ الصّحيح (محيط المحيط).

وأول ما نلاحظه هو أنّهُ جلَّ شأنه وقد قال (عليكَ) فلم يوضّح شخصيّةَ الّذي يُخاطبهُ أهو محمّدٌ رسول الله (ص) أم القارئ أم كلّ مؤمنٍ من المؤمنين؟ وهذا الحذفُ أجراهُ تعالى ليشملَ في نظري جميعَ هذه الأطراف. وبعد أن تدبّرنا دلالاتِ ألفاظِ هذه الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة نضعُ في حسابنا مُعطيات التّسلسل الموضوعيّ العائد لها، ليُعيننا ذلك على تحديد المشار إليه من اسم الإشارة (ذلكَ) فيها. ولنعلمَ أقصدَ الله تعالى به ما لَحقَ من دمارٍ بالقرى الّتي وردت أسماؤها في القصصِ سالفة الذّكر؟ أم المقصود من (ذلك) هنا الإشارة إلى قُرى هؤلاء الأحزاب الّذين كذّبوا (الشاهد منه)؟

أقولُ: لو صحَّ ما تبادر من هذه الفقرة إلى أذهان المفسّرين القدماء من أنَّ اسم الإشارة (ذلك) قد أشارَ تعالى به إلى قُرى الأممِ البائدةِ وحسب. لاقتضى هذا المعنى أن يُخلَّ بالتّسلسل الموضوعيّ للآيات. فصاحبُ الكشّاف قد أخذ بمعنى التّبعيض للحرف (من) من قوله تعالى (من أنباء القرى) لقوله (أي ذلك المذكورُ بعضُ أنباءِ القرى مقصوصٌ عليك). فلو صحَّ قوله المذكور، لكان من الخطأ إيرادُ كلمة (أنباء) في هذه المقام. بل كان من الضّروري استبدالها بكلمة (أخبار). من بابِ أنَّ النّبأ وإن يدلُّ على الخبرِ فإنّه يدلُّ على الخبرِ ذو الشأن والمتعلّق أيضاً بالمستقبل. ولا يتعلق بالزّمنِ الماضي، ليُشارُ به إلى أخبار ما جرى للأقوام البائدة.

وبالإضافة إلى هذه الملاحظة الّتي أوردناها فبفرض صحّة ما ذهب إليه ذهنُ الكشّاف وغيره من معنى، فقد كان الأولى هنا أن يُصاغَ فعل (نقصُّهُ) بصيغة الماضي. لا أن يُصاغَ بصيغة المُضارع ويقال (نقصُّهُ عليك).

والّذي أراه هو أنّ حرف (من) لم يستعملهُ الله جلّ شأنه هنا في هذه الفقرة بمعنى التّبعيض. بل استعملهُ بمعنى بيان الجنس. وعلى شاكلةِ قوله تعالى في مقامٍ آخر: (اجتنبوا الرّجسَ من الأوثان). واستناداً إلى هذا الرأي يصبحُ معنى قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ هو أنّ النّبأ المتعلّق بهلاك هؤلاء الأحزاب، هو من جنس أنباء القرى الّتي سبق لنا أن قصَصناها عليك. وها أنّنا نقصُّ عليك ما يتعلّقُ بهذا النّبأ الأخير ذو الشأن. وعليه يكون الله تعالى في هذه الحالة قد أتى باسم الإشارة (ذلك) هنا لتضخيم معنى ودلالة مضمون كلمة (أنباء) الواردة في هذه الفقرة من هذه الآية الكريمة.

وبعد الّذي وضّحتهُ أنتقلُ لتدبُّرِ الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة القائل تعالى فيها: ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾. وقد ورد في هذه الفقرة أيضاً حرف (من) من الجار والمجرور (منها). وفي رأيي أنّ حرف (من) هذا قد ورد بمعنى التّبعيض. وأنّ كلمة (قائمٌ) فهي اسمُ فاعل وقد اشتُقّت من قامَ بمعنى انتصبَ وضدّ قعدَ. أمّا كلمة (حصيد) فقد اشتُقّت من حصدَ الزّرعَ بمعنى قطعهُ بالمنجلِ وتعني الزّرع المحصود (محيط المحيط).

ويصبح معنى قوله تعالى ﴿مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ أنّ من هذه القرى الّتي كان تعالى قد قدّرَ إهلاكها منها ما هو قائمٌ بالفعل غيرُ مدمَّر، وهو قرى هؤلاء الأحزاب الّذين نُنبئُ هنا عن إهلاكهم في المستقبل. ومنها ما هو (حصيد) أي مدمَّر ويعودُ للأقوام الّذين قصَصنا عليك قِصَصهم. تلك القرى الّتي يُشبهُ حالُها حالَ الزّرعِ المحصودِ الّذي لم يبقَ منه إلاّ جذورهُ والآثار الدّالّة عليه.

وعلى هذه الصّورة تتجلّى معالمُ الصّياغة البيانيَّة المُعجزة الّتي صيغت بها هذه الآياتُ الكريمةُ الّتي كان قد تبادر منها لأذهانِ المفسّرين القدماء غير ما أريدَ بها من دلالات.

وهذا الأسلوبُ البلاغيُّ تتجلّى من خلاله حكمَتان كما أراه. فالحكمةُ الأولى نبَّهَ الله تعالى إليها من خلال تقديمه ذكرَ القرى القائمة على ذكره للقرى الحصيد العائدة للأقوام البائدة. وبسبب كون هؤلاء المكذّبين الأحزاب هم محور الخطاب في هذا الموضع. وأخَّرَ ذكر القرى (الحصيد) بسبب أنَّهُ تعالى سيذمُّهم ويبرّئُ نفسهُ من ظلمهم في الآيةِ الّتي ستلي هذه الآية الكريمة. والدّليلُ على صحَّةِ ما ذهب ذهني إليه، هو أنّ الله تعالى راح بعدها ويقولُ وذلك في الآية الواحد بعدَ المائة:

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾

وأتناولُ الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة أتدبَّرُها وهي الّتي قال تعالى فيها ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾. فالملاحظُ هو أنَّهُ جلَّ شأنه أتى بواو العطف ليعطف ما سيقوله بشأن الأقوام أصحاب القرى (الحصيد). ثمّ إنّ قوله تعالى (وما ظلمناهم) اشتقَّهُ من قولكَ: ظلمهُ بمعنى جارَ عليه وفعلَ لهُ الظّلْمُ بوضعه الشيءَ العائدَ لهُ في غير موضعهِ ومنتقصاً من حقّه.

وليصبح معنى قوله تعالى ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ أن لا تحسب أيُّها القارئ حين سماعك بمصير أهل تلك القرى (الحصيد) أنّ ربَّك لربَّما كان قد قصَّرَ عليهم بالمنّ والعطاء أو قصَّرَ عليهم بالوعظِ والتّحذير. بل كانت رسُلنا تؤدّي هذه المهمَّةَ وتقومُ بتحذيرهم من عواقب تكذيبهم إيّاهم. وبذلك لا

يكونُ ربُّكَ قد قصَّرَ عليهم بشيء. وهو تعالى ومن خلال إيراده لحرف الاستدراك (ولكن) استدركَ ونبَّه ذهنَ القارئ إلى أنَّهُم هم (ظلموا أنفُسهم) أي أنَّهُم لم يشكروا ربَّهم على ما أنعمَ عليهم منّاً وعطاءً، ولا هم قدَّروا ما أنعمَ تعالى عليهم من نعماء، وصمّوا آذاهم عن سماعِ وعظِ رسلِ الله وتحذيراتهم إيّاهم من عواقب ما كانوا يفعلونه، وما حاولوا محاورتهم بمحاكماتٍ منطقيَّةٍ وعقلانيَّةٍ، ومن جرّاءِ ذلك كلّه يكونُ أهلُ تلك القرى (الحصيد) هم الّذينَ جاروا على أنفسهم ومقصّرين في حقوقِ ربِّهم عليهم، لذلك صار مصيرهم إلى ذاك المصير المشؤوم.

وأما في الفقرة الثّانية من هذه الآية الكريمة فقد أتى الله جلَّ شأنه بفاء الاستئناف وقال ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ فقوله تعالى هنا (فما أغنتْ عنهم) اشتُقَّ من قولكَ: فلانٌ ما أغنى عن فلان بمعنى أنَّهُ ما نابَ عنهُ ولا أجزأهُ (محيط المحيط).

ويصبحُ معنى هذه الفقرة الثّانية أنَّ أهل تلك القرى كانوا استماتوا في أمرِ المحافظة على عبادة ما قاموا بتأليهه ومن دونِ الله تعالى ظنّاً من عند أنفسهم أنَّ ما ألهوهُ عادَ يستحقُّ العبادة. فلو صحَّ ظنُّهم فيهم لكان حريّاً بتلك الأصنامِ أن تُسارعَ لتنوبَ عنهم ولتدفعَ عنهم العذابَ السّماويَّ. لكنَّ الّذي ثبتَ هو أنَّ تلك الأصنام ما أغنت عمَّن عبدها من تلك الأقوام، ولا حدث أن تصدّوا ليحولوا دون نفاذ أمرنا لمّا حان وقتُ نفاذه. ولا أجزأ صنمٌ عمَّن يعبدونه شيئاً من القوّة والمناعة.

وقد أنهى الله جلَّ شأنه هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾. فكلمة (تتبيب) تعني الهلاكَ والتّخسير (محيط المحيط). ويصبحُ معنى هذه الفقرةِ الأخيرة أنَّ الشيء الّذي حصل عليه أهلُ تلك القرى (الحصيد) من طرفِ الأصنامِ الّتي عبدوها هو أنّها زادهُم هلاكاً وخُسراناً. فبهذه الصّياغة المُصاغة بصيغِ الماضي أفادت ما يتعلّقُ بتلك الأقوام البائدة وثبتَ بذلك عدم تعلُّقها (بالقائم) من

القرى ولا بأهلها من أهل الكتاب المذكورين، ولا بمصيرهم المُنبأ عنه.

وبعد أن فرغَ الله جلَّ شأنه من التّنديد بأهل القرى (الحصيد) الّتي هلكَ أهلُها بالعذاب. وبعد أن وضّحَ تعالى الحقيقة وهي أنّهُم ظلموا أنفسهم. وأنَّ ربَّهم لم يظلمهم في شيء. فقد توجَّهَ الله تعالى لِيُنبئ عن مستقبل أهل القرى الّتي ما تزالُ قائمة. والظالمُ أهلُها أيضاً. فقد أنبأ عن إهلاكها بنفس الطّريقة السابقة وعلى شاكلةِ ما أهلكَ أهلَ القرى الحصيدِ وبعذابٍ أليمٍ أيضاً فقال في الآية الثانية بعد المائة:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾

وأرى أن أُطلعَ القارئ أوّلاً على ما فهمه العلاّمة الرّازي من هذه الآية الكريمة للمقارنةِ بين ما تبادر لذهنه منها وما بين ما نصلُ إليه من خلال تدبُّرنا إيّاها وفق أصولِ التّفسير. فقد كتب رحمه الله يفسّرُ هذه الآية ويقول: (واعلم أنَّ هذه الآية تدلُّ على أنَّ من أقدمَ على ظُلمٍ، فإنَّهُ يجبُ عليه أن يتداركَ ذلك بالتّوبةِ والإنابة، لئلاَّ يقع في الأخذ الّذي وصفهُ الله تعالى بأنَّهُ أليمٌ شديد. ولا ينبغي أن يظنَّ أنَّ هذه الأحكام مُختصَّةٌ بأولئك المتقدّمين. لأنّه تعالى لمّا حكى أحوالَ المتقدّمين قال ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ فبيَّنَ أنَّ كلَّ من شاركَ أولئك المتقدّمين في فعل ما لا ينبغي فلا بدَّ وأن يُشاركهم في ذلك الأخذُ الأليمُ الشديد).

والّذي نلاحظهُ مّما اقتبسناهُ آنفاً هو أنَّ العلاّمة الرّازي رحمه الله قد فهم من مضمونِ هذه الآية الكريمة دلالتهُ على المستقبل. وبذلك يكونُ قد اقترب مّما ذكرتهُ من أنَّ مضمونَ هذه الآية الكريمة يتعلّقُ بأهلِ القرى الّتي عبر تعالى عنها بكلمة (قائم) في الآية الماضية والتي أتى تعالى يُنبئُ عن مصيرها في نهاية المطاف.

وأتناولُ الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة والتي قال تعالى فيها ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾. فقوله (كذلك) هي كلمة مُركّبةٌ من كاف التّشبيهِ ومن حرف الإشارة (ذا) ومن لام البعد ومن كاف الخطاب. فهذا ما أوردهُ (محيط المحيط). وبمعنى أنّهُ تعالى راحَ من خلال قوله (كذلك) يشبّهُ ويشيرُ إلى أمرٍ بعيدٍ حدوثُهُ ويتعلّقُ بالمكذّبين الّذين توجّهَ للكلام عنهم والّذين ما تزالُ قراهم (قائمٌ) وليُنبئَ عنهم وعن قراهم الّتي ما تزالُ قائمةً ويقول وإنّهُ سيكونُ أخذُ الله تعالى إيّاهم على شاكلة ما أخذ به أهلُ القرى (الحصيد). علماً بأنّ كلمة (أخذُ) مشتقّةٌ من قولكَ: أخذهُ بمعنى تناوله. أو قولكَ: أخذَ به ومعناهُ عاقبهُ وأوقعَ به (محيط المحيط). والملاحظُ أنّهُ تعالى أتى بحرف (إذا) وهو ظرف زمانٍ يتعلّق بالمستقبل ومتضمناً معنى الشرط ومختصّاً بالدّخول على الجملة الفعليّة ومحلُّها النّصب أبداً على الظرفيّة. وقد أدخل تعالى (إذا) على فعل الماضي (أخذَ) وقال (إذا أخذَ القرى) بمعنى أنّهُ جلّ شأنه راحَ يُنبئُ عن حال القرى وعن تجمُّعاتِ سكّانها والتي ما تزالُ (قائمة). وقال يصفها (وهي ظالمةٌ) فهنا حذفٌ بلاغيٌّ وتقديرها أنّ سكّانَ هذه القرى الّتي راح تعالى يُنبئُ عنها إنّ أهلُها هم ظالمون بمعنى أنّهُم قد انتقصوا ما لله وما للعبادِ من حقوقٍ ولم يشكروا ربّهم على ما أنعمهُ عليهم من نعماء.

وبإمكاننا تلخيص ما أفادتنا به صيغُ ودلالاتُ ألفاظِ هذه الفقرة الأولى فنقول: إنّ الله تعالى يقولُ في هذه الآية الكريمة أنّهُ وعلى تلك الصّورةِ وبنفسِ الأساليبِ الطّبيّعة (من زلازلَ شديدة إلى طوفانٍ كبيرٍ إلى أيّامٍ حسومٍ) والتي أخذنا بها أهل القرى (الحصيد) الظالمُ أهلُها، فسنأخذُ أهلَ القرى القائمة والظالمُ أهلُها والّذين لا يعطون ربّهم ولا عبادهُ حقّهم وبنعمةِ ربّهم هم كافرون.

وقد أتى جلّ شأنه بعد ذلك بالفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة وهو

يستهلُها بحرف التأكيد (إنّ) ويقول: ﴿إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾. أي أنّ أخذَ وتناولَ الله تعالى أصحابَ القرى الّتي منها ما هو (قائمٌ) الآن وهي على حالتها من الظّلم سيكونُ أخذهُ في ذاك الوقت (أليمٌ) أي موجعٌ إلى أقصى حدٍّ و(شديد) أي ومن الشدّة أقصاها أيضاً (محيط المحيط).

ومن ثمّ أتى الله جلّ شأنه بحرف التّأكيد ليستهلّ به آيةً جديدةً، وهي الآية الثالثة بعد المائة، وليقول فيها:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾

وقد فهمَ المفسّرون القدماء رحمهم الله من اسم الإشارة (ذلك) الوارد في هذه الآية الكريمة أنّ الله تعالى يُشيرُ به إلى أنّ العذاب الّذي أتى على الأقوام الماضية يعدُّ في حدِّ ذاته دليلاً يؤكّدُ وُجودَ الحياة الآخرة وهي يوم القيامة. لكنّ العلاّمة الرّازي رحمه الله قال: (الأصوبُ عندي أن يُقال العلمُ بأنّ القيامة حقٌّ موقوفٌ على العلمِ بأنّ المدبّرَ لوجودِ هذه السّماواتِ والأرضِ فاعلٌ مُختارٌ لا موجبٌ بالذّات. وما لم يعرف الإنسان أنّ إلهَ العالم فاعلٌ مُختارٌ وقادرٌ على كلّ المُمكنات، وأنّ جميعَ الحوادث الواقعة في السّماواتِ والأرضِ لا تحصلُ إلاّ بتكوينه وقضائه، لا يمكنهُ أن يعتبرَ بعذابِ الاستئصال).

والّذي أراه هو أنّ اسم الإشارة (ذلك) لم يُشر الله تعالى به إلى العذاب الّذي كان قد حلّ بالأقوام الماضية. بل قد أشار به إلى النّبأ المتعلّق بهلاك هؤلاء الأحزاب المعاصرين. فهذا هو ما يقتضيه التّسلسلُ الموضوعيُّ للآيات الكريمة. ولإثبات ذلك أتناولُ الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة أتدبّرُها فقد قال تعالى فيها: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾. أي أنّ النّبأ الّذي أنبأناهُ في الآية

السابقة حول مصير هؤلاء المكذّبين من الأحزاب المعاصرين يشكّلُ (آيةً) أي دليلاً على وجودنا وعلى ما لنا من قدراتٍ تمكّننا من تحقيق هذا النّبأ الّذي أنبأناهُ بما يتعلّقُ بمصير هؤلاء الأحزاب الّذين عاد يُحسبُ لهم ألفُ حساب. ولكن من الّذي سيعتبرُ بهذا النّبأ ويتيقّنُ بحدوثه في المستقبل؟ أجاب تعالى على هذا السؤال وقال: ﴿لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ فاللّام للتّعليل. وبمعنى أنّنا أنبأنا عن هذا النّبأ المستقبلي لينتفعَ به الّذين يؤمنونَ بوجودنا وبصدقِ رسولنا محمّدٌ (ص) و (بالشاهد منه) ويخشَونَ في الوقت نفسه (عذاب الآخرة) أي يفكّرون بأسلوبِ تفكيرٍ روحيٍّ أفادهم بأنّ حياتهم الدّنيا إنّما هي مرحلةُ ابتلاءٍ لهم على طريق التّطوّر من حالةٍ إلى حالةٍ أرقى منها بعد الممات. فهذا هو معنى قوله تعالى في هذه الفقرة الأولى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾. فاسم الإشارة (ذلك) الّذي استُهلّت به هذه الآية الكريمة قد أُشيرَ به إلى ما ورد قبله من نبأ أنبأت عنه الآية السابقة و لم يُشر به إلى أحداثٍ ماضية. فهذه الآية يُكملُ مضمونُها ما تضمّنتهُ الآية الّتي سبقتها من مضمون.

وقد راحَ الله جلّ شأنه يوضّحُ لنا علامةً كبرى تقترنُ بزمنِ حدوثِ وتحقُّق النّبأ المذكور. لذا قال في الفقرة الثّانية من هذه الآية الكريمة: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾ فهو جلّ شأنه قال (ذلك يومٌ) أي أنّ اليومَ الّذي سيتحقّقُ فيه هذا النّبأ هو (يومٌ) فماذا قصدَ جلّ شأنه بكلمة (يومٌ) مُنّوناً على آخرها؟ فمن المعلوم أنّ التّنوينَ يفيدُ تضخيم المضمون. وإنّ كلمة (يوم) له عدّة معاني منها اليوم المعروف الّذي تطلعُ الشّمسُ في أوّله وتغربُ في آخره. كما أنّ العرب يُطلقونَ كلمة يوم على الوقت وعلى الحين. حيث يقول أحدهم: ذخرتُكَ لهذا اليوم أي إلى هذا الوقت الّذي افتقرتُ فيه إليك. ولا يكادون يفرّقونَ بين يومئذٍ ووقتئذٍ وساعتئذٍ (محيط

المحيط). وعليه فإنَّ قوله تعالى (ذلك يومٌ) يعني أنَّ زمن تحقُّق هذا النَّبأ الَّذي أنبأنا به عن مصير هؤلاء الأحزاب هو وقتٌ ليس كبقيَّة الأوقات بل سيكونُ يوماً فاصلاً في حياة البشريَّة كلِّها.

وقال الله تعالى (مجموعٌ لهُ النَّاس) فلم يوضِّح جلَّ شأنه كيف يكون مجموعٌ لهُ النَّاس. وهذا يعني وجود حذفٍ بلاغيٍّ وتقديرهُ: مجموعٌ النَّاسُ من أجل تحقيق النَّبأ المذكور. ولمَّا كان القرآن الكريم يفسِّرُ بعضهُ بعضاً في كلِّ شيءٍ حتى في المحاورات العربيَّة. نبحثُ عن استعمال كلمة مجموع واستعمالها في كتاب الله العزيز. ففي الآية (١٥٥) من سورة آل عمران قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ وقد قصد تعالى من خلال قوله ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ أي وقتُ التحمَ الجيشانِ بالقتال. وعليه يكونُ معنى (يومٌ مجموعٌ لهُ النَّاس) وقتٌ يقومُ جيشان من كُتلة هؤلاء الأحزاب ليتقاتلا ويكونُ ذلك الوقت عصيباً وفاصلاً في تاريخ النَّاس. لأنَّ هذه النَّبوءةُ القرآنيَّةُ الَّتي أنبأنا عنها ستتحقَّقُ في ذلك اليوم.

وقد أتى الله جلَّ شأنه بواو العطف وقال في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة (وذلك يومٌ مشهودٌ) فأتى باسم الإشارة (ذلك) من جديدٍ وللإشارة به إلى يومِ الواقعة الَّتي سيلتقي فيها النَّاس المجموعين للقتال فيما بينهم. وقال تعالى عن ذلك اليوم بأنَّه سيكونُ (يومٌ مشهودٌ). فكلمة (مشهود) صيغةُ اسم مفعول وتعني أنَّ اليوم المشارُ إليه يشبهُ يوم القيامة من حيثُ أبعاده والأطراف الَّذين يُشاركوا فيه والأهوال الَّتي تحدثُ بسببِهِ وتنتُجُ عنه. فهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾.

لكنَّ العلاَّمة الرَّازي رحمه الله ما تبادر لذهنهِ ما توصَّلنا إليه من معنى. وقد

كتب يفسِّرُ ويقول: (واعلم أنّهُ تعالى لمّا ذكرَ الآخرة، وصفَ ذلك اليوم بوصفَين: أحدهما أنّهُ يومٌ مجموعٌ له النّاس. والمعنى أنَّ خَلقَ الأوّلين والآخرين، كلُّهم يُحشرونَ في ذلك اليوم ويُجمعون. والثّاني أنّهُ يومٌ مشهودٌ. قال ابنُ عبّاس (رضي الله عنه) يشهدهُ البرُّ والفاجر. وقال آخرون: يشهدهُ أهلُ السّماء وأهلُ الأرض، والمرادُ من الشهود الحضور. والمقصودُ من ذكره أنّهُ ربّما وقعَ في قلبِ إنسانٍ أنّهُم لمّا جُمعوا في ذلك الوقت، لم يعرف كلُّ أحدٍ إلاّ واقعةَ نفسه. فبيَّن تعالى أنَّ تلك الوقائعَ تصيرُ معلومةً للكلّ بسبَبِ المحاسبةِ والمُساءلة). والظاهرُ أنَّ ما بين فهمنا لهذا الشطر من هذه الآية الكريمة وما بين فهم الرّازي رحمه الله فرقٌ واضحٌ وجليّ.

وبعد أن أعطى الله تعالى القارئ فكرةً مُجملةً عن زمن تحقُّق النّبأ المشار إليه أضاف يقول تعالى في الآية الرّابعة بعد المائة:

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ﴾

وما دام الرّازي رحمه الله قد أخطأ في نظري في فهمه الآنفِ الذّكر، فإنَّ الخطأ يجرُّ الخطأ. ويبدو ذلك فيما فسَّرَ به هذه الآية الجديدة وكتب يقول (والمعنى أنَّ تأخير الآخرة وإفناءَ الدّنيا مَوقوفٌ على أجلٍ معدود. وكلُّ ما لهُ عددٌ فهو مُتناه. وكلُّ ما كان مُتناهياً فإنَّهُ ولا بدَّ وأن يفنى. فيلزمُ أن يقال: إنَّ تأخيرَ الآخرة سينتهي إلى وقتٍ لا بدَّ وأن يُقيمَ الله القيامة فيه، وأن تَخربَ الدُّنيا فيه، وكلُّ ما هو آتٍ قريب). ويتّضحُ من خلال ما نقلناهُ عنه أنّهُ رحمه الله قد جرَّهُ خطوةُ إلى فهمٍ جديدٍ قد أخطأ فيه أيضاً وظنّاً من جانبه أنَّ التّأخيرَ الواردُ ذكرهُ في هذه الآية الجديدة متعلّقٌ بيوم القيامة المعروف. وليس بيوم هلاك هؤلاء الأحزاب المكذّبين الّذي يدورُ الكلامُ حولهم في سياق الكلام الإلهيّ. على حين أنّنا فهمنا من اسم الإشارة (ذلك) المتكرِّر إشارتهُ إلى النّبأ المتعلّق بمصير الّذين كذّبوا (الشاهد منه).

وعلى كلِّ حالٍ فلنقُم بتدبُّر قوله تعالى في هذه الآية الجديدة ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا

﴿لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ ومنطلقين من فهمنا الّذي توصّلنا إليه سابقاً ومُلتزمينَ بالمعاني الخاضعة لتسلسلِ الآيات الموضوعيّ.

فالواو للإضافة وتفيدُ معنى الحال لدخولها على فعل (نؤخّرُهُ). ثمّ إنّ حرف (ما) ما دام قد دخل على فعل المضارع (نؤخّرُهُ) فقد عاد معناه منحصراً في الزّمن الحاليّ، مع انتفاء القرينة باتّفاق الجمهور. وأمّا فعل (نؤخّرُهُ) نفسه فقد اشتُقّ من أخَّرَ الشيء وضدّ قدمه وهو فعلٌ لازمٌ متعدٌّ. وأمّا (إلاّ) فهي حرفُ استثناء في هذه المقام استثني به الأجل المعدود. ثم إنّ اللّام في (لأجلٍ) وردت موافقةَ حرف (إلى) وأمّا (أجل) فمعناهُ مُدَّةُ الشيء. وأمّا كلمة (معدود) فعلى وزن مفعول وبمعنى محسوب وعلى شاكلةِ قولكَ مقبوض (محيط المحيط).

واستناداً إلى معاني الألفاظ الواردة في هذه الآية الكريمة يعودُ معنى قوله جلّ شأنه ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ هو أنّ الله تعالى كان سيُهلكُ أجدادَ هؤلاء المكذّبين من قبل. لكنَّهُ وحين أنزلَ هذا القرآن الكريم قرّرَ تأجيل ذلك لوقتٍ آخر وإلى وقتٍ محسوب. فهذا المعنى أفاد به إدخال حرف (ما) على المضارع (نؤخّرُهُ) والّذي خلصَ معناه إلى الحال الّذي نزلت فيه هذه الآيات الكريمة وهذا المعنى يدعونا إلى التّفكير والتّساؤل عن سبب هذا التأجيل الحاصل للقرار الإلهيّ المذكور؟ فإن تابع المؤمنُ المتدبّرُ مضامين السور الّتي تأتي بعد سورةِ هودٍ وبترتيبِ التّلاوةِ يعثرُ على الإجابة على السؤال المطروح في الآيات الأُوائل من سورة الكهف الّتي ورد في الآية الثّانية منها قوله تعالى وهو يحدّدُ إطار مهمّةِ رسوله الكريم محمّد (ص): ﴿قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً، مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾. وقد أضاف الله جلّ شأنه يحدّدُ إطاراً آخر يتعلّقُ بأُمّةِ المسيح النّاصريّ وقال في الآية الرّابعة منها: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ

وَلَدًا﴾ وقدّم دليلَ بُطلان عقيدتهم وقال ﴿مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ فهذه الحقائقُ يجدُ القارئُ عليها مشروحةً ومفصلةً في تفسير سورة الكهف المطبوع. وبإمكاني تلخيص ما أجابت به سورة الكهف على السؤال المشار إليه فأقول: إنّ الله تعالى ترحّمَ على أتباع المسيح النّاصريّ فلم يُهلك الّذين لم يستجيبوا لدعوة نبيِّه (ص) وأنبأ عن أنّهُ سيتركهم ينهضون نهضةً علميةً علّهم يستفيدون ممّا فتحهُ ربُّهم عليهم من علومٍ فيرجعوا إلى التّوحيد. فإن لم يفعلوا يأخذهم حينذاك أخذ عزيزٍ مقتدر. وأشار بذلك إلى النّهضة العلميَّة الّتي ينعمون بها في هذه الأيّام والتي زادتهم بُعداً عن ربّهم وازدادوا عداوةً للدّين الإسلاميّ الحنيف. وإنّ هذه الآيات من سورة هود تُصوِّرُ لنا النهاية البشعة والرّهيبة الّتي تنتظر هؤلاء المكذّبين.

فالله عزّ وجلّ عندما قال هنا ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا﴾ أفاد المعنى الّذي ذكرناه. وهو تعالى عندما أكمل الآية وقال ﴿لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ قد نبّه أذهاننا إلى أنّهُ جلّ شأنه قد أجّلَ موعدَ القضاءِ على هؤلاء المكذّبين الّذين جحدوا بنعمة ربِّهم ورحمته والتي شملهم بها إلى أجلٍ معدودٍ أي محسوبٍ بدقّةٍ متناهية. صرّحَ جلّ شأنه بهذا التّصريح رأفةً بفئةِ المؤمنين وليصبروا وليوقنوا أنّ ربَّهم لهؤلاءِ بالمرصاد.

ولنلاحظ كيف أن الله تعالى وبعد أن زوّدنا بهذه المعلومة راحَ يُخبِرُنا عن النّتائج الّتي ستُسفرُ عنها تلك الواقعة الّتي ستقعُ بين هؤلاء أنفسهم والتي ستقضي عليهم. لذلك نُلاحظهُ تعالى وقد قال في الآية الخامسة بعد المائة:

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾

ويكتب العلاّمة الرّازي رحمه الله وهو يفسّرُ هذه الآية الكريمة: (المرادُ منهُ يومَ يأتي الشيءُ المُهيبُ الهائلُ المستعظَم. فحذفَ اللهُ تعالى ذكرَهُ بتعيينه ليكونَ

أقوى في التخويف). أي أنّهُ رحمه الله أصرّ على أنّ المقصود باليوم الّذي سيأتي هو يومُ القيامة. على حين أنّهُ قد ثبتَ لنا أنّ المقصود به هو يوم حلولِ العذاب بالمكذّبين المعاصرين. وهذا السياق يفرضُ علينا هنا في هذه الآية الكريمة أن نفهم من قوله تعالى (يومَ يأتِ) إشارتُه إلى نفس الشيء المذكور. وليس إشارتُه إلى يوم القيامة المعروف الّذي لا محلّ لذكره في هذه الآيات الكريمة. فقوله تعالى (يومَ يأتِ) قصدَ به يوم الواقعة الّتي أنبأ عن وقوعها بعد انقضاء الأجلِ المحسوب.

وفي الفقرة الثّانية من الآية وهي قوله تعالى ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ فقد اعتمد الرّازي رحمه الله رأي صاحب الكشّاف الّذي قال بوجودِ حذفٍ وتقديره: (لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ فيه إِلَّا بِإِذْنِه الله تعالى). وأضاف رأيهُ وقال: (فإن قيلَ: كيف الجمعُ بين هذه الآية وبين سائر الآياتِ الّتي توهمُ كونها مُناقضةً لهذه الآية. منها قولهُ تعالى ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾. ومنها أنّهُم يكذّبونَ ويحلفونَ بالله عليه وهو قولهم: ﴿والله ربّنا ما كُنّا مُشركين﴾. ومنها قولهُ تعالى ﴿وقفوهم إنّهم مسؤولون﴾. ومنها قولهُ ﴿هذا يومٌ لا ينطقونَ ولا يُؤذَنُ لهم فيعتذرون﴾؟ والجواب من وجهين، الأوّلُ: أنّهُ حيث ورد المنعُ من الكلامِ فهو محمولٌ على الإجاباتِ الحقيقيّة الصحيحة. الثّاني: أنّ ذلك اليوم يومٌ طويلٌ ولهُ مواقف. ففي بعضها يُجادلون عن أنفسهم. وفي بعضها يكفّون عن الكلام. وفي بعضها يؤذَنُ لهم فيتكلّمون. وفي بعضها يُختمُ على أفواههم وتتكلّمُ أيديهم وتشهدُ أرجلُهم).

والحقيقةُ الواضحةُ هي أنّ الكشّاف والرّازي رحمهما الله قد ذهب ذهنُهما إلى ما عبّرا عنه آنفاً لاعتقادهم أنّ هذه الآيات تكلّمت عن يوم القيامة بالذّات. لذلك انساقا وراء من اعترضوا عليهما ودافعا بما نقلناه عنهما. لكنّهما لو فهما ما فهمناهُ لكفاهما الله شرّ تلك الاعتراضاتِ والتناقُضات. لذلك أعرضُ عمّا نقلته عنهما، وأحاولُ تدبُّرَ الفقرة المذكورة أُصوليّاً. فأقول: إنّ الإنسان الّذي لم ينتبهُ إلى

ما أرادهُ الله جلّ شأنهُ من فعل (لا تكلّمُ) الواردُ في قوله تعالى ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يذهبُ ظنُّهُ إلى أنّهُ تعالى قصد من فعل (تكلّم) معنى حدَّث. حالَ أنّهُ تعالى اشتقّ هذا الفعل من كلمَ فلاناً ومعناه جرحهُ إمّا بلسانه أو بأداةٍ أُخرى فأصبحَ فلانٌ مكلوماً أي مجروحاً حقيقةً أو مجازاً. فهذا الاشتقاقُ اقتضاهُ سياقُ الكلام (محيط المحيط).

وعليه يصبح معنى قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أنّهُ يومَ يحينُ وقتُ واقعة هؤلاء تتدخّلُ عنايةُ الله تعالى فلا تعودُ تؤذى نفسٌ منفوسةٌ إلاّ بإذن الله الّذي قدَّر مجيءَ اليوم المشار إليه. علماً بأنّ حرف النّفي (لا) الوارد في (لا تكلّمُ) أُريدَ به نفيَ الجنس ووردَ على سبيلِ التّنصيص، ولا يعملُ إلاّ في النّكراتِ وكلمةُ (نفسٌ) هنا نكرة (محيط المحيط).

هذا وإنّ الحكمة من هذا الّذي أفادتهُ هذه الفقرة من هذه الآية الكريمة هو أنّ الله عزَّ وجلَّ قد وعدَ المؤمنينَ أن يُنجّيهم دوماً مّما يُنزلهُ بالكافرين من عذاب. لذلك نبّه أذهانَ المؤمنين بهذا الأسلوبِ البلاغيّ إلى أنّهُ جلَّ شأنه سيكونُ وقتئذ عند وعده المُشار إليه. ذلك أنّ كلمة (نفس) قد يُرادُ بها جسدُ الإنسان وحدهُ فيقالُ: فلانٌ عظيمُ النّفس أي ضخمُ الجثّة. وقد يُرادُ بها جسدهُ وروحهُ معاً. أو يُرادُ بكلمة (نفس) التّأكيد فيقال: هذا نفسُ الشيءِ أي عينُه (محيط المحيط). إضافةً إلى أنّ حرف (إلاّ) هو حرفُ استثناء. ثمّ إنّ كلمة (بإذنه) الباء للاستعانة لدخولها على آلةِ فعل (تكلّم). وكلمةُ (إذن) تعني الإرادة والإجازة. والإذنُ أخصُّ من العلم ولا يكادُ يُستعملُ إلاّ فيما فيه مشيئةٌ ما. والهاء من كلمةِ (ربّه) ضمير غائب يعودُ إلى (ربّك) الّذي سبقَ له أن أنبأ عن زمنِ هلاكِ هؤلاءِ الأحزابِ أصحاب القرى القائمة سالفةُ الذّكر من قبل.

ولنلاحظ كيفَ أنّ الله عزَّ وجلَّ أتى في الفقرة الأخيرة بفاء الاستئناف

وقال: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾. وأرى أن يتابع القارئ ما فسَّرَ به العلاّمة الرّازي رحمه الله هذه الفقرة الأخيرة بعد أن أخطأ في كلّ ما فهمهُ من الفقرات السابقة. فقد كتب يقول: (قولهُ- فمنهم شقيٌّ وسعيد- يدلُّ ظاهره على أنّ أهل الموقف لا يخرجونَ عن هذين القسمين. فإن قيل: أليسَ في النّاس مجانين وأطفال، وهم خارجونَ عن هذين القسمين؟ قلنا: المراد من يُحشر مّمن أُطلقَ للحساب، وهم لا يخرجونَ عن هذين القسمين. فإن قيل: قد احتجَّ القاضي بهذه الآية على فسادِ ما يُقال أنّ أهل الأعراف لا في الجنّة ولا في النّار، فما قولكم فيه؟ قلنا: لّما سُلّمَ أنّ الأطفال والمجانين خارجون عن هذين القسمين لأنهم لا يُحاسبون، فلمَ لا يجوزُ أيضاً أن يُقال: إنّ أصحاب الأعراف خارجون عنه، لأنّهم أيضاً لا يحاسبون. لأنّ الله تعالى علِمَ من حالِهم أنّ ثوابهم يُساوي عذابهم فلا فائدةَ في حسابهم).

فهو رحمه الله غاصَ في هذه الاختلافات وفي القيلِ والقالِ لاندفاعه للدفاع عن خطأ جرّتهُ له أخطاء سابقة. أمّا وقد كان فهمنا لهذه الآيات السابقة مختلفاً عن فهمه لها. لذلك أعودُ لبيان ما أفهمهُ من قوله تعالى في هذه الفقرة الأخيرة ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ وعلى ضوء ما فهمناهُ من سياقها.

الفاءُ فاءُ الاستئناف. وإنّ قوله تعالى (منهم) مؤلّفٌ من حرف الجرّ (من) وبمعنى التّبعيض. وضمير (هم) وهو ضميرُ جمع غائب. ويعودُ إلى أقرب الأسماء وهو (النّاس) من قوله تعالى ﴿يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ﴾. وعليه فالمرادُ من النّاس الّذين يردعُ ضمير الغائب إليهم هم جموعُ الأحزاب الّذين قدّرَ الله جلّ شأنه أن يتقاتلوا فيما بينهم في اليوم المحسوب ولتنتهي الواقعةُ بهلاكهم وبالقضاء عليهم أجمعين بسببِ تكذيبهم (الشاهدَ منه) ولعدمِ استفادتهم من بركاتِ نهضتهم الأخيرةُ الّتي أنبأت عنها سورةُ الكهف، الواقعةُ الّتي وعدَ الله تعالى أيضاً أن يُنجيّ منها فريقَ الّذين آمنوا بالشاهدِ منه. الأمرُ الّذي يعني أنّ الآيات السابقة تكلّمت عن فريقين

وليسَ عن فريقٍ واحدٍ. وليعود المرادُ من كلمة (شقيٌّ) المقصودُ بها فريق المكذّبين من الأحزاب من أهلِ الكتاب، وليعودَ المقصودُ من كلمة (وسعيد) فريقَ المؤمنينَ النّاجين. ومن بابِ أنّ كلمة (شقيّ) هو من غلبت عليه الشّقاوةُ. واشتُقّت من قولكَ: شاقاهُ أي غالبهُ في الشقاء. والشقاءُ هو الشدّةُ والعُسرُ ونقيضُ السعادة (محيط المحيط).

ومن المنطقيّ جدّاً أن يُطلعنا الله تعالى على المصيرِ الرّوحيِّ الّذي صارَ إليه الفريقان: الشقيُّ والسعيد. وعلى شاكلةِ ما كان تعالى يفعلهُ عند إنهائهِ كلَّ قصّةٍ من القصص سالفة الذّكر. وهذا الأمرُ دعا الله جلَّ شأنهُ ليخصّص له أكثر من آيةٍ تشرحهُ وتوضّحُ حقائقهُ أيضاً، وليكون مُناسبةً لإلقاءِ ضوءٍ على حقائقَ ما بعدَ الموتِ أيضاً. ولذلك كُلّه راح الله تعالى يقولُ في الآية السادسة بعد المائة:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾

فإن قمنا نتدبّرُ هذه الآية الكريمة فأوّلُ ما نُلاحظهُ هو أنّ الله تعالى استهلّها بفاء الاستئناف إشعاراً للقارئ أنّهُ انتقل ممّا سبق أن ذكرهُ إلى بيان حقيقةٍ جديدة، وأدخل الفاء على الحرف (أمّا) وهي حرفُ شرط ويكونُ جوابها جملةً مبتدئةً بفاء. وقد لوحظ حدوثُ ذلك في هذه الآية الكريمة فقد أتى تعالى بجوابِ شرط (أمّا) وقال: (ففي النّار). علماً بأنّهُ يغلُبُ على أحوال الحرف (أمّا) أنّهُ يستعملُ للتّفصيل وللتّوكيد.

وعليه فإنّ الله تعالى عندما قال في الفقرة الأولى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ﴾ يكونُ قد راح يتكلّمُ أوّلاً عن فريقِ المكذّبينَ الّذي كان قد عبّرَ عنه بقوله تعالى (فمنهم شقيٌّ). وقد قال مشترطاً المصيرَ الّذي سيؤولُ إليه هؤلاءِ الّذين شقُوا واستأنف وقال: (ففي النّار) فما هي دلالةُ هذا القول؟

فالّذي يتبادرُ لذهنِ الإنسان منهُ أنّهُ تعالى يخبرُ عن دخولِ الّذين شقوا (النّار)

الماديَّةُ المعروفة. أمّا إذا تدبَّرنا قوله تعالى (ففي النّار) فالفاءُ للاستئناف. وحرف الجرّ (في) يفيدُ معنى الظّرفيَّة، وهو المعنى الشائع الاستعمال. وكلمة النّار وردت معرَّفةً بأداة التّعريف الّتي تفيدُ ما هو معهود. لكنّهُ أيُّ معهودٍ أشير إليه في هذا المقام؟ أهو النّارُ الحقيقيَّةُ أم هو نارٌ من نوعٍ آخر ومعهودٌ أيضاً وتتأجّجُ به الصدور؟ وقد أدلى تعالى بعد ذلك بجواب هذا السؤال وقال: ﴿فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾. أي أنّني قصدتُ من أداة التّعريف المذكورة إشارتها إلى النّار الّتي يُصاحبهم فيها (شهيقٌ وزفيرٌ). وعليه فالفاء الثّانية هنا وردت بمعنى المصاحبة وليس بمعنى الظّرفيَّة.

ويصبحُ معنى قول الله تعالى في الفقرة الثّانية من هذه الآية الكريمة وهو ﴿فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ أنّهُ تعالى قد راحَ يُطلعنا من خلالها على حقيقةٍ جديدةٍ تحدُثُ بعد الواقعة وهو أنّ الّذين شقوا نتيجةً للكارثة الّتي ستحلُّ بهم نتيجةً للواقعةِ المُنبأ عنها، هو أنّ صدرَ كلِّ شقيٍّ منهم ينجو من تلك الكارثة ستتأجّجُ في صدره نارٌ مزيجٌ من زفيرٍ وشهيق. فإذا أضفنا إلى هذا المعنى دلالةَ اللّام في قوله (لهم فيها) على معنى الاختصاص. يعود المعنى أنّ ظاهرة زفيرِ نارِ صدورِ هؤلاء الأشقياءِ النّاجين من كارثة الواقعة سيختصّون بإظهارِ الأسى المستمرّ على ما حدث لهم وعلى ما فقدوهُ فتتراوحُ حالهم ما بين (زفير) وما بين (شهيق) أيضاً. أمّا كلمة (زفير) فاشتُقّت من قولكَ: زفَرَ فلانٌ والمعنى أنّهُ مدَّ نَفَسهُ بعد خروجه من صدره. وأما كلمة (شهيق) فاشتُقّت من قولكَ: شهقَ فلانٌ إذا تردَّد البُكاءُ في صدره (محيط المحيط). وكأنّ الله عزَّ وجلَّ يُخبرُ عن حالِ الّذين سينجون من كارثة الواقعة المُنبأ عنها ويقولُ بألفاظ أخرى: لا تظنّوا يا جُموعَ الأحزاب الّذين كذّبوا نبيَّنا محمّداً والشاهد المبعوثُ من أُمّته أنّ هلاككم على الصّورة الّتي أنبأنا عنها هي وحدها المُصابُ الّذي سيحلُّ بكم، بل سيرافقهُ من بعده (زفيرٌ وشهيقٌ) تنتابُ أجيالكم من بعدكم أسفاً على ما فات، وهي حالةُ كلِّ من حلّت به مصيبةٌ مفجعةٌ

على وجه الأرض.

فالسؤال الّذي يطرح نفسه بعد جميع ما ذُكر هو: إلى متى سيظلُّ ويدومُ حالُ جموعِ طوائفِ هؤلاء الأحزاب على حال الأسى على ما فاتهم؟ وقد أجاب الله جلَّ شأنه على السؤال المذكور وقال في الآية السابعة بعد المائة:

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾

والملاحظُ هو أنَّ الله جلَّ شأنه استهلَّ الفقرة الأولى وهي قولهُ تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أقولُ قدَّمَ كلمة (خالدينَ) ليشيرَ من خلالها إلى المدَّة المطلوبة للإجابة على السؤال المطروح. وهي جمعٌ مفردهُ خالدٌ وخلود. علماً بأنَّ الخلودَ يُشارُ به إلى المدَّةِ الطّويلة دامت أم لم تدم. وألحقَ تعالى بكلمة السّماواتِ الجار والمجرور (فيها) وحرف (في) بمعنى المصاحبة وقال: (ما دامت) فحرفُ (ما) مصدريٌّ ظرفيٌّ. وأما فعل (دام) فمعناه ثبتَ وامتدَّ وهو فعلٌ ناقصٌ يرفعُ المبتدأ وينصبُ الخبر، كقولكَ: لا أُكلِّمُكَ ما دام زيدٌ يزورُك. كذلك أتى تعالى بكلمة (السّماوات) وهي جمعٌ مفردهُ (سماء) من سما الشيءُ بمعنى ارتفعَ وعلا. واستناداً إلى هذا المعنى أُطلقت كلمة سماء على ما يحيطُ بالأرضِ من فضاءٍ واسعٍ يبدو فوق رؤوسنا وكأنَّهُ قُبَّةٌ عظيمةٌ مشتملةٌ على الشّمس والقمر وسائرِ الكواكب، لذا يُقال: كلُّ ما علاك فأظلّكَ فهو سماؤك. كذلك أتى بكلمة (الأرض) وهي هذه الكرة الّتي نعيش على سطحها. فالأرضُ تطلقُ أيضاً على كلِّ ما استقرَّ عليه قدماك وكلُّ ما كان أسفلَ منك (محيط المحيط).

وليصبحَ معنى قوله تعالى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أنَّ أسى النّاجينَ من كارثة الواقعة المُنبأ عنها من طوائف هؤلاء الأحزاب سيصاحبهمُ

الأسى على مجدهم وماضيهم ما بقيت هذه السّماواتُ والأرضُ أي ما دام هذا الكونُ المادّيُّ باقياً.

وأمّا بما يتعلّقُ بالّذين هلكوا ودخلوا العالم البرزخيَّ فإنّ هذه الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة تُنبئ عن أنّ (النّار) ستلازمهم ما دامَ هذا الكونُ قائماً أيضاً. أي أنّ هذه الفقرة أشارت إلى هذه المُدّةِ البرزخيّة حتى الآن. ولذلك يتساءلُ المرءُ بعد الّذي فهمه من هذه الفقرة الأولى: وهل يعني هذا أنّ عذاب هؤلاء سينتهي قبل يوم النّشور والبعث الأكبر؟ وما هي ماهيّة عذابهم وهم في عالم البرزخ؟

أمّا ما يتعلّقُ بماهيّة عذاب الكافر في عالم البرزخ فقد أُشيرَ إليه في الآية (٤٢) من سورة الزّمر الّتي قال تعالى فيها ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾. ويستدلُ من مضمون هذه الآية الكريمة أنّ الإنسان يموتُ كلّ يومٍ فيُدخلُهُ ربُّه الحياة البرزخيّة. ومن ثمّ يُعيدهُ إلى حياته الدّنيا مرّةً أخرى. فمن خلال هذا المعنى الّذي فهمناه من هذه الآية الكريمة من سورة الزّمر، نستدلُّ على أنّ عذاب الكافر في حياته البرزخيّة هو أشبهُ ما يكونُ بهذه الكوابيس الّتي يراها النّائمُ ويستيقظُ منها وهو يغلي اضطراباً وانزعاجاً. لكنّ نفس الإنسان إذا فارقت جسدَها فسيكونُ ما تراهُ وما يُخيفها في عالم البرزخ الّتي تحيا فيه وقتئذٍ أشدُّ وأقسى مّما تزعجها به الكوابيس.

أمّا السؤال: هل سينتهي عذابُ هؤلاء قبل يوم النُّشور والبعثِ الأكبر أم لن ينتهي، فقد أجاب الله جلَّ شأنه على هذا السؤال في الفقرة الثّانية من هذه الآية الكريمة الّتي نحن بصددِ تفسيرها وقال: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾. فإن نحن راجعنا تفاسيرَ المفسّرين القدماء رحمهم الله نلاحظ أنّهم أخذوا لحرف (إلّا) معنى الاستثناء.

وبعضهم أخذ بمعنى (سوى) وعاد تقديرُ قوله تعالى ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ في نظرهم (إلاّ ما شاءَ ربُّك من الزّيادة الّتي لا آخرَ لها). هذا وإنّ العلاّمة الرّازي رحمه الله استعرض آراء سواه من المفسّرين وناقشها، لكنّه لم يُخالفهم في المحور الّذي دارت حولهُ أقوالهم. وأضاف وقال: (واعلَم أنّهُ تعالى لمّا ذكرَ هذا الاستثناء قالَ (إنّ ربّكَ فعّالٌ لما يريد). وهذا يحسُنُ انطباقه على هذه الآية إذا حملنا الاستثناء على إخراج الفاسقين من النّار. كأنّهُ تعالى يقول: أظهرتُ القهرَ والقُدرةَ ثمّ أظهرتُ المغفرةَ والرّحمة، لأنّي فعّالٌ لما أريد، وليس لأحدٍ عليَّ الحُكمَ البتّة).

وأتوقف هنا للحظاتٍ لأناقش قول الرّازي وأقوال غيره رحمهم الله وذلك قبل أن أتناول الفقرة الأخيرة من هذه الآية الّتي قال تعالى فيها ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. فأقول: إنّ الخطأ يجرُّ الخطأ فما دامَ المفسّرون القدماء قد أخذوا لحرف (إلاّ) معنى الاستثناء وأنّ تقدير الكلام الإلهيّ في نظرهم (إلاّ ما شاء ربُّكَ من الزّيادةِ الّتي لا آخر لها) وأنّهم فهم هذه دلالةَ هذه الآيات على يوم القيامة، واختلفوا في موضوع عذاب جهنّم أهو دائمٌ أم هو غير دائم، ومالَ أكثرهم إلى أنّهُ دائمٌ وأنّ الله تعالى يُخاطب العرب بالاصطلاحِ الرّائج بينهم والّذي يعبّرون به عن الدّوام والأبديّة. وما دام الرّازي رحمه الله قد اتّفق معهم من حيث المبدأ، وأعلن أنّ نفاذ عذاب الكافرين سيمتدُّ دهراً داهراً وزماناً لا يُحيطُ العقلُ بطولهِ وامتداده، وأضاف يقول: (فأمّا أنّهُ هل يحصلُ- لهذا العذاب- آخرٌ أم لا، فذلك يُستفادُ من دلائلَ أُخر. وهذا الجوابُ الّذي قرّرته جوابٌ حقٌّ، ولكنّه إنّما يفهمهُ إنسانٌ ألفَ شيئاً من المعقولات) بل وراح رحمه الله يقول إنّ رحمة الله ستشملُ حال الفاسقين من العباد. مع أنّ سياق هذا الكلامِ الإلهيّ ورد خالياً من ذكر كلمة (فاسقين). فما دام هذا هو حالُ ما فهمه المفسّرون القدماء رحمهم الله. فمن المناسب أن نُعيدَ تدبُّرنا لحرف (إلاّ) الّذي أخذ له هؤلاء معنى الاستثناء هل أنّهم أصابوا الرّأي في

ذلك أم لم يصيبوا.

وقد تبيَّن لي أنَّ الله تعالى قد استعمل (إلّا) في هذا المَوضع ليفيدَ معنى الواو والإضافة. وبذلك نَحسمُ ما وقع فيه رحمهم الله من اختلافات. وتتبيَّنُ بذلك الاستعمالِ عظمة هذه الصّياغة البلاغيَّة الّتي صاغ الله جلَّ شأنه بها ألفاظَ هذه الآية الكريمة. ويتبيَّنُ أنَّ ما تبادر لأذهان المفسّرين القدماء كان يُغايرُ مضمون قوله تعالى ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾. وعليه يصبحُ معنى قوله تعالى ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي وما شاءَ ربُّكَ من عذابٍ يبقونَ فيه بعد انقضاء هذا العالَم الدّنيوي.

واستناداً إلى هذا الفهم الجديد أتناول الفقرة الأخيرة من الآية وهي قوله تعالى فيها ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. فالّذي نلاحظه هو أنّهُ تعالى قد استهلَّ هذه الفقرة بحرف التّأكيد (إنَّ)، وبكلمة (ربّكَ) الدّالة على معنى التّطوير. فالرّبُّ هو الّذي يطوِّرُ الشيء حالاً بعد حال إلى أن يصل به مرتبة التّمام (أقرب الموارد). كذلك أتى تعالى بكلمة (فعّالٌ) بصيغة المُبالغة وأصلُها يفعل. وأمّا قوله (لما يُريد) فاللّام فيها هي ما يُسمّونهُ لام التّاريخ وبمعنى (عندما) (محيط المحيط).

وعليه أرى أنَّ الله جلَّ شأنه أراد من قوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ ربط دوام أو إيقاف عذاب الواحد من هؤلاء المكذّبين بما تقتضيه رُبوبيتُهُ. وبحيث لا يعودُ يقفُ دون تحقيق ذلك أيُّ عائقٍ مهما كان نوعه وماهيَّته. وبهذا المعنى تتجلّى عظمةُ الصّياغة البلاغيَّة المعجزة لهذه الآية الكريمة الّتي قال تعالى فيها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. فالله جلَّ شأنه يكون قد نبَّه أذهاننا من خلالها إلى أنَّ جميع مُجرياتِ أمور حياتنا الدّنيا وحياتنا البرزخيَّة والأُخرويَّة تخضع أصلاً إلى قوانين التّطوّر والتّطوير لإيصال الإنسان إلى حياةٍ خالدةٍ في نهاية المطاف. ولذلك فإنَّ الكافر سيدومُ عذابهُ بعدَ الموت بما

يتناسب وهجرهُ ربَّهُ في هذه الحياة الدّنيا وعلى قدرِ استهتارهِ بإنذاراتِ ربّه المُنزلة في كتابه العزيز المُنزل على رسوله محمَّدٌ (ص) والمُنبأ فيه عن بعثة (الشاهد منه) الّذي كذّبهُ هؤلاء أيضاً.

ولنلاحظ كيف أنّ الله عزَّ وجلَّ ما إن فرغَ مّما بيّنهُ بحقّ الّذين (شقوا) إلاّ وراحَ يُنبئُ عن حال الّذين (سعدوا) وآمنوا بصدقِ رسالة محمَّدٍ (ص) وبالشاهد منهُ ونصروهُ ومحدّداً مصيرهم. وذلك في الآية الثامنة بعد المائة وقال:

﴿أَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾

فالله تعالى أورد قوله في الفقرة الأُولى من هذه الآية الكريمة وهي ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ وذلك في مقابل قوله من قبل بحقّ المكذّبين ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُواْ﴾ ليشير بذلك إلى فئة المؤمنين بمحمَّد (ص) والشاهد منه. كذلك أتى جلَّ شأنه بالفقرة الثّانية من هذه الآية واستهلّها بفاء الاستئناف وقال فيها: (ففي الجنّة) وذلك يُقابلُ ما قاله تعالى في الآية السابقة بحقّ فئةِ المكذّبين من أهل الكتاب والمُستأنفِ بفاءِ الاستئنافِ أيضاً قوله بحقّهم ﴿فَفِي النَّارِ﴾.

لكنَّ الملاحظ هو أنّ الله تعالى قال في الآية السابقة بحقّ المكذّبين ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ على حين أنّهُ جلَّ شأنه لم يقل في مقابل ذلك هنا في هذه الآية الكريمة أيَّ شيء. بل انتقل ليقول بحقّ فئةِ المؤمنين الّذين (سعدوا) وبصورةٍ مُباشرةٍ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ أي خالدين في هذه الجنّة الّتي وعدناهم بها ما بقيت السّماواتُ والأرضُ. ويكونُ تعالى قد صرَّحَ بذلك أنّ سعادة المؤمنين

ستدوم بعد الواقعة المُنبأ عنها في هذه الحياة الدّنيا ما دامت السّماوات والأرض قائمتين. أي أنّهُ تعالى سيورثُهم أرضَ الّذين أهلكتهم الواقعةُ والّذين لن تقومَ لهم بعدها قائمة.

ومن ثمّ أتى تعالى بفقرةٍ رابعةٍ في هذه الآية الكريمة قال فيها ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ وبنفسِ المعنى الّذي وردت به نفسُ الألفاظ في الآيةِ السابقة بحقّ الّذين (شقوا). ويصبحُ المقصود من هذه الفقرة في هذه الآية الكريمة أنّ الّذين (سعدوا) لن تقف حدودُ سعادتهم في إطار بقاء هذا العالم الدّنيويّ وحسب. بل وسيدومُ من بعد موتهم أيضاً.

وينشأُ عن ذلك سؤالٌ وهو: هل ستنقطعُ سعادة الّذين (سُعدوا) بعد البعث الأكبرِ الّذي سيعقُبُ فناءَ عالمنا المادّي؟ والملاحظ هو أنّ الله جلّ شأنه استدرك وراح يُجيبُ على هذا السؤال المطروح ويقولُ في الفقرة الأخيرة من هذه الآيةِ الكريمة ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾. فما معنى ذلك؟

فكلمة (عطاءً) تعني ما يُعطيه الإنسان بسماحةِ نفسه (محيط المحيط). وما دامت قد وردت هذه الكلمةُ مُنوَّنةً على آخرها، فقد قصدَ الله تعالى أن يُضخِّمَ من خلال ذلك مضمون هذا العطاء الّذي وعد به وبسماحة من نفسه عزّ وجلّ. ولم يكتف جلّ شأنه بهذا التّضخيمِ لعطائه المُشار إليه بل ووصفه بقوله تعالى أنّهُ ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾. فكلمة (مجذوذ) اشتقّها سبحانهُ وتعالى من قولكَ: جذّ الشيء ومعناهُ كسرهُ وقطعهُ ليستأصله (محيط المحيط).

وليصبح معنى قوله تعالى ﴿غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أنّ ما سيُعطيه الله تعالى فئةَ المؤمنينَ بمحمّدٍ (ص) والشاهد منهُ لن يُساوي أعمالهُمُ الصّالحة وحسب. بل لن يُقطع هذا العطاءُ عنهم بانتهاءِ هذا العالمِ المادّي. وسيستمرُّ جارياً بعده إلى أبدِ

الأبدين، ووفق مشيئة ربِّهم وإرادته.

وعلى هذه الصّورة تكون دلالات هاتين الآيتين الكريمتين قد أمسيتا واضحتين تماماً. وبحيث توضَّحَ من مُعطيات ألفاظ الآية الكريمة الأولى أنَّ الله تعالى نبَّه أذهانَ المكذِّبين من أهل الكتاب إلى أنَّ العذاب المقدَّرَ للباقين منهم بعد الواقعة الّتي أنبأ عنها سيدومُ ما بقي هذا العالمُ قائماً. وأنَّ عذاب الّذين سيهلكونَ منهم سيدومُ بعد مَوتهم ما شاء الله تعالى له أن يدوم. كما توضَّحَ من مُعطيات الآية الكريمة الثّانية أنَّ الله تعالى قد وعد الّذين آمنوا برسوله محمَّداً (ص) والشاهد منه بأنّهم سيسعدون بعد الواقعة الّتي أنبأ تعالى عن وُقوعها ليس في هذه الدّنيا وحسب. بل وفي الآخرة وعلى صورةٍ لن تنقطع سعادتُهم فيها إلى أبد الآبدين.

هذا وقد بقي من واجبنا أن نحسِمَ أمر موضوعِ دوامِ جهنَّمَ أو عدم دوامها. ومن مُنطلقِ أنَّ العلماء والمفسِّرين القدماء رحمهم الله تعالى قد اختلفوا في هذا الأمر اختلافاً كبيراً لا مجال للتَّفصيلِ فيه في هذا المقام. لكنَّ أهمِّيَةَ الموضوع تدفعني لِبيان ما فهمتُهُ أنا من آي الذِّكرِ الحكيم بما يتعلّقُ بدوام جهنّم وعدم دوامها. ومن باب أنَّ الجميع قد اتفقوا على دوامِ الجنَّةِ وعلى دوام عطاءاتها وعلى دوام بقاء المؤمنين فيها وإلى أبد الآبدين.

فمن أين نبدأُ بالدّخول في هذا البحث؟ ولا أرى من سبيلٍ إلاّ أن نبدأ من مفهوم الكلمتين الواردتين في هاتين الآيتين الكريمتين وفي غيرهما من الآيات القرآنيّة وهما (خالدين) و(أبداً). فالشائعُ بين مُعاصرينا من النّاس هو أنَّ كلمة (خالدين) تعني حياةً لا انقطاع لها. على حين أنَّ أصحاب المعاجم يخالفونهم في هذا المعنى المذكور. فصاحبُ معجم (محيط المحيط) قال بأنَّ الخلود معناه (الثبات المديد دام أم لم يدم). وقد استمدَّ هذا المعنى مّما كتبه أصحابُ المعاجم القدماء ولم يأت بهذا المعنى من عنده. ثمَّ إنَّ كلمة (أبداً) ففي معجم (محيط المحيط) أيضاً قال بأنَّ كلمة (الأبد) لها عدَّةُ معانٍ منها (الدّهرُ، والدّائمُ، والقديمُ الأزليُّ، والولدُ الّذي أتتْ عليه

سَنة. وجمعهُ آباد وأُبود). والّذي نُدركهُ من خلال مُعطيات دلالات هاتين الكلمتين هو أنّ كلّ كلمةٍ منهما لا يجوز استعمالها دلالةً على الدّوامِ الّذي لا ينقطعُ بحالٍ من الأحوالِ إلاّ بوجودِ قرينةٍ ترافقها وتؤكّدُ معنى الدّوام.

فإن نحن دقّقنا الآن فيما صيغت به هاتان الآيتان الكريمتان سالفتي الذّكر، يتّضحُ لنا في كلّ واحدةٍ منهما وجهُ قرينةٍ تُحدّدُ المعنى المقصود. ففي الآية الأولى الّتي أورد الله تعالى قوله فيها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ قُيّدَ معنى (خالدينَ فيها) بدوام وُجود السّماواتِ والأرضِ وبقوله تعالى أيضاً ﴿إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ﴾. وإنّ هذين القيدينِ يُشكّلانِ في حقيقة أمرهما قرينتين تمنعان أخذَ معنى الدّوام لكلمة (خالدين).

وفي الآية الثّانية الّتي ورد فيها نفسُ صيغة ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ فقد قيّدَ الله تعالى معنى ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بنفس القيدَينِ السابقين وهما دوامُ وجود السّماوات والأرض وبقوله تعالى ﴿إِلاَّ مَا شَاء رَبُّكَ﴾ ولا شكّ في ذلك. فلو أنّ الله جلّ شأنه قد اكتفى بهذين القيدينِ وبهاتين القرينتين، لكان من المستحيل علينا من حيث الدّلالةِ اللُّغويّة أن نأخذ لكلمة (خالدين) معنى الدوام. فما هو الّذي دفع بنا لنأخذ معنى الدّوام لخلود المؤمنين في الجنّة؟ إنّ الّذي أعاننا على إدراك معنى الدّوام هو قرينةُ قوله عزّ وجلّ في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الثّانية وهو ﴿عَطَاء غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾. أي أنّ العطاء الّذي كتبهُ الله تعالى للّذين (سُعدوا) وهو (ففي الجنّة) هو عطاءٌ دائمٌ غيرُ منقطعٌ ولا مُستأصلٌ من قبلِ الله الّذي منحهُ إيّاهم عن سماحة نفسه. فهو عطاءٌ كتب له الدّوام أبد الآبدين.

والنتيجةُ الّتي نستنتجها مّما لاحظناه من دلالات هاتين الآيتين ومن أُسلوب صياغتهما ومن اشتمالهما على القرائن سالفةِ الذّكر، أولاً: صحّةُ ما أفادهُ أصحابُ

المعاجم من دلالات لكلمة (خالد). ثانياً: أنَّ من واجب المفسِّر أنَّهُ كلَّما صادفته كلمة (خالدٌ) وبمختلف مُشتقّاتها، ألاّ يتعجّلَ فلا يجزمُ بمعنى لها إلاّ بعد التيقُّنِ من وُجودِ قرائنَ دالَّةٍ على ذلك.

وبعد أن فرغنا من بحث دلالات كلمتي (خلود) و(أبد). أرى أن أنبِّه ذهن القارئ إلى أنَّ الله جلَّ شأنه ما سار على أسلوبِ نمطٍ واحدٍ وهو يفرِّقُ بين دلالات هاتين الكلمتين خلال استعماله لها في آياتِ كتابهِ العزيز. بل عمد إلى الأخذِ بأنماطِ أساليبَ مختلفةٍ وهو يتكلَّمُ عن فريقي المؤمنين والكافرين وعن المصير الّذي سيؤولونَ إليه في نهاية المطاف بعد موتهم. وقد جاءت تلك الأساليبُ في ذروةٍ من السَّبكِ البلاغيِّ والتَّعبيرِ الأدبيِّ. وسأحاولُ الكشفَ عن تلك الأنماط الّتي أشرتُ إليها أوّلاً بأوّلٍ. فأبدأُ باستعراضِ السور الّتي اشتملَ عليها جزء (عمّ) وهو الجزء الأخيرُ من أجزاءِ سورِ القرآن العظيم، والّذي أنظر إليه على أنَّ الله عزَّ وجلَّ قد اختصرَ في سُورِهِ جميع مضامين سور كتابه العزيز وعلى صورةٍ مُذهلة الصّياغة البلاغيّة والتّرتيبِ والدّلالات. وهو أمرٌ ذكرتهُ في مؤلّفي (فنُّ الاختزال في القرآن الكريم).

إنَّ الله جلَّ شأنه أتى بأوَّلِ سورةٍ من سورِ جزء (عمّ) فقال في الآيات (٢١-٢٢-٢٣) منها وبحقِّ الكُفّار الطُّغاةِ خاصّةً: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً، لِلْطَّاغِينَ مَآباً، لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾. وقد ورد كلامهُ في هذه الآيات الكريمة عامّ الدّلالاتِ وشاملاً جميعَ شرائحِ الكُفّارِ الطُّغاةِ وبلا استثناء. وعليه نتساءلُ عن معنى قوله تعالى ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾؟؟

إنَّ كلمة (لابثينَ) مشتقَّةٌ من لَبثَ في جهنّم ومعناهُ مكثَ وأقامَ فيها. وأمّا كلمة (أحقاباً) ففي معجم (محيط المحيط): (الحُقبُ ثمانون سنةً أو أكثر. والدّهر والسنة أو السنون. جمعهُ أحقاب. والحقبةُ من الدّهر مُدَّةٌ لا وقت لها). وقال

البيضاوي في تفسيره: (الحُقبُ الدّهرُ، وقيل ثمانون سنة، وقيل سبعون). فإن نحن دقّقنا في هذه المعاني جميعها، فلا نلاحظ أنّها تحمل معنى الدّوام اللانهائيّ والأبديّة. بل إنّ قوله تعالى ﴿لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ يحتملُ عدّة معاني استناداً للمعاني المذكورة. لذلك لا يصحُّ الاستناد إلى هذه الآية الكريمة لتقرير هل أنّ عذابَ جهنّمَ دائمٌ إلى أبد الآبدين أم أنّهُ محدود.

والسورةُ الثّانيةُ من جزء (عمّ) الّتي تعرّضَ الله جلّ شأنه فيها لموضوع بحثنا هي سورة (البيّنة) الّتي ورد فيها آيتان تتعلّقان بمصير المؤمنين والكافرين وغيرهم، فقال تعالى بحقّ الكافرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾. واستناداً إلى تحقيقنا اللّغويّ فورود كلمة في هذه الآية سالفة الذّكر لا تكفينا لنقرّرَ دلالتها على دوام نار جهنّم، فهذا هو ما استخلصناهُ في بداية هذا البحث من دلالات كلمة (خالدٌ) ومشتقّاتها. لذلك عُدنا بحاجة إلى قرائن تخصيص. وهذه القرائنُ وفرّتها لنا الآية الثّانية الّتي أوردها الله جلّ شأنه في مقابل هذه الآية وتتعلّقُ بفئة المؤمنين، وهي الّتي قال تعالى فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ، جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾. فالقرينة الأولى هنا توفّرت في كلمة (عَدْن). حيث تقول: عَدَنَ بالمكان، أي أقامَ فيه واستوطنه. فجنّاتُ عَدْنٍ أي جنّاتُ إقامةٍ ومَوطنٍ لحياة الخلود (محيط المحيط). ونعثرُ على القرينة الثّانية ضمن قوله تعالى فيها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾. فما دام تعالى قد فرّقَ بين مُعطيات الآياتِ عند مُقارنته ما بين من هم (شرُّ البريّة) وما بين من هم (خيرُ البريّة) فقال بحقّ الفريق الأوّل أنّهُم وهم في نارِ جهنّمَ

(خالدينَ فيها)، على حين أنّه قال بحقِّ الفريق الثّاني أنّهُم وهم في جنّاتِ عَدْنَ (خالدينَ فيها أبداً) فإضافة كلمة (أبداً) قد شكّلت هذه القرينة الثّانية الدّالّة على أنّ الحياة في الجنّةِ ستدومُ أبد الآبدين على حين أنّ الحياة في نار جهنّم لن تدومَ إلى أبد الآبدين.

وعلى هذه الصّورة يكون الله عزَّ وجلَّ قد أطلَعنا في هذا الجزء الأخير من كتابه العزيز وبأسلوبٍ مُتميّزٍ وبصياغةٍ بلاغيّةٍ مُعجزةٍ ووفق المُعطياتِ اللُّغويةِ للألفاظ أيضاً على حقيقة أنّ البقاءَ في عذابِ جهنّم لن يدوم إلى أبد الآبدين. على حين أنّ من يدخلُ الجنّة الموعودة سيبقى خالداً فيها إلى أبد الآبدين. الأمرُ الّذي يؤكّدُ لنا مصداقيّةَ ما استنتجناهُ من البحثِ اللّغويّ. وهو ضرورةُ توفرُ أمرين اثنين لتقرير معنى كلمة (خالد) ومشتقّاتها: الأوَّلُ إقرارُ أصحاب المعاجم بالمعنى. والثّاني توفُّرُ القرائن الدّالة على ترجيح معنى الدّوام أو عدمه. فالبحثُ اللُّغويُّ ومُعطيات الآيات من جزء (عمّ)، وهو الخلاصةُ الموسّعةُ لمضامينِ جميع باقي سور القرآن الكريم، قد أفادتا بالحقيقةِ آنفةِ الذّكر.

فهذا الّذي توصّلنا إليه كان من منطلق النظر إلى آيتين تتكلّمان عن الفريقين مع مُقارنة مدّة بقاء كل منهما في المكان الّذي سيصيرُ إليه. وعاد هذا بين أيدينا معياراً ومفتاح تمييز. لكنَّ الله جلَّ شأنه لم يكتف أن يضع بين أيدينا هذا المعيار وحدهُ. بل نبّه أذهاننا إلى حقيقة اختلاف ذلك من مُنطلق اعتبار أجور المؤمنين وأجور الكافرين.

ففي سورة (التّين) نبّهنا الله جلَّ شأنه إلى الأجر الّذي أعدّهُ للمؤمنين وقال بحقِّ الإنسان أنّهُ تعالى قد خلقه في أحسن تقويم من حيث تكوينه الباطنيِّ الفطريِّ وليس من حيث تكوين صورته وشكله ولونه. وبدليل أنّهُ قال ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾. فالرّدُّ أسفل سافلين يكونُ للنّفس الكافرة وإشارةً إلى الجحيم. خصوصاً

وأنّهُ جلَّ شأنه قد استثنى وقال ﴿إلَّا الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. والّذي نلاحظه من خلال تدبُّرنا لمضمونِ هذا الاستثناء أنّ الله تعالى أخبرنا من خلاله عن مُدَّةِ هذا الأجر وقال ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي أنّهُ أجرٌ دائمٌ غيرُ منقطعٍ. وبذلك يكون تعالى قد أفادنا بمعلومة أنّه حين يتكلّمُ في كتابه العزيز عن المؤمنين. فإنّ جميع الكلمات الّتي يستعملها بحقّهم، يستعملها بمعنى الدّوامِ الّذي لانهاية له. سواءً أقال بحقّهم (خالدين) وحسب أو قال ﴿خالدينَ فيها أبداً﴾. فالمؤمنون هم أصحابُ جنّةٍ أجرُهم فيها دائمٌ غيرُ مَمنون أي غيرُ مُنقطع.

هذا بما يتعلّقُ بأجرِ المؤمنين. أمّا بما يتعلّقُ بالكافرين الّذين يُردّون أسفلَ سافلين. فقد أجاب تعالى على هذا السؤال في سورة (الانشقاق) فوضّحَ ذلك من خلال قوله تعالى في الآيات الأخيرة من هذه السورة حيث قال ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ، فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾. فهو جلَّ شأنه قارن هنا بأسلوبِ الإشارةِ ما بين أجر هؤلاء وهؤلاء. فقال في مُقابل ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ بما يتعلّقُ بأجر المؤمنين ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وحسب بما يتعلّقُ بجزاء الكافرين. أي أنّهُ تعالى قد نبّه أذهاننا بهذا الأسلوب إلى الفرق الكائن بين زمن كلٍّ منهما من حيث الأجور إضافةً لما سبق أن أفادنا به من حيث الصّياغة. فلم يقل هنا أنّ هذا العذاب الأليم سيدومُ أبد الآبدين. أو أنّهُ عذابٌ غير ممنون. علماً بأنّ العذاب الأليم يدخل في باب العذاب الّذي لا يدومُ أصلاً.

ولّما كان المرءُ سيتساءل: ما المقصد من وجود نارِ عذابٍ وفي وقتٍ قال تعالى فيه في الآيات من سورة (الذّاريات): ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾؟

فلئن صاروا إلى جهنّم مدّةً طويلةً ينتهي تعذيبُهم بعدها، فقد تزعزعت مُعطياتُ هذا القول إلى حدٍّ ما. خصوصاً وأنّ حرف (ما) لا عملَ لها هنا لدخولها على جملة فعليّة. وأنّ حرف (إلاّ) يفيدُ الحصر. وبالإضافة إلى ذلك فقد قال تعالى أيضاً ﴿يا عبادي الّذينَ أسرفوا على أنفُسهم لا تقنطوا من رحمة الله إنّ اللهَ يغفرُ الذّنوبَ جميعاً﴾. وقد أجاب الله جلّ شأنه على هذا السؤال الهام وبإيجازٍ شديدٍ وبصياغةٍ بلاغيّةٍ مُعجزةٍ فقال في سورة القارعة وبصورةٍ غير مباشرة: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾. فالكلام في هذه الآية الكريمة يتعلّقُ بغير المؤمنين. وبالّذين خفّت موازينُ أعمالهم. وصاروا إلى الجحيم. وقد استعارَ الله تعالى للجحيم هنا، الّتي هي الهاوية، كلمة (فأُمُّه). والمعلومُ أنّهُ تعالى لا يوردُ شيئاً ولا يكونُ وراءهُ حقيقةٌ وحكمة. والّذي أراه أنّهُ جلّ شأنه استعارَ كلمة (أُمّ) للإشارة من خلال هذه الكلمة إلى المقصد من وجود نار جهنّم. فهي بمثابة حاضنةٍ وعلى شاكلةِ المشفى تحتضنُ الآثمين من المؤمنين ومن غير المؤمنين ليتخلّصوا من آثار أعمالهم غير الصّالحة والتي تركت بما كيانهم آثاراً ناريّةً. فنارُ العذاب هو أثرٌ جهنّميٌّ ينتج عن عمل صاحبه الآثم في هذه الدّنيا ويتراكمُ مع آثارِ آثامٍ مُتكرّرة. فإذا ما مات الإنسان وتخلّصت نفس الإنسان من إسارِ جسدهِ تتجسّدُ هذه الآثارُ الجهنّميّةُ على شكلِ نيرانٍ تأكل صاحبها وتعذّبهُ. وهو موضوعٌ لا مجال لبحثه في هذا المقام.

وبكلمةٍ موجزةٍ أقول: إنني أعتقدُ أنّ لهذا القرآن العظيم مقدّمةً هي سورةُ الفاتحة. وأنّ الله تعالى قد أتى بسور جزء (عمّ) فلخّصَ في سوره جميعَ المضامينِ الّتي تضمنّتها بقيّةُ سور القرآن العزيز. ومن ثم أتى بالسورِ الثلاثةِ الأخيرةِ من جزء (عمّ) هذا، وهي المسمّاة سور المعوّذات. فجعل مضامينها خلاصةَ الخلاصة لهذا الكتاب العزيز.

وانطلاقاً من هذا الفهم فقد كان جلّ شأنه حريّاً به أن يأتِ في هذه

الخلاصة المُطوَّلة الّتي هي جزء (عمّ) ما يساعد المؤمن في مجال تدبُّر آي الذّكر الحكيم، فوضع بين يديه مفاتيح تُساعدهُ في عمليّة تدبُّره هذه. وقد أثبتُّ من خلال ما وضّحته أن سور جزء (عمّ) قد أدَّت هذا الإنجاز الكبير. وثبتَ من خلال مُعطيات الآيات الّتي أوردتها من الجزء المشار إليه أنّهُ جلّ شأنه قد وجّهنا من خلالها إلى حقيقة الجنّة وحقيقة النّار ومدَّة كلٍّ منهما وبصياغة بلاغيَّة مُعجزة أيضاً، فالحمد لله على ما هدانا إليه ومكّننا من فهم هذه المواضيع.

والآن وقد فرغنا من هذه الخطوة الثّانية فسأحاول القيام بعمليّة إسقاط ما توصّلنا إليه حتى الآن على جميع سور القرآن المجيد الوارد فيها ذكرُ كلمتي الجنّة وجهنّم وأوصاف الدّاخلين إلى جهةٍ من هاتين الجهتين: الجنّةُ والجحيم. ومن مُنطلقِ ما سبق لي أن ذكرتهُ من أنّ الله تعالى لم يلتزم في جميع سور كتابه العزيز بالنّمط الواحد الّذي يُشابهُ ما توصّلنا إليه. بل عمد في بيانه الإنشائيّ لهذا الموضوع إلى تعدُّديَّة في الأنماط والأُساليب ليثبتَ من خلال ذلك قُدرتهُ الإعجازيَّة في هذا المضمار. وهو الأمرُ الّذي سأحاول الكشفَ عنه وتوضيحهُ فيما سآتي به من بيان.

فالّذي لاحظتهُ هو أنّ الله تعالى اختطَّ في السور الّتي تعرّض فيها لذكر فئة المؤمنين وحدهم أقولُ قد اختطَّ خطّةً إنشائيَّةً تتلخّصُ في أنّهُ جلّ شأنه كان يكتفي بإيراد كلمة (خالدين) وحسب ولا يدعمها بكلمة (أبداً) لانتفاء ضرورة إيرادها كقرينة تُفرّقُ بين دلالة (خالدين) نسبةً إلى المؤمنين ونسبةً إلى الكافرين. وقد شكّلتْ هذه الخطّةُ نمطاً إنشائيّاً مستقلاً. وسأحاولُ تقديم نماذج منه.

فهذا النّمطُ من الأسلوبِ في الصّياغة المُتميّز والمختلفُ عن النّمط الّذي تعرّفنا عليه من قبل، نعثرُ عليه في سور كثيرة. فمن هذه السور على سبيل المثال لا الحصر: (سورُ المُجادلة والحديد والفتح والأحقاف). ففي السور المذكورة لم يُجرِ الله تعالى مقارناتٍ بين مصائر المؤمنين والكافرين ولذلك ما احتاج إلى إيراد كلمة (أبداً) ليُشكّلَ بها القرينة المطلوبة. ومن باب أنّ الجنّةَ الّتي يذكرها هي جنّةُ عَدْنٍ.

فالاستيطانُ فيها يكون دائماً وغير مُنقطعٍ في يوم من الأيّام.

وعليه فقد لاحظنا أنّ الله جلّ شأنه قال في الآية (٢٢) من سورة (المُجادلة) بحقّ المؤمنين ومن دون أن يتعرّض لذكر الكافرين: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾. فهو تعالى اكتفى بقوله هنا (خالدينَ فيها) وحذف كلمة (أبداً) لعدم حاجته إليها ليستعملها كقرينةٍ تُساعدُ على التّفريق بين فترتي المكوثِ في الجنّةِ أو في النّار.

ونلاحظ أيضاً أنّ الله تعالى راح يقول في الآية (١٢) من سورة (الحديد) بحقّ المؤمنين ومن دون أن يتعرّضَ هنا لذكر الكافرين قال: ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. فهو جلّ شانه أتى بكلمتي (خالدينَ فيها) وحذف كلمة (أبداً) للسّببِ نفسه الّذي وضّحناهُ آنفاً عند تحدُّثنا عن الآية من سورة المجادلة.

كذلك فقد راح الله جلّ شأنه يقول في الآية الخامسة من سورة (الفتح): ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللهِ فَوْزاً عَظِيماً﴾. فهو تعالى قد أتى في هذه الآية بكلمتي (خالدينَ فيها) وحسب. ولم يُضِف كلمة (أبداً) بعدها. وللسّبب نفسه الّذي وضّحناهُ آنفاً عندما تحدّثنا عن الآية من سورة المجادلة.

كذلك قال الله جلّ شأنه في الآيتين (١٣-١٤) من سورة (الأحقاف): ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ، أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وهو تعالى قد أتى في هذه الآية الثّانية بكلمتي (خالدينَ فيها) ولم يُضِف عليها كلمة أبداً لماذا؟ للسّببِ نفسه الّذي

وضّحناهُ من قبل خلال حدّيثنا عن الآية من سورة المجادلة.

ولم يقتصر الله جلّ شأنه على الأخذ بهذا النّمط الإنشائيّ عند كلامه عن فريق المؤمنين مُنفردين. بل أخذَ به عندَ كلامه عن الكافرين مُنفردينَ أيضاً وبدون التّعرُّض هناك لذكر المؤمنين. ومن باب أنّ كلمة (خالد) إذا أوردها تعالى بحقّ الكافرين فتحتاج إلى قرينة لُغويّة لتحدّدَ المعنى المقصود منها. وإلاّ فإن وردت بغير قرينة فلا يكون المقصود منها البقاءُ أبدَ الآبدين. وذلك في الآية (٧٦) من سورة غافر الّتي قال تعالى فيها: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ، ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ، ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾. فالله جلّ شأنه قال هنا (خالدينَ فيها) و لم يورد قرينةً تدفعنا لنأخذَ بمعنى الدّوام أبدَ الآبدين.

والآية الخامسة من سورة (الرّعد) هي على شاكلة الآية سالفة الذّكر والتي قال تعالى فيها ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدونَ﴾ فالله جلّ شأنه قال هنا (هم فيها خالدون) و لم يورد قرينةً تُساعدنا لنأخذ لكلمة (خالدون) معنى الدّوام إلى أبد الآبدين.

وإنّ من الآيات الّتي تتّبعُ هذا النّمطَ الإنشائيَّ، الآية (٣٤) من سورة (ق) الّتي قال تعالى فيها: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ، هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ، مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ، ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾. فالله جلّ شأنه بدلاً من أن يقول (وأُزلفت الجنّة للمتقين ليخلدوا فيها) فقد أتبع ما قاله بعد آيتين وقال: (ذلك يومُ الخلود) فعوّضَ بذلك ما حذفهُ من

قبل.

وهناك ثلاث آيات وردت في سورة (الفرقان) تتبعُ أيضاً النّمطَ الإنشائيَّ سالف الذّكر. فقد قال الله جلّ شأنه في الآيتين (١٥-١٦) ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً، لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاؤُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُولاً﴾. كما قال في الآية (٧٦) من هذه السورة أيضاً بحقّ المؤمنين: ﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً، خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً﴾. فقد أورد جلّ شأنه في هذه الآيات بحقّ المؤمنين صيغة (خالدين فيها) وبمعنى الدّوام. بسبب عدم وجود عمليّة مُقارنة بين فريقي المؤمنين والكافرين. وإن لم ترد كلمة (أبداً) واستناداً إلى ما أفادتنا به الآيُ من جزء (عمّ).

وفي سورة الزّخرف فلقد تفنّنَ الله جلّ شأنه في الآيتين(٧٠-٧١) اللّتين قال فيهما ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ، يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. وفي الآيتين (٧٤-٧٥) اللتين قال فيهما ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ، لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾. فكلمة (تحبرون) وبمعنى تُسرّون شكّلت قرينةً أعانت على الأخذ لكلمة (خالدون) معنى الدّوام. وإنّ كلمة (مُبلسون) أي قانطون شكّلت قرينةً أيضاً أعانت على الأخذ لكلمة (خالدون) معنى عدم الدّوام. فالشيءُ الّذي يُسرُّ منه الإنسانُ لا يعودُ يتمنّى أن يُحرمَ منه. والشيءُ الّذي يبلسُ منه ولا يسُرُّهُ، يظلُّ هذا الإنسان ينتظرُ رحمةَ ربّه للخلاص منه. وتبعاً لقوله تعالى ﴿ورحمتي وسعت كلّ شيء﴾.

وعلى شاكلتها ففي سورة (يونس) وإن ورد الكلام في الآيتين (٢٧-٢٨)

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. حكايةٌ عن فئتي المؤمنين والكافرين فقد قرنَ الله جلَّ شأنه في كلتيهما كلمة (صاحب) بكلمتي (الجنّة) و (النّار) الواردتين بحقّ كلِّ فريق منهما من جهة، ومن جهة أخرى فقد قال تعالى بشأن أجور فئة المؤمنين (وزيادةٌ). وقال بشأن أجور فئة الكافرين (جزاءُ سيِّئة بمثلها) وليعود هذا التّفريق في الأجور بين أيدينا أداة تفريقٍ بين زمنيّ كلِّ فريقٍ منهما. فصاحبُ الجنّة يخلُدُ فيها أبداً زيادةً في الأجر، وصاحب النّار يخلدُ فيها مدَّةً طويلةً للموازنة ما بين عمله ومدَّة عقوبته. وانطلاقاً من دلالة كلمة (خالد) اللُّغويَّة. وهذا الأسلوبُ الإنشائيُّ فيه تفنُّنٌ إنشائيٌّ بما يتعلّقُ باستعمال كلمة (خالداً) في هذا المقام.

وعلى شاكلة سورة يونس. ففي سورة الأعراف الآية (٣٦) الّتي قال تعالى فيها: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. فإنَّ كلمة (أصحاب) تعيِّنُ مدَّةَ الخلود وهي المدَّةُ الطّويلةُ وليس الدّوام.

وفي الآية (٤٢) قوله تعالى فيها ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. فقد أورد تعالى كلمة (أصحاب الجنّة) لتُعيِّن معنى الخلود بأنَّهُ دائمٌ. واستناداً إلى مُعطياتِ جزء (عمّ).

وعلى شاكلة الآيتين السابقتين فالآيات من سورة هود (٢٣-١٠٧-١٠٨) مفتاحها كلمة (أصحاب). بحقّ كلِّ فريق.

وفي الآية (٥٢) من سورة (يونس) هذه فقد قال تعالى ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا

﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾. فقد سار تعالى في هذه الآية الكريمة على نفس النّمط الإنشائيّ الّذي سار عليه في الآيتين سالفتي الذّكر. فأتى بكلمتي (عذابَ الخُلد) من جهة. وبقوله (بما كنتم تكسبون) من جهة أُخرى. للرّبط ما بين مدّة عذاب الخلد وما بين الأجر.

فإن نحن تدبّرنا سورة (طه) نُلاحظُ أنّهُ تعالى تفنّنَ فيها إنشائيًّا أيضاً في المجال الّذي نبحثُه. ففي الآيتين (٧٦-٧٧) قال بحقّ أُجور المؤمنين ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى، جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى﴾. فقد ربطَ تعالى ما بين عمل الصّالحات وما بين قوله تعالى (خالدينَ فيها) ليفيدَ لكلمة (خالدين) معنى الدّوام.

أما في الآية (٧٥) الّتي وردت قبل هاتين الآيتين فقد قال تعالى فيها ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيى﴾. فالله جلّ شأنه أتى هنا بكلمة (جهنّم) الّتي يصيرُ إليها الكافر جزاء كفره. وليستنبطَ المدقّقُ من نفسه المدّةَ الّتي يستحقُّها هذا الكافر جزاء عمله وهو كافر. فلماذا أجرى تعالى ما ذكرناهُ؟ أجراهُ بسببِ أنّهُ تعالى قد شاء أن يوضّحَ لنا حقيقة العذاب الجهنّميّ من جهة. ومن جهة أخرى شاءَ تعالى أن يزوّدنا بمعلومة جديدة في هذا المجال وهي أنّ نار جهنّم الّتي يؤولُ إليها الكافرُ العاصي تتولّدُ أصلاً في حياته الدّنيا وليس في الآخرة. فالنّارُ الجهنّميّة هي نارٌ تنبعُ من صدور الجهنّميّينَ وليس من خارجها. وهي نيرانُ حسرات هذا الكافر على إنكاره وجود ربّه وحسراتهُ على عدم تعرّفه عليه في حياته الدّنيا وعلى ارتكابه المعصيةَ تلو المعصية بين يديه غير آبه بوجوده وبعظمته جلّ وعلا. وبسبب هذه الحسرات الّتي تغلي في صدره، وإن كان هذا الكافرُ العاصي ربّهُ في جهنّم حيّاً ولكنّه من شدّة تحسُّره على ما فاتهُ يحيا فيها وكأنّهُ غيرُ

حيّ. فهذا هو معنى قوله تعالى هنا ﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾.

وقد انتهجَ الله جلَّ شأنه نفس هذا النّهج والدّلالة في الآية (١٠١) من سورة (طه) نفسها حين قال بحقّ الكافرين ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا، خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾. فالخلودُ المُشارُ إليه هنا في هذه الآية الكريمة تطولُ مدّتُهُ وتقصُرُ على قدرِ هذا الحملِ من الأوزارِ الّتي ارتكبها في دنياه. وليسَ إلى أبد الآبدين.

وفي الآيات (٩٨-٩٩-١٠١) من سورة (الأنبياء) الّتي قال تعالى فيها ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ، لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ، لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾. قد نبّهت هذه الآيات إلى أنَّ جهنّم والتي تعني المكانَ الكبير العميق، هي مكانٌ يخلو من النّيران لولا وُلوجُ الكفّار وما يعبدون فيها والّذين يشكّلون (حطبَ جهنّم) وأنَّ هؤلاء سيبقون في جهنّم (خالدين) أي مدّةً طويلةً وليس إلى أبد الآبدين.

وبإمكان الباحث أن يقيس آيات السور التّالية على نفسِ النّمط الإنشائيّ آنف الذّكر. فكلمةُ الخلود وردت في كلِّ آيةٍ من آياتها بمعنى المدّة الطّويلة نسبةً إلى الكفّار. وبمعنى الدّوام إلى أبد الآبدين نسبةً إلى جماعات المؤمنين. وهذه السور هي: (سورة السجدة الآية ١٤) و(سورة فُصِّلَت الآية ٢٨) و(سورة محمّد الآية ١٥) و(سورة الحشر الآية ١٧) و(المؤمنون الآية ١١-١٠٣) و(سورة الأنعام الآية ١٢٨) و(سورة إبراهيم الآية ٢٣) و(النّحل الآية ٢٩) و(سورة لقمان الآية ٩) و(سورة الزّمر الآية ٧٢-٧٣) و(سورة آل عمران الآيات: ١٥-٨٨-١٠٧-١١٦-١٣٦-١٩٨) و(سورة المائدة الآيات ٨٠-٨٥-١١٩).

وأتناول الآيات من سورة (النّساء) الّتي تعرَّضت لذكرِ الجنّة والنّار. فالآيتان

(١٣-١٤) ورد في كلٍّ منهما صيغةُ (خالدين فيها) و (خالداً فيها). فالصّيغةُ الأولى تفيدُ الدّوام لتعلُّقها بالجنّة. والصّيغةُ الثّانيةُ تفيدُ المدّةَ الطّويلةَ لتعلُّقها بالنّار.

وفي الآيتين (٥٦-٥٧) أورد الله تعالى كلمة (أبداً) نسبةً إلى المؤمنين، لتشكّلَ قرينةً تُساعدنا على التّفريق بين زمني الجنّة والنّار.

وفي الآية (٩٣) الّتي يقول تعالى فيها ﴿ومَن يقتُل مؤمناً مُتعمداً فجزاؤهُ جهنّم خالداً فيها وغضبَ اللهُ عليهِ ولعنهُ وأعدّ لهُ عذاباً عظيماً﴾. فقد جعل سبحانهُ كلمة (جهنّم) قرينةً تُساعدُ على الأخذ لكلمتي (خالداً فيها) معنى المدّةَ الطّويلةَ وليس الدّوام. ومن باب أنّ الّذين سيدخلون جهنّم سيبقون فيها على قدر أثقالهم وأوزارِ أعمالهم.

وأمّا في الآيتين (١٢١-١٢٢) الّلتين قال تعالى فيهما ﴿أولئك مأواهم جهنّمُ ولا يجدونَ عنها مَحيصاً. والّذين آمنوا وعملوا الصّالحات سندخلُهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهارُ خالدينَ فيها أبداً وَعْدَ اللهِ حقّاً ومَن أصدقُ من اللهِ قيلاً﴾. فقد جعل الله تعالى كلمة (أبداً) قرينةَ تفريقٍ بين زمني كلّ فريق.

كذلك جعل الله تعالى كلمة (أبداً) في الآيات من سورة (الطّلاق) قرينةَ تفريقٍ بين زمني فريقي المؤمنين والكافرين. وهذا على شاكلة ما فعلهُ في الآيتين (٩-١٠) من سورة (التّغابن) فقد أورد فيهما أيضاً كلمة (أبداً) للتفريق بين زمني فريقي المؤمنين والكافرين.

وأمّا في الآيتين (١٦٨-١٦٩) اللتين قال تعالى فيهما ﴿إنّ الّذينَ كفروا وظلموا لم يكُنِ اللهُ ليغفرَ لهم ولا ليهديَهم طريقاً. إلاّ طريقَ جهنّمَ خالدينَ فيها أبداً وكانَ ذلكَ على اللهِ يسيراً﴾. فقد أورد الله جلّ شأنه كلمة (أبداً) في الآية الثّانية

منهما للتأكيد وكظرف زمان أي للتأكيد على أنَّ من يسيرُ على طريقِ الكفرِ والظّلم مصيرهُ إلى جهنّم يقيناً (كلّيات).

كذلك استعمل الله جلَّ شأنه كلمة (أبداً) للتأكيد وكظرف زمان. وذلك في الآية (٢٣) من سورة (الجنّ) الّتي قال تعالى فيها (إلاّ بلاغاً من الله ورسالاته ومن يَعصِ الله ورسولهُ فإنَّ لهُ نارَ جهنّم خالدينَ فيها أبداً). وبدليلِ قرينةِ كلمة (جهنّم) وكما سبق لنا أن ذكرناه.

كذلك استعمل الله تعالى كلمة (أبداً) للتأكيد وكظرف زمان. وذلك في الآية (٦٥) من سورة (الأحزاب) الّتي قال تعالى فيها ﴿خالدينَ فيها أبداً لا يجدونَ وليّاً ولا نصيراً﴾. فهو تعالى أكّدَ بهذه الكلمة (أبداً) ما أعدَّ للكافرين من (سعير) أي من نارٍ يحملونها في صدورهم وستُسعَّرُ بعد بعثهم يومَ القيامة وتدومُ مدّةً طويلة.

وقد سار الله تعالى في الآيات من سورة التّوبة على نمطِ المقارنة بين مصائر المؤمنين والكافرين وكان يأتي بكلمة (أبداً) كقرينةٍ للتّفريقِ بين مدّةِ المكوثِ في الجنّةِ أو في النّار. إلاّ في الآية (٨٨) فلم تكن هناك عمليّةُ مُقارنة لذلك اكتفى تعالى بصيغةِ (خالدين فيها).

والّذي تبقّى من السور، فسورةُ (البقرة) فقد وردت ثماني آياتٍ من آياتها تمتُّ إلى بحثنا هذا. ففي الآية (٢٤) قال ﴿فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتّقوا النّارَ التي وقودُها النّاسُ والحجارةُ أُعدّت للكافرين﴾. فهو تعالى قال فيها (فاتّقوا النّار) و لم يورد ما يشيرُ إلى زمنها.

وعلى حين أنّهُ تكلّمَ عن المؤمنين في الآية الّتي بعدها واكتفى بإيراد كلمة (خالدين) وحسب وبدلالة الدّوام بقرينةِ (أنَّ لهم جنّات). فالجنّة إذا دخلها المؤمنُ

لا يُخرجَ منها في زمنٍ من الأزمان لقوله تعالى بحقّها ﴿وما هم منها بمُخرَجين﴾.

وأمّا في الآية (٣٩) الّتي قال تعالى فيها ﴿والّذينَ كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئكَ أصحابُ النّارِ هم فيها خالدون﴾. فقد أتى سبحانه وتعالى بكلمة (أصحاب) كقرينة لتحديد معنى (خالدون) من أنّهُ قُصدَ به المدّةَ الطويلةَ الّتي لا تدوم. ومن بابِ أنّ أعمال الكافرين تكون محدودة الزّمان.

وعلى شاكلتها الآية (٨١) فكلمة (أصحاب) الواردة فيها عُدّت قرينةً حدّدت معنى كلمة (خالدون) أيضاً. كذلك حدّدت كلمة (خالدون) في الآية الّتي بعدها والمتعلّقةِ بفريق المؤمنين (أصحابُ الجنّة). كذلك في الآية (١٦٢) فإنّ صيغة (خالدين فيها) هو وصفٌ للّعنة الّتي تنزلُ بالكافرين وتعني أنّهُم لا يتخلّصوا منها ما داموا في عذاب الجحيم.

وأمّا في الآية (٢١٧) فإنّ كلمة (أصحاب) تعدُّ قرينةً لتحديد زمن كلمة (خالدون) وبمعنى المدّة الطويلة وعلى قدرِ الأعمال. وكمثلها الآية (٢٥٧) والآية (٢٧٥) أيضاً.

وفي ختامِ هذا البحثِ أقول: لا بدَّ أن لاحظ القارئ كيفَ أنّي خطوتُ في هذا البحثِ خطواتٍ انتهيتُ منها إلى أنّ عذابَ جهنّم وإن طالَ مدّةً طويلةً تتناسبُ وأعمال الكافر. ولتطهيرهِ من آثار النّيران الّتي تشتعلُ في صدره منذ الساعة الّتي يكفرُ فيها أو يعصي فيها ربّه. وعلى حين أنّ المؤمن الّذي يدخلُ الجنّة سيبقى فيها إلى أبد الآبدين. وبدليلِ قوله تعالى بحقّ المؤمنين ﴿وما هم منها بمُخرَجين﴾ بينما ورد بحقّ الكافرين ﴿وما هم بخارجينَ من النّار﴾. أي لا يملكون القدّرة على الخروج من النّار إلاّ إذا شملتهم رحمة الله جلّ وعلا. وقد أسقطتُ ما توصّلتُ إليه على جميع الآيات الواردة في جميع سور هذا القرآن العظيم الّذي اشتمل على أنماطِ

صياغات إنشائيّة عديدة وعلى تفنُّنٍ في البيان الإلهي. ممّا يعجزُ عن الإتيان به إنسان. وبكلمةٍ مختصرةٍ أقول: إنَّ المفهوم الموروث عن غالبيّة علماء ومفسّريّ أمّتنا الإسلامية بما يتعلّق بفهمهم وظنّهم أنَّ الإنسان الّذي يُدخله كفرهُ ومعصيتهُ في جهنّم سيبقى فيها إلى أبد الآبدين قد أضرَّ بالفكرِ الإسلاميّ وبمنزلته بين غير المسلمين. فما دمتُ قد أثبتُّ في هذا البحث عدم دوام عذاب جهنّم قرآنيّاً. وقد أكّدت هذه الحقيقة وجودُ أحاديثَ شريفةٍ يثبتُ منها مصداقيّتها. فلعلّي أكون قد أديّتُ خدمةً لهذا الدّين الحنيف وجاءت على وقتها أيضاً. لذلك أعودُ إلى إتمامِ تفسيرِ سورةِ هودٍ عليه السلام.

فبعد أن أنبأ الله جلّ شأنه عن المصير الّذي سيصير إليه حالُ فئة الّذين كذّبوا (محمّداً والشاهد منه) من أهل الكتاب، دنيويّاً وأُخرويّاً. وعن مصير الّذين آمنوا (بمحمّدٍ والشاهد منه) أيضاً دنيويّاً وأخرويّاً. نلاحظ بأنَّ الله تعالى راح يحذّرُ وذلك في الآية التّاسعة بعد المائة ويقول:

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾

وقد أتى مضمون هذا التحذير الإلهيّ في محلّه يقيناً. ومن باب أنّهُ قد ثبتَ للقارئ حتى الآن أنَّ الله تعالى ومنذ أن كان قد قال في الآية السابعة عشرة من هذه السورة ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. أقول إنّهُ منذ أن أتى تعالى بهذه الآية الكريمة الّتي كانت قد أنبأت عن بعثةِ (الشاهد منه) في المستقبل حين يتطلّبُ

حالُ الأمّةِ الإسلاميّةِ ذلك. فقد بات معلوماً أنّهُ دأبَ جلّ شأنه بعد الآية المذكورة يخبرنا عمّا سيكونُ عليه حالُ هؤلاء الأحزاب الّذين سيكذّبونهُ من أهل الكتاب خاصّة. وهم من سمّاهم محمّدٌ (ص) في أحاديثه الشريفة باسم (المسيح الدّجال). وهم الّذين أنبأت عن نهضتهمُ الأخيرةُ سورةُ الكهف أيضاً.

وعليه فإنّ هذا التّحذير الوارد هنا في هذه الآية الكريمة الّتي استهلّها جلّ شأنه بقوله: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ﴾. يكون مُوجّهاً إلى قارئ هذه السّورةِ خاصّة. ويُنبّهُ تعالى ذهنهُ إلى أنّهُ لا ينبغي أن تخدعه ظواهر أحوال ما يعبده هؤلاء الأحزاب. ولا يُنازعكَ شكٌّ في بطلان عقائدهم. فهم يتظاهرون بأنّهم علمانيّون لا يتعرّضونَ لأي دينٍ من الأديان وأنّ أصحابَ الأديانِ أحرارٌ فيما يعتقدونه. وأنّهم قد انتهجوا في حياتهم نهجاً علميّاً فيما يعتقدونه وفيما يفعلونه. وهذا المعنى من باب أنّ كلمة (مرية) تعني الشكّ والجدل. وقد اشتُقّت من قولك: ماراهُ بمعنى نازعهُ وجادلهُ وطعنَ في قوله (محيط المحيط). فالله تعالى يقولُ لهذا القارئ بشأن هؤلاء ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾. أي أنّهُم وإن كانوا يتظاهرون. بما يتظاهرون به إلا أنّهُم في حقيقة أمرهم لا يختلفون فيما يعبدونهُ عمّا كان يعبد آباؤهم في شيء. من حيث اعتقادهم بالثّالوثِ وبكفرهم بما جاء به الإسلامُ الحنيفُ. فلا يستندونَ فيما يعتقدونهُ إلى أساسٍ علميٍّ. بل ويكيدون للإسلام الحنيف على شاكلة ما كان يفعل آباؤهم أيضاً من قبل. فهذا هو ما يقتضيه التّسلسل الموضوعيّ لمضمون آيات هذه السورة وليس ما ذهب إليه ذهن المفسّرين القدماء وعلى رأسهم العلاّمة الرّازي رحمه الله والّذين فهموا من هذه الفقرة أنّ الله تعالى يتكلّمُ فيها عن مشركي قريش وأحوال عقائدهم. فالرّازي كتب يفسّرها ويقول: (اعلم أنّهُ تعالى لمّا شرحَ أقاصيصَ عبدةِ الأوثان. ثمّ أتبعهُ بأحوالِ الأشقياء وأحوال السعداء. شرحَ لرسول الله عليه الصّلاة والسلام أحوال

الكفّار من قومه، فقال ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ والمعنى فلا تكن، إلا أنّهُ حذف النون لكثرة الاستعمال، ولأنّ النّون إذا وقع على طرف الكلام لم يبقَ عند التّلفُّظ به إلاّ مجرّد الغُنّة. فلا جرمَ أسقطوه. والمعنى: فلا تكُ في شكٍّ من حالِ ما يعبدون في أنّهُا لا تضرّ ولا تنفع).

والحقيقةُ هو أنّ هناك من الناس من تُدهشُهم مُخترعاتُ هؤلاء الأحزاب ورقيُّهم العلميّ والتّقنيّ. وقوّتهم العسكريّةُ وما يملكونه من أسلحةٍ فتّاكةٍ. لذلك لا يتصوَّر أن يعتقدوا عقائد باطلة. وإلاّ فحالُهم يكون في تناقضٍ ظاهرٍ. وهذا التّصوّر الّذي يُخالطُ أذهان بعض النّاس هو الّذي دفع الله ليُوعّي هذه الشريحة من النّاس ويقول لهم بحقّ هؤلاء الأحزاب: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ﴾ أي أنّ رقيَّهم العلميّ لم يُفدهُم شيئاً فيما يعتقدونه. بمعنى أنّهم مُصابونَ بانفصامِ الشخصيَّة على هذا الصّعيد. فإلى هذا المعنى دلّتنا (ما) النافية للمضارع (يعبدون) والتي خلّصت بسببه إلى معنى الحال. ولم يعُد لها عملٌ مع انتفاءِ القرينة (محيط المحيط).

ولّما كان الإنسان سيتساءلُ هنا بعد الّذي أطلعتهُ عليه ويقول: فما دام هؤلاء الأحزابُ مُشركونَ ومُضلّونَ وقد ضجَّ عالمنا المعاصر من صخبهم ومحاولةِ هيمنتهم على العالم بأسره فلمَ لا يُعجّلُ الله تعالى بإهلاكهم وتخليصِ البشريَّةِ من شرورهم ويُثبتُ بذلك عظيم قُدُراته؟

وقد انطلق الله تعالى من افتراضِ وجودِ هذا التّساؤل والاعتراض الممكنُ أن تعترضهُ شريحةٌ من النّاس في هذا المقام، فراح تعالى يجيب عليه ويقول ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾.

فالعلاّمة الرّازي رحمه الله الّذي لم يفهم معاني آيات سياق هذا الكلام الإلهيّ. كتب يُخمّنُ ويقول: (**فيُحتملُ أن يكون المرادُ– إنّا لموفّوهم نصيبهم–**

أي ما يخصُّهم من العذاب. ويُحتملُ أن يكون المراد أنَّهم وإن كفروا وأعرضوا عن الحقّ فإنا موفّوهم نصيبهم من الرزق والخيرات الدّنيويّة. ويُحتملُ أيضاً أن يكون المراد إنا مُوفّوهم نصيبهم من إزالة العُذر وإزاحة العلَل وإظهار الدّلائل وإرسال الرّسل وإنزال الكتب. ويُحتملُ أيضاً أن يكونَ الكلُّ مُراداً).

فهذا ما خمّنهُ الرّازي رحمه الله. لكنّي أحاول تدبُّر هذه الفقرة ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ انطلاقاً من التّسلسل الموضوعي واستعانةً بأصول التّفسير. فأقول: إنّنا إذا دقّقنا فيها نلاحظ أنّ الله تعالى قد استهلّ هذه الفقرة بضمير المتكلم للجمع (إنّا). وليس بضمير المفرد للمتكلّم. ولا يفعلُ جلّ شأنه مثل هذا من دون حكمة جلّيلة القدر. والحقيقة هي أنّهُ تعالى عمدَ إلى هذه الصّيغة لكونه قد شاء اتّخاذَ قرارٍ من قراراته جلّ شأنه. فهذه إحدى ظواهر خصائص هذا الكتاب العظيم. أنّ الله جلّ شأنه يفعل في هذه المناسبات ما يفعله ملوكُ ورؤساءُ دول الأرض عندما يتّخذون قراراتٍ حاسمة. فهم يستهلّونَ قرارهم بقولهم (إنّا) أو (نحنُ) ملكُ الدّولة الفلانيّة.. نقرّرُ كذا.. وأنّه تعالى ومن خلال استعماله لصيغة (إنّا) في مستهلّ هذه الفقرة فقد نبّه أذهاننا إلى أنّهُ قرّرَ أن يجيب على الاعتراض الّذي أوردناه. خصوصاً وأنّه تعالى قد أدخل على فعل (مُوفّوهم) اللاّم المُزحلَقة الّتي تزيد في التّأكيد الّذي أفادت به صيغة (إنّا). أمّا فعل (مُوفّوهم) فقد اشتقّهُ من قولكَ: وفى فلانٌ بعهده بمعنى أنّهُ أتّمهُ وحافظَ عليه. وضدّ غدرَ (محيط المحيط). ثمّ إنّ كلمة (نصيب) تعني الحظ، والحصّة من الشيء.

واستناداً إلى معاني الألفاظ الواردة في هذه الفقرة يصبح معنى قوله تعالى ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ أنّهُ تعالى قرّرَ بما يتعلّقُ بالعذاب الّذي سيُنزلهُ بهؤلاء الأحزاب. وهو العذاب الّذي توعّدهم به من قبل من خلال قوله ﴿. . ذَٰلِكَ

﴿يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾ أنَّهُ جلَّ شأنه سيوفّي هؤلاء الأحزاب في الوقت المناسب حصَّتهم من العذاب غير مَنقوص. على اعتبار (غير مَنقوص) حال مؤكِّد. وعلى شاكلةِ ما وفّى الأمم الّتي شابهتهم من قبل نصيبهم من العذاب غير منقوص.

وكأنّه تعالى وقد شاءَ الإجابة على السؤال الآنف الذّكر قد قال بألفاظٍ أخرى: لا ينبغي لك أيُّها الإنسانُ الّذي ستُعاصرُ نهضةَ هؤلاء الأحزاب وتُشاهد ما سيتحقّقُ على أيديهم من رقيٍّ علميٍّ وتقنيٍّ، لا ينبغي أن تُدهشَ ولا تعود تتصوَّر إمكانيَّةَ هلاكهم وزوال كيانهم الّذي عادَ يخافهُ أكثرُ من في الأرض. بل إنَّ من واجبك أن تتيقّن أن حالهم سيصيرُ أخيراً إلى ما صارَ إليه حالُ قومِ نوحٍ وغيرها من الأقوام الّتي ذكرنا قصصها من قبل.

ولم يكتفِ الله جلَّ شأنه بإجابته سالفة الذّكر. بل شاء أن يُطلعنا عن السّببِ الّذي دعاهُ لتأجيل إنزال عذابه بهؤلاء الأحزاب من قبل. وقد خصَّ بيان تعليله المُشارُ إليه بآيةٍ كاملةٍ وراح يقول فيها وهو يوجِّهُ أنظارنا إلى الماضي وإلى زمن بعثة موسى عليه السلام، وذلك من خلال الآية العاشرة بعد المائة، وقال:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾

والملاحظ هو أنّهُ جلَّ شأنه قد استهلَّ هذه الآية الكريمة بواو العطف وذلك ليربط مضمون هذه الآية الكريمة بما أجاب به من قبل. كذلك أتى بلام الابتداء فأدخلها على حرف التّحقيق (قد) فأصبح (ولقد). وقال في الفقرة الأولى (ولقد آتينا موسى الكتاب) وليشير حرف (ولقد) إلى ابتدائه جلَّ شأنهُ بالكلام عن بعثة موسى عليه السلام لارتباط بعثة موسى عليه السلام بموضوع هلاك هؤلاء

الأحزاب. والله سبحانه حين أتى في هذه الفقرة الأولى بفعل (آتينا) فلإشعارنا بأنّهُ يقصدُ من التّذكير بالنّبيّ موسى عليه السلام (الكتابَ) الّذي أعطاه إيّاه خاصَّة. حيث تقول: آتيتُ فلاناً شيئاً بمعنى أنّك أعطيتهُ إيّاه. وأعطيتُهُ أي جازيتهُ وكافأته (محيط المحيط). وما دام الله تعالى قد أورد كلمة (كتاب) مُعرَّفةً بالألف واللاّم الّتي تشير إلى معهودٍ ذهنيٍّ. فما هو هذا المعهودُ الذهنيُّ الّذي تضمَّنهُ كتاب موسى ويتعلّقُ بهلاك هؤلاء الأحزاب؟

وللإجابة على هذا التساؤل فلا نتذكَّرُ إلاّ نبوءة سفر التّثنية (١٨/١٥-٢٢) تلك النّبوءة الواردة في كتاب موسى والمتعلّقة ببعثة محمَّد (ص) وكيف أنّ الله تعالى ألزمَ في نصِّ تلك النّبوءة أُمّةَ موسى بالإيمان بالنّبيّ المُنبأ عنه فيها وحين يأتي زمان بعثته عليه السلام. وأنّ الّذي لا يؤمنُ سيتعرَّضُ للعقوبة إن هو أنكر هذا النّبيّ وكذّبهُ ولم يؤمن به.

لذلك أضطر بسبب ما تذكّرته إلى الرجوع إلى سفر التّثنية المُشار إليه ولأنقل للقارئ نصَّ تلك النّبوءة وكما أوردها كاتبُ السفر المذكور. فقد ورد: (يُقيمُ لك الرّبُّ إلهكَ نبيّاً مثلي من وسطكَ، من اخوتك، فلهُ تسمعون، وفقاً لكُلِّ ما سألتهُ الرّبُّ إلهكَ في حُوريب في يوم الاجتماع قائلاً: لن أُواصلَ سماعَ صوتِ الرّبِّ إلهي ولن أرى بعد الآن هذه النّار العظيمة، لئلاّ أموت. فقال لي الرّبّ: قد أحسنوا فيما قالوا. سأُقيمُ لهم نبيّاً من وسط إخوتهم مثلكَ، وأجعلُ كلامي في فمه، فيُخاطبُهم بكلِّ ما آمرهُ به. وأيُّ رجلٍ لم يسمع كلامي الّذي يتكلّمُ به باسمي، فإني أحاسبهُ عليه. ولكن أيُّ نبيٍّ اعتدَّ بنفسه فقال باسمي قولاً لم آمرهُ أن يقوله، أو تكلّم باسم آلهة أُخرى، فليقتلْ ذلك النّبيّ. فإن قُلتَ في قلبك: كيف نعرفُ القولَ الّذي لم يقُلهُ الرّبّ؟ فإن تكلّمَ النّبيُّ باسم الرّبِّ ولم يتمَّ كلامُه ولم يحدُثْ، فذلك الكلامُ لم يتكلّم به الرّبّ، بل للاعتداد بنفسه تكلّمَ به النّبيُّ، فلا تَهبه).

فمضمونُ هذه النُّبوءة لم ينطبق منذُ قيلت وحتى اللّحظة على إنسانٍ ادّعى

النّبوّة التّشريعيّة إلاّ على محمّد بن عبد الله العربي الأمّيّ الّذي أُنزل عليه هذا القرآنُ العظيم. وإنّ الملاحظات الّتي أُلفتُ نظرَ القارئ إليها هي الآتية:

أولاً- إنّ قولَ ربِّ موسى أنّهُ سيقيمُ لبني إسرائيل (من وسطِ اخوتهم) فقد أشار به إلى نسلِ بني إسماعيل الّذين هم العرب كما هو معروف.

ثانياً- وإنّ قول الرّبّ بحقّ النّبيّ المُنبأ عنه أنّهُ (مثلُك) فالخطابُ فيه مُوجّهاً إلى موسى، وموسى هو نبيٌّ مُشرّعٌ. وهذا يعني بألفاظٍ أخرى أنّ النّبيّ المُنبأ عنه سيكونُ نبيّاً مُشرّعاً.

ثالثاً- وإنّ قول الرّبّ (**وأيُّ رجلٍ لم يسمع كلامي الّذي يتكلّم به باسمي، فإني أحاسبهُ عليه**) يعني بألفاظٍ أخرى أنّ كلّ فردٍ من أتباع موسى يُعاصرُ بعثة النّبيّ المُشرّعِ المذكور وما بعده، ولا يؤمنُ به فيُحاسبهُ الله تعالى على تكذيبه إيّاه وعدم الإيمان به وبما أنزلهُ الله عليه.

رابعاً- وإنّ قولَ الرّبّ في هذه النّبوءة والمتعلّق بالنّبيّ الّذي يكون كاذباً في ادّعائه النّبوّة (**فليُقتلْ ذلك النّبيّ**) إذا سلّمنا به بهذه الألفاظ الواردة فيه. وراجعنا تاريخ وسيرة النّبيّ العربيّ محمّد (ص) يتبيّن لنا أنّ يهوديّةً حاولت تسميمهُ (ص) ولم تُفلح في ذلك. بل ولم تُفلح جميع محاولات قتله الّتي دبّرها له أعداؤه ليقتلوه. وقد مات محمّدٌ (ص) موتاً طبيعيّاً كما هو ثابتٌ تاريخيّاً. فمن خلال قول الرّبّ (**فليُقتلْ ذلك النّبيّ**) يثبتُ أيضاً أن محمّداً خاتم النّبيّين (ص) كان صادقاً في نبوّته يقيناً.

وبعد أن أطلعتُ القارئ على نبوءة سفر التّثنية المذكور. وعلى الملاحظات الّتي لفتُّ نظره إليها والمتعلّقة بنصّ تلك النّبوءة العظيمة الّتي تنبّأ بها موسى عليه السلام بما يتعلّقُ بمصير أمّته، من بعد بعثةِ محمّدٍ (ص). أعود إلى الكلام عن الآية الّتي وصلنا إليها والتي جرّتنا إلى ما ذكرناه.

فقد توصّلنا إلى أنّهُ لم يكن المقصودُ من قوله تعالى في الفقرة الأولى من هذه الآية وهو ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ**﴾ أقول لم يكن موسى عليه السلام هو

المقصود بها. بل كان المقصود كتابه الّذي تضمّن تلك النّبوءة المتعلّقة ببعثة محمّد (ص) والتي صرّحتْ بمسؤوليّة كلّ فردٍ من أفرادِ أمّته إن هو قام بتكذيب هذا الرسول المشرّع العظيم. ثم أنّهُ ما دام تكذيبهم محمّداً (ص) ما جاء على مستوى أفرادٍ بعينهم. بل ورد على مستوى أمّة موسى بشقّيها اليهوديّ والمسيحيّ. فالمسؤوليّة عادت عامّةً وشاملةً وبالتالي فالعذابُ الّذي سيترلُ بها سيكونُ عاماً وشاملاً أيضاً.

ونلاحظ أنّ الله جلّ شأنه ما إن فرغ من ذلك إلاّ وأتى بفاء الاستئناف ليستأنف ويقول (فاختُلفَ فيه) قال تعالى هذا وقد حذف مضاف (فيه) فلم يوضّح الشيء الّذي اختُلفَ فيه ولا من اختلفوا فيه. ومعلومٌ أنّ الحذفَ البلاغيّ يوسّعُ الدّلالات. فالله جلّ شأنه إذ أجرى هذا الحذف هنا، فقد أراد أن يُشيرَ في وقتٍ واحدٍ إلى أنّ اليهود أنفُسهم اختلفوا في دلالة هذه النّبوءة وفي الإنسان الّذي انطبقت عليه. واختلف اليهودُ من جهةٍ والمسيحيّينَ من جهةٍ أخرى حول مفهوم هذه النّبوءة وفي شخصٍ من تنطبقُ عليه أيضاً. واختلف هذان الفريقان مع الأفراد من اليهود ومن المسيحيّين ممّن سلّموا بانطباق هذه النّبوءة على شخصيّة محمّد العربيّ (ص) وآمنوا به وبما أنزلهُ الله تعالى عليه وأصبحوا مسلمين خلال الأربعةَ عشر قرناً الماضية. وعلى هذه الصّورة فقد تمكّنَ الله جلّ شأنه أن يُفيدنا بجميع هذه المعلومات من خلال هذا الحذفِ البلاغيّ الّذي أحدثه من خلال حذفه مضاف الجارّ والمجرور (فيه). وهذه الاختلافات من الكثرةِ بمكان وممّا لا حاجة بنا هنا لإيرادها والتّفصيل في أمرها. فقد باتت من الحقائق المعلومة لكلّ فردٍ من أفراد أهل الكتاب.

ومن ثمّ أتى الله جلّ شأنه بحرف (لولا) وهو حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ وأضاف يقول: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾. فما المقصود من (كلمةٌ) الواردة في هذه الفقرة؟ ولِمَ أوردها تعالى مُنوّنةً على آخرها؟ علماً بأنّ التّنوين

يُقصدُ به التّعظيم.

والحقيقةُ هي أنّهُم يُسمّونَ اللّفظة الواحدة المُفهَمةَ (كلمة) كما يُسمّونَ القصّةَ كلمة والقصيدة (كلمة) (معجم المقاييس). وورَدَ في (محيط المحيط) قوله: الكلام مفردهُ كلمة وما كان مُكتفياً بنفسه. وقال في المصباح: الكلامُ في الحقيقة هو المعنى القائم بالنّفس. قال تعالى ﴿يقولونَ في أنفسهم﴾ وآيده الآمدي وجماعةً فقالوا: ليس المراد من إطلاق لفظ الكلام إلاّ المعنى القائم بالنّفس إذا أمرَ غيره أو نهاهُ أو أخبرهُ أو استخبرَ منه.

وقد استعمل القرآنُ المجيدُ لفظة (كلمة) بمعاني عديدة. ومن هذه المعاني الّتي قُصدت في هذا المقام، إطلاق الله تعالى لفظة (كلمة) على ما جال في نفسه تعالى وقدَّرهُ في أمرٍ من الأمور. وما دام قد أتى بها مُنوَّنةً على آخرها، فلتعظيمِ هذا الأمر وتعظيم التّقدير الإلهيّ المترتّب عليه. ومن الأمثلة على هذا الاستعمال في القرآن الكريم، قوله تعالى في الآية (٣٩) من سورة آل عمران: ﴿إنَّ اللهَ يُبشِّرُكَ بيحيى مُصدِّقاً بكلمةٍ من الله﴾. وقوله تعالى في الآية (٤٥) منها: ﴿إنَّ اللهَ يُبشِّرُكِ بكلمةٍ منه اسمُهُ المسيح عيسى ابن مريم﴾. فقد استُعمِلَت هاتان اللّفظتان (كلمة) بمعنى ما قدَّر الله تعالى في نفسه تحقيقه.

وعليه فإنَّ الله عزَّ وجلَّ حين قال في الآية الّتي نحن بصددها ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾. فقد قصدَ جلَّ شأنه أنّهُ كان من المُفترَض أن يحسمَ الله تعالى ما اختلف فيه هؤلاء، يهوداً كانوا أو مسيحيّين في تلك الفترةِ الزّمنية الّتي اختلفوا فيها بشأن نبوءة موسى عليه السلام تلك المتعلّقة ببعثة محمّد (ص). ولكنَّ الله تعالى أجّلَ عمليّة الحسمِ تلك وقدّرها لتحدُثَ فيما بعد.

وقد أتى تعالى بواو الإضافة وبحرف التّأكيد (إنَّ) وقال في الفقرة الأخيرة

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾. وقد كان المقصود من ضمير (منه) الإشارة إلى الإنباء عن هلاكِ هؤلاء الأحزاب الوارد في سياق هذا الكلام الإلهيّ. كما أنّ اللاّم من (لفي) هي لامُ الابتداء لكونها وردت بعد (إنّ) من جهة. ودخلت على الحرف (في). ثمّ إنّ كلمة (شكٌّ) فهي خلاف اليقين، وما تردد بين نقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر. والشكُّ سببُ الرّيبِ كما ورد في الكلّيات (محيط المحيط).

وعليه فإنّ الله تعالى يؤكّدُ من خلال قوله ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ بأنّ هؤلاء الأحزاب لم يستفيدوا من التّأجيل الّذي اقتضتهُ (كلمةُ) ربّك. فلم يُقنعهم انطباقُ جميع العلامات الّتي وردت في نبوءةِ سفر التّثنية على هذا النّبيّ العربيّ المشرّع. حتى عاد المُدقّقُ في أحوال هؤلاء يرتابُ في تصرّفاتهم وفي مواقفهم الّتي يختارونها. ولا يعودُ يجدُ مبرّراً واحداً يعذُرُهم فيما يفعلونه ويقفونه. وعلى هذه الصّورة فقد كشف الله جلّ شأنه عن عظيم حلمه ورأفته بهم أيضاً. ويكون تعالى قد ألقى عليهم حُجّتهُ و لم يعد لهم أيّ عُذرٍ يعتذرون به أمامه. نتساءلُ: هل فسّرَ العلاّمة الرّازي هذه الفقرة على حسب ما فهمناهُ منها؟ الحقيقةُ هي أنّهُ رحمه الله نظر إلى جميع آيات هذه السورة على أنّها تُخاطبُ قريشاً. و لم ينتبه إلى جميع ما انتبهنا إليه من دلالاتٍ لذلك راحَ رحمهُ الله يُفسّرُ قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ فقال: ﴿إنّ كفّارَ قومكَ لفي شكٍّ من هذا القرآن مُريبٍ﴾. فسّرها بهذا التّفسير في وقتٍ لا يوجدُ في الآية أيّ ذكرٍ لقريشٍ، ولا في سياق الكلام الإلهيّ. وإنّ الله تعالى يتكلّمُ عن أهل الكتاب مُذ أنبأ عن ظهور (شاهد منه). وعن المصير الّذي سيؤولونَ إليه في نهايةِ المطاف بسببِ تكذيبهم محمّداً (ص) وما أُنزلَ عليه.

فلمّا فرغَ الله جلّ شأنه من بيانه للحقيقة الآنفة الذّكر، راحَ يقول في الآية الإحدى عشرة بعد المائة:

﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

وقد وردت هذه الآيةُ الكريمةُ مُصاغةً صياغةً بلاغيَّةً مُعجزةً وبحيث أخطأ كلُّ من أخذ منها ما تبادرَ لذهنه من معنىً. ولقد كتب العلاّمة الرّازي رحمه الله يُفسِّرها ويقول: (المعنى أنَّ من عُجِّلت عقوبتهُ ومن أُخِّرَت ومن صدَّقَ الرّسلَ ومن كذَّب، فحالُهم سواءٌ في أنَّهُ تعالى يُوفِّيهم جزاءَ أعمالهم في الآخرة. فجمعت الآية الوعدَ والوعيد. فإنَّ توفيةَ جزاء الطّاعات وعدٌ عظيمٌ. وتوفيةَ جزاء المعاصي وعيدٌ عظيم. وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ توكيدُ الوعدِ والوعيد. فإنَّهُ لمّا كان عالماً بجميع المعلومات، كانَ عالماً بمقادير الطّاعات والمعاصي، فكان عالماً بالقدر اللائق بكلِّ عملٍ من الجزاء. فحينئذٍ لا يضيعُ شيءٌ من الحقوق والأجزية وذلك نهايةُ البيان). فهذا هو ما تبادر لذهن الرّازي رحمه الله من هذه الآية الكريمة. وسنتدبّرها لنرى كم أخطأ في نظرنا وكم أصاب.

فنتناول الفقرة الأولى من الآية والتي قال الله تعالى فيها ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ فلقد أتى جلَّ شأنه بالواو ليُضيف على ما ذكره في الآية السابقة ما يُكملُ ما ورد فيها. كذلك أتى تعالى بحرف التّأكيد (إنَّ) ليؤكّد ما سيضيفه من قول. فأدخل ما أوردهُ على كلمة (كُلاًّ) فأوردها غير مُضافة إلى ظاهر. أي أنَّ ضميرها محذوفٌ وتقديرهُ (**وإنَّ كلاًّ سواءٌ منهم اليهودُ وسواءٌ منهم المسيحيّين**). وهذا الحذفُ القرآنيُّ توجدُ في القرآن المجيد أمثلةٌ كثيرةٌ على شاكلته. وعلى سبيل المثال فإنَّ الله تعالى قال في الآية (٣٩) من سورة الفرقان: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ وتقديرُ هذا الحذف هنا: وكلُّهم ضربنا لهُ الأمثال (محيط المحيط).

أما حرف (لَمّا) فقد حيَّرَ اللُّغويين. بسببِ أنّهُا تردُ على ثلاثةِ أوجُه: الوجهُ الأوّلُ أن تختصَّ بدخولها على الفعل المضارع لتنفيه ولتجزمَهُ ولتقلبَ معناهُ إلى ماضي. فإن نحن تفحّصناها في هذه الفقرة فقوله تعالى (ليوفّينّهم) فقد لاحظنا أنّها لم تجزم الفعل المضارع ولم تقلب معناهُ ماضياً.

والوجهُ الثّاني: أنّ (لمّا) إذا دخلت على الفعل الماضي تحتاجُ إلى جُملَتينِ بعدها وُجدتْ ثانيتهما لوجودِ أولاهما. كقولكَ لمّا جاءني أكرمته. فإن نحن تفحّصناها في هذه الفقرة فلم تدخل على فعل ماضي وما اقتضتْ جُملَتين. والوجهُ الثّالثُ: أن تردَ (لمّا) كحرف استثناء وتُشبهُ (إلاّ) وعلى شاكلةِ قوله تعالى في مقامٍ آخر ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ وبمعنى إلاّ عليها حافظ. وهذا الوجهُ الثّالثُ لا ينطبقُ أيضاً على حرف (لمّا) في هذه الآية الكريمة.

وعلى هذه الصّورة ولهذا السّببِ قلت آنفاً بأنّ حرف (لمّا) حيَّرَ اللُّغويين. وهو الأمرُ الّذي دفع (المبرد) وهو عالمٌ مشهورٌ ليقول بأنّ استعمال (لمّا) في هذه الآية الكريمة لا يتّفقُ واستعمالاتِ العربِ إيّاها. وعلى شاكلته فالنّسائيّ قال: ما استطعت فهم استعمال (لمّا) في هذه الآية الكريمة. أما (ابنُ جنّي) وهو مؤلّفُ معجم (مقاييس اللّغة) فقد عدَّ (لمّا) هنا زائدة. وعلى شاكلةِ ما تردُ زائدةً أحياناً. لكنّه رحمه الله لم يُدلِ بدليلٍ يُبرهنُ من خلاله على مِصداقيّةِ رأيه المذكور. وللنّحويّ المشهور (سيبويه) قولهُ: أعجبُ الكلمات، كلمة (لمّا) إن دخلت على الماضي تكونُ ظرفاً. وإن دخلت على المضارع تكونُ حرفاً. وإن دخلت لا على الماضي ولا على المضارع تكونُ بمعنى (إلاّ) أي أداةُ استثناء. وإنّ لابن الحاجب رأيهُ في أنّ (لمّا) عندما تردُ جازمةً ما بعدها وتقلبهُ ماضياً يكون بعدها فعلُها محذوفاً. وأنّ حذفهُ جائزٌ في اللُّغةِ العربيّة. وقد أورد شعراً يؤكّدُ به صدقَ رأيه وهو قولُ شاعر:

فَجِئتُ قُبورهم بَدءً ولَمّا   فناديتُ القبورَ فلَمْ يُجبنهْ

أيّ أنّ فعل (لمّا) في هذا البيت محذوفٌ وتقديرهُ (لمّا يُهمَلوا) ويصبحُ معنى هذا البيت من الشعر: ناديتُ كُبراءنا على قبورهم مُبادراً، و لم أكُن قد أهمَلتُ زيارتَهم فهم لَمّا يُهملوا. ويواجهنا سؤالٌ يطرحُ نفسه بعد الأخذ برأي ابن الحاجب سالف الذِّكر، وهو: ما هي القاعدة الّتي إذا استندنا إليها تُساعدُنا على تحديدِ فعل حرف (لمّا) المحذوف؟ وأجيب على هذا السؤال وأقول: القاعدةُ المنطقيَّةُ هو أن نُحكِّمَ سياق الكلام الواردة فيه وسياقُه كيلا يختلَ التَّسلسلُ الموضوعيُّ للآيات الكريمة. فإن نحن أخذنا بهذه القاعدة في هذا المقام من قوله تعالى ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ نصلُ إلى أن فعل (لمّا) المحذوف هو (يوفّي). ذلك أنّ الله تعالى كان قد حذّرَ في الآيتين السابقتين كلَّ من تُدهشُهُ ما حدث على أيدي هؤلاء الأحزاب من مُتغيِّرات لئلاّ يظنَّ أنَّ إمكانيَّةَ اختفاءهم من على مسرح الأحداثِ العالميَّة هو من قبيل المستحيلات. وموضِّحاً في الوقت نفسه لهذا المؤمن بأنَّهُ لولا كلمةٌ سبقت من ربِّك لقُضيَ بينهم وأُهلكوا منذُ ابتعادهم عن التّوحيد الّذي جاءت به شريعة موسى عليه السلام. وأنّ رحمة الله تعالى بهم اقتضت تأجيل ذلك العذاب وإعطاءهم فُرصةً لعلّهم يستفيدوا منها ويعودوا إلى رُشدهم ويؤمنوا بما أنبأت به نبوءةُ سفر التّثنية. فهذه المعاني والدّلالات تؤكّدُ لنا أنَّ فعل (لمّا) المحذوف هو فعل (يُوفّي). ويصبحُ معنى قوله جلّ شأنه (وإنّ كلاًّ لمّا) يعني إنّ كُلَّ فريقٍ من هؤلاء الأحزاب لمّا يوفّهم ربُّهم جزاء ما كسبوا، (ليوفّيَنَّهُم ربُّكَ أعمالهم). ومن مُنطلقِ أنّ اللاّم في (ليوفّيَنَّهُم) هي لامُ الابتداء كما سبق لي أن بينت من قبل. ويعود معنى قوله تعالى ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أن اصبر أيُّها المؤمن لأنّ ربَّك سيُحاسبهم على ما اقترفوهُ يقيناً بعد الآن. وراح الله تعالى يؤكّدُ هذه الحقيقة فأتى بما يؤكّدُ هذا المعنى وأنهى هذه الآية الكريمة بقوله في الفقرة

الأخيرة: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾. أي أمهلهم وهو لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالهم.

فالحرف (إنّ) للتأكيد. والباء من قوله تعالى (بما) استُعمل بمعنى الاستعانة. والحرف (ما) هنا اسم موصول بمعنى الّذي. وكلمة (خبير) اشتُقّت من خبرة ليعرف حقيقته. وتعني الإنسانَ ذو الخبرةِ التّامّةِ والعارفِ بكُنهِ الأشياء وحقيقتها (محيط المحيط).

وإنّها لصياغةٌ بلاغيّةٌ مُعجزةٌ قد صيغت بها هذه الآيات الكريمة والتي تبادر منها لأذهان المفسّرين القدماء غير معانيها الحقيقيّة. ومضى على إنزالها أربعة عشر قرناً من الزّمان حتى آنَ أوان فهمها على حقيقتها وبمساعدةِ المُتغيِّرات الحادثة في العالم.

ولنُلاحظ كيف أنّ الله تعالى ما إن فرغ من بيان ذلك كُلّه، إلا وراح يخاطب هذا الشاهد الّذي بعثهُ الله تعالى ليُصدّقَ نبوّةَ محمّدٍ (ص) وما أُنزِل عليه من جانب ربِّه من كتاب. راح تعالى يُخاطبهُ ويقول في الآية الثانية عشرة بعد المائة:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

لكنّ العلاّمة الرّازي رحمه الله، والّذي اختلفنا مع آرائه منذ ورود الكلام عن (الشاهد منه) وظلّ يظُنُّ أنّ الله تعالى يتكلّمُ عن قوم محمّدٍ (ص)، فقد كتب يُفسِّرُ هذه الآية الكريمة ويقول (فثبتَ أنّ معرفة الصّراطِ المستقيم في غاية الصّعوبة. لا جرمَ قال ابنُ عبّاس رضي الله عنه: ما نزلَت على رسولِ الله في جميع القرآن آيةٌ أشدُّ ولا أشقُّ عليه من هذه الآية. ولهذا قال عليه الصّلاة والسلام (شيّبتني هودٌ وأخواتُها). وعن بعضهم قال: رأيتُ النّبيَّ صلّى الله عليه وسلّم في النّوم، فقلت له: رويَ عنكَ أنّك قُلت شيّبتني هودٌ وأخواتُها. فقال: نعم. فقلتُ: وبأيّةِ آية؟ فقال: (فاستقم كما أُمِرت).

فلو أنّنا حصرنا قول رسول الله (ص): (شيّبتني هودٌ وأخواتُها) في آية معيّنة

هي (فاستقم كما أُمِرت)، واعتبرنا أنَّ الخطاب في هذه الآية الكريمة بأنه موجَّهٌ إليه (ص) خاصَّةً، وأنَّ معناها: أن التزم يا محمّد بالصّراطِ المستقيم، مع خلُوِّ هذه الآية الكريمة من كلمة (الصّراط المستقيم). فإنَّ قوله تعالى (فاستقم) لا يعني أن التزم بالصراطِ المستقيم وعلى حسب ما فسَّره الرّازي رحمه الله. وهذا الخطأ الّذي صدرَ عنهُ هنا سببُهُ أنّه رحمه الله لم ينتبه إلى ما كشفهُ الله تعالى علينا من معاني ودلالات هذه السورة الكريمة.

ألا إنَّ سياق هذه الآية الكريمة يفرضُ علينا أن نفهم من قوله جلَّ شأنه (فاستقم) أنّهُ راح الآن وبعد كلّ ما بيّنهُ سابقاً، أقول راح تعالى يُخاطبُ (الشاهد منه) نفسه ومن مُنطلقِ كونه محور الكلام السابق الّذي تضمّنه التّسلسلُ الموضوعيُّ للآيات الكريمة.

فما معنى هذه الفقرة الأولى ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾؟ الفاء للاستئناف. أمّا فعل (استقم) فهو فعل أمر اشتُقَّ من قولكَ: استقامَ الأمر بمعنى اعتدل (محيط المحيط). فالطلبُ هو طلبُ الاعتدال. لذلك أتى تعالى بعد ذلك بكاف المبادرة وقال: ﴿كَمَا أُمِرْتَ﴾. ومعلومٌ أنَّ مثل هذا الطّلب لا يُطالبُ به نبيٌّ مثل محمّد (ص) الّذي كان في حقيقة أمره أسوةً حسنةً للمؤمنين. أما إذا كان الخطاب مُوجَّهاً إلى (الشاهد منه) فأمرٌ مقبولٌ، وعلى اعتبار أنّهُ مبعوثٌ من بين المسلمين الّذين ابتعدوا كثيراً عن أسوةِ سيِّد المُرسلين.

ثمّ إنَّ قول الله تعالى في هذه الفقرة ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ يؤكّدُ ما ذهبنا إليه من رأي، بسبب أنَّ كلَّ من يُبايعُ (الشاهد منه) سيبايعهُ بعد الاستغفار والتّوبة والرجوع إلى الله عزَّ وجلَّ. وعلى هذه الصّورةِ يكون الله تعالى، ومن خلال قوله في الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ يكون مُخاطباً هذا الّذي بعثه الله جلَّ شأنه لإثبات صدق محمّدٍ وما أنزلهُ الله عليه

من كتاب ووفق نبوءةِ موسى بحقّه. ولم يُخاطبهُ وحده بل خاطبهُ وخاطب في هذه الفقرة كُلَّ فردٍ آمن وانضمَّ إلى جماعته. فالله جلَّ شأنه يُخاطبهُم جميعهم أن يتبرّءوا من حالتي الإفراط والتّفريط الّتي كان قد أُصيب بها المسلمون بعد مرور قرابة أربعة عشر قرناً من الزّمان على بعثةِ سيِّدِ المُرسلين (ص).

فكاف الخطاب من قوله تعالى (كما أُمرت) لم تُستعمل بمعنى التّشبيه ولكن بمعنى المبادرة وعلى حسب ما ذكرته سابقاً. والدّليلُ على صحّة هذا المعنى هو أنّهُ تعالى أدخل هذه الكاف على الحرف (ما). وقد أورد تعالى أيضاً فعل (أُمرتَ) مبنيًّا للمجهول ليدفع هؤلاء جميعهم ليسيروا على طريق العرفان الإلهيِّ فيتعرّفوا على الله الّذي هداهم وعلى أنّهُ الآمرُ والنّاهي في هذا الكون. وبهذا الأسلوبِ من الصّياغةِ البلاغيّةِ المُعجزةِ يكون الله تعالى قد أعطى هؤلاء المؤمنين ملامح الاعتدال المطلوب. فهذا هو في رأيي معنى قوله تعالى ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾. خصوصاً وأنّ الله تعالى لم يقل في هذه الفقرة (ومن آمن معك).

ذلك أنّ كلمة (تاب) تعني رجعَ إلى (محيط المحيط). وبهذا المعنى يجوز إطلاقُها على الإنسان الّذي يُجدِّدُ إيمانه ويهجرُ نهجَ سلوكه اليوميّ السابق الّذي لم يكن مُتّصفاً بصفة الاعتدال. ثمّ إنّ (من) الواردة ضمن قوله تعالى (ومن تاب معك) هي اسم موصول وفي محلّ رفع على الابتداء وعلى حدِّ قول الواحديّ الّذي قال ونقلاً عما تضمّنهُ تفسيرُ الرّازي رحمه الله. (قال الواحدي: مَن في محلّ الرّفع من وُجوه، الأوّل: أن يكون عطفاً على الضّمير المُستتر في قوله فاستقم. وأغنى الوصلُ بالجارّ عن تأكيده بضمير المُتّصل في صحّة العطف. أي فاستقم أنتَ وهم. والوجهُ الثّاني: أن يكون عطفاً على الضّميرِ في (أُمِرت). والوجهُ الثّالث: أن يكون ابتداءً على تقدير: ومَن تابَ معكَ فليستقم).

ألا إنّ التّعليل الّذي علّلهُ الواحديُّ رحمه الله صحيحٌ في نظري ودقيق. وإنّ الوجهَ الثّالث الّذي أتى على ذكره هو الأصحُّ من بين الوجوهِ الثّلاثة المذكورة.

والدّليلُ أنّهُ تعالى قد قصدَ بالحرف (مَن) كلّ إنسان جدَّدَ إيمانه بمحمّد (ص) وبايع (الشاهد منه). وهذا هو الّذي دفع إلى ضرورة أن يُكرّر الّذي يبايعهُ جملةَ (استغفرُ اللهَ ربيّ من كُلّ ذنبٍ وأتوبُ إليه) ثلاث مرّات. وذلك تعهُّداً منه أن يلتزمَ بالاعتدالِ وحسبما ورد في هذه الآية الكريمة.

و لم يبلُغ رأي الرّازي رحمه الله ما ذكرناه. بل كتب يقول: (**إنّ الكافرَ والفاسق يجبُ عليهما الرّجوعُ عن الكفر والفسوق. في تلك الحالة لا يصحُّ اشتغالُهما بالاستقامة. وأمّا التّائبُ عن الكفرِ والفسوق فإنّهُ يصحُّ منه الاشتغال بالاستقامة على مناهجِ دينِ الله تعالى والبقاء على طريق عُبوديّةِ الله تعالى**). وكأنّهُ رحمه الله لم ينتبه إلى المعنى الحقيقي لكلمة التّوبة.

ونلاحظُ أنّ الله جلّ شأنه أتى في الفقرة الثّانية من هذه الآية الكريمة بواو العطف ليعطف مَوعظةً ثانيةً وأدخلها على (لا) النّاهية وقال (ولا تطغَوا) أي أنّهُ أتى بفعل اشتقّهُ من قولكَ: إنّ فلاناً قد طغى وتعني أنّهُ جاوز قَدرهُ والحدَّ المرسوم له وأسرفَ في المعصيةِ والظّلم (محيط المحيط).

وعليه فما معنى قوله تعالى (ولا تطغوا)؟ إلاّ أن يكون الله عزّ وجلّ قد راح يعظُ هذه الجماعة المؤمنة الجديدة الّتي أمرها بالاعتدال أن تظلّ حذرةً من أن يأتي عليها يومٌ تُشابهُ فيه هؤلاء الطّغاة المقرّرُ إهلاكهم. وألاّ يأتي عليهم يومٌ يُسرفوا فيه في الظّلمِ والمعاصي.

ولقد حذّرَ الله هذه الجماعة المؤمنة الجديدة من أن يغفلوا عن ربّهم وذلك في الفقرة الأخيرة الّتي قال تعالى فيها ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾. أي أنّه جلّ شأنه قد أتى بالحرف (إنّ) للتّأكيد. كما أنّهُ أتى بالباء الظّرفيّة من قوله (بما) بمعنى (في). وأتى كذلك بكلمة (بصير) وخلاف كلمة ضرير ومُشتقّةٌ من قولكَ: بَصُرَ به وبمعنى علمَ به ورآهُ. فالبصيرُ هو صاحبُ البصيرة (محيط المحيط).

فالملاحظ هو أنّ الله تعالى لم يأتِ في هذه الفقرة الأُخيرة من هذه الآية بصفة

(خبير) على شاكلة ما فعله في الآية السابقة الّتي أكّدَ فيها بأنّهُ سيُعاقبُ هؤلاء الطّغاة من الأحزاب الّذين كذّبوا نبيَّهُ محمَّداً (ص). بل لاحظناهُ تعالى قد أتى بصفته (بصيرٌ) صاحبُ البصيرة والعالِمُ بأحوالهم ويراهم أيضاً فلا يغيبُ ما يفعلونه عن نظرهِ عزَّ وجلَّ. وإن في هذه الكلمة تحذيرٌ غيرُ مباشر لهم من أنّه تعالى إذا لاحظ مخالفتهم لأوامرهِ المذكورة فإنّهُ سيستبدلُهم بآخرين يقيناً. وكما فعل مع من قبلهم من الأمم الماضية. علماً بأنّ الله تعالى كان قد حذف مُضاف (ولا تطغوا) ليوسّعَ دلالاتِ هذا الفعل ولِتشملَ جميع ما يدخل في مفهوم الطّغيان من صفاتٍ رديئة.

وعليه يصبح معنى قوله تعالى ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أنّ الله تعالى يعظُ الأفراد الّذين يؤمنون بالشاهد منه بالاعتدال وعدم الوقوع فيما وقع فيه هؤلاء الأحزاب الّذين استحقّوا العقاب والإهلاك. و لم يكن الخطاب في هذه الآية الكريمة موجّهاً إلى محمّدٍ (ص) وصحابتهُ الكرام.

فلمّا فرغَ الله تعالى من هذا الخطاب وما حمل من مواعظ. فيُلاحظ أنّ الله جلّ شأنه راح يُحذّرهم تحذيراً من نوعٍ آخر. فقد خاطبهم من جديدٍ، وذلك في الآية الثالثة عشرة بعد المائة وقال:

﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

نتساءلُ عن مضمون هذا الكلام الإلهيّ المُصاغ صياغةً بلاغيّةً مُعجزةً، وعن علاقته بتسلسُل الآيات الموضوعي؟ وقبل الإجابة على هذا التساؤل أرى أن أنقلَ للقارئ ما فسّرَ به العلاّمة الرّازي رحمه الله هذه الآية الكريمة، فهو كتب يقول:

(الرّكونُ هو السكونُ إلى الشيء والميلُ إليه بالمحبّة. ونقيضهُ النّفور... قالَ المحقّقون: الرّكون المنهيُّ عنه هو الرّضا بما عليه الظّلمةُ من الظّلم. وتحسينُ تلك الطّريقة وتزيينُها عندهم وعند غيرهم. ومُشاركتهُم في شيءٍ من تلك الأبواب. فأمّا مُداخلتُهم لدفع ضررٍ أو اجتلابِ منفعةٍ عاجلةٍ فغيرُ داخلٍ في الرّكون. ومعنى قوله (فتمسّكم النّار) أي أنّكم إن ركنتُم إليهم. فهذه عاقبةُ الرّكون. ثمَّ قال (وما لكم من دون الله من أولياء) أي ليس لكم أولياء يُخلّصونكم من عذاب الله. ثمّ قال (ثمّ لا تُنصرون) والمراد لا تجدون من ينصُركم من تلك الواقعة. واعلم أنّ الله تعالى حكمَ بأنّ من ركنَ إلى الظّلمة لا بدَّ وأن تمسّهُ النّار. وإذا كان كذلك فكيف يكونُ حالُ الظّالم نفسه؟).

أي أنّ الرّازي رحمه الله قد تبادر لذهنه من مضمون هذه الآية الكريمة أنّ الله عزَّ وجلَّ قد نهى صحابة رسول الله (ص) عن الرّضا بظلمة الظّالمين. فلم يسمح لهم بالاختلاط بهم إلاّ لدفع ضررٍ أو لاجتلاب منفعةٍ، كيلا تمسّهُمُ النّار الّتي أعدّت للظّالمين. لكنّهُ رحمه الله لم يوضّح لنا الرّابطة ما بين هذه الآية الكريمة وما بين سياقها. لذلك كان علينا أن نتدبّرها بأصولِ تدبُّرها لنرى مدى صحّةِ هذا التّفسير الّذي تبادر لذهن حضرتهُ.

وأتناول بالتّدبُّر الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة الّتي قال الله تعالى فيها ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ فالواو عاطفة وتفيد معنى الحال. أمّا (لا) فهي لا النّاهية. وأمّا فعل (تركنوا) فاشتُقَّ من قولنا: ركنَ إليه يركُنُ، وركنَ يركَنُ رُكوناً فمعناه مالَ إليه وسكن. وأمّا ما حكاهُ (أبو عمرو) بأنّ هذا الفعل اشتُقَّ من ركَنَ يركَنُ بالفتح فيهما. فهو جمعٌ بين اللُّغتين (أي بين لُغة ركَنَ يركُنُ ولغة ركنَ يركَنُ وهو جمعٌ بين الماضي من الأوّل والمضارع من الثّاني. أو هو شاذٌّ لعدمِ وجود حرف الحلق فيه) (محيط المحيط). وعليه يُعتبرُ وزن ركَنَ يركَنُ بالفتح وحسب قول (أبو عمرو) من شواذّ الاشتقاقِ وخلافاً للقاعدة العامّة. وأنّهُ نادرُ الورودِ في اللُّغة

العربيّة. علماً بأنّ أحرف الحلقِ هي العين والهاء والحاء والخاء والغين والدّال. أمّا حرف الجرّ (إلى) الوارد في هذه الفقرة فالملاحظُ أنّهُ استُعملَ بمعنى (عند) ومُرادفاً لحرف الّلام وليفيد التّوكيد. وأمّا كلمة (ظلموا) ففعل ماضي وتعني الّذين تجاوزوا حدودهم وأسرفوا في المعاصي (محيط المحيط) وما دام الله تعالى قد حذف اسم الّذين ظلموا فكأنّهُ تعالى دفعنا لنعرفهم من سياق هذه الآية الكريمة. فهم أولئك الأحزابُ من أهلِ الكتابِ الّذين كذّبوا محمّداً ويكيدون للإسلام. فهم طوائفُ الأحزابُ الّذين تجاوزوا حدودهم وأسرفوا في المعاصي ونسوا التّوحيد الّذي بُعثَ به نبيُّهم موسى عليه السلام. وعليه فإنّ التّحذير الوارد في هذه الآية الكريمة لم يُوجّههُ الله تعالى إلى صحابة رسول الله (ص). بل هو مُوجّهٌ إلى جماعةِ (الشاهد منه) الّذين يمثّلون طلائعَ البعثة الإسلاميّةِ الثّانية. فالله تعالى يُحذّرُ هؤلاء المؤمنين من أن يحذوا حذْوَ أولئك الظّالمين، وألاّ يميلوا إلى تطبيعِ مجتمعهم الإيمانيّ بما يتّصفُ به مجتمع أعداء الإسلام.

والمفكّرُ يُلفتُ نظرهُ هذا التّحذير الّذي دلّ عليه فعل الأمر (ولا تركنوا). ويتساءلُ عن الصّفات المقصود منه أن يبتعدوا عنها كيلا تتطبّع أخلاقهم بها وكيلا يتّصفُ بها مجتمعهم الإيمانيُّ الجديد. خاصّةً وأنّ حرف الجرّ (إلى) الوارد في هذه الفقرة الأولى قد استُعمل بمعنى (عند) وللتّأكيد.

وأرى أنّ الحكمة الّتي من أجلها قد حذفَ الله جلّ شأنه ما حذّرَ منه وأتى بحرف الجرّ (إلى) بمعنى (عند). أنّ الحكمة من ذلك أنّهُ جلّ شأنه قد كان في علمه الغيبيّ أنّ عدداً كبيراً من هؤلاء المؤمنين الجدد يضطرُّهم أبناءُ وطنهم للهجرةِ إلى بلاد الظّالمين المُشار إليهم ليستوطنوا عندهم وأخطرُ ما في هذا الأمر أن يتطبّع أبناء هؤلاءِ بصفاتِ وأخلاقِ أبناء هؤلاء الظّالمين. وخاصّةً تلك الصّفات الّتي شابهوا بها صفات الأقوامِ الّذين استعرض تاريخهم من قبل. وذلك لارتباط تلك الصّفات بهلاكِ تلك الأقوام. فإن لم يستطع هؤلاء المؤمنون حفظَ أبنائهم من تلك الآثار فلا

يعودون يستحقّون أن ينجّيهم الله تعالى مّما هو آتٍ من عذابٍ سيحلُّ بالمكذّبين، خصوصاً وأنّ الله جلّ شأنه لم يتعرّض حتى الآن لذكر وسيلة نجاة المؤمنين من العذاب القادم.

وقد أتى الله جلّ شأنه في الفقرة الثّانية من هذه الآية الكريمة وقال ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أي أنّهُ تعالى راحَ يوضّح الدّاعي الّذي دعاهُ إلى تحذير المؤمنين لئلاّ يركنوا إلى الظّالمين. فهو قد أتى في هذه الفقرة بفعل (فتمسّكم). والمسُّ في اللّغة عامُّ الدّلالة ويشملُ مسَّ جميع أعضاء الإنسان. ثمّ إنّ كلمة (النّار) وردت مُعرّفة بالألف واللام الدّالّتين على معهودٍ ذهنيّ. وللإشارة إلى قوله تعالى بحقّ المكذّبين من قبل ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾.

ومن ثمّ أتى الله تعالى بواو العطف وقال في الفقرة الثّالثة ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ كما أتى باسم الموصول (ما) وبمعنى ليس. كذلك أتى باللاّم الجارّة الّتي تفيدُ الاختصاص والدّاخلة على ضمير المخاطب والمقصودُ به فئةَ المؤمنين (بالشاهد منه).

وليصبحُ معنى قوله تعالى ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ أنّ الله تعالى وضّحَ ما يترتّبُ على مُخالطةِ هؤلاء المؤمنين أولئك المكذّبين بعد الهجرة إلى ديارهم والاتّصاف بصفاتهم من نتائجَ هامّةٍ وهي أنّهُم سيفقدون ولايةَ ربّهم إيّاهم ولا يعودون يستحقّونَ النّجاةَ من العذاب الّذي سيحلُّ بالمكذّبين.

ومن ثمّ قال الله تعالى في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾. فالحرف (ثمّ) يستعملُ للتّرتيب زمانيّاً أو مكانيّاً والمقصودُ به هنا زمانياً. وفعل (لا تُنصرون) اشتُقّ من نصرهُ بمعنى أعانهُ وضدّ خذله. وقد حذف جلّ شأنه ناحيةَ النُّصرةِ المقصودة بسببِ أنّها معلومةٌ من قصصِ الأقوام الّتي سبق أن ذكرها

الله تعالى من قبل كدليلٍ تاريخيٍّ يثبتُ منه المصيرُ الّذي ينتظرُ المكذّبين من جهةٍ وفريق المؤمنين من جهةٍ أُخرى.

وليصبح معنى قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أنّهُ إذا وقع العذاب المُنبأُ عنه، وكنتم قد تركتم أبناءكم يتأثرونَ بصفاتِ هؤلاء المكذّبين، ودعوتم ربَّكم يومئذٍ أن يعينكم للنّجاة من هول العذاب. فلن يستجيب لكم ولن يُعينكم، بل تُخذلون ولا تجدون من يدفعُ عنكمُ الضُّرَّ الّذي سيلحقُ بكم في تلك الأوقات.

ولم يكتفِ الله تعالى بهذه الموعظة الّتي وجّهها إلى (الشاهد منه) وجماعته المؤمنة وما رافقها من تحذير. بل وأضاف جلَّ شأنه على ذلك ينصحُ في الآية الرّابعة عشرة بعد المائة ويقول:

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾

وإلى القارئ ما تبادر لذهن العلاّمة الرّازي رحمه الله من هذه الآية الكريمة. فهو كتب يقول: (اعلم أنّهُ تعالى لمّا أمرهُ بالاستقامة. أردفهُ بالأمرِ بالصّلاة. وذلك يدلُّ على أن أعظم العبادات بعد الإيمان بالله هو الصّلاة. وفي الآية مسائل. المسألةُ الأولى: رأيتُ في بعض كتب القاضي أبي بكر الباقلاّني أنّ الخوارج تمسّكوا بهذه الآية في إثبات أنَّ الواجب ليس إلاّ الفجر والعشاء من وَجهين: الوجهُ الأوّلُ أنّهُما واقعان على طرَفَي النّهار. فوجبَ أن يكون هذا القدرُ كافياً. فإن قيل قوله (وزُلَفاً من اللّيل) يوجبُ صلوات أخرى. قُلنا: لا نُسلّمُ فإنّ طرفي النّهار موصوفان بكونهما زُلَفاً من اللّيل. فإنّ ما لا يكونُ نهاراً يكونُ ليلاً. غايةُ ما في الباب أنّ هذا يقتضي عطف الصّفةِ على الموصوف. إلا أنّ ذلك كثيرٌ في القرآن والشعر. والوجهُ الثّاني أنّهُ تعالى قال: (إنّ الحسناتِ يُذهبنَ السّيئات) وهذا يُشعرُ بأنّ من صلّى طرفي

النّهار كان إقامتهما كفّارةً لكلّ ذنبٍ سواهما. فبتقديرِ أن يُقال إنّ سائرَ الصّلوات واجبةٌ إلاّ أنّ إقامتهما يجبُ أن تكونَ كفّارة لترك سائر الصّلوات. واعلم أنّ هذا القول باطلٌ بإجماع الأمّة، فلا يُلتفَتُ إليه.

المسألةُ الثّانية: كثُرت المذاهب في تفسيرِ طرَفَي النّهار. والأقربُ أنّ الصّلاة الّتي تُقامُ في طرَفَي النّهار، وهي الفجر والعصر. وذلك لأنّ أحد طرفي النّهار طلوعُ الشّمس. والطّرفُ الثّاني منه غروب الشّمس. فالطّرفُ الأوّلُ هو صلاةُ الفجر. والطّرفُ الثّاني لا يجوز أن يكونَ صلاة المغرب لأنّها داخلةٌ تحت قوله ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾. فوجبَ حملُ الطّرف الثّاني على صلاة العصر. إذا عرفتَ هذا كانت الآية دليلاً على قول أبي حنيفة رحمه الله في أنّ التّنويرَ بالفجرِ أفضل. وفي أنّ تأخيرَ العصر أفضل. وذلك لأنّ ظاهرَ هذه الآية يدلُّ على وُجوبِ إقامة الصّلاة في طرَفَي النّهار. وبيّنا أنّ طرَفَي النّهار هما الزّمانُ الأوّلُ لِطلوع الشّمس. والزّمانُ الثّاني لغروبها. وأجمعت الأمّةُ على أنّ إقامة الصّلاة في ذلك الوقت من غير ضرورة غير مشروعة. فقد تعذّرَ العمل بظاهر هذه الآية. (فوجبَ حملُهُ على المجاز. وهو أن يكون المراد أقم الصّلاة في الوقت الّذي يقربُ من طرَفَي النّهار. لأنّ ما يقرب من الشيء، يجوزُ أن يُطلقَ عليه اسمه. وإذا كان كذلك فكلُّ وقتٍ كان أقربُ إلى طلوعِ الشّمس وإلى غروبها كان أقربُ إلى ظاهرِ اللّفظ. وإقامةُ صلاة الفجر عند التّنوير أقربُ إلى وقت الطّلوع من إقامتها عند التّغليس. وكذلك إقامةُ صلاة العصر عندما يصيرُ ظلُّ كلّ شيءٍ مثلَه. والمجازُ كلما كان أقربُ إلى الحقيقة، كان حَمْلُ اللّفظِ عليه أولى. فثبتَ أنّ ظاهر هذه الآية يُقوي قولَ أبي حنيفة في هاتين المسألتين).

فإن نحن تفحّصنا ما كتبه الرّازي رحمه الله في تفسيرِ هذه الآية الكريمة يتبيّن لنا الآتي:

أوّلاً– يتبيَّنُ لنا أنَّهُ تبادر لذهنه رحمه الله من كلمة (الصّلاة) الواردة فيها، الإشارة إلى الصّلاة المفروضة الّتي تبتدئ بالتّكبير وتنتهي بالتّسليم. وهذا هو السّببُ في أنَّهُ وغيرهُ من المفسّرين والخوارج خاصّة لم يستقرّوا على حالٍ من الأحوال في تفسيرهم لهذه الآية الكريمة.

فلو صحَّ ما ذهبوا إليه لكان ينبغي أن يكون نصُّ الفقرة الأولى (أقم صلاةَ طرَفَي النّهار) ولكنَّ الله جلَّ شأنه قال ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ وقد أتى بكلمة (الصّلاة) معرَّفةً بالألف واللّام. وأوردها تعالى كاسمٍ وُضِعَ موضع المصدر. ثمّ إنَّ الصّلاة في اللّغة تعني الدّعاء والاستغفار في الأصل ولا تكونُ إلاّ في الخير (محيط المحيط) وما دام هذا الأمر (أقم) معناه أدِم. والمداومة على الصّلاة قد ورد في سياق تحذير هذه الجماعة المؤمنة (بالشاهد منه) من الوقوع والتّأثُّر بصفات المكذّبين في بلاد المهجر. فهذا يشكّلُ قرينةً دالّةً في رأيي على أنَّ المقصود بتعريف كلمة الصّلاة هنا الإشارة إلى ما قدمه كلُّ نبيٍّ ذكرتهُ هذه السورة من علاجٍ روحيٍّ وهو قولهم (أن استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه). فالله تعالى يُطالبُ الشاهد منه وكلَّ فردٍ من أفراد جماعته المؤمنة أن يداوموا على الدّعاء والاستغفار صباحَ مساء راجينَ من ربّهم أن يصونهم من آثارِ محيطِ مُجتمعهم الجديد وليحفظهم ممّا هو آتٍ من عذابٍ على هؤلاء المكذّبين. وهذا هو ما يقتضيه أمرُ الله تعالى في أوّل آية وهو قوله (فاستقم). وقوله تعالى هنا في هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ هذه الفقرة الأولى. ذلك أنَّ الإكثارَ من الدّعاء في تلك الأحوال والاستغفار طرَفَي النّهار حسناتٌ يُذهبنَ ما يصدرُ عن هؤلاء من سيّئات.

ثانياً– ويتبيَّنُ لنا من تفسير الرّازي رحمه الله أنَّهُ أخذ لقوله تعالى ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ لِطَرفِ النّهارِ الأوّل معنى صلاة الفجر. ولِطَرفِ آخرِ النّهار صلاة العصر.

أقولُ: إنّ كلمة (طرف) تعني حَرفُ الشيء ونهايتُه. وإنّ كلمة (النّهار) تعني الضّياء ما بين طلوعِ الفجر إلى غروب الشّمس. أي ضياء الشّمس من وقت طلوعها إلى وقت غروبها (محيط المحيط) واستناداً إلى هذه المعاني، فلا علاقة لصلاة الفجر ولا لصلاة العصر بقوله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾. خصوصاً وأنّ الله تعالى قال في مقامٍ آخر ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ فهي أي الصّلاة فريضةٌ بمعنى كتابٌ موقوتٌ مُحدّدٌ بأوقاتٍ معيّنة.

ثالثاً- كما يتبيّن لنا أنّ الرّازي رحمه الله قد أخذ وحسب تصريحه برأي أبي حنيفة رحمه الله الّذي كان قد أوصى بأنّ التّنويرَ بالفجرِ أفضل. وفي أنّ تأخير صلاة العصر أفضلُ أيضاً.

أقولُ: ما دمتُ قد أثبتُ خطأ ما تبادر لذهن الرّازي رحمه الله من قوله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ فهذا الأمرُ يجُرُّنا لتخطئة الرأي الّذي نسبه إلى أبي حنيفة رحمه الله من أنّهُ أوصى بأن التّنويرَ بالفجرِ أفضل وفي أنّ تأخير صلاة العصر أفضل. فالصلوات تُقامُ على أوقاتها نزولاً عند أمر الله تعالى الّذي أمر وقال: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾.

وخلاصة القول، فأنا أفهم من قوله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ أنّهُ جلّ شأنه أتى هنا بواو العطف ولتقيدَ معنى الحال بسبب أنّهُ أدخلها على فعل (أقم) وليوصي (الشاهد منه) وأتباعه المؤمنين أن يُكثروا من الدّعاءِ والاستغفار صباحَ مساء وخارجَ أوقاتِ الصّلوات المفروضة أيضاً ليجذبوا بذلك عطف ربّهم ورأفتهُ إليهم ولتشملهم رحمةُ ربّهم عزّ وجلّ في أيّامِ غُربتهم ولتُكتبَ لهم النّجاةُ من العذاب المقدّرِ في نهاية المطاف. ومن باب أنّ الله تعالى يقول في مقامٍ آخر ﴿وما يعبأُ

بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾.

وبعد أن فرغنا من تدبُّر قوله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ نلاحظ أنَّ الله تعالى أتى بعد ذلك بواو العطف وأضاف يقول ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾. وقد تبادر لذهن العلاّمة الرّازي رحمه الله من هذه الفقرة ما أورده في تفسيره وقال: (وأمّا قوله وزلفاً من الليل) فهو يقتضي الأمر بإقامة الصّلاة في ثلاث زُلَفٍ من اللّيل. لأنَّ أقلَ الجمع ثلاثة. وللمغرب والعشاء وقتان. فيجبُ الحكمُ بوجوبِ الوتر حتى يحصل زُلَفٌ ثلاثة يجب إيقاع الصّلاة فيها. وإذا ثبتَ وُجوب الوتر في حقِّ النّبيّ (ص) وجبَ في حقِّ غيره. لقوله تعالى (واتّبعوه). ونظيرُ هذه الآية بعينها قوله سبحانه وتعالى ﴿وسبّح بحمدِ ربّكَ قبلَ طلوعِ الشمس وقبلَ غروبها﴾. فالّذي هو قبل طلوعِ الشّمس هو صلاة الفجر. والّذي هو قبل غروبها هو صلاة العصر).

أقولُ: لا حاجة لنا لمناقشة رأيه هذا بسببِ أنّهُ رحمه الله ما يزالُ ينظرُ في كلامه هذا على أنّ المقصود بكلمة (الصّلاة) هو الصّلاة المفروضة على المؤمنين ولا تعني الدّعاء والاستغفار.

لذلك نتدبَّرُ قوله تعالى ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ من مُنطلقِ ما فهمناه. فما معنى (زُلَفاً)؟ لقد ورد في (محيط المحيط): الزُّلَفُ ساعاتُ اللّيلِ الآخذة من النّهار، كما في فصل الشّتاء. وساعات النّهار الآخذةُ من اللّيل كما في أيّام الصّيف. فالزُّلفُ هي طائفةٌ من اللّيل. أمّا كلمة (اللّيل) فوقتُ اللّيل من مغرب الشّمس إلى طلوع الفجر الصّادق. أو إلى طلوع الشّمس وهو خلافُ النّهار(محيط المحيط).

أقول: ما دام الله تعالى قد أتى بواو العطف في مُستهلِّ هذه الفقرة الثّانية. فمعنى ذلك أنّهُ جلَّ شانه قد راح يُكملُ ويضيفُ على موعظته السابقة شيئاً آخر وهو أنَّ من واجب هذه الفئة المؤمنة أن تُخصّص أوقاتاً في طوائفِ من اللّيل لتدعو

أيضاً بنفس الدّعاء والاستغفار ولنفس الغاية أيضاً. وبذلك تُكملُ هذه الموعظةُ الموعظةَ السابقة وتسدُّ فراغ اليوم كلّه.

وننتقلُ بعدها لنقوم بتدبُّرِ الفقرة الثّالثة الّتي قال تعالى فيها ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾. ولنستمع إلى ما تبادر لذهن الرّازي رحمه الله منها أيضاً. قال: (**المسألة الأولى: في تفسير الحسنات قولان. الأوّل قال ابنُ عبّاس المعنى أنّ الصّلوات الخمس كفّاراتٌ لسائر الذّنوب، بشرط الاجتناب عن الكبائر. والقولُ الثّاني: روي عن مجاهد أنّ الحسنات هي قول العبد سبحانَ الله والحمدُ لله ولا إله إلا الله والله أكبر. المسألةُ الثّانية: احتجَّ من قال إنّ المعصية لا تضُرُّ مع الإيمان بهذه الآية. وذلك لأنّ الإيمان أشرفُ الحسنات وأجلُّها وأفضلُها. ودلّت الآية على أنّ الحسنات يُذهبن السّيئات. فالإيمانُ الّذي هو أعلى الحسنات درجةً يُذهبُ الكُفرَ الّذي هو أعلى درجةً في العصيان. فلأن يقوى على المعصية الّتي هي أقلُّ السّيئات درجةً كان أولى. فإن لم يُفِد إزالة العقاب بالكلّيّة، فلا أقلّ من أن يُفيدَ إزالة العذاب الدّائم المؤبّد**).

فالّذي نلاحظه هو أنّ الرّازي رحمه الله اكتفى هنا بتفسير هذه الفقرة من الآية الكريمة بما وصلهُ من روايات وحسب. و لم يعمد إلى فهمها بأصول تفسيرها ولا ربطها بسياقها أيضاً. لذلك نحاول تدبُّرَ هذه الفقرة بنفس النّهج الّذي سرنا عليه لنُحيطَ علماً بدلالات قوله تعالى ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾.

فالله تعالى استهلَّ هذه الفقرة بحرف التأكيد (إنَّ). وأتبعهُ بكلمة (الحسنات) وهي جمعُ (حسنة). والمذكّرُ منها كلمة (حسن) ومعناهُ الجميل. وما حَسُنَ من كلّ شيء. ونقيضهُ كلمةُ القبيح. ثمّ إنّ الحسنة ضدُّ السّيئة وتُجمعُ على حسنات. أمّا كلمة (السّيئات) فمفردها سيّئة. وتعني الخطيئة. وتستعملُ نقيض الحسنة. وأمّا فعل (يُذهبنَ) فمشتقٌّ من قولكَ: أنّهُ ذهبَ به وتعني أزالهُ فصحبهُ ومضى معه. أمّا إذا

قلتَ: أذهبهُ. فالمعنى أزالهُ وجعلهُ ذاهباً(محيط المحيط).

ويصبح معنى هذه الفقرة الثّالثة ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ أنّ الله جلّ شأنه قد أتى بموعظةٍ ثالثةٍ يحثُّ فيها هذه الفئة المؤمنة على عمل كلّ ما هو حسنٌ في نظر تعاليم القرآن المجيد وهم في بلاد المهجر وبما يتناسبُ مع بيئتهم الجديدة وأن يبتعدوا عن كلّ ما يعدُّ من قبيلِ الذّنب والخطيئة أيضاً في نظر ربّهم عزّ وجلّ. فلا تجرُّهم المُغرياتُ إلى أفعالٍ تؤدي بهم لتمسّهم النّار.

من هذه نُدركُ أنّ الله تعالى ينبّهُ أذهان هؤلاء المؤمنين إلى أنّهُ لا يكفي أن يُكثروا من الأدعية والاستغفار وحسب بل وأن يقوموا بالأعمال الصّالحة. ذلك أن لا قيمة للإيمان إذا هو لم يقترن بالعمل الصّالح. فهذا ما دأبَ الله جلّ شأنه يُنبّهُ أذهاننا إليه مرّةً بعد أخرى ويقول ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. وقد شبّه الله تعالى الإيمان دوماً بالأرض البور العطشى إن لم تقترن بالأعمال الصّالحات والتي شبّهها بالأنهار الّتي تجري من تحت تلك الأرض الإيمانيّة البور.

وكأنّه جلّ شأنه قد قال بألفاظٍ أخرى كونوا أيُّها المؤمنون المغتربون أسوةً حسنةً وصالحةً في مجتمعكم الجديد لتُصبحوا مؤثّرينَ وغير متأثّرين بما فيه من فسادٍ وسيّئات. فلعلّ الله تعالى يهدي على أيديكم من يشاءُ من عباده هناك.

وقد أنْهى الله جلّ شأنه هذه الآية الكريمة وبعد هذه المواعظ الكثيرة الّتي وعظَ بها الفئة المؤمنة الجديدة وقال ﴿ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾. فما معنى ذلك؟

فالملاحظُ هو أنّ الله تعالى لم يقل هذا ذكرى للذّاكرين بل إنّهُ أتى باسم الإشارة للبعيد (ذلك) ولا يحدثُ تعالى مثل هذا الاستبدال بدون حكمةٍ جليلةِ القدر. والحقيقةُ هي أنّ الله تعالى أجرى ذلك بغاية أن يوضّحَ لهذه الفئة المؤمنة أنّهُ يريدُ خيرهم وقد وصف لهم وصفة علاجٍ روحيّةٍ إن هم عملوا عليها وطبّقوها بإتقانٍ، تكتب لهم النّجاةُ لهم ولأولادهم حين تقعُ الواقعة ويحمُّ العذاب.

كذلك أتى الله تعالى بكلمة (ذكرى) كاسمٍ للأذكارِ والتّذكير. وهي كلمةٌ يُعبَّرُ بها عن ذكر الإنسان ربَّهُ في قلبه أو بلسانه، وعلى حسب ما ذكره مؤلّفُ الكلّيات. فإن قُلتَ ذكرى للمؤمنين أو للذّاكرين، فكلمة ذكرى اسم تذكير. أو قُلتَ ذكرى لأُولي الألباب فكلمة ذكرى تعني عبرةً لهم. أو قلتَ: أنّى له الذّكرى فعني أنّهُ لا يستحقُّ التّوبة. أو قلتَ: هذه ذكرى الدّار فعني أنّها تذكيرٌ بالدّارِ الآخرة. وأمّا إذا قلت: جاءتهم ذكراهم فالمعنى أنّها قد دنت ساعتهم، وما عادت تنفعُهم الذّكرى الّتي تُذكّرهم بها (محيط المحيط).

كذلك أتى الله تعالى في هذه الفقرة الأخيرة بكلمة (الذّاكرين) وهي جمعٌ مفرده ذاكر. وهي صفةُ المؤمن الّذي لا يغيبُ ربُّهُ عن ذاكرته. وهي صفةٌ تضمَّنتها الآية (٣٥) من سورة الأحزاب الّتي قال تعالى فيها: ﴿إنّ المسلمينَ والمسلماتِ، والمؤمنينَ والمؤمناتِ، والقانتينَ والقانتاتِ، والصّادقينَ والصّادقاتِ، والصّابرينَ والصّابراتِ، والخاشعينَ والخاشعاتِ، والمتصدّقينَ والمتصدّقاتِ، والصّائمينَ والصّائماتِ، والحافظينَ فروجهم والحافظاتِ، والذّاكرينَ اللهَ كثيراً والذّاكراتِ، أعدَّ اللهُ لهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾.

وليصبح معنى هذه الفقرة الأخيرة ﴿ذلكَ ذكرى للذّاكرين﴾ أنّكم يا من تمثّلونَ النّشأةَ الثّانية للإسلام إن اعتبرتم بما وعظتكم به وعدتم لا يغيبُ ربُّكم عن مخيّلتكم وظللتم تذكرونهُ بألسنتكم وبقلوبكم وأنشأتمُ أولادكم على هذه النّشأة تُصبحُ مواعظُ ربّكم لكم ذكرى للذاكرين وحقٌّ على ربّكم حينذاك أن يصونكم وأن ينصركم يوم تقع الواقعة ويعمُّ العذاب.

وإنَّ القارئ المُطالعَ لهذه المواعظ كلّها يعود يتصوَّر أن نزول العذاب بالّذين كفروا بدينِ محمَّدٍ (ص) أصبح على الأبواب بعد سماع آيات هذا القرآن العظيم

الأخيرة، ودفعاً من جانب الله تعالى لهذا التّأثّر الّذي سيتأثّرُ به المؤمنون وغير المؤمنين. فقد خصَّصَ الله جلَّ شأنه آيةً مستقلةً لمعالجة ذلك. فأتى بواو العطف، وأدخلها على فعل (اصبر) لتفيد معنى الحال وقال في الآية الخامسة عشرة بعد المائة:

﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾

أقولُ: إنّ الرّازي رحمه الله الّذي أخذ من قبل لكلمة (الصّلاة) معنى الصّلاة المفروضة. فقد ذهب ذهنهُ عند تفسيره لهذه الآية الكريمة أنّ الله تعالى راح يوصي فيها رسوله الكريم محمَّداً (ص) بالمواظبة على أداء الصّلوات المفروضة عليه. فقد كتب يقول (قيلَ واصبر على الصّلاة). وهو كقوله ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ قال هذا بسبب أنّهُ لم يراعِ أيضاً التّسلسُلَ الموضوعيّ.

على حين أنّ فعل الأمر (اصبر) اشتُقَّ من قولكَ فلانٌ صبرَ بمعنى تشجَّعَ وتجلَّدَ، وتستعملُ كلمة صبر نقيض جزع. ولا تعني أمسكَ عن شيءٍ من الأشياء (محيط المحيط).

وعليه يصبح معنى أمر الله تعالى هنا (واصبر) أنّ الله جلَّ شأنه يُخاطبُ المؤمن الّذي يتصوَّرُ قُربَ وُقوعِ الواقعة ويقول له: تشجَّع وتجلَّد تحسباً لليوم المشار إليه فلا تجزع ولا تظنُّ أنّهُ على الأبواب. ومن واجبك أن تستغلَّ هذه الفرصةَ الزّمنيّةَ الفاصلةَ بينك وبين يوم العذاب لتعملَ ما أمكنك على المواعظ الّتي وعظتُكَ بها كعلاجٍ روحيٍّ يقيكَ شرَّ ما سيترلُ بهؤلاء من عذاب.

ومن ثمّ أتى الله تعالى بفاء الاستئناف وقال في الفقرة الثّانية ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فالملاحظ هنا أنّه تعالى لم يقل لا يضيعُ أجر الصّابرين. بل قال ﴿لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ مع أنّه تعالى أمر في الابتداء وقال (واصبر). وهذا

الاستبدال فيه الدّلالة، كلّ الدّلالة، على أنّه جلّ شأنه قد أشار من خلال كلمة (المحسنين) إلى ضرورة العمل على المواعظ آنفة الذّكر وبشكلٍ يتناسبُ مع مُقتضيات البيئة الجديدة في بلاد المهجر. خصوصاً وأنّ كلمة (المحسنين) جمعٌ مفردهُ مُحسن. والمحسنُ هو الإنسان الّذي يأتي بالحسنِ من الأعمال. وضدّ المسيء. ثمّ إنّ كلمة (أجر) الواردة في هذه الفقرة تعني الجزاء على العمل. ولا تُقالُ إلاّ بمعنى النّافع من الأعمال (محيط المحيط).

وأوّلُ ما ينبغي أن نتساءل عنه هو لماذا استهلّ تعالى هذه الفقرة بفاء الاستئناف وبعد أن أمر وقال (فاصبر)؟ ولا أرى سرّ ذلك إلاّ وتحملهُ كلمة (المُحسنين) الّتي أنهى جلّ شأنه بها هذه الآية الكريمة. وكأنّ الله تعالى قد راح يذكّرُ هذه الفئة المؤمنة بدلالة هذه الكلمة وبالأعمال الّتي تدخلُ في مفهومها. ففي الآية (١٩٥) من سورة البقرة عدّ الله جلّ شأنه الإنفاق في سبيل الله وتجنُّبُ المحرّمات من عمل الاحسان فهو تعالى قال ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلقوا بأيديكم إلى التّهلكة وأحسنوا إنّ الله يحبُّ المحسنين﴾. وفي الآية (١٣٤) من سورة آل عمران قال: ﴿الّذين ينفقونَ في السّراءِ والضّراءِ والكاظمينَ الغيظَ والعافينَ عن النّاس والله يحبُّ المحسنين﴾. وفي الآية (٥٦) من سورة الأعراف قال: ﴿ولا تُفسدوا في الأرضِ بعدَ إصلاحها وادعوهُ خوفاً وطمعاً إنّ رحمةَ الله قريبٌ من المُحسنين﴾. وفي الآية (٩٠) من سورة يوسف قال: ﴿.. إنّهُ مَنْ يتّقِ ويصبر فإنّ الله لا يضيعُ أجرَ المحسنين﴾. وفي الآية (٣٧) من سورة الحجّ قال: ﴿لن ينالَ الله لحومُها ولا دماؤها ولكن ينالُهُ التّقوى منكم كذلكَ سخّرها لكم لتُكبّروا الله على ما هداكم وبشّرِ المُحسنين﴾. وفي الآية (٦٩) من سورة العنكبوت قال: ﴿والّذينَ

جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلنا وإنّ الله لمعَ المُحسنين﴾. أي أنّ الإنفاق في سبيل الله في السرّاء والضرّاء وتجنب المحرّمات وكظمَ الغيظ والعفوَ عن المسيء وترك عمليّة الإفساد في الأرض والصبر والتزام جانب تقوى الله وشكرَ الله وتكبيره وترويض النّفس البشريّة ومجاهدتها إنّ جميع هذه الأشياء تدخل في باب الإحسان وهو شيءٌ يجلبُ محبّة الله ومَرضاته وقُربه من هؤلاء المحسنين. وبذلك يكون الله تعالى قد حثّ هذه الفئة المؤمنة أن تلتزم بجميع هذه الأشياء في الأمكنة الّتي تهاجرُ إليها لتستحقّ الأجر من ربّها وهي مُعتقدةٌ بأنّ الله لا يضيعُ أجرَ المحسنين.

فلما فرغ الله جلّ شأنه من مُخاطبة هذه الفئة المؤمنة ومن وعظه إيّاهم. لم يسعهُ جلّ شأنه إلاّ أن يُبدي أسفهُ وتوجُّعهُ على طوائف الأحزاب المكذّبين وغيرهم ممّن استحقّوا العذاب وقال في الآية السادسة عشرة بعد المائة:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾

وأقتطفُ للقارئ نُبذاً ممّا تبادر لذهن الرّازي رحمه الله من هذه الآية الكريمة. فهو كتب يقول: (اعلم أنّهُ تعالى لمّا بيّنَ أنّ الأممَ المتقدّمين حلّ بهم عذاب الاستئصال، بيّنَ أنّ السببَ فيه أمران السببُ الأوّلُ: أنّهُ ما كان فيهم قومٌ ينهَونَ عن الفساد في الأرض.. وقوله أولوا بقيّة فالمعنى أولوا فضلٍ وخير. وسمّي الفضل والجود بقيّة لأنّ الرّجل يستبقي ممّا يُخرجهُ أجودهُ وأفضلُه. فصار هذا اللّفظ مثلاً في الجودة. يقالُ فلانٌ من بقيّة القوم أي من خيارهم. ومنه قولهم في الزّوايا خبايا وفي الرّجال بقايا. ويجوزُ أن تكون البقيّة بمعنى البقوى كالتّقيّة بمعنى التّقوى. أي فهلاّ كان منهم ذو بقاءٍ على أنفسهم وصيانةٍ لها من سخط الله تعالى. وقُرئ (أولوا

بقيّة) بوزن لقيّة من بقاهُ يُبقيه إذا راقبهُ وانتظره. والبقيّة المرّة من مصدره. والمعنى فلولا كان منهم أولوا مراقبةٍ وخشيةٍ من انتقامِ الله تعالى. ثم قال (إلاّ قليلاً) ولا يمكنُ جعلهُ استثناءً متّصلاً لأنه على هذا التّقدير يكون ذلك ترغيباً لأولي البقيّة في النّهي عن الفساد إلاّ القليل من النّاجين منهم. كما تقول هلاّ قرأ قومك القرآن إلاّ الصّالحين منهم. تريدُ استثناء الصّالحين من المُرغّبينَ في قراءة القرآن. وإذا ثبتَ هذا قلنا: أنّهُ استثناءٌ مُنقطع. والتّقدير: لكن قليلاً ممّن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد، وأغلبهم تاركون للنّهي.

والسببُ الثّاني لنزول عذاب الاستئصال قوله ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾ والتُّرفةُ النّعمة. وصبيٌّ مُترفٌ إذا كان مُنعمَ البدن. والمُترفُ الّذي أبطرتهُ النّعمة وسعةُ المعيشة. وأراد بالّذين ظلموا تاركي النّهي عن المُنكرات. أي لم يهتمّوا بما هو رُكنٌ عظيمٌ من أركان الدّين، وهو الأمرُ بالمعروفِ والنّهيُ عن المُنكر. واتّبعوا طلب الشهوات واللّذات واشتغلوا بتحصيلِ الرّئاسات. وقرأ أبو عمرو في روايةِ الجعفيّ (واتّبعَ الّذين ظلموا ما أُترفوا) أي واتّبعوا حراماً أُترفوا فيه. ثمّ قال (وكانوا مُجرمين) ومعناهُ ظاهر).

وأتناول بدوري تدبُّرَ هذه الآية الكريمة وأبدأ بالفقرة الأولى الّتي قال الله جلّ شأنه فيها:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾

فالملاحظ هو أنّ الله تعالى قد استهلّ هذه الفقرة بفاء الاستئناف للإيعاز بأنه راح يتكلّم عن شيءٍ جديد. وقد أدخل تعالى الفاء على حرف (لولا) والتي أدخلها على فعل الماضي (كان) الّذي يعني وُجدَ ولتفيد معنى التّوبيخ والتّنديم. ثم قال (من القرون) فالقرون كلمةُ جمعٍ مفردها قرن. ويُطلقُ القرن في عرف الأدباء على كلّ مائة سنة. وقد يرادُ بالقرن السيّدُ والزّعيمُ في قومه. وقد حذف تعالى مضاف كلمة

القرون فلم يقل أهلُ وزعماءُ القرونِ الماضية الّتي أهلكها الله تعالى من قبلكم. ثمّ قال (أولوا بقيَّة) فكلمة (أولوا) تعني أصحاب ومفردها صاحب. وهي اسم جمع مرفوعةٌ بالواو. وأما كلمة (بقيَّة) فمعناها العقلُ والرّأيُ والفضلُ والإبقاء. وإنّهُ تعالى أتى بفعل (ينهون) ومُشتقّاً إيّاه من قولكَ: نَهَيْتُهُ عن كذا أي زجرتُهُ قولاً وفعلاً ومنعتهُ منه. ويستعملُ هذا الفعل ضدَّ أمرتهُ. كذلك أتى تعالى بكلمة (الفساد) كمصدر مفردهُ فاسد. وهذا اللّفظ مأخوذٌ من قولكَ: فسدَ اللّحم إذا أنتنَ وبحيثُ لا يعودُ بإمكانك الانتفاعُ به. كذلك من معاني الفساد الابتداع واللّهو واللّعب وأخذُ المالِ ظُلماً، وعلى حسب ما ورد في الكلّيات والوارد في معجم (محيط المحيط).

واستناداً إلى هذه المعاني يصبح معنى قوله تعالى ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ هو أنّ الله تعالى راح يتأسّى ويوبّخُ الأقوام الّتي أهلكها العذاب ومنبّهاً إلى أنّهُ لو أنّ شعوب تلك الأقوام لم تقف من زعمائها موقف المطيع إطاعةً عمياء بل ظهر منهم من استعملوا عقولهُمُ الّتي وهبهمُ الله تعالى إيّاها فقاموا في وجوه حُكّامهم وحاولوا تبديلهم ونهوهُم عن الفساد في الأرض و لم يتركوهم يحكمون بغير ما أنزل الله تعالى من تعاليم سماويّة لصالحهم. فلو ظهر أمثالُ هؤلاء العقلاء أصحاب الفضل فما كانت تلك الأقوامُ لتتعرّضَ إلى مثلِ ما تعرّضت له من دمارٍ وعذاب. أي أنّهُ جلّ شأنه يقول بألفاظ أخرى إنّ الشعوب الّتي تقلّدُ تقليداً أعمى وتطيعُ حُكّامها إطاعةً عمياء بدون أيّ مراجعة كانت. ولا يستعملونَ عقولهم وإرادتهم الحرّة ولا يتقبلون كلّ شيءٍ عن قناعة. فإنّ مصير هؤلاء سيكونُ مشابهاً لمصير شعوبٍ وحكّامِ الأممِ والأقوامِ الّتي أصبحت مَضربَ الأمثال والعبرة.

وعليه فإنّ هذه الفقرة الأولى الّتي أوردناها قد تضمّنت حقيقة لا ينبغي أن

يمرُّ الإنسانُ الباحثُ عليها مرَّ الكرام. فهي تُفسّرُ لنا حكمة تمييز الله تعالى الإنسان عن بقيَّة مخلوقات الله تعالى بهذه القوَّة العاقلة وبحرِّية الإرادة والاختيار. كما تُفسّرُ حكمة بعث الأنبياء والمُرسلين وإنزال الشرائع السماويَّة عليهم أيضاً. فالقصد من ذلك كلّه كان لإعانة هذا الإنسان المخلوق على تجنُّب ما يؤذيه في حياته الدّنيا ولتعريفه على خالقه وليؤمن بما يؤمن به عن قناعة وبحجَّة وبرهان.

لكنَّ النّاس وللأسف هم دوماً على دين مُلوكهم وحسبَ ما هو معروفٌ على وجه العموم. فالآياتُ (١٦٥-١٦٦-١٦٧-١٦٨) من سورة البقرة وضّحت هذه الحقيقة المُرَّة ومن خلال قول الله تعالى فيهما ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ١٦٧ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ١٦٨ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ١٦٩ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾. **والمعنى أنَّ ممّا هو داخلٌ في خطوات الشيطانِ أن ينتخبَ النّاسُ حُكاماً لهم فلا يُراجعهم فيما يفعلونُهُ ويبدونَ للنّاظرِ إليهم من بعيدٍ وكأنَّهم يُحبّونَهم أكثرَ ممّا يحبّونَ اللهَ ربَّهم الحقيقيَّ. ومن ثمَّ راحَ تعالى يُصوِّرُ لهذهِ الشريحة من الشعوبِ بتصويرٍ» فنيٍّ رائعٍ ما يترتَّبُ على فعلهم المذكورُ من نتائجَ وخيمةٍ فهو تعالى راحَ يُصوِّرُ الفريقين وقد واجهوا الحقيقة بعدَ موتهم فإنَّ كلَّ فريق منهم يتبرَّأُ من الفريقِ الآخرَ حينَ يرونَ العذابَ المُترتِّبَ على ما فعلوهُ في حياتهم الدّنيا. وتغلبُ على الفريقين نيرانُ الحسرةِ على ما بدرَ عنهم**

أيضاً. وبحيث يتمنى من أطاعَ زُعماءهُ إطاعة عمياءَ لو يُعيدُهُ ربُّهُ إلى الحياة الدّنيا ليتبرّأ من هؤلاء الّذينَ أطاعهم إطاعةً عمياءَ وأحبّهم إلى درجٍ أنّهُ جعلهم أنداداً لله عزّ وجلّ).

وإنّها لحقيقةٌ عبرّ الله تعالى عنها بصياغةٍ أخرى وذلك في الآية (٢١) من سورة إبراهيم عليه السلام والتي قال تعالى فيها: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ. وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

والمعنى أنّ الشعوب الّتي تُطيعُ حكّامها الّذين تجاوزوا حدودهم واستكبروا في الأرض ولم تقم شعوبهم بردعهم عن غيّهم فسيتبرّأ كلُّ فريقٍ منهم من الفريقِ الآخر بعد الموت ويتحسّرون حينذاك على تقصيرهم على ذاك الصّعيد ويعضّونَ أصابعهم ندامةً بعد أن يبرزوا بين يدي ربّهم الّذي منحهُمُ العقل والإرادة وحرّية الرّأي والاختيار للقيام بهذا التّغيير.

وعلى هذه الصّورة نكون قد لا حظنا كيف أن الله تعالى ومن خلال هذه الآيات الّتي أوردتُها قد راح يعظُ الموعظةَ الواحدةَ بصيغٍ مختلفةٍ وتبعاً لمناسبتها مع التّسلسلِ الموضوعيّ. وكأنّ الله تعالى ومن خلال ما ورد في هذه الفقرة الأُولى قد لَمّحَ من طرفٍ خفيٍّ إلى أنّ جموع الأحزاب من المكذّبين المعاصرين قد ابتُليتْ شعوبهم بنفس الدّاء. وما عاد يهمُّها إلاّ اللّهوَ واللّعبَ والمرحَ وأن يحيوا من أجلِ

التّرفِ وتجميعِ الأموالِ. لذا قرَّرَ الله تعالى إهلاكهم ولتلتهبَ صدورهم بالحسرات على ما سيصيبهم والّذي سيتجلّى ما بين شهيقٍ وزفيرٍ.

فإن نحن انتقلنا إلى تدبُّر الفقرةِ الثّانية من هذه الآية الكريمة، نلاحظُ أنّ الله تعالى استهلّها بحرف (إلاّ) الّذي يُفيدُ الاستثناء وقال ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ فالحرف (إلاّ) يفيدُ هنا الاستثناء المُنقطع. والقصدُ منه استثناءَ رسلِ الله وأتباعهم من المؤمنين ومن سارَ على نهجهم من التّابعين ممّن عدلوا ولم يتّبعوا ويعملوا إلاّ على ما أنزلَ ربُّهم عليهم من تعاليم سماويّة. وبدليلِ أنّ ربّهم كتبَ لهم النّجاةَ في نهاية المطاف حين أنزل بأعدائهم العذاب والدّمار. لكنّ الله تعالى يُلفتُ أنظارنا إلى أنّ نسبة هذه الفئة المُستثناة قليلةُ العدد وعبَّرَ عن تلك الحقيقة بكلمة (قليلاً) والتي تُفيدُ معنى ضآلة العدد (محيط المحيط). كما عبَّرَ تعالى عن الفئة المؤمنة بقوله تعالى ﴿مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾.

ومن ثمّ أتى الله جلّ شأنه بواو العطف وبمعنى الحال وقال في الفقرةِ الثّالثةِ ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾. ففعل (اتّبع) الوارد في هذه الفقرة الثّالثة معناهُ أنّ الظالمين من حكّامِ تلك الأقوام لحقوا غيرهم وساروا على نفس نهجهم السلوكيّ من حيث ارتكاب المظالم وعدم الالتزام بجانب العدل في الحكم وفيما توفّر بين أيديهم من أموالٍ استغلّوها لصالح لهوهم وترفهم وبذلك حرموا المستحقّين من الانتفاع منها على قدرِ ما لهم فيها من حقوق. فالحرف (ما) استُعمل هنا بمعنى الّذي. أمّا فعل (أُترفوا) فقد اشتُقَّ من الترف ومعناه التنعُّمُ وسعةُ العيشِ. وكأنّ الله تعالى قد قال بألفاظٍ أُخرى إنّ الّذين استكبروا في الأرض تصرّفوا بما توفّر بين أيديهم من نعمٍ وأموالٍ وفق مصالحهم وأهوائهم ومن دون أن يحسبوا للآخرة أيّ حسابٍ. فتسبّبوا بذلك بالفسادِ في الأرض. وبذلك يكون تعالى قد أعطى هؤلاء الأحزابِ المعاصرين درساً أيضاً في هذا الموضوع من حيث يشعرون أو لا

يشعرون.

وقد أتى الله تعالى بواو العطف في مستهلّ الفقرة الأُخيرة من هذه الآية الكريمة وراح يقرّرُ ويقول ﴿وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾. فالواو عاطفةٌ وتفيدُ معنى الحال لدخولها على فعل (كانوا) وبمعنى أصبحوا. وأمّا كلمة (مجرمين) فهي صيغةُ جمع ومفردها (مُجرم) وتعني المذنب ذنباً عظيماً وليس ذنباً بسيطاً يمكن أن يغتفر عند الله عزّ وجلّ (محيط المحيط).

وليصبح معنى هذه الفقرة الأخيرة (وكانوا مجرمين) أنّ الّذين يُنعمُ عليهم ربُّهم بالسيادة ووافر النّعماء فلا يقدّرون ذلك كلّه ويستكبرون في الأرض ويبذّرونَ ويترفونَ إلى حدّ التّخمة ولا يعدلون بين رعيّتهم. ينظرُ إليهم ربُّهم على أنّهم بلغوا حدّ الإجرام وعادوا في نظره سبحانه وتعالى مُجرمين جُرماً كبيراً لا يستحقّونَ بعدهُ سترهُ ومغفرتهُ ولا السكوتُ على ما فعلوه.

وخلاصةُ معنى هذه الآية الكريمة الّتي قال تعالى فيها ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ معناها أنّ الله تعالى يتأسّى ويتأسّفُ على النّاس أنّهم بالرّغم أنّ الله جلّ شأنه قد منحهم عقولاً وإرادةً مُستقلّةً وحرّيةَ رأيٍ وحرّية اختيار فلم يتحرّكوا لصدّ حُكامهم المستكبرين في الأرضِ وغيرُ العادلين في تصرُّفاتهم وتركوهم يفسدون في الأرض ويصبحوا في نظرِ ربّهم جميعهم من المجرمينَ المستحقّينَ للعقاب والعذاب.

وهنا شاء الله عزّ وجلّ أن يُجلّ أسماءهُ الحسنى من أن تشتمل على صفة (الظالم). وحاشا أن يظلمَ الله تعالى أحداً من عباده. وليشيرَ من خلال ذلك إلى أنّ جميع ما يحلُّ بالنّاسِ من مآسي فهي من صُنعِ أيديهم. وقد راح تعالى يُقرّرُ هذه الحقيقة في الآية السابعة عشرة بعد المائة ويقول:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾

وعلى هذه الصّورة يكونُ الله تعالى قد وضع بين أيدينا من خلال مُعطيات هذه الآية الكريمة ميزاناً لتزنَ به كلَّ المُتغيِّرات وما يحصلُ في هذه الأرض من مآسي ودمارٍ حاصلٍ وفسادٍ في الأرض.

والآن نحاول تدبُّرَ صياغة هذه الآية الكريمة ودلالاتها. فهو تعالى أتى بالواو العاطفة ولتفيد معنى الحال لدخولها على فعل (كان) وليصبح معنى (ما كان) أي وما ينبغي وأمّا اللّام في قوله تعالى (لِيهلكَ) فتفيد معنى التّعليل. وأمّا فعل يُهلك فقد اشتُقَّ من قولكَ: أهلكهُ الدّهر أي أضاعهُ وأفناه. والباء في قوله (بظلمٍ) فتفيد الاستعانة. ثمّ إنّ كلمة القرى ليست المقصودة هنا بل المقصود أهلُها. وأمّا كلمة مصلحون فهي جمعٌ مفرده مُصلح بمعنى القائم بما يتوجَّب عليه من أداءِ لحقوق الله تعالى وحقوق العباد وهي صيغةُ اسم فاعل (محيط المحيط).

واستناداً إلى المعاني الّتي أوردناها آنفاً يتبيَّنُ أنَّ هذه الآية الكريمة تُبرزُ وتقرِّرُ حقيقةً كونيَّةً ثانيةً قد نبَّهَ الله تعالى من خلالها أذهاننا إلى أنَّهُ لا يُعقلُ ولا يليقُ بالله الخالق لهذا الكونِ الواسعِ جدّاً والمُنزلُ لهذه التّعاليمَ السماويَّةَ السامية أن يعمدَ إلى الاستعانةِ بكلِّ ما هو من قبيل الظُّلمِ ومفهومه فيما فعلهُ مع أهل تلك القرى الّتي أهلكها والتي ذكرها من قبل. خصوصاً إذا كان أهلُ تلك القرى الهالكة مّمن يؤدّونَ حقوقَ الله تعالى وحقوقَ عبادهِ ومخلوقاتهِ وتبعاً لما أنزله الله تعالى لعباده من تعاليمَ سماويَّة.

فإن نحن دقّقنا جيِّداً فيما اشتملت عليه هذه الآية الكريمة. يتبيَّنُ لنا اشتمالها على كلمتين هما كلمة (ربِّك) وكلمة (ظلم). والرّبُّ لا يُسمّى (ربّ) فيما إذا ظلم من يقوم بتربيتهم. وإلاّ ترتفعُ عنه صفةُ كونِه ربّاً. بسبب أنَّ الظُّلم ومهمَّةَ التربية لا يجتمعان ويتناقضان مضموناً. فكلمة (الرّبّ) لغةً تعني الذّاتُ الّتي تسعى

لتطوير الشيء من حالٍ إلى حالٍ باتّجاه التّمام (أقربُ الموارد). وأمّا كلمة ظلم، فعني وضعَ الشيء في غيرِ مَوضعه. حيث أورد مؤلّفُ معجم (مقاييسُ اللّغة) الظاء واللام والميم أصلان صحيحان: أحدهما خلافَ الضّياء والنّور. والآخر وضعُ الشيء في غيرِ مَوضعه تعدّياً. فالأصلُ الأوّلُ: يعني الظّلمة وجمعهُ ظُلمات. والظلامُ اسمُ الظّلمة. والأصلُ الآخر: يعني وضعُ الشيء في غيرِ مَوضعه. ألا تَراهُم يقولون (مَنْ أشبهَ أباهُ فما ظَلَم) أي ما وضعَ الشّبه في غير موضعه. وقد ورد في معجم (محيط المحيط): فلانٌ يظلمُ أي يضعُ الشّيءَ في غيرِ مَوضعه. وظلمَ فلانٌ فلاناً معناهُ جارَ عليه وفعلَ له الظُّلم. علماً بأنَّ كلمة (الظّلم) قد وردت في كتاب الله العزيز بما يزيدُ عن ثلاثمائة مرّة. وكان الله تعالى ينبّهُ كلَّ مرّةٍ إلى أنَّ الظّلم يجعلُ الإنسان الظالمَ في نظرِ ربِّه مُجرماً ومستحقّاً للعقاب والإهلاك. فهذه حقيقةٌ وضّحها الله جلَّ شأنه في سورة يونس ضمنَ الآيات (١٣-١٧) وفي الآية (١٣) من سورة الفرقان. وفي الآية (٤٧) من سورة الأنعام. وفي الآية (٥٩) من سورة القصَص وغيرها من آيات وسور هذا الكتاب السماويّ المبارك العظيم.

وهكذا وانطلاقاً مّما أفادت به الآيات الّتي أشرنا إليها آنفاً. فإنَّ قول الله تعالى في هذه الآية الّتي قال فيها ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ قد وضّحَ حقيقةً كونيّةً كما ذكرتُ من قبل وهو أنَّ ربّنا قد جعل حلولَ أي عذابٍ ودمارٍ في أيِّ قومٍ من الأقوام، أقولُ: قد جعلهُ علامةً مّميزةً تُميّزهُ وتؤكّدُ بأنَّ أهل البلد المدمَّر قد بلغ في الظُّلم مُنتهاه أي بلغ في تجاوزه حدود العدل والإنصاف وحدود التّمسُّك بأهداب الحشمة مداه. وبات أهله يضعون الأمور في غير مواضعها. وقد عاد لا يضبطُهم ضوابطُ ولا حدود. فهذه معادلةٌ ينبغي على المفكّرين والباحثين أن يرجعوا إليها كلمّا تراءت لهم في هذا العالم من كوارث ودمار. فهي معادلةٌ تكشفُ لنا دوماً حقيقة ما ذكرناه. وعلى اعتبارِ أنَّ الله تعالى

قد وهب هذا الإنسان عقلاً وإرادةً وحرّيّةَ اختيار ليستعمل كلَّ ذلك للعمل على تحقيق المقصد من خلقه ومن وجوده في عالمنا الدّنيويّ. وليس للكفرِ بهذه النّعماء واستعمالها استعمالاً سيّئاً وفي غيرِ محلّه.

ولنلاحظ كيف أنّ الله جلَّ شأنه راح يؤكد حقيقة هذه المعادلة والحقيقة آنفة الذّكر فقال في الآية الثامنة عشرة بعد المائة:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾

وقد وردت هذه الآية الكريمة مصاغةً صياغةً بلاغيّةً مُعجزةً يتبادر منها معنى غير مقصود. ولا يُدركُ معناها إلاّ إذا تدبَّرها الإنسان وفق منهجيَّة القرآنِ العظيمِ وأصول تفسيره. والدّليلُ على ذلك أنّ المُعتزلةَ حملوا معنى هذه الآية الكريمة على الإلجاء والإجبار وعلى حسب ما نقلهُ لنا العلاّمة الرّازي رحمه الله في تفسيره الكبير. فهو كتب وقال (قال تعالى- ولو شاءَ ربُّكَ لَجعلَ النّاسَ أمّةً واحدةً- والمعتزلة يحملونَ هذه الآية على مشيئةِ الإلجاءِ والإجبارِ وقد سبق الكلام عنه). وإنّ قول الرّازي هذا يستفاد منه أنّهُ لم يتّفق مع المعتزلةِ في فهمهمُ المذكور. وهذا الأمرُ يدفعُ بنا لنحاول الاطّلاع على ما تبادر لذهنه رحمه الله من قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

فنلاحظ أنّ الرّازي رحمه الله بدلاً من أن يُصرِّحَ بما تبادر لذهنه من هذه الفقرة من هذه الآية الكريمة، فإنّهُ أضاف يقول: (ثمّ قال تعالى- ولا يزالونَ مُختلفينَ إلاّ مَن رَحِمَ ربُّك- والمراد افتراق النّاس في الأديان والأخلاق والأفعال). ومن ثمّ استعرض ما في العالم من مذاهب وأديان، وأضاف يقول (فإن قيل إنّكم حملتم قوله تعالى (ولا يزالون مختلفين) على الاختلاف في الأديان. فما الدّليلُ عليه؟ ولِمَ لا يجوزُ أن يُحملَ على الاختلاف في الألوانِ والألسنةِ والأرزاقِ والأعمالِ؟

قلنا: الدّليلُ عليه أنّ ما قبل هذه الآية هو قوله- ولو شاءَ ربُّكَ لجعلَ النّاسَ أمّةً واحدةً- فيجبُ حملُ هذا الاختلاف على ما يُخرجهم من أن يكونوا أمّةً واحدةً. وما بعد هذه الآية هو قوله- إلاّ من رَحِمَ ربُّك- فيجبُ حملُ هذا الاختلاف على معنى يصحُّ أن يستثنى منه قوله- إلاّ من رَحِمَ ربُّك- وذلك ليس إلاّ ما قُلنا).

وبعد أن اطّلعنا على تفسير الفقرة الأولى من زاوية فهم الرّازي لها. نحاولُ تدبُّرها فالواو للإضافة وتفيد معنى الحال. وحرف (لو) هو حرفُ امتناعٍ لكَونِ الشرط (شاءَ) ماضياً. ثمّ إنّ كلمة (شاءَ) تعني هنا قدَّرَ وأمّا اللام من قوله (لجعل) فهي لام جواب حرف (لو) وعلى شاكلة قول الله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. وأمّا كلمة (أمّة) معناها جماعة أو طريقة أو دين. قال الأخفش: أمّة اللّفظُ واحدٌ والمعنى جمع. وتُطلقُ كلمة أمّة على جميع أجناسِ الحيوانِ أيضاً (محيط المحيط).

فإن نحن أخذنا هذه المعاني الّتي ذكرناها بعين اعتبارنا. يصبحُ معنى هذه الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة هي قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أنّه لولا أن اقتضت مشيئةُ الله وتقديرهُ أن يميّزَ الإنسان بهذا العقلِ وبحرّيةِ الإرادةِ وبحرّيةِ الاختيار. لكان جعل الناس أمّةً وجماعةً واحدةً على شاكلة ما هو عليه حالُ جماعات الحيوان الغريزيّة. فهذا هو معنى هذه الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة وليس معناها ما تبادر منها لأذهان المفسّرين القدماء.

وقال تعالى في الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾. فهو تعالى استعمل هنا فعل (ولا يزالون) بمعنى ولا يبرحون. كما استعمل كلمة (مُختلفين) بمعنى يُضادُّ معنى كلمة متّفقين. كذلك نلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ لم يوضّح في أيِّ شيءٍ مختلفين وتركهُ محذوفاً بلاغيّاً ليوسّعَ من معنى هذا الاختلاف

المقصود.

وعليه يصبح معنى قوله تعالى ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أنَّ عدم استعمال النّاس لعقولهم ولإرادتهم ولحرّية الرأي الممنوحة إليهم هبةً من الله تعالى إنَّ سوءَ استعمال النّاس لهذه الأشياء تجعلهم لا يبرحون مختلفين فيما بينهم وغيرُ مُتّفقين. وما دام يوجد هنا حذفٌ بلاغيٌّ فلم يوضّح الله تعالى في أيِّ شيءٍ مختلفين. فقد حدث هذا الحذفُ البلاغيُّ لِتوسيعِ المعنى وليعودَ أنَّ النّاس بسبب ذلك لا يبرحون مختلفين في آرائهم وفي مناهج حياتهم وفي تعاملهم بعضهم مع بعضٍ ومختلفين في أديانهم وفيما سيصير إليه حالهم بعد موتهم أيضاً.

وعلى هذه الصّورة فقد اتّضحَ أن لا علاقة لهذه الآية الكريمة بموضوع الجبرِ والاختيار. وأنَّ ما تبادر لأذهان المفسّرين القدماء منها لم يبلغ مرتبة الحقيقةِ المقصودةِ أيضاً. وقد حدث كلُّ هذا من مُنطلقِ أنَّهُم رحمهم الله لم يكونوا محيطين علماً بمنهجيَّةِ القرآن وأصول تفسيره في تلك الفترةِ الزمنيَّةِ البدائيَّةِ من حيث المُعطيات.

ولم يكتف الله تعالى ببيان الحقيقة الآنفة الذّكر. بل وراح يقول في الآية التاسعة عشرة بعد المائة، ومُستثنياً فئةً معيَّنةً:

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾

وقد اختلف المفسّرون القدماء في معنى كلِّ فقرةٍ من فقراتِ هذه الآية الكريمة. وأنقلُ للقارئ بعضاً من أقوالهم رحمهم الله. قال الرّازي رحمه الله وهو يُفسّرُ الفقرة الأولى ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ (احتجَّ أصحابنا بهذه الآية على أنَّ الهداية والإيمان لا تحصل إلاّ بتخليقِ الله تعالى، وذلك لأنَّ هذه الآية تدلُّ على أنَّ

زوال الاختلاف في الدّين لا يحصل إلاّ لمن خصَّهُ الله برحمته. وتلك الرّحمة ليست عبارةً عن إعطاء القدرة والعقل وإرسال الرّسل وإنزال الكتب وإزاحة العذر فإنّ كلّ ذلك حاصلٌ في حقّ الكفّار. فلم يبق إلاّ أن يُقال: تلك الرّحمةُ هو أنّهُ سبحانه خلق فيه تلك الهداية والمعرفة. قال القاضي معناه: إلاّ من رحمَ ربُّك بأن يصير من أهل الجنّة والثواب. فيرحمهُ الله بالثواب. ويُحتملُ إلاّ من رحمهُ الله بتلطُّف فصار مؤمناً بلُطفه وتسهيله. وهاتان الإجابتان في غاية الضّعف. أمّا الأوّلُ: فلأنّ قوله ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ يفيد أنّ ذلك الاختلاف إنّما زال بسبب هذه الرّحمة. فوجب أن تكونَ هذه الرحمة جاريةً مَجرى السبب المتقدّم على زوال هذا الاختلاف. والثّوابُ شيءٌ مُتأخّرٌ عن زوال هذا الاختلاف. فالاختلافُ جارٍ مَجرى المسبّب له ومجرى المعلول. فحملُ هذه الرّحمة على الثّواب بعيد. وأمّا الثّاني: وهو حملُ هذه الرّحمةُ على الألطاف فنقول: جميعُ الألطاف الّتي فعلها في حقّ المؤمن فهي مفعولةٌ أيضاً في حقّ الكافر. وهذه الرّحمةُ أمرٌ اختصَّ به المؤمن. فوجب أن يكون شيئاً زائداً على تلك الألطاف. وأيضاً فحصولُ تلك الألطاف هل يوجبُ رجحان وجود الإيمان على عدمه أو لا يوجبهُ. فإن لم يوجبهُ كان وجود تلك الألطاف وعدمها بالنسبة إلى حصول هذا المقصود سيّان. فلم يكن لُطفاً فيه وإن أوجبَ الرّجحان. فقد بيّنّا في الكتب العقليّة أنّهُ متى حصل الرّجحان فقد وجب، وحينئذٍ يكون حصول الإيمان من الله. وممّا يدلُّ على أنّ حصول الإيمان لا يكونُ إلاّ بخلق الله أنّهُ ما لم يتميّز الإيمان عن الكفر والعلمُ عن الجهل، امتنعَ القصدُ إلى تكوين الإيمان والعلم. وإنّما يحصلُ هذا الامتياز إذا علم كونُ أحد هذين الاعتقادين مُطابقاً للمُعتقد، وكونُ الآخر ليس كذلك. وإنّما يصحُّ حصولُ هذا العلم أن لو عُرفَ أنّ ذلك المُعتقد في نفسه كيف يكون. وهذا يوجبُ أنّهُ لا يصحُّ من العبد القصد إلى تكوين العلم بالشيء إلاّ بعد أن كان عالماً. وذلك يقتضي تكوين الكائن وتحصيل الحاصل وهو مُحال. فثبتَ أنّ زوال الاختلاف في الدّين

وحصول العلم والهداية، لا يحصلُ إلاّ بخلق الله تعالى، وهو المطلوب).

والآن أحاول تدبُّرَ الفقرة الأُولى بمنهجيَّة القرآن وأصول تفسيره فأقول: الملاحظُ هو أنَّ الله تعالى استهلَّ هذه الفقرة بحرف الاستثناء (إلاّ) وذلك ليستثني من المعادلة الّتي وضَّحها سابقاً ليستثني فئات جماعات المؤمنين به الّذين استعملوا عقولهم وإرادتهم وحرّيّة الاختيار الممنوحة لهم من ربِّهم جلَّ شأنه. فلو أنَّ الله تعالى لم يأتِ بهذا الاستثناء لانطبق على جماعات المؤمنين قوله السابق بشأن تصرُّف هذا النوع البشريّ. كما أتى جلَّ شأنه بفعل (رَحِمَ) فأنت تقول رحمني الله وتقصدُ أنَّهُ تعالى رقَّ لك وغفرَ وتعطَّفَ عليك. كما أتى الله تعالى بكلمة (ربُّك) يخاطبُ بها محمَّداً سيِّد المرسلين (ص) وبمعنى أنَّهُ كما يَرِقُّ ربُّك لك يا محمَّد ويغفرُ ويتعطفُ عليك فإنَّه فعل نفس الشيء مع الّذين بعثهم الله تعالى من قبلك ومن آمن بهم أيضاً.

وعليه يصبح معنى قول الله تعالى في هذه الفقرة الأولى ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أنَّ الله عزَّ وجلَّ استثنى جميع المؤمنين بالله ورسلهِ وكتبهِ واليومِ الآخرِ من وَصْمةِ العار اللاحقة بهذا الإنسان الّذي لا يستفيدُ من هبةِ العقلِ وحرّيّة الإرادة وحرّيّة الرأي الممنوحة له من ربِّه. فالمؤمنون لو أنَّهُم لم يستفيدوا من ذلك كلِّه فما كان لهم أن يُصبحوا مؤمنين تشملهم رحمةُ ربِّهم في جميع أحوالهم. فهذه هي دلالةُ هذا الاستثناء الوارد في هذه الفقرة الأُولى المذكورة.

ونأتِ إلى تدبُّر الفقرة الثّانية الّتي قال تعالى فيها ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾. وقبل القيام بتدبُّرها أنقلُ للقارئ ما تبادر منها إلى أذهان المفسّرين القدماء رحمهم الله. فقد كتب الرّازي رحمه الله يقول: (فيه ثلاثةُ أقوال: القولُ الأوَّلُ: قال ابنُ عبّاس: وللرّحمةِ خلقهُم. وهذا اختيارُ جُمهور المُعتزلة قالوا: ولا يجوز أن يُقال: وللاختلافِ خلقهُم. ويدلُّ عليه وجوه الأوّل: أنَّ عَودَ الضمير إلى أقرب المذكورين

أولى من عوده إلى أبعدهما. وأقربُ المذكورين هنا هو الرّحمة، والاختلافُ أبعدهما. والثّاني: أنّهُ تعالى لو خلقهم للاختلاف وأراد منهم ذلك الإيمان، لكان لا يجوز أن يُعذّبهم عليه. إذ كانوا مُطيعينَ له بذلك الاختلاف. الثّالث: إذا فسّرنا الآية بهذا المعنى، كان مُطابقاً لقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. فإن قيل لو كان المراد: وللرّحمةِ خلقَهم، لقال: ولتلكَ خلقهم ولم يقل: ولذلك خلقهم. قلنا: إنّ تأنيث الرّحمة ليس تأنيثاً حقيقياً. فكان محمولاً على الفضلِ والغُفران. كقوله ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ وقوله ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. والقول الثّاني: أنَّ المراد: وللاختلاف خلقهُم. والقول الثّالث: وهو المختار أنّهُ خلق أهل الرّحمةِ للرّحمةِ وأهل الاختلافِ للاختلاف. روى أبو صالح عن ابن عبّاس أنّهُ قال: خلق الله أهل الرّحمة لئلاّ يختلفوا. وأهل العذاب لأن يختلفوا. وخلقَ الجنّة وخلق لها أهلاً. وخلق النّار وخلقَ لها أهلاً. والّذي يدلُّ على صحّة هذا التأويل وجوه، الأوَّل: الدّلائلُ القاطعةُ الدّالّةُ على أنَّ العلمَ والجهلَ لا يمكن حصولهما في العبد إلاّ بتخليقِ الله تعالى. الثّاني: أن يُقال إنّهُ تعالى لمّا حكم على البعض بكونهم مختلفين، وعلى الآخرين بأنّهم من أهل الرّحمة. وعلمَ ذلك، امتنعَ انقلابُ ذلك. وإلاّ لَزِمَ انقلابُ العلم جهلاً، وهو مُحال. الثّالث: أنّهُ تعالى قال بعدهُ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهذا تصريحٌ بأنّه تعالى خلق أقواماً للهداية والجنّة، وأقواماً آخرين للضّلالة والنّار. وذلك يُقوّي هذا التّأويل).

فهذا ما أورده الرّازي رحمه الله من أقوال ثلاثة تبادرت إلى أذهان المفسّرين القدماء من قوله تعالى في الفقرة الثّانية من هذه الآية الكريمة وهو ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾. ولنتدبّر هذه الفقرة وننظرُ في مدى تطابقِ واختلافِ ما نصلُ إليه منها مع ما ذكرناه.

فالملاحظ هو أنّ الله تعالى استهلّ هذه الفقرة الثّانية بواو العطف. كما أتى بحرف اللّام المُدخلة على قوله تعالى (لذلك) ولتفيد معنى تعليلٍ وتوضيحِ المقصد الّذي من أجله ميّزَ الله جلّ شأنه الإنسان عن الحيوان بميّزة العقلِ والإرادةِ وحرّيةِ الرأيِ والاختيارِ. ثمّ إنّ اسم الإشارة (ذلك) أُشيرَ به إلى ما تضمّنهُ فعل (رحمَ) وهو الأقربُ إليه. والدّالّ على شمولِ رحمةِ الله تعالى المؤمنين الّذين استعملوا ما ميّزهم به ربُّهم عن سائر الحيوان الغريزيّ. كذلك أتى تعالى بفعل (خلقهم) وقد اشتقّهُ من قول أحدنا: خلقتُ هذا الشيء ويعني أنّه أوجدهُ وأبدعهُ على غيرِ مثالٍ سابق (محيط المحيط).

وعله يصبح معنى قوله تعالى ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾. أنّ الله جلّ شأنه يقول في هذه الفقرة الثّانية أنّهُ كان قد أوجدَ وأبدعَ هذا الإنسان على غيرِ مثالٍ سابقٍ بعدَ خلقهِ لجميعِ أنواعِ الحيواناتِ الغريزيّةِ مُتميّزاً بالعقلِ والإرادةِ وبحرّيةِ الاختيارِ، صوناً له من أن يكونَ غريزيّاً في تصرفاته فلا يقلّدُ تقليداً أعمى ولا يُطيعُ إطاعةً عمياء. وليساعدهُ ذلك كلّه على التّعرُّفِ على ربّهِ ولطلبِ محبّتهِ وقُربهِ ورضوانهِ عن طريق ما أنزلهُ عليه من تعاليمَ سماويّة. وليستحقّ رحمتي الّتي كتبتُها للمؤمنين. فهذا هو معنى قوله تعالى ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ وليس ما تبادر منه من أقوالٍ نقلتُها عن المفسّرين القدماء رحمهم الله.

ونحاول الآن تدبُّرَ الفقرة الأخيرة من هذه الآية الكريمة والتي قال تعالى فيها ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. وقبل ذلك أُلفتُ نظر القارئ إلى أنّ الرّازي رحمه الله كتب يفسّرُ هذه الفقرة الأُخيرة واكتفى بالقول: (هذا تصريحٌ بأنّهُ تعالى خلق أقواماً للهداية والجنّة. وأقواماً آخرين للضّلالة والنّار. وذلك يُقوّي هذا التّأويل). فهل أصاب فيما تبادر لذهنه من هذه الفقرة الّتي ذكرناها؟؟

فالملاحظ هو أنّ الله تعالى أتى بواو العطف وبفعل (تمت) أي بلغت مرحلة التّمام والتحقُّق. فما هي هذه الّتي تُمت؟ قال ﴿تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾. قد وضّحنا سابقاً أنّ كلمة هذه استُعملت في مختلف الآيات الكريمة بمعنى التّقدير الإلهيّ. نتساءل: متى أعلنَ الله جلّ شأنه التّقدير المُشارُ إليه هنا بهذا اللفظ (كلمةُ ربُّك)؟ فإن نحن راجعنا قصّةَ آدمَ عليه السلام الّذي كان أوّلُ أنبياء الله تعالى. ودقّقنا فيما قاله الله جلّ شأنه هناك فيما يتعلّقُ بالإنسان الّذي كذّب برسالة آدم وقاومه و لم يستعمل عقلهُ وإرادتهُ وحرّيتهُ استعمالاً خالياً من شوائب استكباره وحدّةِ طبعه فإننا نعثرُ على الآية (١٨) من سورة الأعراف الّتي تضمّنت كلمةَ ربّك من خلال قوله تعالي في الآية المذكورة ﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾. فجهنّم المُشار إليها في هذه الفقرة الأخيرة المذكورة قد أُعدّت في حقيقةِ الأمر لأفرادِ البشرِ حُكّاماً ومتبوعين ممّنْ يستكبرون ويستعلون على رُسلِ الله تعالى ويكذّبونهم ويُناصبونهم العداء وهم لا يملكون دليلاً ولا برهاناً على مصداقيّةِ ما يفعلونه. علماً بأنّ كلمة (الجنّة) الواردة في هذه الفقرة قُصدَ بها زعماء الكُفر ولقد وردت في مقابل كلمة (النّاس) الدّالّة على عوامِ النّاس الّذين يكونون من أتباعِ أولئك الزّعماء الكفّار (راجع مؤلّفي الجنُّ حقيقة أم خيال).

ألا لقد أخطأ الرّازي رحمه الله فيما تبادر لذهنه من هذه الفقرة الأخيرة وحسبما أراه. فلم يخلق الله تعالى فئةً من عباده ليصبحوا من أهلِ الجنّة. ولا خلقَ فئةً أخرى منهم ليصبحوا من أهل النّار. بل إنّ قوله تعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ قد أشار تعالى به إلى ما أورده في الآية من سورة الأعراف الّتي أوردناها. والتي أكّد تعالى فيها أنّهُ تعالى سيملأُ جهنّمَ من

إبليسَ وأتباعِه جميعهم والّذين سيأتونَ من بعدهم. ولقد أشارت إلى هذه الحقيقة كلمة (أجمعين) الواردة في هذه الفقرة يقيناً. بمعنى أنّ كلّ من سيقود أتباعهُ لتكذيب رسل الله وأنبيائه، قدَّرَ الله تعالى أن يكون مصيرهم إلى جهنّمَ وبئسَ المصير. ولنفس السبب وهو أنّ هؤلاء المكذّبين لا يستعملون عقولهم وإرادتهم وحرّية اختيارهم استعمالاً صحيحاً. بل يتّخذُ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله تعالى ويقلّدونَ بعضهم بعضاً تقليداً أعمى. ويطيعون إطاعةً عمياء.

فلمّا فرغ الله جلّ شأنه من الكلام عن جميع ما أوردناه وذكرناه. توجّه تعالى بعد ذلك ليخاطبَ رسوله الكريم وليوضّح له حكمة جميع ما أورده تعالى من قبل في هذه السورة من مواضيع وراح يقول له في الآية العشرين بعد المائة:

﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَـٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

وعلى عادتي في هذه الآيات الأخيرة من هذه السورة أرى أن أزوّدَ القارئ بما تبادر قديماً من آيات هذه السورة العظيمة لأذهان المفسّرين القدماء رحمهم الله. خصوصاً وأنّهم هم الّذين نقلوا عن رسول الله (ص) قوله بشأن هذه السورة (**شيّبتني هودٌ وأخواتها**). لينظر هذا القارئ كيف أنّ أولئك المفسّرين فهموا مضامين هذه السورة على غير حقيقتها. وعلى صورةٍ لا ترقى إلى ما نقلوهُ من قولٍ آنفِ الذّكر ومنسوبٍ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

قال الرّازي رحمه الله وهو يُفسّرُ هذه الآية الأخيرة: (اعلم أنّه تعالى لمّا ذكرَ القصص الكثيرة في هذه السورة. ذكر في هذه الآية نوعين من الفائدة. الفائدةُ الأولى: تثبيتُ الفؤاد على أداءِ الرّسالة وعلى الصّبرِ واحتمال الأذى. وذلك لأنّ الإنسان إذا ابتُليَ بمحنةٍ وبليّة فإذا رأى له فيه مشاركاً خفّ ذلك على قلبه، كما يقال: المصيبة إذا عمّت خفّت. فإذا سمع الرّسول هذه القصص. وعلِمَ أنّ حال

جميع الأنبياء صلواتُ الله عليهم وأتباعهم هكذا، سَهُلَ عليه تحمُّل الأذى ن قومه، وأمكنهُ الصَبرَ عليه. والفائدةُ الثّانيةُ: قولهُ: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وفي قوله (في هذه) وُجوه أحدها في هذه السورة، وثانيها في هذه الآية، وثالثُها في هذه الدّنيا. وهذا الأخير بعيدٌ غيرُ لائقٍ بهذا الموضع. واعلم أنّه لا يلزم من تخصيصِ هذه السورة بمجيءِ الحقّ فيها أن يكون حالُ سائر السور بخلاف ذلك، لاحتمال أن يكون الحقُّ المذكورُ في هذه السورة أكملُ حالاً مّما ذُكرَ في سائر السور ولو لم يكن فيها إلاّ قوله (فاستقم كما أُمرت) لكان الأمر كما ذكرنا. ثمّ إنّهُ تعالى بيَّنَ أنّهُ جاء في هذه السورة أمورٌ ثلاثة: الحقُّ والموعظةُ والذّكرى. أمّا الحقُّ فهو إشارةٌ إلى البراهين الدّالّة على التّوحيد والعدلِ والنّبوّة. أمّا الذّكرى فهي إشارةٌ إلى الإرشاد إلى الأعمال الباقية الصّالحة. وأمّا الموعظة فهي إشارةٌ إلى التّنفير من الدّنيا وتقبيح أحوالها في الدّار الآخرة والمُذكّرة لما هنالك من السعادة والشقاوة. وذلك لأنّ الرّوح إنّما جاء من ذلك العالم، إلاّ أنّه لاستغراقه في محبّة الجسدِ في هذا العالم نسيَ أحوالَ ذلك العالم. فالكلامُ الإلهيُّ يُذكّرهُ أحوال ذلك العالم. فلهذا السبب صحّ إطلاق لفظ الذكّر عليه. ثمّ ههُنا دقيقةٌ أخرى عجيبة: وهي أنّ المعارف الإلهيّة لا بُدَّ لها من قابل ومن موجب. وقابلُها هو القلب. والقلبُ ما لم يكن كامل الاستعداد لقبول تلك المعارف الإلهيّة والتّجلّيات القُدسيّة لم يحصل الانتفاع بسماع الدّلائل. فلهذا السبب قدّمَ الله تعالى ذكرَ إصلاح القلب، وهو تثبيتُ الفؤاد. ثمّ لمّا ذكر صلاح حال القابل، أتبعهُ بذكر الموجب، وهو مجيءُ هذه السورة المشتملة على الحقّ والموعظةِ والذّكرى. وهذا التّرتيبُ في غاية الشرف والجلالة).

وبإمكاننا تلخيص ما أوردناه مّما كتبه الرّازي رحمه الله في الأمور التّالية:

أولاً- بيّن أنّ الغايةَ من قصصِ الأنبياء الواردة في هذه السورة هو لتثبيت

فؤاد محمّد (ص) على الصّبرِ وعلى تحمُّلِ الأذى لأداء الرّسالة الموكلة إليه.

ثانياً- وأنَّ سورة هود قد ورد فيها أمورٌ ثلاثةٌ هي:

الحقُّ: يتمثّلُ فيما اشتملت عليه السورة من براهين تثبتُ الوحدانيَّةَ والعدلَ والنّبوّة.

الذّكرى: وهي الإشارةُ إلى الأعمال الباقية الصّالحة.

الموعظة: وتتمثّلُ في التّنفير من الدّنيا وتقبيح أحوالها في الدّارِ الآخرة.

ثالثاً- وأنَّ روح الإنسان قد جاءت أصلاً من عالمِ الآخرة. فلما وقعت في إسارِ هذا الجسد استغرقت في محبَّتهِ ونسيت أحوال الآخرة الّتي جاءت منها أصلاً.

فهل أصاب الرّازي فيما ذهب ذهنه إليه؟

والآن سأقومُ بتدبُّرَ هذه الآية الكريمة فقرةً فقرةً، ومن ثمَّ أعود بعد ذلك إلى نقدِ ما لخّصته من أقوال الرّازي رحمه الله. لذلك أتناول بالتّدبُّر الفقرة الأولى الّتي قال الله تعالى فيها ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾. فالملاحظ هو أنَّ الله تعالى استهلَّ هذه الفقرة بواو العطف. ثمَّ أتى بكلمة (كُلاًّ) مضافةً إلى ضمير محذوف. وعلى شاكلة قوله تعالى (وكلاً هدينا) وبمعنى أنّنا هديناهم كلّهم. ثمَّ أنّهُ تعالى أتى بفعل (نقُصُّ عليك) بصيغة المضارع. وبمعنى نُعلمكَ ونحدِّثكَ بحديثٍ وبيِّنة على حقيقتهما. فأنت تقول: قصَّ عليَّ الخبر بمعنى أعلمني به وحدثني على وجههِ الحقيقي. كما أتى جلَّ شأنه بحرف الجرّ (من) هنا زائدةً ولجعل المجرور نكرة. ثمَّ إنَّ كلمة (أنباء) صيغةُ جمعِ مفردها (نبأ) ويعني كلَّ ما له من وقعٍ عظيمٍ وعلى حسب ما ورد في الكلّيات. وكلمة (الرّسل) هي صيغةُ جمعٍ أيضاً ومفردها (رسول). وهو اسمٌ أصله مصدر بمعنى الرّسالة والمُرسل. وأمّا قوله (ما نُثبِّتُ به) فإن الحرف (ما) بمعنى الّذي. وأمّا فعل (نُثبّتُ) فقد استعمل هنا بمعناه المجازيّ وهو إزالةُ ما شابَ فؤادَ محمَّدٍ (ص) من اضطرابٍ وشوقٍ لمعرفة كيف

سيتحقّقُ إحياءُ الإسلام على يدي (الشاهد منه) في حال تخلّفِ وانحطاطِ أمّته وتثبيت فؤادهِ (ص) بحالةٍ من الاطمئنانِ واليقين.

وليصبح معنى قوله تعالى في هذه الفقرة الأولى ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي أنّنا يا محمّد نُحدّثُكَ ونُطلعُكَ من خلال ما ذكرناه حتى الآن على نبأٍ هو من جملة الأنباء الّتي نُنبئُ بها رسُلنا الكرام. والغايةُ من إنبائكَ هذا النبأ أن نزيل ما شابَ فؤادكَ من اضطرابٍ وشوقٍ إلى معرفةِ كيف ستتحقّقُ عمليّة إعادة إحياء الإسلام على أيدي هذا (الشاهد) من أمّتكَ الّذي بشّرْتُكَ ببعثته من بعدك. وبألفاظٍ أخرى فإنّ الله تعالى قد نظر إلى رسوله الكريم (ص) على أنّ حالهُ عادَ يُشبهُ وبعد تلقّيه تلك البشارة المتعلّقة بالشاهد منه، أقولُ عاد يُشبهُ حال إبراهيم عليه السلام الّذي سأل ربّهُ أن يُطلعَهُ أن كيف سيُحيي الموتى من أمّته ومعلّلاً طلبه المذكور من خلال قوله عليه السلام (**ولكن ليطمَئنّ قلبي**).

وعليه نُدركُ من خلال هذا المعنى الّذي توصّلنا إليه خطأ المعنى الّذي تبادر لذهن الرّازي رحمه الله من هذه الفقرة الأُولى من هذه الآية الكريمة. فلم ترد قصصُ الأقوام الّتي ذكرتها سورةُ هود على سبيل التّحديث بها. بل لتشكّلَ عناصرَ دليلٍ من منطق تاريخ تلك الأقوام في مُواجهةِ الّذين يكذّبونَ محمّداً (ص) والشاهد منه.

لذلك ننتقل إلى تدبُّر الفقرة الثانية منها والتي قال تعالى فيها ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ فالواو عاطفة وتفيد معنى الحال. ثمّ إنّ فعل (جاءك) اشتُقّ من جاء بمعنى أتى. وبمعنى ظهرَ لقوله تعالى في مقامٍ آخر ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ فإذا قلنا جاء الغيثُ فمعناه نزل. ثمّ إنّ صيغة (في هذه) الفاء حرف جر واستعمل هنا للتّعليل. لكنّه لم يُستعمل هنا على وجه الحقيقة بل استُعمل بمعناهُ المجازي. فلا يقال في العربية (في هذه) على وجهِ الحقيقة. وقد استعمل حرف (في)

هنا والحالُ هذه ليُعلّلَ الله تعالى بواسطته أهمّ ما ورد من أخبارٍ وأنباءٍ في سورةِ هود. وما دام تعالى قد قيّد هذا الحرف (في) باسم الإشارة (هذه) فقد أشار إلى نبوءة (الشاهد منه) المشار إليها في الفقرة الأولى وعلى حسب ما سبق لنا أن بيّناه. أي ظهر لك من خلال مضمون نبوءة (الشاهد) الّذي أنبأناكَ عن ظهوره (الحقّ). فما هو المقصود بكلمة (الحقّ) ومُعرّفةً بالألف واللّام اللّتان تُفيدا معنى المعهودُ في الذّهن؟ وهذا الحقُّ المعهود في ذهن مُطالع آيات القرآن المجيد هو، في نظري، ما ورد في الآية من قصّةِ آدمٍ الّتي أوردتها سورةُ الأعراف والتي قال تعالى فيها هناك:

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

أي أنّ هؤلاء المكذّبين من أهل الكتاب الّذين يكذّبون محمّداً والشاهد منه هم من ذرّيّة ذاك الإبليس وإنّ نبأ ربّك يا محمّد بحقّ هلاكهم هو (الحقّ) ومعنى أنّه أمرٌ عادلٌ وصدقٌ وحزمٌ وعادل. وهي دلالاتُ كلمة (حقّ) (محيط المحيط).

وعليه يصبح معنى قوله تعالى ﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ﴾ هو أنّ الله جلّ شأنه قد راح يطمئنُ رسولهُ الكريم ويثبّتُ فؤادهُ ويقول له: إنّهُ وبعد أن تتحقّقُ هذه النّبوءة المتعلّقة بمصير هؤلاء المكذّبين والتي أنبأتُ عنها في هذه الآيات الأخيرة من هذه السورة، فسيظهر من خلال تحقّقها الحقُّ المعهودُ في ذهنك والمتعلّقُ بذريّة إبليس اللّعين الّتي يمثّلها هؤلاء المكذّبون المعاصرون. وهو التّقدير الّذي تضمّنته الآية آنفةُ الذّكر من سورة الأعراف والتي قدّرَ الله تعالى فيها هلاك هذه الذّرّيّة في نهاية المطاف.

والملاحظ هو أنّ الله تعالى أتى بعد هذه الفقرة الثّانية بواو العطف وأضاف يقول: (وموعظةٌ) فما هو المقصود من كلمة (وموعظةٌ) والواردة مُنوّنةً على آخرها؟

أقول: إنّ كلمة موعظة هي اسمٌ من الوعظ وكلام الواعظ وتُجمعُ على

مواعظ. فأنت تقولُ: وعظتهُ بمعنى نصحتهُ وذكّرتهُ وبما يُليّنُ فؤاده ويسوقُ فؤاده إلى التّوبة بين يدي ربّه جلّ شأنه ويُصلح سيرته وأوصيتهُ بالطّاعة أيضاً. وهذا على شاكلة ما ورد في الآية من سورة سبأ قول الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ أي أوصيكم وآمركم بواحدة (محيط المحيط).

ويصبح معنى هذه الإضافة الّتي قال تعالى فيها (وموعظةٌ) أي لن يظهر من خلال تحقُّقِ تلك النّبوءةِ صدقَ ذاك التّقديرَ المقدَّرِ لذرّيةِ إبليس وحسب، بل وسيكون في تحقُّقِه (موعظةٌ) أي تليينٌ لأفئدة الّذين سيؤمنون بالشاهد منه ويثبّتهُم على الإيمان ويسوقهم إلى التّوبة بين يدي ربّهم وتُصلحُ أحوالهم وسيرتهم ويندفعونَ يُطيعون أولي الأمرِ منهم أيضاً.

كذلك فإنّ الملاحظ هو أنّ الله جلّ شأنه أتى بواو الإضافة للمرّةِ الثّالثة وأضاف يقول وهو ما يزالُ يُخاطبُ رسولهُ الكريم ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. فما هو المقصود من هذه الإضافة الأخيرة؟

فكلمة (ذكرى) هي في الأصل اسمٌ للأذكارِ والتّذكير. أمّا وقد أضيفت إلى الجار والمجرور (للمؤمنين) فقد عادت اسمٌ للتّذكير. واشتقّت من كلمة الذّكر الّذي يعني الصّيتَ والثّناء والشرفَ والحفظُ للشيء والتّفوّهُ به يجري على اللّسان (محيط المحيط). وأمّا الّلام في (للمؤمنين) فهي للتّعليل. وأمّا كلمة (المؤمنين) نفسها فقد وردت مُعرّفةً. ولتشير إلى فئة المؤمنين بالشاهد منه.

وليصبح معنى هذه الفقرة الأخيرة وهي قوله تعالى ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنّ تحقُّقَ تلك النّبوءة المتعلّقةُ بالمكذّبين المذكورين، ستساعدُ على تذكير أولئك المؤمنين بهذا (الشاهد) بالله تعالى وبقُدراته وستُحفظُ واقعتُها وتتفوّهُ بها الألسنُ على الدّوام.

وبعد أن توصّلنا إلى هذه المعاني لقوله تعالى ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ

الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أعودُ إلى النُّقاط الثلاث الّتي تبادرتْ لذهن الرّازي رحمه الله من هذه الآية الكريمة وهي:

١- أنّ المقصود من (الحقّ) البراهين على التّوحيدِ والعدلِ والنّبوّة.

٢- وأنّ المقصود من (موعظةٌ) التّنفيرَ من الدّنيا وتقبيحَ أحوالها في الدّار الآخرة.

٣- وأنّ المراد من (ذكرى للمؤمنين) الإشارة إلى الأعمال الباقية الصّالحة.

فأقولُ: إنّ الرّازي رحمه الله وعلى حسب ما توصّلتُ إليه لم يُصِب في أي بندٍ من هذه البنود الثلاثة المذكورة. وعلى حسب ما توصّلنا إليه من معاني هذه الآية الكريمة وفقاً لمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره.

ولنلاحظ كيف أنّ الله تعالى ما إن فرغ ممّا سلف ذكره إلا وراح يخاطبُ رسولهُ الكريمَ من جديدٍ ويقول له وذلك في الآية الإحدى والعشرين بعد المائة:

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾

نتساءلُ: ما معنى هذا الخطاب الموجَّه إلى محمّد رسول الله (ص)؟ فالرّازي رحمه الله راح يفسّرُ هذه الآية الكريمة ويقول: (اعلم أنّهُ تعالى لمّا بلغ غاية الأعذار والإنذار والتّرغيب والترهيب أتبع ذلك بأن قال للرّسول ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ و لم تؤثّر فيهم هذه البيانات البالغة ﴿اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ﴾ وهذا عينُ ما حكاه الله تعالى عن شعيبٍ عليه السلام أنّهُ قال لقومه. والمعنى: افعلوا كل ما تقدرون عليه في حقّي من الشرّ، فنحن أيضاً عاملون. وقوله (اعملوا) وإن كانت صيغتهُ صيغةُ الأمر إلاّ أنّ المراد منها التّهديد كقوله تعالى لإبليس ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾. وكقوله ﴿فَمَن شَاءَ

فليؤمن ومن شاء فليكفر وانتظروا ما يعدكم الشيطان من الخذلان فإنّا منتظرون ما وعدنا الرّحمان من أنواع الغفران والإحسان﴾. فهل أصاب الرّازي رحمه الله فيما فسّره؟

ونتدبّرُ الفقرة الأُولى من هذه الآية الكريمة فنلاحظ أنّ الله تعالى أتى بالواو العاطفة ليعطفَ مضمونها على ما قبلها ومن ثمّ أتى بفعل (قل) وهو فعل أمر بمعنى بلّغ وليس بمعنى تلفّظ. وعلى اعتبار أنّه جلّ شأنه، وبعد أن فرغ من بيان المواضيع والأنباء الّتي تضمّنتها هذه السورة، فقد راح يأمرُ بتبليغ هذا كلّه إلى طوائف الأحزاب الّذين كذّبوا محمّداً والشاهد منه، فهم النّاس الّذين (لا يؤمنون) ومن باب التّحدّي أيضاً. وأتى تعالى بفعل الأمر (اعملوا) ومعلومٌ أنّ العمل لا يكون إلاّ عن فكرٍ ورويةٍ ويشملُ الأعضاءَ والجوارح القلبيّة أيضاً (محيط المحيط). ثمّ قال (على مكانتكم) وإنّ كلمة (المكانة) مصدر وقُصدَ بها المنزلة والهيئة والتؤدة وعدم التّسرُّع (محيط المحيط).

وليصبح معنى قوله تعالى ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أنّ الله تعالى وبعد أن فرغ من بيان ما شاءَ بيانه في هذه السورة من مواضيعَ وأنباءَ غيبيّة فقد توجّه بعد ذلك إلى مخاطبة هذا المبعوث وإن يبدو الخطابُ مُوجّهاً إلى محمّدٍ (ص) ولكن إلى الشاهد منه خاصّةً والّذي بعثهُ ربُّهُ ليشهد على صدق نبوّةِ ورسالةِ محمّدٍ (ص) وهو أن يبلّغَ الأحزاب من أهل الكتاب وليقول لهم: أن ثابروا على تكذيبكم هذا الدّين الإسلاميَّ الحنيفَ إن شئتم وبكلّ فكرٍ ورويةٍ ومستغلّينَ هذه المكانة الّتي تحتلّونها بين شعوب الأرض والتي جعلتكُم تتصوّرونَ أنفسكم نتيجةً لها أسياذَ العالم أجمع. فثابروا واعملوا على منزلتكم وهيئتكم وبكلّ تؤدةٍ وبما تملكونهُ من مالٍ وجاهٍ لمعاداتنا ولا تُقيموا أيّةَ قيمةٍ لكلّ ما أنذركم به القرآنُ ووعّاكم من نتائجه. فهذا هو معنى قوله تعالى في هذه الفقرة الأُولى من هذه الآية

الكريمة.

وأمّا في الفقرة الثانية فقد قال تعالى ﴿إِنَّا عَامِلُونَ﴾ وبمعنى ونحن الّذين آمنّا بهذا الدّين الحنيف سنُثابِر من جانبنا على العمل على مكانتنا الّتي أعطانا إيّاها الله تعالى ربُّنا وبكلّ تؤدة أيضاً وبما نملكهُ من مالٍ وجاهٍ. وغير مُبالينَ بكم إن كنتم لا تقيمونَ وزناً لكلّ ما أنذرناكم به ووعّيناكم من نتائجه.

ولم يكتف الله جلّ شأنه بهذا التّحدّي الّذي أمر أن يتحدّى المؤمنون به هؤلاء المكذّبين بل وقال تعالى مُضيفاً إلى تحدّيه المذكور قوله في الآية الثّانية والعشرين بعد المائة:

﴿وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾

وقد فسَّرَ الرّازي رحمه الله هذه الآية الكريمة وكتب يقول: (قال ابنُ عبّاس رضي الله عنه (وانتظروا) الهلاك، فإنّا مُنتظرونَ لكم العذاب). بمعنى أنّ الرّازي اعتمد هذه الرّواية في تفسيره آنف الذّكر لهذه الآية الكريمة.

أقول: إنّ الله تعالى أتى بواو الإضافة ولتُفيدَ معنى الحال لدخول الفعل عليها. أمّا فعل الأمر (انتظروا) فأنت تقول انتظرتُ قدومه. وتعني أنّكَ ترقّبتَ وتوقّعتَ قدومه. وعليه فإنّ قول الله تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَانتَظِرُوا﴾ يعني أنّهُ تعالى يدفعُ المؤمنين بالشاهد منه لِيبلّغوا المكذّبين هؤلاء أنّ سبيل العنف وسفك الدّماء ليس هو سبيلنا. بل إنّ سبيلنا هو سبيلُ المُسالمة الّذي يأمرُ به الإسلام. وكلّ ما أمرنا الله تعالى به هو أن نبلّغكم أن اعملوا على مكانتكم وأنتم ترقّبونَ وتوقّعونَ حدوث ما أنبأتكم به سورةُ هودٍ من أنباءٍ تتعلّقُ بالمصير الّذي ستؤولون إليه. فهذا هو معنى قوله تعالى ﴿وَانتَظِرُوا﴾.

وأمّا قوله تعالى في الفقرة الثّانية ﴿إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ فمعناه وإننا نحن بدورنا

نؤمنُ بتلك الأنباء الّتي أوردتها سورةُ هودٍ والمتعلّقةُ بمصيركم المشؤوم. ونحن نترقّبُ ونتوقّعُ تحقّقها أيضاً.

وبعد أن دفع الله جلّ شأنه نبيَّهُ محمّداً (ص) ومن اتّبعهُ من فئات المؤمنين بالشاهد منه ليقفوا الموقف الّذي أوردناه. وهو موقفُ تحدّي كبير. فقد راح الله جلّ شأنه يربط ما بين مضمون أوّل آيةٍ من هذه السورة وما بين مضمون آخر آيةٍ منها، وليمهّدَ من خلال ذلك الربط ليأتي بسورةٍ جديدةٍ، مرتبطةٍ موضوعيّاً بسورةِ هود. ولذلك قال تعالى في الآية الثالثة والعشرين بعد المائة والأخيرة:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

والمؤسف هو أنّ العلاّمة الرّازي رحمه الله نمّقَ صفحتين لتفسير هذه الآية الأخيرة فقدّمها وكأنّها آيةٌ لا رابطة ما بينها وما بين جميع آيات السورة الّتي قبلها. وابتدأ ذلك بقوله رحمه الله: (ثم أنّهُ تعالى ذكرَ خاتمة شريفةً عاليةً جامعةً لكلّ المطالب الشريفة المقدّسة فقال ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾. واعلم أنّ مجموع ما يحتاجُ الإنسانُ إلى معرفته أمورٌ ثلاثةٌ وهي: الماضي والحاضر والمستقبل. أمّا الماضي فهو أن يعرفَ الموجودَ الّذي كان موجوداً قبله. وإنّ ذلك الموجود المتقدّمُ عليه هو الّذي نقلهُ من العدمِ إلى الوجود. وذلك هو الإلهُ تعالى وتقدّس). ومن ثمّ راح حضرتُهُ رحمه الله يعطي القارئ فكرةً عن حقيقةِ الله تعالى فأضاف يقول: (واعلم أنّ حقيقةَ ذاتِ الإلهِ وكُنه هويّته غيرُ معلومةٍ للبشر البتّة. وإنّما المعلومُ للبشرِ صفاتُه. ثمّ إنّ صفاتُه قسمان: صفاتُ الجلالِ وصفاتُ الإكرام). وقد راح رحمه الله يوضّحُ هذين القسمين من الصّفات. وانتهى من ذلك ليقول: (فثبتَ أنّ صفات الكمال والعزّ والعلوّ هي الصّفاتِ الثّبوتيّة. وأشرفُ الصّفات الثّبوتيّة الدّالّة

على الكمالِ والجلالِ صفتان: العلمُ والقدرة. فلهذا السبب وصف الله تعالى ذاتهُ في هذه الآيةِ بهما في مَعرضِ التّعظيمِ والثّناء والمدح. أمّا صفةُ العلم فقوله ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والمراد أنّ علمهُ نافذٌ في جميع الكلّياتِ والجزئّيات والمعدوماتِ والموجوداتِ والحاضراتِ والغائبات... وأمّا صفةُ القدرةِ فقوله ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ والمراد أنّ مرجعَ الكُلّ إليه. وإنّما يكونُ كذلك لو كان مصدرُ الكلّ ومبدأ الكلّ هو، هو. والّذي يكون مبدأ لجميع الممكنات، وإليه يكون مرجع كلّ المحدثات والكائنات، كان عظيم القدرة نافذ المشيئة قهّاراً للعدم بالوجود والتّحصيل، جبّاراً له بالقوّة والفعل والتّكميل. فهذان الوصفان هما المذكوران في شرح جلالِ المبدأ ونعت كبريائه. والمرتبة الثّانية من المراتب الّتي يجب على الإنسان كونه عالمٌ بها أن يعرف ما هو مُهمٌّ له في زمان حياته في الدّنيا. وما ذلك إلاّ تكميلُ النّفسِ بالمعارف الرّوحانيّةِ والجلايا القدسيّة. وهذه المرتبة لها بداية ونهاية: أمّا بدايتها فالاشتغال بالعبادات الجسدانيّة والرّوحانيّة. أمّا العبادات الجسدانيّة فأفضلُ الحركات الصّلاة. وأكملُ السكنات الصّيام. وأنفعُ البرّ الصدقة. وأمّا العبادة الرّوحانيّة فهي: الفكر والتّأمُّل في عجائب صُنعِ الله تعالى في ملكوت السماوات والأرض. كما قال تعالى ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. وأمّا نهاية هذه المرتبة فالانتهاءُ من الأسباب إلى مُسبّبها، وقطعُ النّظر عن كلّ الممكنات والمبدعات، وتوجيه حدقة العقل إلى نور عالم الجلال، واستغراق الرّوح في أضواء عالم الكبرياء. ومن وصل إلى هذه الدّرجة رأى كلّ ما سواه مُهرولاً تائهاً في ساحة كبريائه. هالكاً فانياً في فناء سناء أسمائه. وحاصلُ الكلام: أنّ أوّلَ درجات السير إلى الله تعالى هو عبوديّة الله. وآخرها التوكّل على الله. فلهذا السبب قال ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ والمرتبة الثّالثة: من المراتب المهمّة لكلّ عاملٍ على

معرفة المستقبل. وهو أنّهُ يعرف كيف يصيرُ حالهُ بعد انقضاء هذه الحياة الجسمانيّة، وهل لأعمالهِ أثرٌ في السعادة والشقاوة. وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ والمقصود أنّهُ لا يُضيعُ طاعات المطيعين ولا يُهملُ أحوالَ المتمرّدين الجاحدين. ولك بأن يحضروا في موقف القيامة ويُحاسبوا على النّقير والقطمير. ويُعاتبوا في الصّغير والكبير. ثمّ يحصلُ عاقبةُ الأمر: فريقٌ في الجنّة وفريقٌ في السعير. فظهر أنّ هذه الآية وافية بالإشارة إلى جميع المطالب العلويّة، والمقاصد القُدسّية. وأنّهُ ليس وراءها للعقول مُرتقى، ولا للخواطر مُنتهى). فبهذا التّفسير فسّرَ الرّازي رحمه الله تعالى هذه الآية الأخيرة وعلى صورةٍ لا تشعرُ معها برابطةٍ تربطُ هذه المعلومات بما قبلها من مُعطيات. ولنتدبّر هذه الآية الكريمة بمنهجيّة القرآن الكريم وأصول تفسيره ولننظر الفارق ما بين التّفسيرين.

ففي الفقرة الأولى من هذه الآية الكريمة وهي الّتي قال تعالى فيها ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ نلاحظ أنّهُ تعالى أتى بالواو كحرفِ عطفٍ ليعطف مضمون هذه الآية الكريمة على سياقها. ومن ثم أتى باللّام الّتي تفيدُ معنى الاختصاص وأدخلها على لفظ الجلالة (الله) الجامع لأسماء الله الحسنى وليصبح قوله (ولله) كما أتى تعالى بكلمة (غيب) وعلى صيغة المصدر. والغيبُ يعني كلّ ما غاب عن أنظار النّاس. وقال مؤلّفُ التّعريفات بشأنه: الغيبُ ما سترهُ الحقُّ منك، لا منهُ. وأتى تعالى بكلمة (السماوات) بصيغة الجمع. ومفردها سماء. وتعني كلّ ما علاكَ فهو سماؤك. كما أضاف تعالى كلمة (الأرض) فأجرى بذلك تقابلاً بين هاتين الكلمتين لتدلّ السماواتُ على الأجرامِ السماويّةِ وما فيها من تأثيراتٍ وأشعّةٍ صادرةٍ عنها. ولتدلّ الأرضُ على هذا الكوكب الأرضيّ وما فيه.

واستناداً إلى دلالات ألفاظ قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾

يُلفتُ تعالى من خلالها نظرنا إلى تركيز هذه الفقرة على علم الغيب الّذي تختصُّ به الذّاتُ الإلهيّة. ويدفعنا بذلك لنتساءل عن علاقة هذا (الغيب) بسياق الكلام الوارد قبلها. فإذا علمنا أنّ الله تعالى كان قد أنبأ ومنذُ أربعةَ عشر قرناً من الزّمان عن بعثة (الشاهد منه) وعن مكذّبيه وعن المصير المشؤوم الّذي ينتظرهُم. نكون قد علمنا بأنّ جميع هذه الأشياء كانت داخلةً في علم (الغيب) زمن نزول القرآن المجيد. وأنّ الله تعالى كان قد جعل من أولويّاتِ الأمورِ الإيمانيَّة الّتي ينبغي أن يعتقدها المؤمنُ بهذا الدّين أن يؤمنَ (بالغيب) لقوله تعالى في الآية الثّانية من آيات أول سورة من سور هذا الكتاب العزيز ﴿والّذينَ يؤمنونَ بالغَيب﴾.

وكانت الحكمةُ من ذلك أن يلفتَ أنظار هؤلاء المؤمنين إلى أنّ عالمنا المادّي هو عبارةٌ عن مجموعةِ ظواهرَ مادّية تخفي وراءها (غيباً) أي تخفي وراءها أشياءَ مُستترةً عن أعينُ النّاس جميعهم وفي وقتٍ هي مكشوفةٌ وما هي بخافيةٍ عن علمِ الذّاتِ الّتي خلقت هذا الكونَ المادّي. وقد أبدعَ الله جلّ شأنهُ هذا النّظامَ على هذه الصّورةِ ليُبرزَ مدى قُدُراته عزّ وجلّ، وليمكّنهُ ذلك من تحقيقِ أوامره ومشيئته.

فانطلاقاً من هذا السياقِ الموضوعيِّ، وبعد أن أمر رسوله الكريم وفئة المؤمنين بالشاهد منه أن يبلّغوا المكذّبين بجميع ما أوصاهم أن يبلّغوهم به وعلى صورة يتحدّونهم فيما بلّغوهم إيّاه، وهو ما تضمّنه قوله تعالى آنفاً ﴿وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ فقد راح الله جلّ شأنهُ يعطي هؤلاء المؤمنين به وبِمن بعثهُ لإثباتِ صدقِ محمَّد (ص) والكتاب الّذي أنزلهُ عليه. أقولُ قد راح تعالى يُبشّرُ هؤلاء المؤمنين بأنَّهُم سيكونونَ بمنجاة من عذابِ الواقعة المقدَّرة لإهلاكِ أعداء الإسلام. لكون الله تعالى قد اختصَّ علمُهُ بهذا الغيب اختصاصاً كاملاً، وفي وقتٍ لا يملكُ هؤلاء الأعداء من هذا الغيبِ إلاّ ما شاءَ أن يُطلعهم عليه استدراجاً من جانبه لهم ومن حيث لا يعلمون وليزيدَ في غرورهم وفي بُعدهم عن ربِّهم عزّ وجلّ، وليوقنَ

المؤمنونَ به أنَّ هؤلاء الأحزاب من أهل الكتاب لا يملكون مهما عَلَوا أسبابَ دفع هذا العذاب المقدَّرَ لإهلاكهم في الوقتِ المُناسب. لذلك فلا حاجةَ لهؤلاء المؤمنين بالميلِ لاستعمالِ العُنفِ أداة. فالنتائجُ الّتي سيُسفِرُ عنها حدثُ تلك الواقعةِ المأساويّة كفيلةٌ بإثباتِ من هو الإنسانُ الّذي هو على الحقّ ومن هو على الباطل. فهذه هي دلالاتُ قولِ الله تعالى في هذه الفقرة الأولى ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

وأتناول بالتّدبُّرِ الفقرة الثّانية الّتي قال تعالى فيها ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ فالملاحظُ هو أنّهُ تعالى أتى بالواو العاطفة. وبالجار والمجرور (إليه) فحرف الجرّ (إلى) يدلُّ على انتهاء الغايةِ الزّمانيّةِ والمكانيّة. كما أتى تعالى بفعل المضارع المبني للمجهول (يُرجعُ) والمُشتقُّ من قولك: رجعَ إليه بمعنى صُرِفَ ورُدَّ إليه. وأمّا كلمة (الأمر) مُجرَّدةً فمن معانيها الشيءُ والشأنُ والساعة. وما دامت قد وردت مُعرَّفةً بالألف واللّام اللتين تفيدان المعهودَ في الذّهنِ فقد أراد تعالى بها معنى الشيء وهو الشيء المقدَّرُ كوسيلةٍ لإهلاكِ المكذّبينَ في نهاية المطاف.

وليصبحُ معنى قوله تعالى في الفقرة الثّانية ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾ بأنَّ سلاحَ (الغيب) الّذي يملكهُ ربُّ المؤمنين بهذا الشاهد تَصرِفُ نتائجَ جميع المُحدثَاتِ وتُردُّها إلى الله جلَّ شأنه دلالةً على عظيم قُدُراته عزَّ وجلَّ. وهذه الحقيقةُ تزيدُ في طمأنة فريق المؤمنين حول موضوع نجاتهم من عذاب الواقعة الّتي ستحلُّ بساحةِ أعداءِ الإسلامِ وأعدائهم. وكأنَّ الله جلَّ شأنه قد قال في هذه الفقرة الثّانية، وبألفاظٍ أخرى: إنَّ الله جلَّ شأنهُ حين أمرَ بتبليغ المكذّبينَ ما تضمّنهُ قوله ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ، وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ فقد أمرَ بذلك من مُنطلقِ أنّهُ مختصٌّ بعلم غيب السماوات والأرض وأنَّ بيده نتائجَ المُحدثاتِ فهو مصدرها ومبدؤها وبيده مفاتيحُ ذلك كله ومقاليدهُ. وأنَّ هؤلاء

الأعداءُ المكذّبونَ لا يملكون من ذلك كلّه من شيء. لذلك فإنّ مرورَ الزّمن كفيلٌ بإظهار مصداقيّة ما أنذرَ تعالى هؤلاء به، وما بشّرَ به المؤمنين أيضاً. فهذه الأنباءُ الّتي تضمّنتها آيات هذه السورة وإن تكن عجيبةً وغريبةً في ظاهرها، فهي ستتحقّقُ في يومٍ من الأيّام يقيناً بسبب أنّها صدرت عن الله علاّم الغيوب والفعّالُ لما يريد. فهذا هو معنى قولُ ربّنا في هذه الفقرة الثّانية ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ﴾.

ولنلاحظ كيف أنّ الله تعالى أتى في مستهلّ الفقرة الثّالثة بفاء الاستئناف وقال ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾. وإنّ فعل الأمر (اعبدهُ) مشتقٌ من قولك: فلانٌ عبدَ الله والمعنى أنّهُ أطاعَ الله وخضعَ له وذلّ وخدمهُ والتزمَ شرائعَ دينه وأضحى موحّداً ومعتقداً أنّ الله لا شريك له. ثمّ إنّ فعل الأمر ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ اشتُقّ من قولك: فلانٌ توكّلَ على الله والمعنى أنّهُ استسلمَ إليه واعتمدَ عليه ووثقَ به وأورد مؤلّفُ التّعريفاتِ يقول: التّوكُّلُ هو الثّقةُ بما عند الله تعالى واليأسُ عمّا في أيدي النّاس (محيط المحيط).

وليصبح معنى قوله تعالى في هذه الفقرة الثّالثة ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ أنّ الله عزّ وجلّ راح يشدّدُ في هذه الفقرة ويؤكّد على رسوله والمؤمنين بالشاهد منه ألاّ يبدوَ من جانبهم والحالُ هذه كسلاً وتراخياً في عبادتهم وتوكّلهم على ربّهم بعد أن أمرهم بالانتظار حتى زمن حدوث ما أنبأهم عن وُقوعهِ من العذاب الّذي سيحلُّ بالمكذّبين. بل على العكس من ذلك فإنّ من واجبهم أن يدفعهم ذلك الأمرُ إلى التّمسُّكِ أكثر من قبل فيُقبلونَ على طاعةِ ربّهم والخضوع لأوامره عزّ وجلّ وبالدُّعاء بين يدي ربّهم وزيادةِ التّذلُّلِ بين يديه وبخدمته وبالتزامِ العملِ على أحكامِ شريعته وأن يتوخّوا أن يكونوا موحّدينَ غيرَ مُشركينَ شركاً خفيّاً. فهذا هو معنى الأمرِ الإلهيّ هنا (فاعبُدهُ).

وليس هذا وحسب. بل وقد دفع الله تعالى هؤلاء المؤمنين ليتوكّلوا على

ربّهم توكُّلاً كاملاً وهم متيقّنين بعظيم قُدُراته عزّ وجلّ. فهذا هو معنى قوله تعالى (وتوكّلْ عليه) ومن بابِ أنّ (من يتوكّل على الله فهو حسبُه، إنّ الله بالغٌ أمرهُ، قد جعلَ لكلّ شيءٍ قدراً).

وقد أنهى الله جلّ شأنه هذه الآية الكريمة وقال في الفقرة الأخيرة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. فهو تعالى أتى بواو العطف ليعطفَ هذا الّذي سيذكرهُ على ما مضى من أوامرَ ومواعظَ. كما أتى بحرف (ما) النّافية وبمعنى ليسَ بسببِ دخولها على جملة اسميّةٍ ولزيادة الباء في خبَرها. وعلى شاكلة ما تُزادُ هذه الباء في خبرِ ليسَ. ثمّ إنّهُ تعالى أتى بكلمة (غافل) فأنت تقول: غفلَ عنهُ، إذا تركهُ وسها عنهُ. فكلمة غافل بصيغة اسم فاعل. وقد زيدت عليها الباءُ للتّوكيد. بسببِ أنّها دخلت على الخبرِ المَنفيّ. كذلك قال (عمّا) فحرفُ (ما) الثّانية هذه اسم موصول بمعنى الّذي. وإنّ فعل (تعملون) اشتُقّ من عملَ أي فعلَ عن فكرٍ ورويّةٍ وبجميع الجوارح.

وليصبح معنى هذه الفقرة الأخيرة الّتي قال تعالى فيها ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. أن تذكّروا يا معشر أفراد هذه الفئة المؤمنة الجديدة أنّ الله جلّ شأنهُ الّذي لم يغب عن ناظرهِ ما كان يفعلهُ أعداءُ الإسلام، وأنزلَ بهم من جرّاء ذلك عقابه. تذكّروا أنّهُ موجودٌ ويراقبُ أعمالكم أيضاً وما ستتصرّفون به بعد هلاكهم. فالله الّذي عاقبَ أولئك الأعداء سيعاقبكم إن خالفتم ما وعظتكم به في المستقبل وانحرفتم عن الصّراط المستقيم الّذي جاءت به تعاليمُ هذا الدّين الحنيف. فالخطابُ في هذه الفقرة الأخيرة وردَ بصيغة الجمع. على حين أنّ كلمة (ربُّكَ) وردت بصيغة المفرد. والحكمةُ من ذلك أنّ الله جلّ شأنه يخاطبُ في الأصلِ في هذه الفقرة الأخيرة رسولهُ المصطفى خاتمَ النّبيّينَ (ص) وفي وقتٍ يوجّهُ فيه تحذيرهُ المذكورُ إلى كلّ فردٍ من أفرادِ الجماعةِ الّتي تأسّست على أيدي الشّاهد منه فهذا هو معنى قوله

تعالى في هذه الفقرة الأخيرة ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أقولُ: لقد أثبتتْ دلالاتُ آياتِ سورةِ هود الّتي توصّلنا إليها بعد تدبُّرنا إيّاها بمنهجيّةِ القرآن وأصولِ تفسيره، أثبتت مصداقيّةَ ما رُويَ عن رسولِ الله (ص) قولهُ (شيّبتني سورةُ هودٍ وأخواتها) خصوصاً وأنّ الله تعالى قد استهلّ هذه السورةِ بالأحرُفِ المقطّعةِ (الر) والتي تعني أنّهُ تعالى يعلمُ غيبَ المستقبل. ولذلكَ أنْهى هذه السورةِ بقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ..﴾ بمعنى أنّ ما أورده تعالى في هذه السورةِ من أمورِ المغيّباتِ قد ثبتَ من خلالها مصداقيّة دلالةِ الأحرف (الر). وآخر دعوانا أنْ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

المراجع المعتمدة

في اللغة:

- لسان العرب لابن منظور
- المفردات للأصفهاني
- تاج العروس للحسيني
- محيط المحيط للبستاني
- الموجز في تاريخ البلاغة
- المفصّل في علم اللغة العربية
- دلائل الإعجاز
- الخصائص
- الجمل للجرجاني

في التّفسير:

- التفسير الكبير للرازي
- تفسير الكشاف للزمخشري
- تفسير روح البيان للبروسوي
- التفسير الكبير لميرزا بشير الدين أحمد
- تفسير ابن جرير للطبري
- تفسير ابن كثير

في السيرة:

- سيرة ابن هشام
- السيرة الحلبية
- تاريخ الخميس

في الحديث:

- جامع صحيح البخاري للبخاري
- صحيح مسلم للقشيري
- جامع الترمذي للترمذي
- سنن أبي داوود
- سنن النسائي
- موطأ الإمام مالك
- الزرقاني
- مسند أحمد بن حنبل
- المرقاة للقاري
- كنز العمال للهندي
- السنن الكبرى للبيهقي
- سنن الدار قطني

في الفقه:

- كتاب الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري